

رواية

الفجريّة

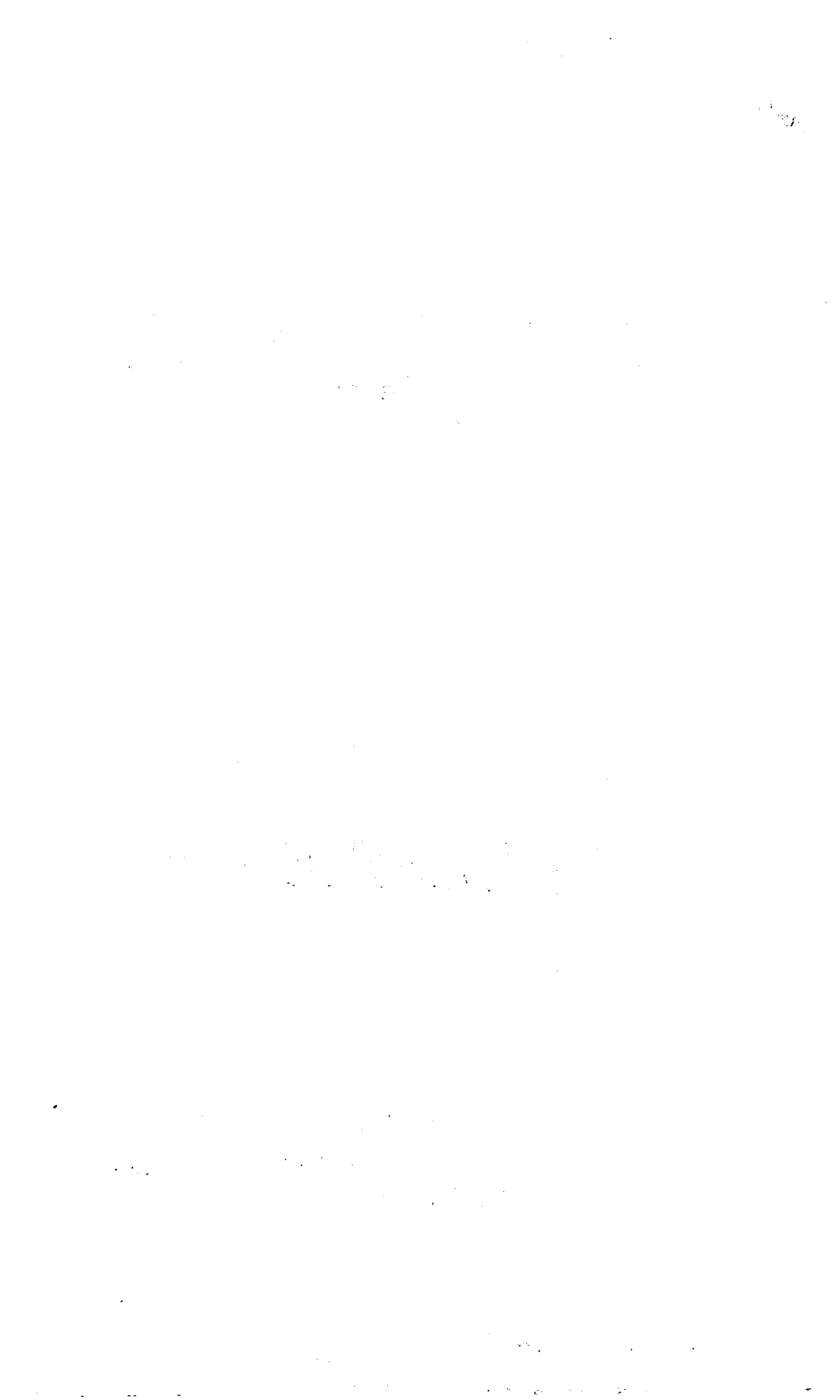
للروائي / خيرى حداد أبو عافية

الرواية السادسة للمؤلف

الطبعة الأولى

نوفمبر ٢٠٠٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



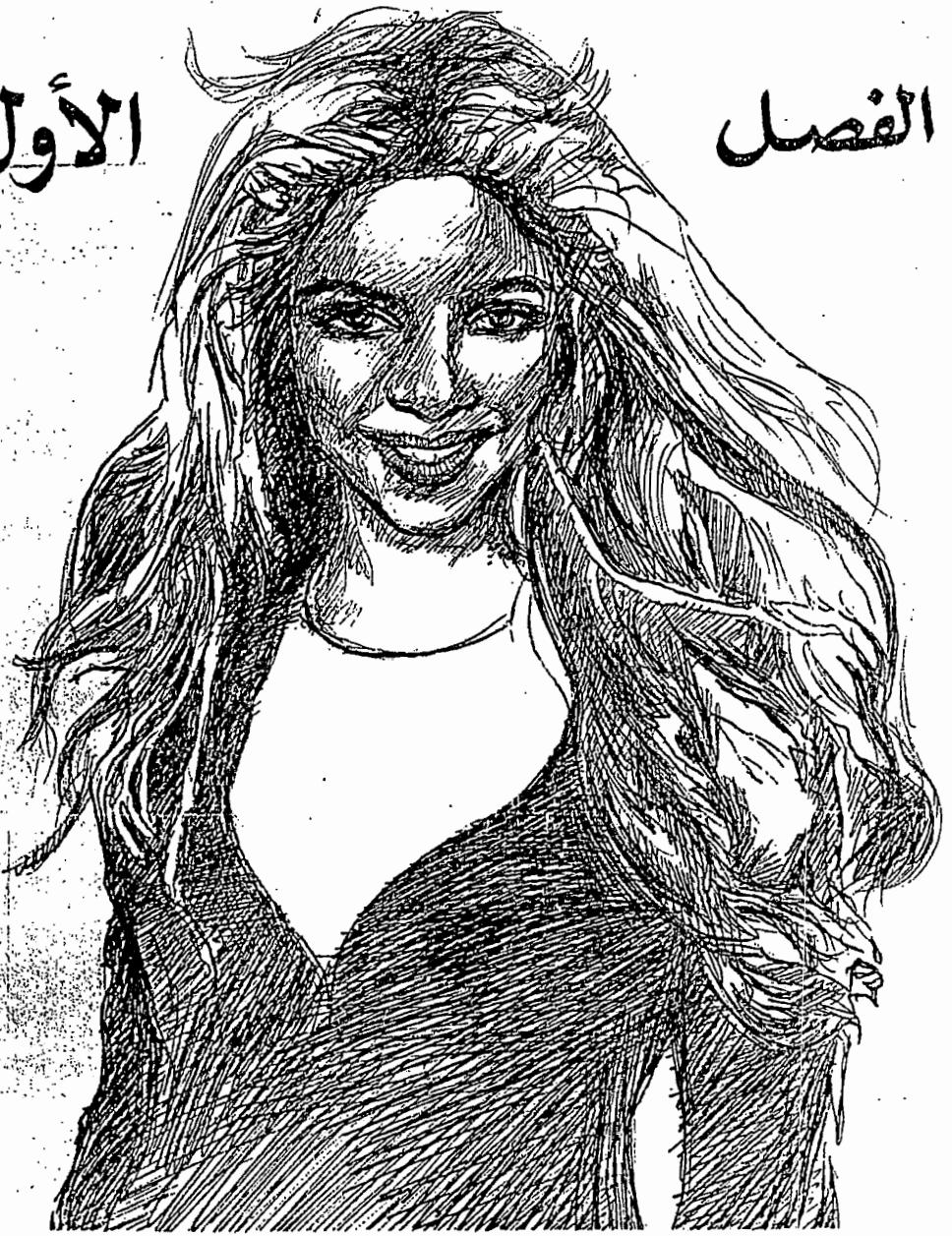


إهداء إلى :

إبني وحببي وقرّة عيني ...

إسلام خيرى حداد ...





وكانت أطرافها تتراقص وشعرها الأسود الطويل يغطي كتفها حتى مؤخرتها .. وخصلة منه تظل وجهها وعينيها ثم تطير يمنة ويسرة، وكان دفء الخيمة مع نسمة باردة تدخل من فتحة بابها تداعب صدرها المكنوز في عذوبة.

الفصل الأول

كانت الريح قارسة من ناحية الجبل فتتشر الأتربة فوق أسطح الأبنية وتكاد أفرع الأشجار تنكسر والشمس تغرب بقرصها الكبير الأصفر أحاطته غمامة أشد صفرة ، والطيور تهرع من أعشاشها إلى غابة كثيفة أشجارها عتيقة لتحتمي بين جذوعها ، والحمير الماعز وبعض الجمال تضرب فى الشوارع المترامية عند مداخل البلدة ، ولم يكن ينفع فى أول عاصفة كتلك ، أن تعلو أصوات المساجد بالتكبير والابتهال أو تدق أجراس كنيسة حتى يتوقف حال الهلع الذى أصاب الجميع فى البلدة ، ولكن ذلك ينفع فى أن يلفظ الله فى قدره ، كانت السهب المترامية بين حدود الجبل والمدينة تهب عليها عاصفة شديدة حيث ترى عيون الناس الذين يقطنون أطرافها أن كارثة جوية قد تقصف بكل كائن فوق هذه الأرض ، ولما بلغت المدينة مغربها سكنت العاصفة قليلاً ، وهتف رجال فقراء ونساء محتاجات قد ذهبوا منذ عصر هذا اليوم إلى المساجد والكنائس لينالوا قسطاً من الطعام والكساء .. هتفوا جميعاً رغم اختلاف أمكتهم .. هتفوا لله بالرحمة وشكروه وحمدوه على بأسه الشديد ، وقال رجل عجوز مهلهل الثياب لشيخ المسجد :

- ألا يعتبر الأغنياء .. ألا يدركون مدى قوة الله ... لماذا لا يرحموننا من العوز؟

ورد عليه شيخ المسجد فى صبر وهو يناوله بلغة طعام :

- إن قلوبهم لن ترق أبداً لأنهم لا يصلُّون ولا يزكُّون .. إنهم لا يعطون العمال الذين يعملون لديهم حقوقهم ، وينزفون دمهم مقابل أجر لا يسد رمقهم .. إن كافة العاملين فى تلك المصانع والمعامل يأتون إلينا لكى ينالوا قدرأ من الصدقة .. وقامت العاصفة ثانية بشدة وكان الغبار خائفاً يسد الأنوف ويظلم العيون ، والراقصات العاريات فى الملامى اللائى يتزَّين إستعداداً للرقص .. آوت كل واحدة منهن إلى فراشها معتقدة أنه لن يستطيع أى زبون الخروج من بيته ، وعمال مطحونين فى المصانع والمعامل يهتفون بأصواتهم واحداً بعد الآخر :-

- هدها يا رب .. دربكها يا رب .. ياريت يعرفوا ربنا ..

يرد آخرون جاهرين بأعلى أصواتهم :-

- إنها ساعة إجابة .. يا رب خذ الحرامية ولاد الكلب .. ربنا يخرب بيتك يا بيومى .. تحيا الملك .. تحيا الاشتراكية .. تحيا الرأسمالية العادلة .. تحيا العدل .. العدل عمره ما يوصل للأرض .. تسقط الاشتراكية .. تسقط الرأسمالية .. يحيا العدل .. أين العدل ؟ إنه لن يأتى أبداً .. ولن يستطيع أى نظام تحقيقه .. العدل ده نظام ربنا .. لن يستطيع أى نظام يقيمه بشر او ينفذه بشر أن يحقق العدالة للآخرين .. إنهم جميعا يحققون المصلحة الشرهة لهم ولأهلهم ولذويهم وعصاباتهم .. إن هذا العالم يحتاج إلى حارس يتدخل لدفع الظلم عن الناس .. أين هذا الحارس .. إذا كان الإنسان مستسلماً للظلم .. كان العمال فى المصانع والمعامل يجهرون بأرائهم ويردون على بعضهم البعض ، وكأنهم بأقوالهم يتنون عالماً جديداً ، غير أنهم لن يفعلوا شيئاً أبداً ، إنهم فقط عندما تهيج العاصفة يهيجون ويخرج كل منهم مظلمته وعندما تهدأ العاصفة يعتقدون أن الله تخلق عنهم فيسكتون حتى تقوم عاصفة أخرى أو زلزال يدك المدينة حتى يموت الأغنياء .. هكذا فسر أحداثهم رئيس العمال فى مصنع بيومى وهو يتحدث إلى زميله رئيس الحسابات .. وفى منتصف الليل خرج معظم العمال من مصانعهم حيث إنتهت ورديتهم .. فذهب كل إلى هابوته وقليل منهم ذهب إلى بيته ليصلى وينام كما نامت العاصفة ، كانت المدينة هادئة هدوءاً مخيفاً .. والليل فى ظل ضياء النجوم كمن يلبس ثوباً أصفر ملوثاً ، كان الليل يبكى على أهله كما يبكى النهار حين يطلع .. وكل واحد فى بيته يحمل همه ولم يكن هناك أى تنظيم يطالب بحقوق العمال ، وكانت هناك مكاتب تتبع الحكومة المركزية لكنها مثل خيال المآته ، إن رجلاً واحداً مخلصاً وشجاعاً فى البلدة سيلتف حوله الجميع .. فرجال الدين منصرفون إلى دعوتهم وعلمهم دون أن يتدخلوا فى أية سياسة ، لقد كان الكثير منهم على علاقات شخصية مع أصحاب المصانع والمعامل ومكاتب الإستيراد ، فليتمل الغضب فى نفوس البشر جميعاً إنهم ليسوا أنبياء .. إنهم مثل بقية الناس مظلومون تصلهم لقمة العيش بالكاد .. كان الناس الذين يجب أن ينظموا الناس ويقودوهم إلى عمل يحصلون من خلاله على حقوقهم ، كانوا فرديين سطحيين ، إنهم جميعاً موظفون يؤدون دورهم الوظيفى ،

يذهبون إلى بيوتهم ليناموا طيلة الليل وفي الصباح يذهبون إلى أعمالهم مثل بقية الشعب وعامته ،

.. كان سلامة المصرى يضطجع فى شرفة القصر الكبير منعماً بالنعيم وجمال العز القديم الذى بدأت صورته تمضى وتحل بدلاً منها صور أخرى لمظاهر الغنى والعز .. والغريب أن سلامة هذا بفكره الثورى حيث أنه فى الأصل ينتمى إلى طبقة متوسطة ، كان يشعر وهو يفكر بأنه عاجزاً على أن يفعل أى شئ مثل أى رجل دين ، وقال لنفسه والشمس تكاد تشرق فى وجهه وتطل على أرض وبيوتات المدينة ، لماذا أتيت إلى هنا منذ سنين طويلة ، ألم آت من أجل المال ، لماذا لا أقتنص نفائس هذا القصر وأرحل ، إن كل واحد فى هذه البلدة يحاول أن يغنى نفسه ولا يفكر فى الآخرين ، لو كنت مظلوماً أو فقيراً أعمل فى أحد تلك المصانع لكنت ثورياً أطالب بحقوق كافة العمال ، لكننى الآن سيد هذا القصر ولى عند سيدته الكبيرة منزلة عالية، صحيح أن زوجتى الأميرة ذهبت إلى رئيس الجنوب فى موكب هز البلدة بأجمعها .. ترى لماذا يريد هذا ؟ وهل ستفعل ما يرضيه ؟ ولماذا ذهبت إليه .. ألهذا أطماع سياسية بعد أن أصبحت أميرة الشمال كله ؟ .. أى شئ يُعتمل فى نفوس البشر ؟ ،ماذا أريد من الحياة أكثر من ذلك النعيم ؟ .. إن الناس جميعاً يعيشون دون أية تفاصيل منى ، وأنا أعيش ولا أحد يتدخل فى حياتى ، إذا كان العبد هو الذى يحفر الأرض بفأسه حتى يموت ، فلماذا لا يكون العبد أيضاً هو ذلك الرجل يتنقل من بلد إلى آخر ويبيع نفسه للنساء فى البيوتات والقصور إلى أن يموت .. وأدرك حقيقة نفسه فجأة وقال .. إن العبيد كثيرون وإننى لعبد كبير محتال أرتدى ثياب السادة .. وهز رأسه فجأة فى صرامة وكان شيئاً أصابه وبدت تخيم على شمس الصباح سحابة كثيفة فحنقت نورها الساطع وغيمت شوارع البلدة ، وكانت أسراب من السحب تتوالى فى السماء وتتعاقب حتى أصبحت المدينة خيمة من الظلام كان الليل يدخل فى أول ضحى النهار ، وقام مطرق الرأس ودخل إلى دولا به يرتدى ملابس أخرى ، وكان صدره يضيق بأنفاسه ، وطلع إلى الشرفة فوجد أن السماء تطبق على الأرض والرياح تشتد وتمرق بين البنايات وتصفر كالقطار القديم ، وظن أن تلك الطرقات التى تحدثها السحب قد تصعق الأرض فى لحظة إنه لا يستحق إلا واحدة منها تصعقه وتخلصه من ثباته الذى أصبح راكداً كماء البرك ، وأن عليه أن

يذهب إلى الفضاء إذا كان شجاعاً ولو لمرة واحدة حتى تأخذه الصعقة دون أن يحميه حائط أو سقف، ولم تمض دقائق حتى خرج من القصر، واندھش الحارس لما رأى سيده يخرج ماشياً على قدميه وأنه لم يعره أدنى اهتمام ولم يرد عليه عندما قال له :

- هل تريد شيئاً يا سيدى أقضيه .. هل أتى لك بفرسك .. ولما جرى خلفه نظر إليه شذراً مشوحاً إليه بذراعه أن يسكت .. وركب سلامه عربة أجرة أو صلته إلى منفذ قريب من البلدة يؤدي إلى طريق آخر يوصله إلى مدينة مصاليا ، وكانت فكرته عن هذه المدينة أن أغلب أهلها من السنة المسلمين وبها مسيحيون طين تجمعهم مذاهب كثيرة وأنهم رحلوا إلى هذه المدينة من بلاد كثيرة مجاورة إيران وروسيا وتركيا وسوريا .. وأن بهذه البلدة قوميات أخرى كاليزيدين والشبك والتركمان ، وأن بها الشعب الذى يستطيع أن يختلط معه وينغمس فى عاداته .. إنه يريد أن يقطن فى حارة ويأكل طعاماً مثل الفول ويتزوج من فتاة فلاحة أو عاملة فى مصنع إنه من ذلك الشعب ولا بد أن يعود إلى قومه ، ومضى يُحَفِّ بِقَدَمِهِ الْأَرْضَ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَسِيرُ كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ الطَّوِيلَةِ ، لَكِنَّهُ مَشَى قَرَابَةَ مِيلَيْنِ حَاوِلَ أَنْ يَنْسَى كُلَّ مَاضِيهِ حَتَّى إِنَّهُ الَّذِي تَرَكَهُ خَلْفَهُ حَيْثَ اطْمَأَنَّ عَلَيْهِ بَيْنَ السَّادَةِ .. إِنَّهُ سَيَكُونُ سَيِّدًا مِثْلَهُمْ .. وَبَلَغَ تَبَةً عَالِيَةً وَفَوْقَ حَجَرٍ قَعْدَ وَأَمْسَكَ بِرَأْسِهِ وَرَأَى السَّهْبَ الْمَمْتَدَّ حَوْلَهُ وَقَدْ تَرَامَتْ أَطْرَافُهُ أَرْضًا رَمَلِيَّةً مُسْتَوِيَةً وَفَكَرَ لَحْظَةً لِمَاذَا لَا يَعِيشُ هُنَا يَسْتَصْلِحُ تِلْكَ الْأَرْضَ وَيَزْرَعُهَا فَيَأْكُلُ مِنْ كَدِيدِهِ وَعِرْقِهِ وَيَكُونُ فَلَاحًا مِثْلَ بَقِيَّةِ الْفَلَاحِينَ الشَّرَفَاءِ فِي هَذَا الْعَالَمِ .. وَالَّذِي أَصْبَحَ غَالِبِيَّةَ الْعَظْمَى تِجَارًا يَتَاجَرُونَ فِي أَرْوَاحِ الْبَشَرِ .. لِمَاذَا لَا أَقِيمُ مَمْلَكَةً لِلْفَلَاحِينَ أَصْحَابِ الْأَيْدِي الْخَشْنَةِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الْخُبْزَ الطَّرِيَّ وَالْجَبْنَ بِالْفُولِ الْأَخْضَرَ ، ثُمَّ قَامَ يَفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ الْجَدِيدَةِ وَمَشَى أَكْثَرَ مِنْ مِيلَيْنِ آخَرِينَ فَقَدْ بَرَى سَهْبًا أُخْرَى مُتَدَّةً وَلَكِنْ نَظَرَهُ وَقَعَ عَلَى غَابَةِ كَثِيفَةٍ ، وَزَفَرَ تَهْيِيدَةً صَرَخَتْ فِي دَاخِلِهِ تَدْوَى وَشَعْرَبْكَثِيرٍ مِنَ الْقَنْوُطِ لَتُورِمُ إِبْصَعُ قَدَمِيهِ فَخَلَعَ حَذَاهُ وَحَمَلَهُ فِي يَدِهِ وَاتَّجَهَ صَوْبَ الْغَابَةِ .. إِنَّهَا مَكَانٌ يَسْتَرِيحُ فِيهِ قَلِيلًا ، كَانَتْ تِلْكَ لِحَظَاتٍ يَشْعُرُ فِيهَا سَلَامَةً بِأَنَّ حَرِيَّتَهُ أَثْمَنَ مِنَ الْمَالِ وَالْقُصُورِ فَانْدَفَعَ مِنْ طَرِيقٍ إِلَى آخِرِ بَيْنِ الْجِبَالِ مُحَاوِلًا الْإِهْتِدَاءَ إِلَى تِلْكَ الْغَابَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي نَازِئِهِ قَرِيبَةً ، غَيْرَ أَنَّهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَاحَةٍ بَعْدَ عَنَاءٍ وَلَيْسَ أَمَامَهُ غَيْرَهَا لِيَحْتَمِيَ بَيْنَ أَشْجَارِهَا ، وَكَادَ أَنْ يَقَعَ

مرتين حيث مشى أكثر من أربعة أميال ، وحاول أن يشد أزراً نفسه بأن الحرية لها ثمن ومن يريد لها عليه أن يشقى حتى يصل إليها ، كانت الغابة تعيش حياة خاصة بها .. أشجار باسقة ونخيل تحتضنه أسباط البلح وأسراب من الطيور تطير فرحة بين الأفرع تحط على الأرض تنقرها ثم تنطلق من الأعالي إلى أعشاشها .. أمواج من الطيور تملأ الغابة في كل أجنابها ، وقعد على جزع شجرة عتيقة يرقب تلك الطبيعة التي خلبت لبه في دقائق وكيف يسكن مثل هذا الجمال الإلهي بجوار مدينة خلع عنها الناس كل مصادر الخلق والحياة والإنسانية ، اليس لى أن أبقى هنا وأقيم حياة حرة بعيدة عن كل الناس ، وشعر بالجوع وتأمل يديّة متعجباً إنها خالية لم تحمل لقمة من طعام .. وكانت أفرع الشجر وأوراقه تحجب عنه رؤية السحاب .. وقرع الرعد وتلبدت غيوم كثيفة فى القبة العالية .

.. لكنه من خلال الأفرع حاول أن يرى بقعة من السماء ليكتشف احتمال هطول المطر ، وتبعثرت بعض السحب من فوقه وتعلت أصوات الرعد ونزل البرق يلسع أرض الغابة وأشجارها كأنه لهيب من نار متأججة .. وبدت الأعشاب وعيدان الغابة العالية وقمم الشجر وسعف النخيل كل ما فى الغابة بدأ ينحن ويحتمى ببعضه من قوة الريح وأصطكت أستان سلامة وارتجف بشدة وفكر لحظة أن يعود إلى الجبل بحثاً عن كهف أو بطن صخرة تحميه ، لكن الظلمة خيمت فجأة حواله وكان السماء بها غضب جبار يكاد ينفجر .. وتشنج سلامة وبكى بكاءً حاراً ذليلاً بقدرة الله حوله .. عاصفة تكاد تخلع جذوع الشجر ونار فى السماء تكاد تحرق الأرض فى لحظات .. وانبعث شئ من التمنى وكان صدره ينشرح لو أن كل ما فى السماء من نار ينزل على الأرض ليحرقها بما فيها من أرقاء عبيد من الإشتراكيين اللصوص والرأسماليين مصاصى الدماء الذين لا يشبعون أبداً من عبادة للمال والشهوة وحشو البطون .. الذين نهبوا ثروات هذا العالم منذ عهود الإقطاع القديمة ورفع يده إلى السماء وقال داعياً ربه .. وأنا يا ربى خذنى بتار وغضب سمائك لأننى ترديت بين الأثنين .. فأنا ربيت مجتمع إشتراكي نهب ثروات بلاده نصف قرن من الزمان ، ولما كانت الحصيللة لى ولغيرى من الناس فى بلدى تراباً هاجرت إلى تلك البلاد آملاً فى أن تحقق الرأسمالية فيها العيش الكريم لى ولا مثالى من الناس ، وهذه هى المدينة إبنة الرأسمالية الجديدة بعد إقطاع قديم .. الناس فيها جياع ولا

يشيع إلا القليلون .. والإطار جميل والمصانع والمعامل ومكاتب الإستيراد أجمل .. شكل ما أروعه من نشاط إقتصادي عبيده الشعب كله وقليل يتاجرون فى كل شئ حتى فى أعضاء الإنسان بعد نماته ؛ شوارع للملاهى والقمار والرقص وبيوتات لتدخين الحشيش وشم كل أنواع المخدرات .. صنعت الرأسمالية مجتمعاً أشد بشاعة وعنفاً والنتيجة أيضاً ضياع الإنسان .. أى جبايع الشعب بأكمله .. وفئة واحدة تأكل البطة وتترك الأرجل والمصارين والمنقار لكل الشعب ليتقاتلوا على إقتسام العظم .. أنا لا أعرف من أنا أيتها السماء .. سألنى المجتمع العادل فى أى أرض فى هذا العالم وأذهب هناك لأعيش وأتمتع بعدالة هذا المجتمع .. ولكنى لم أذهب إلى أى مجتمع إشتراكى لأننى نفاية وضحية أحد هذه المجتمعات .. وقطعت آلاف الأميال من أجل الوصول إلى ذلك المجتمع الرأسمالى والذي كان منذ سنوات قليلة يحمل صفة المجتمع الإقطاعى القديم .. سنوات قليلة وأنا أقرب هذا المجتمع من شرفة القصر الذى بعث له نفس لكى ألجوا بها .. سنوات وأنا أرى مجتمعاً إنهالت عليه تلك الرأسمالية الجديدة تقطعه إرباً ونفس النتيجة .. البطالة .. الجوع .. المساكين .. العمال المظلومين فى المصانع والمعامل وكل ورش الإنتاج .. وسكت بعد أن قال لربه محاضرة لا داعى لها لأن الرب العظيم يعرف كل شئ فلماذا هذا اللغو مع الله .. وفى لحظات أخرى زكى نفسه بأنه مناضل شريف لكنه نذل كبير حيث لا يفعل شيئاً من أجل الناس ولأنه لا يعيش معاناة الناس فى تلك المدينة إنه الآن فقط فى محاولة لكى يقيم مجتمعاً حراً لنفسه فاختار العزلة وفى هذه الغابة سيلقى حتفه .. ولم يمهله الغضب الذى إنفتح من السماء وتكور فوق الجذع كالأرتب وسلم نفسه للغضب فزجر الرعد وتكسرت أفرع الأشجار وانقلعت صغيراتها وبسطت الريح العشب .. وتظاهرت الطبيعة فى مظاهرة تعصف بكل شئ . ولولا المطر الغزير الذى إنهطل من السماء لتحطمت كل الغابات - والمدن - ولم يذهب فى نوم وشعر بأن نذيراً شوماً سيحط به واهتز جسده كله وإرتعشت ساقاه ووجد نفسه فجأة يقف فى حفرة من الوحل ، وكانت زفرات صدره أليمة والعرق يكسو وجهه ورأسه يرتج ومثنى قليلاً ناحية اليمين عسى أن يجد جوف شجرة تحميه وترنج وكاد أن يقع لكنه تماسك وأمسك بأحد الفروع وإهتزت الأرض من تحته وسمع فرقعة كأنه يدوس على لوح زجاجى فانحنى بجس الوحل الذى يقف عليه فأمسكت يده بأطراف لوح من الصفيح الصدى وشده لأعلى فلم يقدر وحاول ثانية فسحبه قليلاً

لأعلا .. وقعد ينزع الطين الراكد فوقه ومكث وقتاً حتى إنتهى بصعوبة وأخذ يسحب اللوح الصدى من الأرض الموحلة حتى لهثت أنفاسه وإرتقى على الصفيح بمسك رأسه بيده .. ومكث بعض الوقت وتأمل كيف أن كل شئ على الأرض مضيرة إليها وكيف كانت كتلات الطين تتشبث بالصفيح الذى صنعه الإنسان فوقها .. وقال لنفسه وهو يجبر اللوح .. أين عساك تفعل ؟ أنت أمير فى قمم القصور .. ألا رجعة أن تعود .. أليس من الأفضل أن تنعم بما تملكه يداك ولا تتمرد .. إذهب إلى المدينة يا ربيب القصور يا لاهث الخطو خلف النساء الأميرات .. يا من كنت عابداً للمال .. أهبط عليك أحد رهبان الدير ، أفى الدين رهبانية .. لما لا تذهب وتعيش فى بيت من بيوت العامة الذين يملأون المدينة .. أليس هؤلاء أصحاب الدين الذى مازالوا يعيشون على الأرض .. وكما كان لا يستطيع أن يتخذ قراراً فى العودة إستغرق فى هدوء يفكر فى أحوال الغاية وأخذ يضع اللوح الصفيحى فوق فوهة من الأرض صنعتها طبيعة الأشجار العتيقة وإرتقى تحته ف شعر أنه قد أصاب .. وقام ثانية يبحث حوله عن قش ليقيم حائطاً حوله ، ومرّت قرابة الساعة حتى خلّص من بناء كهف يحميه من المطر والرياح والجو العاصف الذى بدأ يهدأ ، وعلى حجر صغير وضع رأسه .. وذهب فى تفكيره كيف قطع كل هذه الأميال مرّ بعشرات المدن وهؤلاء البشر وتلك الأحداث وتكون هذه غايته التى إختارها .. ماذا أفعل هذا اليوم .. وهل أستطيع أن أحيى فى كهف ما كان الإنسان الأول يختاره لو كان هناك بديل .. هل أصابنى خيل ، وتذكر قريبه الذى أصابه الجنون .. وقال يبدو أنه عرق خبيث يستشرى فى أسرته فى أى عمر ووقت ، وارتجفت شفتاه وتسمرت عيناه فى سقف الكهف فى محاولة لتبادل الرأفة وهل قسا على أحد ؟ إننى قسوت على نفسى .. إننى بهذا الاختيار قدّمت نفسى لعالم مفترس .. إن أحداً من المدينة مهما كان فقيراً أو متشرّدا لا يذهب إلى ما ذهبت إليه .. كيف أريد الموت لنفسى وأترك قوة الحياة .. لو كنت أستطيع الموت لأخترته لنفسى الآن .. لكن الله خالق كل شئ هو الذى يقدّم الموت فى الوقت الذى يريد .. وبدا كأنه لا يفيق وثقلت رأسه وتصبّب عرقاً على جبينه وحول رقبته ثم نام .. نوماً محزوناً يستنشق هواء العاصفة البارد بعد سكون فاغراً فاه .. وكان كل عضو فى الجسد الكبير النائم مع الحمى فى الكهف يشن من قسوة البرد الشديدة .. وفى الصباح كانت أشعة الشمس تمتلئ حناناً على مثل هذا البائس حيث برزت من خلال أفرع شجر الكافور والجوزرين والصفصاف

واخترقت حائط كهفه الواهن .. وكان الليل ثقيلاً حيث حلم كيف ماتت أمه .. وكيف كان يرى أصوات الأمهات من بعد أمه كذب ووهم ، وأن صوت أي امرأة دون صوت أمه لا يعنيه في شيء .. لقد ماتت كل الأصوات من بعدها ولم يعد هناك أمهات .. وكيف أنه كان بعد موتها يمشى في الشوارع تائهاً يبحث عن امرأة مثل أمه فلا يجد ، ولو كان يستطيع أن يدخل كل بيت في هذه الدنيا بحثاً عن امرأة مثل أمه لدخل كل بيت ، لقد ماتت وانتهت النساء الأمهات ، بل وذهبت النساء جميعاً .. إنها الحقيقة بعد الحلم الذي تجسّد له في هذه الليلة القاسية ، لقد رحل من كان بلاده إلى كل هذه البلاد ليس بحثاً عن العيش الهانئ وحده ولكن كان هناك شيء عزيز قبله .. إنه كان في كل هذه المدن وهؤلاء البشر جميعاً يبحث فيهم وبينهم عن أمه فلم يجدها فكان ارتحاله الأخير إلى تلك الغابة الموحشة فهل يجد أمه ؟

وقام الحارس وبعض الصبية الذين تابعوا خروجه من البلدة بإبلاغ أهل القصر الكبير بأنه اتخذ طريق الجنوب هائماً لا يكلم أحداً أو يرد على أحد الصبية عندما قال له .. إلى أين أنت ذاهب يا سيدي .. ولماذا لم تركب فرسك .. وهل هناك سيّد مثلك يمشى على قدميه وسط العامة .. ولم ينتظر برهوم أمر سيّده وشق بفرسه الأرض يبحث عن صاحبه في طريق الجنوب وقاد فرسه نحو الغابة حتى وصلها فنزل وربط الحصان في شجرة وأخذ يدخل بين البوص والأعشاب وغاصت قدماه في الوحل فتوقف ، ووضع كفى يديه أمام فمه في شكل بوق وأخذ يزعق : سلامة أنا برهوم .. سلامة سلامة ردّ على يا سلامة .. أنا برهوم .. ثم يختنق صوته فيعاود النداء من جديد .. وتقلّب صاحبه في مضجعه .. لكن أشعة الشمس التي نفذت إلى مرقد أدفاته وخيل إليه أنه يسمع منادياً في حلم نومه .. ودخل عليه نعاس أقوى من الذي خيل إليه في جو الليل القارس ، ونظف برهوم حذاءه وركب جواده عائداً إلى الطريق الرئيسي وهو موقن بأن صاحبه لم يدخل الغابة الغارقة في وحلها .. وطلع نحو تبة عالية نظيفة الرمال ولما صعد إلى قمته .. أخذ ينادى من فوق ظهر دابته على صاحبه وكان صدى صوته عالياً في الوادي ، وخرج إلّا غلامان من خيمة ترقد فيها أمهما حيث صعدا طريقاً إلى قمة التبة من ناحية بيتهما حتى أصبحا قبالة فسكت عن النداء وضرب بطن حصانه بقدميه وقصد صويهما وقد دبّ في داخله أمل العثور على صاحبه ، وقال الصغير على لأخيه مجيد :

- إيش يريد هذا ..

- لقد إقترب منا وسنعرف ..

- ألا يكون قاطع طريق جاء يعتدى علينا وعلى معاشنا ..

- لا تخف فإننى أخفى خنجري فى صدرى ..

وصهل الفرس مرتين لما إقترب من الغلامين ونزل برهوم إليهما محاولاً أن
يتنهج قائلاً وهو يمد يده لمصافحتهما :

- يا أحبائى إننى أبحت عن رجل تاه عن المدينة وغاب هنا ..

وكانت شفتا الغلام مجيد قد إفترت عن إبتسامة عريضة لما أظهر الرجل
مقصده فقال فى هدوء وهو يحجب أشعة الشمس النافذة بكف يده عن وجهه :

- إننى لم أر أحداً وكذلك أخى ..

- إنه رجل طويل وجهه الطلعة له وجه الملوك ..

وضحك الصغير على قائلاً :

- أنا لم أر ملكاً فى حياتى ..

وقال مجيد :

- هكذا ترى المدى أمامك .. إن الأيام تمر علينا كثيراً دون أن نرى ابن آدم
واحداً يمر بنا ..

- هل تعيشون هنا

وفى صوت واحد :

- نعم ..

- وحدكما ..

- مع أمنا ..

- أين بيتكما ؟

- وأشار كل بيده :

- هناك تحت التبة

وصهل الفرس ثانيةً فشده برهوم من لجامه وسأله .. لماذا تصهل كثيراً أيها الحيوان ..

فضحكا مقهقهين وقال مجيد :

- دعه يصهل إنه يؤنس سكون الجبل .. ليت عندى واحداً مثله . فهو فرس خيال وليس فرساً أجرب يجرب عربة كارو ..

وقعد برهوم على الرمال وأمسك رأسه بيده محزوناً .. وجلسا بجواره الصبيان يتأملانه دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، غير أن الصغير قال بعد وقت :

- هناك بعض القرى شرقاً وغرباً إذهب إليها ..

، انتبه إليه برهوم وقال بصوت مخنوق :

- سوف أذهب .. هل عندكم بعض الماء ..

وقاما الغلامان وقطعا النزول المؤدى إلى بيتهما فى دقائق وعادا إليه يحملان قلة من الفخار ، فأخذها بين يديه وأخذ يرشف منها الماء البارد حتى إرتوى ..

والغلامان يتأملانه وشارياه الكثيفان يهتزان وقال لهما برهوم وهو يقف :

- سوف أجرب من هنا .. إنه سيسمعنى هذه المرة ..

وكان صوته هذه المرة شديداً والصدى فى الوادى يرتد إليه والغلامان يتسمان وكان اكبرهما بعد أن إنتهى برهوم وقعد يضع رأسه فى قنوط بين ركبتيه :

- هل لى يا سيدى بركوب هذا الفرس الجميل

فاوما برهوم برأسه موافقاً وحذره بأن لا يذهب بعيداً وأن لا يسرع به حتى لا يقع أو يحدث له مكروه وقال مجيد وهو يهز رأسه ممتناً :

سوف أذهب إلى خيمتنا وأعود .. إننى فقط أريد أن أتمتع بركوب هذا الحصان الجميل ..

واضطجع برهوم على الرمال وبعد هنيهة ألقى برأسه بين حباتها وراح فى سنة من النوم دون أن يقلقه الغلام الذى امتطى فرسه .. وكان الصبى الصغير يجرى

خلف أخيه مجيد والفرس يتمخطر بالغلام ويقترّب من الكهف واشتم الحيوان رائحة حيوانات أخرى تنبعث من الكهف. فصهل بقوة وتبعها بأخرى فإذا بأُم الغلامين تخرج من كهف ما هلعة وقد حملت بين يديها دسّ الحليب الذي حلبته من الجاموسة في التو .. وكانت الجبال التي تحضن الوادي في رصانة يطل منها ظلال تحجب الغلامين وفرسهما من أشعة الشمس الرقيقة . فكانت صهوات الحصان الرائعة لما سمع صوت الأم وهي تنادى مندهشة على غلاميهما اللذين عادا إليها في موكب جميل قائمة في صوت ذهبي متلهف .. يا مجيد يا على من أتى لكما بالفرس؟ أجب يا مجيد .. كيف لك بهذه الجرأة ألا تخاف أن يجرى بك وتصبح في لحظة بين أقدامه .. وكان مجيد يشوّح لها كف يده بأن تطمئن ولا تخف .. وأخذ قلب الأم يرتجف حتى تهادى الموكب في كنف أحضانها .. ونزل مجيد وربط الجواد في جزع شجرة قديم قرب فوهة الكهف وتقدّم نحوها وهو لا يستطيع أن يسمعها ما حدث خاصة وأن «على» الصغير يخبرها بصوت عال بحكاية الحصان وصاحبه الذي يرقد هناك فوق التبة واقتربت من كبيرها لتسمع منه فأخبرها في هدوء بأن صاحب الفرس هذا يبحث عن صديق له غادر المدينة وقد قابلاه وهما يلعبان في الوادي ولما يش في العثور على صاحبه سقيناه الماء وشكرنا .. وهو الآن يضطجع هناك .. وأشار بيده نحو التبة .. وأعارني الفرس لأركبه بعض الوقت لما طلبت منه .. هذه كل الحكاية فماذا الخوف واللهفة .. وجلست الأم صامته وهي تفكر ثم قالت في صوت هامس يخرج من أعماقها :

- أخاف أن يأتينا أحد يعكّر صفو حياتنا وسكون عيشتنا .. هل هذا الرجل من المدينة أو عابر سبيل ..

مجيد وهو يسمع أمه في ترو :

- إنه من المدينة كما أخبرنا وهو رجل .. وسكت ..

- رجل ماذا يا مجيد ..

فقال على مقاطعاً :

- رجل بدين الجسد طيب الوجه ..

وأشار إليه مجيد بأن يسكت وقال وهو يطمئن أمه :

- إنه رجل بسيط .. ليس من السادة .. علامات وجهه تدل عليه ولكنه يبدو

مخلصاً لصديقه .. ولو لم يكن طيباً لما ترك لنا فرسه وعندما غادرناه كان يتهيء للنوم..

ووضعت يدها على صدرها وقالت فى تريث لابنيها :

- قد تكون خديعة يا ولدائى .. إننى أخاف خوفين .. خوفٌ عليكما وخوف على .. فأنا يا بنى مازلت شابة صغيرة وأنتما لم تقو سواعدكم بعد للدفاع عني .. وعليه فإننى أرى يا ولدائى أن أذهب إليه وحدى وانتظرانى هنا .. وقامت لتحمل دَسْتُ الحليب وتضعه بينهما حتى يشربا منه لبنا دافئاً كما عودتهما كل صباح ، ودخلت الكهف لترتدى ثوباً طويلاً وفضلت أن تبقى حافية القدمين واقتربت من الفرس تحنو عليه وتمسح على رقبتة ثم ربت على فخذه ودلكتهما قليلاً حتى شعرت بأن الحصان يتشئ لما شعر بخنين أصابعها ورفع رأسه لأعلى وصهل وركبته كمن كانت خيالة من قبل وشدت لجامه وضربت بقدميها بطنه حتى بدأ يركض ثم انطلق كالريح يسابقها كأنه السهم يمرق فى سكون الجبل الذى بدأت قمته تقترب من بطن السماء ، ووصلت إلى أعلا التبة .. وتعثّر الفرس فى حفرة فنزلت عنه وتركته يقوم منها .. وتوجهت إلى رجل إنكفاً برأسه فى الرمال ، جلست بجانبه وأخذت تراقبه فلم تجد فى وجهه ما يشير الريبة وقالت وهى تقف :

- يا رجل .. يا صاحب الفرس .. أتنام وترك جوادك مع الصبية

وقعد برهوم ومسح وجهه بكم قميصه فتأكدت من أنه رجل عامى فقال وفرسه يضرب برأسه فى ذراعه :

- نعم يا سيدتى أين الولدان ؟

- أنا أم الولدان .. ما الذى تريده منهما ؟

- لا شئ إنهما صبيان طيبان سألتهما عن صاحبي ولما أتياى بالماء أهديتهما فرسى بعض الوقت ..

وكانت تتفرس فى وجهه لتتأكد من حقيقته وقالت :

- من أين أنت وماذا تعمل ..

- من المدينة .. وأشار بيده نحوها .. وأنا أعمل خادماً للأميرة ربما ..

.. وقام برهوم ووقف قبالتها ولما إنبهر من جمالها إستحى ووجه ناظره نحو الأرض وقال :

- كيف تعيشين هنا والمدينة قريبة منك فيها كل شئ ..

- أحب الجبل ومعى ولدائى يؤنسان حياتى

- أليس لك زوج ..

- زوجى مات منذ عامين فى أول حرب الغزو وهو يدخل المدينة حيث كان

يعمل لمجاراً ..

- إننى مستعد أن أبحث لك ولديك عن مكان فى البلدة .. وأوفر لكم عملاً

فى سوق الأميرة ..

- لا .. أنا سعيدة هنا ..

- كيف تحصلين على طعامك ..

- من لبن الجاموسة أصنع الجبن والزبد ويذهب ولدائى إلى المدينة لبيعه وشراء

كل ما نحتاجه ..

وكانت الجبال تتناثر فيها أشجار الصمغ والرمان وقد لوت أفرعها الريح

الشديدة التى هبّت بالأمس .. والعشب الأخضر الجاف فوق أطرافها قطعة منه هنا

وأخرى هناك تساقط إليها قطعان من الأغنام كل يوم يرعاها الأعراب رجالاً ونساءً

وصبية ، وكان برهوم يهرش فى رأسه ممعناً فى تفكيره حائراً من أمر تلك الأعرابية

وسط أعراب يسكنون تلك الجبال .. تملك هذا الجمال الرائع دون الأعرابيات

القببيحات المتناثرة خيامهن فى كل أطراف تلك الجبال ووديانها ، إنه فى أيام عبوديته

الأولى كان يزور تلك الجبال ويعرف أهلها جميعاً وأيقن أنه لن يطرأ عليهم جديد ،

وأنه جاء إلى هذه البقعة ومعه سيده فى أمر من الأمور عند عراف يدعى حافظ

طراونة وكان رجلٌ حسن الملامح ، استغرق فى تذكره هذا ثوان وطفق قائلاً :

- منذ سنوات طويلة هنا فى هذا المكان تقريباً جئت عند عراف يدعى ..

وسكت حتى يختبر معرفتها بالمكان .

فابتسمت المرأة بسعادة وقالت فى فخر :

- إسمه حافظ طراونة وزوجته أعرفها تماماً الأعرابية الجميلة .. جل الخالق

عبد التواب .. هل تريدنى أن أخبرك بشئ آخر عنهما .. فأوما برهوم برأسه موافقاً ..
لقد مات العراف منذ ثمانية عشر عاماً وماتت زوجته قبله بسنة واحدة ولم ينجبا غير
فتاة واحدة لقنها والدها بعض ما لديه من علوم ، وكان هذا الرجل يقوم بمحو أمية
أولاد الأعراب الذين كانوا فى هذا الوقت يملأون الجبل ..

وقال برهوم وقد انفرجت سريرته :

- صحيح أنت إبنة الجبل تعرفين كل شئ .. وأمسك برأس فرسه وقال وهو
يتأهب للقفز فوقه :

- سوف أذهب للبحث عن صاحبي

- أنت وفى لصاحبك إلى هذا الحد حتى تبحث عنه فى صحراء شاسعة ..

- لأنه فى الأيام الأخيرة بدأ يتمرد على حياة المدينة

- أنت هنا تبحث عنه فى مكان واحد .. إذهب إلى الطرق المؤدية إلى البلاد

الأخرى لأنه إذا رحل فإنه سيرحل إلى مدينة أخرى وسيمر بالجبل مثل كلالعابرين.

- صدقت يا سيدتى .. سلام عليك ..

.. وفى لحظة كان برهوم يمرق بفرسه فى الوادى كأنه طائر يطير بجناحيه ..

وسارت نحو كهفها مستغرقة فى تفكير لزيد وماض عزيز بعيد عليها ..

وتذكرت كلماته .. كيف تعيش هنا .. لما لا تذهب إلى المدينة .. إنها ملأى بالمراقص

وهذا الرجل لا يعرف إننى تعلمت الرقص من امرأة أعرابية كانت راقصة فى الزمن

القديم جاء بها أبى إلى بيتنا خصيصاً لتعلمنى كيف أرقص منذ كان عمري عشر

سنوات وحتى ماتت لما بلغت عشرين عاماً .. كانت تأتينا كل خميس وتمكث معنا

حتى عصر الجمعة وتذهب .. لم أكن أعرف المقابل الذى كان يعطيه أبى لها .. رأيت

كثيراً يقرأ كفها وأحياناً أخرى فنجان قهوتها .. كان ذلك فى الهزيع الأخير من الليل

لما كانت تنام أمى .. علمتنى هذه الأعرابية الراقصة كل أنواع الرقص القديم الذى

كان يعشقه الناس فى ذلك الماضى .. ولما وصلت إلى بيتها لم تجد العربية المصنوعة

من الخشب التى يجرها الحمار .. أيقنت أن ولديها قد ذهباً إلى الغابة لجلب الكلا

وبعض الثمار التى يقطفانها من الأشجار .. كانت الشمس فى قمة السماء تشع

شعاعاً دافئاً فجفت مياه الأمطار فوق أفرع وأغصان الشجر وبدأت حبات الرمال بين

صخور الجبل الذى يحضن الغابة تنفخ حرارة تنبعث صوب قمم الغابة العالية ، والطيور على شاكلتها تحط هنا وتقفز هناك . مبهجة بصفاء السماء وكانت العربية تصرصر وهى تدخل بين الأشجار وأوقف مجيد الحمار ونزلا من الصندوق الخشبي وانهمك على فى حصد العشب الأخضر بينما راح الحمار يلتهم الكلا ، وتسلق مجيد أعال الشجر بحثاً عن اليمام وبدأت تنبعث أصوات الحياة حول المكان فتلك أبواق رعاة الأغنام التى بدأت تدخل الغابة الكبيرة تزعق فرحة بيوم خصيب للرعى .. وبدأت الحياة حوله تتشرب وتتصدق لكنه مازال يغط فى نومه وكانت ملابسه تبتل بعرق غزير ورأسه تتألم من حرارة ترتفع بشدة .. إن حجاراً ثقيلاً تنوء به تلك الرأس ، لم يكن يدرى أين هو لقد نسي أحداث أمس وبدأ يصحو فأدرك أنه فى كهف وسط غابة ليس فيها إنس .. كان عليه أن يقوم ويغادر ولكن كيف وأمسك دماغه بكف يده فأحس بسخونة تكاد تحطم عظامها .. وقعد واستطاع أن يقف لكنه ترنح فأمسك بصفيح السقف وانحنى ليخرج من باب العشة واضطرب وبصق بغزارة وتقرع لشعوره بالقى الشديد وانكفاً يتجرع مياه صفراء كالعلقم وراح يرتجف ويكى وتشنج قليلاً بصوت عال وأخذ يجرح قدميه بصعوبة ومشى وترك العشة خلفه وأمسك بيده اليمنى صدره كأن شيئاً سيقع منه .. وتأكد أنها الحمى لسريان الحرارة فى جسده كله وبدأ صراخ الجوع فى جوفه .. وفجأة توقف ونادى بصوته المحموم ما استطاع .. سلامة .. سلامة .. سلامة ويسكت ثم يعاود النداء .. وسمعا الغلامان الإستغاثة وهما يتأهبان للعودة فقال مجيد لأخيه :

- إنه هناك وأشار بيده ناحية الصوت .. ترى هل لدغه ثعبان ..

تعال يا على ..

واندفع مجيد يجرى ناحية الصوت وخلفه على يقول :

- ما لناش دعوه .. إحنا مالنا يا مجيد .. ها نتأخر عل أمأى ..

واقترب مجيد من خطوات سلامة الذى مازال ينادى لكن بصوت مبجوح ، وكانت شجاعة الغلام وإقدامه أنه لما وجد رجلاً أمامه يترنح ويتوجع حاول أن يحمله بين ذراعيه لكنه لم يقدر فأمسك بتلابيت الرجل فى شفقة وقال فى رقة بالغة:

- لا يهم يا سيدى إن معنا عربة سنحملك إلى بيتنا ستأكل وتشرب وكل شئ من أجلك لا تخف ولا تنزعج ..

فتنهذ سلامة وجنح إلى الصمت بعد أن قال للغلام هامساً :

- أتيتنى لنجدة أيها الصبى .. إننى فقط أريد دواءً .. أشعر بآلم شديد فى رأسى

وحمل مجيد ذراع سلامة على كتفيه ولف يده اليسرى حوله وبين هنيهة وأخرى يقول .. إطمئن يا سيدى سوف أتى لك بكل ما تريد وتبعهما على وهو يتمتم قائلاً فى صوت مسموع .. يا الله يا الله .. من أتى بك يا سيدى إلى هنا .. هل غمت ليلتك فى الغابة .. ولماذا؟ وكان مجيد يزعم فى أخيه حتى يكف عن تساؤلاته .. وعليه فقط أن ينادى يا الله ويا الله .. غير أن «على» كان مصمماً على أن يسمع إجابة من الرجل .. ولم يكن لدى الرجل إلا أنفاس متهدجة ، وكانت روح الصغير مرحة فقال لمجيد .. كيف نأخذ غريباً إلى بيتنا .. هلى تعرف عنه شيئاً .. فتوقف سلامة عن السير وأمسك مجيد من ردفه وقال كأنه يرجوه .. لا تأخذنى إلى البيت .. ودس يده فى جيبه بصعوبة وأخرج مائة درهم قائلاً .. خذ هذه واشتر لى دواءً وطعاماً وعد إلى أرجوك .

.. فأمسك بيده وقال راجياً .. أرجوك يا سيدى لا تدع كلمات صبى صغير تؤثر عليك .. تقدّم معى وضع الورقة فى جيبك فقال سلامة وهو يتقدّم معه ممثناً .. لكم أنت صبى سوف يجزيك الله جزاءاً حسناً لمعاونة مريض .. غير أن مجيد قال محاولاً إزالة الحرج .. إننى لم أفعل لك أى شئ .. لقد إقتربتنا من العربة .. إنها هناك عند الشجرة العتيقة مشيراً برأسه ، وأسرع على نحو العربة يدها لحمل الرجل .. وإستطاع فى لحظات أن يحمل حجراً ليستطيع الغريب أن يصعد إلى صندوق الكارو ، وكان مجيد وعلى مثل الرجال فى قوتهم لما إستطاعوا أن يساعدوه فى إعتلاء عربة الحمار ، وتقدّم كل منهما فى المقدمة يقعدان ليسوقا الحمار بسرعة نحو الكهف ، وذهب فى غيبوبة بين النوم واليقظة يرقد فوق العشب الأخضر الذى حصده وفوق رأسه صرة من الرمان جمعها من أشجار إنتشرت فى الغابة وفى قفص صغير ينبعث منه هدير اليمام رقدت عشرة منه .. وكانت هناك زمجرة بين بعض الرجال والنساء من الأعراب الذين يرعون بأغنامهم فى الغابة وحولها على

اقتسامهم مواطن الرعى الغنية على حدودها .. كانوا حريصين مثل كل يوم على ألا يدخلوا طرقا الغابة الداخلية حتى يتحاشوا الثعابين والفئران والثعالب التي تكثر فى أعماقها .. كان القوم من الأعراب كثيرى التناوش والمعارك كأن هناك مجاعة إنتشرت فى تلك الإرباء .. وفى الظهر عندما يعودون إلى بيوتهم المخفية فى الجبال يتغنون بأغنيات الفجر التى كان يزعم بها أجدادهم منذ القدم .. وكان مجيد وعلى يعرفان هؤلاء الرعاة ويلقيان عليهم التحية فى الذهاب وعند العودة ..

كانت العربة تحمل أثقالاً والحمار الذى يجرها يكاد ينكفى .. إن صاحبيه يضربانه بالسوط فى قسوة واللسان الرملى الضيق الذى يربط بين الجبل والكلأ طويل .. وأم الغلامين تغنى فى الكهف وهى تصنع الجبن والزبد .. وكلما خرجت إلى الخيمة لتحضر ماعوناً أو طشتاً لفتح الهواء جلبابها الممزق كى تتمتع أشعة الشمس البنفسجية فى الضحى بنحاسية هذا الجسد البض . وعندما تجلس على الكرسي الخشبي لإعداد الجبن فى الماعون تهتز أطرافها كأنها موج فى البحر يضحك .. ويثير النسيم البارد الذى يدخل من باب الكهف يشير لهفتها إلى زمن قريب لما كان زوجها يدخل عليها ويرى ساقها العاريتين حتى أطرافها .. كان الرجل ينهار معها كأنه عاصفة صفقت رمال الشاطئ بقوة ثم هدأت فتساب الأمواج مرة أخرى حيث بطن البحر الفسيح .. لكن شوقها كلما أيقنت بعد التخييل أن زوجها قد مات بالفعل وأنه لن يأتى أبداً وتنكسر آمالها كما تنكسر أفرع الشجر من الرياح العاصفة ، إنه قدر الزمان الآن الذى يحرم شبابها اللقاء .. وصدرها العذرى بعد موته ما زال يرتعش ويتدور .. فلم يكن لشوقى معه إلا فى وقت الفجر الندى .. وكانت تغفو كأن ذكرياتها حقيقية تعيش فيها وتسترجعها ..

وتهادى إلى سمعها مثل كل يوم صوت ولديها . وقد جاء بالخير .. وأنزلا الرجل الذى كان غائبا عن الوعي وأرقدها فى الخيمة على فراش نظيف وأفاق قليلاً وطلب شربة ماء فملاً مجيد الكوب من زلعة فى داخل الخيمة فنجرة عن آخره ثم أمسك بيده قائلاً :

- إذا كنت تريد أن تنقذنى من الألم خذ هذه وأذهب إلى المدينة واشتر من الصيدلية دواء المريض بالحمى .. أرجوك ..

وشد مجيد على ذراعه وأمسك بالنقود ثم ربت على كتفه وقال :

- حالاً سأحضر لك ما تريد ..

ثوان وكان مجيد يقفز فى الكهف يتناول يد أمه على عجل ويقبلها فى لهفة وقال وأنفاسه تتهدج :

- لا تؤاخذينى يا أمى فلقد أتينا برجل مريض وجئنا به معنا .. إنه فى الخيمة سوف أذهب إلى المدينة حالاً لأحضر له دواء الحمى ..

فاندھشت المرأة ووقفت وضربت على صدرها بكف يدها .. وفى سرعة البرق كان مجيد يجرى كالعصفور نحو الطريق المؤدى إلى البلدة ..
ولحقها على وهى تقف عند باب الكهف وقال يملأه الخوف :

- لو كنت مكاننا يا أمى لأتيت به .. إنه مريض فى غيبوبة .. وأمسك بجلبابها الممزق وشدها نحو باب الخيمة .. تعالى أنظرى هذا الغريب المسكين ..

وفجرت فاما وهى تتقدم نحو الخيمة بخطى مرتعشة وتقول فى صوت هامس .. يا إلهى .. يا عيونى رجل .. رجل مريض يا حظك يا سلطانة .. ودخلت عليه فإذا به يئن ويهذى بكلمات غير مفهومة .. فأخذتها شفقة عليه وانحنت فوقه وجست وجهه بأصابعها فأحسّت كأنها وضعت يدها على قصعة نار فعادت بأدراجها بسرعة نحو الكهف وأمسكت بقطعة نظيفة من القماش ووضعتها فى ماء بارد ثم عصرتها وذهبت إليه لتعصر قليلاً من الماء على جبينه وتلف القماش حول رأسه فتأوه وانحنت عليه قائلة :

- لا تخف

- أنا فبن

- أنت عندى

- من أنت

- أنا طبيبة الجبل

- الحمى يا سيدتى .. رأسى عظامى

- إنت خوش راجل وعيان .. إيش جابك علينا

- إيه .. إيه .. وراح فى غيبوبة أخرى ..

وفجأة من غابة موحشة إلى خيمة ظليلة كساها الحنين فتبسّم محياه فى غيبوبة، وقامت إلى كانونها فى الكهف تحشر فى فوخته جزعاً من الخشب الناشف وتغسل وعاء كبيراً تملأ نصفه بالماء ، ورشّت قليلاً من الجاز فوق الجزع وأشعلت النيران تصدح من تحت الماعون .. وأمسك على بدجائتين وذبحتهما وقامت بتنظيفها جيداً ولما على الماء أسقطت الدجاج ، وبعد زهاء الساعة جاءه مجيد بالدواء من المدينة، وتركت سلطنة أعمال الطهى بالكهف وآتته تناوله الدواء فى رقة بالغة وهى تسند رأسه على صدرها وولداها يناولانها الماء والدواء حبة بعد حبة وجرعة بعد أخرى، ونام واستراح من العطف الذى أسبغه الله عليه ، وتمتم شاكرًا وهو يتقلب على جنبه، وإذا بالفجرية التى تسكن الجبل تضع كف يدها على جبينه وتقرأ كما وصى رسول الله المسلمين فى المرض قائلة :

باسم الله الشافى باسم الله المعافى باسم الله أكبر .. سبع مرات ..

وأعوذ بعزة الله وقدرته من ما أجد وأحاذر .. سبع مرات ..

وقرأت الفاتحة وسورة الإخلاص ثم رفعت يدها إلى السماء . آمين آمين

وغظته بلحاف ثقيل ، ودخلت الكهف تكمل طهيها ، وبعد قليل خرجت إلى ولديها بالخيمة اللذين قعدا يتأملان الضيف ، ونظرت إلى الرجل فى حنان لم تستشعره من قبل وقالت لهما :

- إنه فى حاجة إلى الدفء .. عليكما أن تقطعا جزءا من الشجرة الجافة وقطعوه قطعا صغيرة وضعوه فى الموقد وأشعلا النار فيه ولا تدخلوا النار إلى الخيمة قبل أن تصدح فى القصعة ، ومر بعض الوقت فيه لبيا ما طلبته أمهما وأوقدا النار عالية فى الموقد بين الخيمة والكهف ولما صدحت واشتعل الخشب وطاب دخلا يحملان القصعة ووضعاهما قرب جسده ، وأخرج مجيد باقى المائة درهم ووضعها فى جيب قميصه .. وبعد وقت إقترب فيه آذان العصر كانت سلطنة قد انتهت من طهيها وكان الرجل يتأوه ويتقلب فى فراشه يتمتم بكلمات .. محمد .. أمى .. الأميرة .. بلدى .. أروح بلدى .. أمى .. وكلما كرر كلماته جاء الولدان بأمهما لكى

تسمع فترق عينها بالدمع ويرتعش صدرها تأثراً ثم تعود إلى الكهف .. ووضعت الطعام فى أوعية ورصته فوق صينية كبيرة ونادت ولديها ليحملا سوياً الطعام إلى الخيمة .. وهناك أخذت والددة الصغيرين والتي أصبحت فى وقت قصير كأنها أم لهذا الرجل الغريب ، وقعدت إلى جواره .. توقظه فى رقة بالغة وحنو شديد حتى إسترد وعيه وبلغ يقظته .. فلماً قام وقعد قال له الصبيان فى صوت واحد :

- أعدنا هذا الطعام من أجلك .. فلتأكل حتى نأكل ..

ولم يصدق سلامة ما يحدث حوالیه وأنه فى بيت ووسط أناس لا يعرفهم ولولا هم لكان فى عداد الموتى وقال فى صوت خافت وهو ينظر إلى السيدة :

- والله لا أعرف كيف أشكرکم .. كل هذا من أجلى ..

وابتسمت فى سحاء وقالت فى ثبلى :

- لا تشکرنا على شئ .. وكل ما نريدة أن تأكل معنا حتى نسعد وتشفى من المرض .. فالطعام مثل الدواء ..

ومدت إليه يدها بطبق فيه دجاجة مسلوقة .. وقالت هذه لك .. ثم ناولته رغيف خبز طرياً وصحن شوربة بالليمون ..

والتفوا جميعاً حول الطعام ومدَّ يده ليتناول لقمة خبز .. فقالت له .. ليس الخبز .. خذ الدجاجة لا تبق منها شيئاً حتى تُرمَّ عظامك .. ولا تخف يا سيدى سوف آخذ منك ثمن الطعام عندما تطيب .. كانت تمزح وضحكت وضحك الولدان وابتسم سلامة وتناول الدجاجة والتهمها مع رغيف الخبز ثم شرب طبق الحساء .. وكانوا سعداء به والأم مبتهجة بولديها لأنهما قاما بعمل خير وأنها لسعادة كبيرة إذا تم شفاء هذا الرجل فى بيتها ، وأحضر الصبيان طشتاً صغيراً وإبريق ماء وصابونة ليغسل سلامة يديه وهو قاعد فى فراشه ولما إنتهى طلب أن يذهب إلى الحمام فأدخلوه حمامهم الجبلی النظيف .. كان كل ولد يمسه من ناحية والأم تسنده من ظهره بذراعيها .. ولما انتهى توضأ قرب الخيمة ثم دخل فصللى .. ودلف إلى فراشه وشدا الصبيان اللحاف فوقه ودخل فى نوم عميق ..

وكانت الشمس تقترب من ثلثها الأخير نحو الغروب ، فركبا الصبيان العربة

وقصدا المدينة كى يشتريا مشتريات ضرورية للبيت .. ودخلت إلى حجرة بالكهف
وفتحت صندوق ملابسها وارتدت ثوباً جميلاً مزركشاً ومن قنينة مملوءة بالعطر
رشت فوق صدرها وبللت شعرها منه وتمشت قليلاً أمام الكهف ثم نهادت إلى
الخيمة تغنى فى همس أغنيات الغجر القديمة .. لكنها عندما أخذت تمشط شعرها فى
مرآة معلقة فى عمود الخيمة أخذت ترفع صوتها بتلك الكلمات ..

ليه يا هوى آسى علينا

إحنا الحبايب من زمان ولا إتنسنا

وهو الزمان جاب لك حبيب غيرنا

وبقينا فى الكلام والحديث عنوة

ليه يا هوى آسى علينا ..

وكانت أطرافها تتراقص وشعرها الأسود الطويل يغطى كتفها حتى مؤخرتها
وخصلة منه تظلل وجهها وعينيها ثم تطير بمنة ويسرة .. وكان دفء الخيمة مع نسمة
باردة تدخل من فتحة بها تداعب صدرها المكنوز فى عذوبة ..

فتتنهد فى شجون وهى تتأمل الراقد العليل وترفع يداها إلى السماء كأنها
تدعو .. كان شئ فيها يعلو ثم يحنو وكان عوداً من القصب يتلوى أو يشنى فيخرج
منه الزبد الأبيض مثل العسل .. وهذه القدم تحف بالأرض فتطبع على الرمال وروداً
وفوق كل وردة بسمه من كعبها كأنها كعك يعد لفرح جميل .. وأخذت ترقص
وتغنى حتى تعبت فارتمت على الرمال تبكى بدموع غزيرة وقد إنتابها مزيج من
الدهشة والقلق ولماً أفاقت قعدت تجمع حبات من الرمال بين أصابعها وأخذت تكلم
نفسها بصوت مسموع وكأنها تتحدث مع الراقد .. من أنت ولماذا أتيت .. وهل
هناك رجل فى المدينة بهذا الوجه القوى الجميل .. وبهذا الطول الفارع .. إن طلعتك
طلعة سادة .. فلماذا كنت فى الغابة كالمتشردين الذين لا مأوى لهم .. هل أنت
عابر سبيل جاء من بلاد بعيدة ليختطف أميرة المدينة .. لكن أين فرسك .. أأكون
أنت الرجل الذى كان يبحث عنه الرجل صباح اليوم .. من أنت قل لى بالله ؟ ..
هل سترحل بعد شفائك أم تظل معنا أو تأخذنا وترحل إلى مدينتك .. سخرت من

نفسها ومن جسدها المفتول ومن نعومة جلدها ونحاسية وجهها وسواد شعرها وكحل عينها سخرت من ثغرها ومن شفيتها القرمزيتين سخرت من خصرها ومن استدارة أطرافها سخرت من ساقها ومن أنوثة إختزنتها سخرت من نفسها إنها المرأة الجبلية الفقيرة صاحبة العيال وإن آلافاً من النساء فى بيوت المدينة الجميلة لهن أفضل من ما املكه كإمرأة والفرق بينى وبينهن كبيراً إنهن العذارى أو السيدات اللاتى يعشن فى البيوت الجميلة ويرتدين الحرير .. وغربت الشمس فخرجت تبسط ناظرها نحو التبة لترى قدوم ولديها ومكثت قليلاً ثم زرقت فى اتجاه الكهف ودخلت إلى صندوق ملابسها لترتدى جلباباً ثقيلاً من الكستور وحملت مرتبة من القش وعادت إلى الخيمة بعد أن قفلت باب الكوخ وفرشت المرتبة قبالة الرجل وشدت الغطاء فوقها وراحت تتحقق من واقع حياتها .. متسائلة .. هل أظل أبداً بأولادى فى الجبل؟ إننى مازلت شابة .. وهل سأبقى وحيدة أبداً .. إن أبنائى فى حاجة إلى أن يعملوا عملاً حقيقياً فى المدينة .. إن هذه الأعمال البسيطة التى يقومون بها لا تأتى بالدخل الدائم المستقر وهما فى حاجة إلى بنات كى يتزوجا لما يكبران .. لقد ذهب الناس جميعاً إلى المدينة ولم يبق إلّا نحن .. غير أن هناك أعراباً من الأجلاف يتشرون فى بطون الجبال حولنا ولا علاقة لنا بأحد منهم .. وأخذها النوم وكأنها ثبتت على شئٍ إستقر فى رأسها ، وبعد زهاء نيف ساعة من نومها جاء مجيد وعلى باللحم والطماطم والخبز والسمن المقلب وبالفاواكه وبالكميات التى أوصيت بها أمهما من أجل الضيف وأدخلها الكوخ ثم عادا إلى الخيمة ليخبرا أمهما بما جاء به فوجداها نائمة ، ووقف مجيد فى فتحة الخيمة ينظر إلى الرجل وأقبل على بوقظ أمه فى هدوء ، واستيقظت وقبّلت علياً وإطمأنت أن كل الحاجيات بالكهف ، وسألها مجيد عن الرجل فأخبرته بأنه مازال نائماً وأنها تفضل أن تكون بجواره حتى الصباح لتناول الدواء فى موعده أو أية أشياء أخرى كطعام أو شراب وأوصتهما بأن يناما فى حجرة الكوخ وأن يستريحا مبكراً نظراً لجهدهما الكبير الذى بذلاه هذا اليوم وأقبل مجيد فقبل أمه ثم دلف هو وأخوه إلى الكوخ ..

وأيقظته فى منتصف الليل ليتناول الدواء فى موعده وكانت حالته أفضل حيث جسّت رأسه فوجدته دافئاً وليس ساخناً ولم تمالك نفسها لما أشفقت عليه وقبّلت من جبينه ، ولم تستطع أن تمنعه لما أخذ يديها وقبلها ، وانقلب على جنبه

الأيسر حتى يصير وجهه فى وجهها حيث رقدت قبالة فى طرف الخيمة ، وإبتسمت له قائلة :

- سوف آتى لك بتفاح وعنب ..
- لا أستطيع الآن
- حتى تشفى سريعاً ..
- من أنت يا سيدتى ..
- أنا سلطانة إينة العراف حافظ طراونة ..
- هل كان أبوك يقوم بأعمال السحر ..
- نعم ولكن فى أعمال الخير فقط ..
- هل تعلمت شيئاً منه ..
- تعلمت وقرأت كل كتبه ومذكراته ولكننى لم أمارس العمل حتى ..
- وسكنت ..

- لماذا إنه عمل مربح خاصة فى هذه المنطقة
- كان زوجى يكسب من عمله .. وهو الذى أثنانى عن القيام بعمل أبى لأنه كان متديناً جداً وشديد الغيرة على .. خاصة فى هذا العمل حيث يقابل العراف الرجال والنساء ..
- أين زوجك .. ؟
- مات فى أول الحرب منذ سنوات
- ألم يترك لك شيئاً
- ترك لنا جاموسة وعربة يجرها حمار وولدى .. وبعض المال الذى نفذ منذ عام ..

- وهل هذا يكفى ..
- البركة ..
- سوف آتى لك بكل ما تحتاجينه ..
- لا أحتاج شيئاً .. أنا مستورة وهذا يكفى ..
- لما لا تذهبي للعيش فى المدينة ..

- المدينة واسعة وأخاف على نفسى .. الجبل فيه خصوصية وانكفات يحافظان على وعلى ولدى
 - سوف آتيك بالمال ..
 - أريد شيئاً آخر غير المال ..
 - ما هو
 - الستر الذى يرفرف علينا ..
 - أنت غريبة .. شابة وفاتنة وبهذه البساطة ..
 - لا أعرف فى الدنيا شيئاً آخر ..
 - هل تصلى ..
 - لا أصلى ولكنى أعرف الله ..
 - كأنك لم تعرفى شيئاً ..
 - شيطانى قوى ..
 - ألم تقرأى كتاب الله ..
 - إننى أحفظ به فى صندوق مثل كل الناس الذين يقطنون الجبل ، بل وهذه عادة الناس فى المدينة أيضاً على ما أظن ..
 - لكن كيف عرفت مراعاة رجل فى مرضه ..

- إن هذا واجب كما تعلمنا منذ الصغر .. الشهامة والنخوة .. خاصة وأنت فى جبل .. لو لم نرعىك فستموت فى هذا الوادى .. أقصد لو لم يأت بك ولدائى من الغابة ماذا كان ينتظرك من مصير .. وإنسابت دموع سلامة على وجنتيه ورأتها تسيل من عينه فانتابها الحزن وكادت تبكى وإقتربت منه تمسح بأصابعها وجهه .. فأحسّ بحنين لم يشعر به مع أميرات القصور الذى يعيش معهن منذ سنين طويلة .. إن أصحاب القصور ليس فيهن حنين ولا لمسات رقيقة وعواطفهن كمسّ عنيف .. فى لحظات قارن بين المرأة التى ترعاه ونساء القصور ، ورفع يده يريد ملازمة شعرها لكنه أعادها خجلاً وسحبها فى جنبه هامساً فى نفسه .. إنها امرأة أخرى غير تلك النساء .. خجلى ودود تستحى من جرأة رجل تعود على جسارة تلك النساء مالكات الدنيا وأمرى الخدم والحشم وهازى الجيوش .. إن تلك امرأة صنعها الجبل وبأسه الشديد فى صيفه وشتائه .. طيلة عمرها تحتمى من بأس الحياة فى كتفه ..

إنها دائماً تلوذ خوفاً من صنيع الطبيعة الجبارة حولها .. إنه توسلٌ وفقر وضعف وخوف فضعف امرأة كهذه حيوان أليف ربما فى شكل امرأة وقليل من الوقت معها يكفى .. أى امرأة تكون .. هكذا كان تخيُّله وتصوره .. ولف رأسه بذراعه ومازالت سلطنة تحنو عليه وتأمله فى إندهاش حتى ذهب فى نومة ثانية ..

وحاولت أن تنام وهى تتذكر أحداث اليوم غير أن شخيره منعها أن تنام بسهولة ، وجاءها إسترخاء عجيب لم يأتها من قبل كمن تستسلم للكرى .. ونامت بعدها حتى بزغت الشمس ، وأيقظته ليتناول دواءه فابتلعه وهو شبه نائم فتركته ولم تنبس بكلمة .. كان مفعول العلاج قوياً وغمره النوم . وإستكملت نعاسها ، وفى الضحى العالى أيقظها الصغير فذهبت معه إلى الكهف وتناولت مع أطفالها طعام الفطور وحلبت الجاموسة وسقتهما من لبنها الدافئ كالعادة .. وأعد الغلامان العربية ليذهبا إلى سوق المدينة لبيع الجبن والزبد والبيض ، وفى طبق كبير صنعته من الخوص ربطت أكياس البضاعة التى يتم بيعها ثلاث مرات فى الأسبوع .. هكذا تعودوا منذ عام مضى يومٌ للسوق وآخر للغابة ، ولقد كان مجيد بائعاً فالخا كان يذهب لبيع بضاعته الطازجة فى سوق الأميرة ربما الشهير ، ولم يكن يعرف أنه وهو يبيع بضاعته اليوم أن ذلك سوق الأميرة ربما والتى هى زوجة برهوم الرجل الذى قابلاه هو وعلى فى الجبل يبحث عن صديقه .. ولما دخلا المدينة كانت السماء تظلم والسحب الكثيفة تهبط نحو الأرض ، والخوانيت والمقاهى وكل أبواب البلدة التجارية قد فتحت على مصراعها .. وكان عادياً أن تسير عربية يجرها حمار فى أحياء شعبية أو أسواق عشوائية وهى تملأ شوارع وميادين المدينة ، لكن عربية كهذه تدخل أسواق الأميرة أو حتى تقترب منها كان ذلك منظرأ مؤذيا ومشوهاً لجمال هذا السوق ، فمنذ يومين لما كانت الأميرة تمر بالسوق لتبدي ملاحظاتها وهى تمتطى جوادها أمرت مخدموها والذين يقومون بإدارة السوق بأن لا يدخل فيه عربية كارو أو حماراً .. وقالت الأميرة لزوجها برهوم بالحرف ألا يدخله الفلاحون الذين يصحبون حيواناتهم والأعراب بأغناتهم وإبلهم .. ومن يخالف الأمر الأميرى يسجن فى سجن السوق وتوقع عليه غرامة أو جزاءً بدنياً تحكم به الأميرة كل حسب فعلته ..

ودخلا الصبيان السوق بعربتهما فإذا بالحراس يطبقون عليهما بقبضتهم

ويذهبون بهما إلى السجن وسط صباح وبكاء الصغير على غير أن مجيد كان رابطاً الجأش وكان حريصاً أن يحمل طبق الخوص بين يديه ولماً دخلا غرفة الحبس وجداً مجموعة أخرى من المخالفين والمخالفات فاقترب منه أحدهم قائلاً :

- يا صبي يا صبي .. وإنتبه إليه مجيد فهمس الرجل فى أذنه .. أنا جائع ولدى خبز ماذا لديك من غموس ؟

وكان كثيرٌ من المحبوسين يستمعون لما قاله الرجل وكانوا فى لهفة شديدة لسماع رد الصبي ولما ران إليهم وجدهم متشوقين لأن يقول نعم عندى طعام .. طعام وليس خبزاً ، وفى التو أخرج مجيد قطعاً من الجبن والزبد ووضعها على ورقة وسط الحجز وأخرج الرجل خبزه وأنهال الرجال والنساء على الوليمة عدا الصبيان حيث إلتقف مجيد علياً فى صدره وأخذ يربُّتُ عليه قائلاً لا تبك ولا تخف ، وجاءهم حارس وكتب أسماءهما ومخالفتهما وذهب بها الحارس إلى سيِّده برهوم ليقررَّ الجزاءات .. وانتاب برهوم الضجر وهو يسمع الحارس الذى يعلن الأسماء والمخالفات التى إرتكبت ، وكان برهوم يجلس فى غرفة التوبتجية فى وسط السوق وهى شبيهة بغرفة ضباط شرطة أى قرية فى الشرق .. ضجر برهوم من تفاهة المخالفات وقال موجهاً كلامه إلى الحارس وهو يبصق فى سلة النفايات :-

- يعنى سوق الأميرة مقدَّس .. إيه يعنى عربية كارو ولأ الغنم والحمار دخلت السوق .. دول ناس على فطرتهم .. حرام والله تبهدل الناس كده ..

وقال الحارس لسيده :

- ربنا يحنَّ قلبك على الغلابة يا سيدى ..

- غرامة إيه .. وجزاء بدنئى بالكرباج تقصد الأميرة بقدر الإمكان أن يكون السوق نظيفاً ..

- أنت عارف يا سيدى قصد الأميرة .. العفو يا سيدى إنت أقرب واحد

ليها..

- تعال معى إلى الناس ..

ومشى إلى الناس وخلفه الحارس وهناك فتح قبضاي الغرفة الباب وهو حارس قوى البنية ، وتجمدت عينا برهوم على الغلامين وصاح على .. عمأى .. وأمسك مجيد بفمه حتى لا ينطق بكلمة أخرى ، وابتسم مجيد إبتسامة حريصة

للرجل الذى سقاه الماء فوق التل .. وتزايد ضجر برهوم ولكنه فى لحظات كان يشد الباب على مصراعيه قائلاً فى صوت آمر :

- آخر مرة يا أولاد الكلب .. اللى يدخل سوق الأميرة بيقه محترم .. هو مش سوق زبالة يا بهائم إنتم واخدين على الزرايب ..

وانفك الرعاة إلى الشارع حيث ذهب كل منهم إلى وكالة السوق لإستلام بهائمهم .. وأمسك بذراع مجيد فى حنو واحتضن على وهو يقعد على الأرض وقال فى حنان شديد :

- إيه اللى جابكوا هنا ..

فقال مجيد - لبيع الجبن والزبد

- فى سوق الأميرة ..

- لأول مرة . لم ينبهنا أحد بأن الكارو ممنوع ..

وأمسك برهوم بالطبق وأمر الحارس بحمله وساروا فى إتجاه الوكالة وبرهوم يسير معهما منهمكاً فى الحديث فقال وهو يمسك بذراع الصغير :

- هل بعتم شيئاً من بضاعتكما ..

- لم نبع قطعة واحدة

غير أن علياً قال :

- أكل الناس جزءاً منها ..

- ناس .. ناس مين ..

- الناس .. من كانوا معنا فى الحبس ..

- كم يساوى ما معكما ؟ .. وسكت برهوم قليلاً .. ثم طفق قائلاً :

- بكم تبيعاً بضاعتكما حتى أشتريها ..

- خذها بلا ثمن ..

- لا .. لن أنسى معروفكما .. سوف أشتريها للقصر .. للأميرة ..

- إذا كنا نبيعها فإنها تساوى عشرين درهماً .. لكنها لك بعشرة دراهم ..

كانوا قد بلغوا باب الوكالة فأسرع الحارس ومعه مجيد وأحضروا العربة من الداخل ، وأمر برهوم الحارس بأن يضع الطبق بالعربة وحمل برهوم على وأسكنه مع الطبق ووضع يده فى جيبه وأخرج ورقة فئة الخمسين درهماً وقال :

- هذه ثمن بضاعتكما ..

- هذا كثير يا سيدى ..

- ليس كثيرا .. هذه لكما يا بنى ..

- لكن البضاعة معنا ..

- أعرف .. سيأخذكما الحارس حتى خارج سوق الأميرة وحتى لا تكون

هناك مشكلة أخرى وفي أى سوق آخر بالمدينة بيعا بضاعتكما ..

وأمسك مجيد بذراعه وهو لا يصدق :

- معقول - فلوس وبضاعة وإفراج .. معقول .. ليتك تأتينا يا سيدى مرة

أخرى ..

فضحك برهوم بأعلى صوته وقال وهو يودعهما عائداً إلى عمله فى مراقبة

السوق :

- عندما أفقد صاحباً سوف آتى مع السلامة يا أولادى ..

وكانت عربة الصغار تجرى بسرعة فائقة فى وسط المدينة ، كان الحمار ينطلق

منشداً الحرية بعد الحبس والغلامان يغنيان فى صوت عال إحدى أغنيات الجبل ..

أما الأم فلقد أمضت بعد إنصرافهما إلى المدينة تقضى حاجيات البيت ،

فتناولت أطباقاً ومواعين ووضعتها فى طشت كبير وحملته على كتفها حتى بلغت

ظلمة المياه المنصوبة بصعوبة فى بطن الرمال خلف الكهف ، وكانت شجرةً للنبق

وأخرى للنخيل قد طلعت حول نبع المياه ينسكب منها ظلٌ ظليل يكاد يحمى صاحبة

النبع ، وكان قليل من عابرى السبيل يهتدون إلى الماء فيرتوون ويستظلون ، ولما

إنتهت من تنظيف أوعيتها رجعت إلى الخيمة فوجدت مريضاً يتصبب منه عرق

غزير فأخذت تمسح وجهه بطرف ثوبها فى رقة لم تتعود عليها من قبل ، وسمعت

كان أناساً يتكلمون والصوت يقترب فقامت من جنب الرجل لتقف عند طرف

الخيمة المواجهة للتبة .. وعلا الصياح فشعرت بالبهجة إنهما صوت حياتها .. إنهما

قادمان ويقتربان وهذه رأس الحمار وصوت السوط وغناء يرتفع يملاً صمت الجبل

ونساً .. وتلوح فى السهب الممتدة رائحة المدينة القادمة وبدا فى قبة السماء بعض

السحب التى تنسحب تاركةً بطن السماء تنوراً ولماً رأيا أمهما تقف فى إنتظارهما علأ

صياحهما حتى كادت العربة تسقط بهما ، وقبل أن تتوقف العربة كان على يقفز

منها حاملاً حقيبة من قماش رقيق تنوء ساعدها بحملها فهلعت إليه تحملها واندھشت لما كان مجيد يوقف الحمار ويتدلى على مهل يمك بيد طبق الخوص وفى الأخرى جوالاً يجره بصعوبة فرق الرمال وظل مجيد يمشى خلفهما وهو يسحب رزقه بيده حتى بلغهما عند باب الكهف ، وتسابقا فى إحتضانها وتقبيلها وأخذ مجيد يسترسل قائلاً وهو يفرغ جواله :

- إنه يوم غريب يا أمه .. قابلنا الرجل الذى كان يبحث عن صديقه أمس .. الرجل الطيب الذى كان يركب فرساً .. هو الذى إشتري منا بضاعتنا .. هو الذى أغدق علينا مالا كثيراً دون أن يأخذها منا .. فبعناها مرة أخرى فى السوق .. سوق الناس الغلابة .. دخلنا بسجن الأميرة .. وكنا نشعر أننا سنفقد كل شئ لكننا خرجنا منه وقد كسبنا الوفير .. هل ترين يا أمى .. أرز .. مكرونة طماطم .. سمن معلب .. كل هذه الكمية من اللحم .. هذه أنواع الخضار التى فى المدينة أتيت بها لك حتى تطبخى كل يوم نوعاً جديداً .. وهذه حقيبة على إنها مملوءة بكل أنواع الفاكهة التى أنعم الله بها على أهل المدينة ..

.. وسقطت سلطانة بين ولديها وهى لا تفهم شيئاً .. ولما أفادت من غريب ما تراه قالت فى رجاء :

- يا ولدائى ألم تسرقا شيئاً من هذا ..

فضحك على وقال مجيد وهو يمك بكثفها :

- لقد بعنا بضاعتنا بخمسين درهما للرجل ولم يأخذها منا ..

- إذاً هذا الرجل يريد إستدراج أحدكما أو كلاكما فى شئ .. هذا الرجل

وراءه شئ .. لكن مجيد قال وهو يحاول أن يتأكد من صدق ظن أمه :

- إن كل شئ حدث بالصدفة ..

وجلس قبالتها وقال :

- إسمعيني سوف أحكى لكى بالتفصيل كل ما حدث لنا هذا اليوم .. وفى

هدوء .. إسمعيني يا أمى .. فاعتدلت فى قعدتها كأنها تنصت إلى رجل كبير

وقالت:

- قل يا بنى كل شئ

وحكى لها كبيرها كل أحداث اليوم .. فاستراحت بعض الشئ وأخذت تفكر

فيما رواه لها وهى تضع الفاكهة فى صندوق كبير وكذلك صنعت بالخضار وكانت تمر بنظراتها فوق جدران الكهف وهى تسمع ولديها حتى إطمأنت ولكنها قالت وقد إنتابتها بعض الظنون :

- إذا جاء هذا الرجل ثانية إلى الجبل ناديانى حتى أقابله وأتحدث معه فى أمور أعقد أنها ستكون ضرورية .. وكونا حريصين معه .. ولا تذهبا إليه فى المدينة إننى أخاف عليكما ومن كان يحب أمه فليطعها ..

ووافق الولدان ووعداها بالطاعة فى هذا الأمر .. وجريا ليدخلا الخيمة حتى يريا الرجل .. ودلفت سلطنة إلى الكهف تجر الصندوقين وأخذت تعد الطعام والفاكهة حتى يتناولوا جميعهم الغداء الوفير مع مريضهم ، وأيقظا الولدان سلامة فصحا معافى لكنه لم يستطع أن يقعد ، ولما دخلت صاحبة الدار عليهم كانوا متلهفين لتناول الطعام الذى أعدته بوفرة وكانت المرأة ترنو إليه فى حنو وتناوله قطعة اللحم قائلة .. علشان خاطر على والثانية علشان خاطر مجيد والثالثة خاطرى والرابعة علشان خاطر تخف فطاوعها حتى شبع ، ولما قاما الولدان إغتسلا من الظلمة ودخلا إلى الكهف كى يناما من تعب النهار لكن هذا اليوم كان مختلفاً عن أى نهار سبق .. وناولت سلامة الدواء وحاول أن يقعد ليتحدث معها لكنه بقدر قليل أضطجع على المخدة وأسند رأسه على عامود الخيمة وقال متمناً :

- كل هذا فعلته من أجلى ..

- شئ طبيعى حتى تُشفى .. وسكتت ..

- والله لا أعرف كيف أجتاز هذه الصحراء الشاسعة

- إلى أين

- إلى مصاليا ..

- أأست من هذه المدينة .. من أنت .. من أى عائلة وماذا تعمل .. وسكتت

حتى تسمعه إنها لم تعرف عنه شيئاً .. لكنه هز رأسه فقالت :

- إنك متعب ليس الآن لا تحتمل أن تتكلم ..

- لا سأقول لك .. إننى من بلاد بعيدة .. ليست هذه البلاد .. أنا من كان ..

من كان ..

- من كان .. ولماذا أتيت إلى هنا ؟ ..

- بعد الحرب فى بلادنا وإنتصارنا بعد مزلّة دامت سنوات .. كان عدونا شرساً
لا يرحم والمدة التى مكثنا فيها فى الخنادق كانت طويلة .. كان علىّ وعلىّ غيرى
آلاف من الشباب نبحت عن الحياة .. فهاجر كلٌّ إلى مهجره .. وجئت إلى هذه
البلاد ..

- منذ متى ؟

- أكثر من عشر سنوات ..

- وأنت فى هذه المدينة

- كنت قبلها فى العاصمة

- وماذا كنت تعمل ..

- أعمالاً كثيرة ..

- هل أنت متزوج فى بلادك

- لو كنت متزوجاً وكانت هناك أسباب الحياة بعد الحرب ما جئتُ إلى

بلادكم ..

- لماذا لم تتزوج هنا ..

- ومن أدراك .. وسكت ..

- إذا أنت متزوج ..

- متزوج من المدينة ..

- لماذا تركت زوجتك وذهبت إلى الغابة ..

- زوجتى ذهبت إلى قصر الرئاسة بالعاصمة

- تعمل هناك ..

- نعم ..

- خادمة ..

- طبعاً .. وضحك من أعماق قلبه لكنه كتم قهقهته لما شعر بارتجاج فى رأسه

وقال وهو يلقي عليها نظرة حانية :

- نحن المهاجرين لا يليق لنا أن نتزوج إلا من الرعاى

- لا أبداً .. أنت رجل مليح .. هل لك بيت فى المدينة ..

- لا ..

- كيف تعيش إذا ..

- أعيش فى قصر الأميرة نيروز ..

- يالهوى .. الأميرة نيروز كلها .. تعمل هناك ..

- خادم ..

- فشعرت بسعادة لأنه من طبقته ولعبت على شفتيها إبتسامة بالرضا لم يرها

من قبل وإستلقى على فراشه وشد الغطاء فوقه وأخذ يتأملها ويتنظر سؤالاً آخر عنها

لكنها سكنت .. وراحت تفكر .. كان جسدها مفتولاً بضاً طرياً .. إنه جسد غريب

لإمرأة كأنها فتاة لم تتجب وأغمض عينيه كمن يريد أن ينام فألقت على جسده نظرة

وقالت فى نفسها هكذا أنت رجل فى خيمتى .. ليته ما كان متزوجاً وهل تعود إليه

زوجته ولماذا رحل إلى الغابة هل كان يريد أن يموت ولا يعود .. ليته لا يعود ..

لكنها إنتبهت وقالت وهى تعتقد أنه نام :

- إذا لماذا ذهبت إلى الغابة ؟ هل كنت تريد أن تموت وتقدم نفسك طواعية

لحشراتنا ..

- لقد أصابتنى زوجتى بشئ من الجنون .. قالها وهو ما يزال مغمض العينين ..

إذا هو يفكر مثلها وشجعها ذلك أن تقول :

- هل فعلت فعلة لا ترضاها ..

- إنها لم تعد امرأة .. إنها طموحة مثل الرجال ..

- هذا كل شئ .. أفى قصر العاصمة أجر كبير ..

- بالتأكيد ..

- وكيف تركتها تذهب وحدها ..

- إنها تملك كل شئ لأن البلد بلدها وأنا غريب .. إذا كان عاجبى ..

- طلقها كما يفعل الرجال فى الجبال هنا ..

- لا أستطيع ..

- كيف .. ألسن رجلاً ..

- رجل غير متوازن

- لا أفهم

- رجل .. لكنى رجل حياتى مفتوحة لقد بدأت ولا تنتهى لأننى ذهبت إلى

دنيا أكبر منى .. كم أتمنى حتى الآن زوجة تسكن فى بيت صغير بحارة قديمة وهذا البيت أملكه ..

- أليس معك أى مال جنيته طيلة هذه السنوات

- معى ويبدو أنه تذكر النقود التى فى جيبه فأخرج حافظته وأخرج منها مائتى درهم ومدَّ يده إليها :

- خذى

فهزَّت كتفيها وقالت :

- لماذا آخذ .. هل آخذ أجراً .. نحن لا نأخذ أجر ما فعلناه من خير ..

- إنها ليست أجراً .. إن معى أموالاً كثيرة فى المدينة إننى لست فى حاجة إليها ولا أقبل على نفسى أن تصرف على امرأة .. أقصد امرأة مكافحة مثلك .. أنا لست فقيراً .. إننى يا سيدي أعمل فى القصور منذ مجيئى وهذه النقود التى فى يدي قليل من كثير جداً .. ومدَّ يده ليمسك بذقنها قائلاً كمن يرجوها :-

- إذا كنت تريد أن أبقى هنا معكم طويلاً خذوها .. لست فى حاجة إليها .. ومدَّت يدها قائلة :

- سأخذها بشرط أن تأخذها وأنت راحل ..

فهزَّ رأسه بالموافقة لكنه قال ثانية فى رجاء :

- إرسلى الولدان غداً ليشتريا مزيداً من الطعام والدجاج واللحم .. إذا كنت تريد أن أبقى هنا ..

- ما دامت هذه راحتك .. سوف أتركك لتنام ..

- أين تذهبين ..

- إلى الكوخ .. سوف أتى إليك ..

وزرقت سلطانة فى اتجاه الكوخ ، وألقت نظرة على الولدين فى الغرفة وكان شخبرهما عالياً وأحكمت الغطاء فوقهما وقفلت الباب المصنوع من الجريد عليهما حتى لفهما الدفء ، ودخلت غرفتها وخلعت ملابسها حتى الداخلية منها وارتدت أخرى .. كان ثوباً مزركشاً بالورد الأخضر ومشطت شعرها ورمته على أكتافها وتكحلت من كحل قديم كانت تتزين منه لزوجها ، ولمع فى عينيها ضياء فيه حنان وشوق ، وبدت كأنها ترجع إلى الماضى عشرين عاماً وانحنى على ساقها تشد

جواربها الرقيقة فوق ركبتيها وأخذت كمن تجرى فرحة يمنة ويسرة وداعبت حبال الغسيل المعلقة فى الغرفة بأصابعها الرقيقة كمن تضرب على أحبال جيتار ودندنت بأغنية عجزية قديمة ..

... يا حبيبى مش بعيد يرجع الشوق من جديد .. واللى كان بينا زمان من كلام أو حنين يرجع تان مش بعيد .. يرجع الشوق والحنين من جديد . يا حبيبى يا حبيبى ..

وطلعت من الكوخ إلى رجل إطمأن قليلاً فنام وانحنت عليه وكادت خصلات شعرها تلامس وجهه والسهبُ الممتد عبر البصر خارج الخيمة ينبسط هادئاً والشمس تهبط بقرصها البنفسجى فى أفق المغيب .. وكانت تلمح قُرب دخول الليل وكل ما حولها من طبيعة يسكن وهى تبسم وتنحنى فوقه كأنها تلفه بذراعيها .. تتألق بأساريرها كما كل عوامل الطبيعة حولها .. كانت أنفاسها الرطبة تنعش جبينه والنسمات التى تنفذ من فتحات الخيمة تكاد تفتح أزرار صدرها ويتلوى جسدها حواليه فتقوم وتقعّد وتغنى .. وتكثفت ظلال المساء حولها وتذكرت جاموستها وحمارها أن تطعمهما فذهبت إلى الحظيرة بالكهف لتحمل أكوام الكلا إليهما ، وإعترتها لحظة أن تمسك بيدها محلب الجاموسة وأخذت تتحسس بأصابعها حتى إنتفخ وإنفرد .. وخفق قلبها وإحتبست الدموع فى عينيها .. كم كان ضرع الجاموسة لذيذاً بين أصابعها وهى تكاد تعتصره وسرى فى جسدها شحنة حرارة خاصة فقامت وساقاها ترتعش إلى باب الكهف وتطبق بكفى يديها على وجهها وكأنها تحاول أن تفيق ، وتأكد لها أن ظلال المساء قد كسبت الجبال عن يمينها والوادى والتلال حولها ، والمدينة هناك بأطراف مبانيها العالية واطئة عريضة مصبوغة بألوانها تنوّر رها المصابيح تحيط بها أشجارٌ عالية تطوّقها بأفرعها المكسوة بالخضرة .. وكانت أضواء المدينة هنا وهناك تنبعث عالية نحو قبة السماء فتبدّل الليل فيها إلى نهار وسطعت الأنوار الزاهية فى كل ركن ودار كأن شمساً عديدة طلعت هناك ، وكانت أفكارُ رأسها تضطرب وتلاحق بعضها بعضاً فيهتز جسدها كله .. وكأن إحساساً عميقاً يشدها نحو المدينة ، وصغير المصانع والمعامل وموسيقى الملاحى وأصواتاً أخرى تفور كأن الناس فيها بدأوا يفيقون وتساءلت .. وهل يفيق الناس بالليل ولا ينامون .. إن حياتها شئ والمدينة بأهلها شئ آخر إننى سأذهب لأنام هناك بجوار رجل من

المدينة الغربية .. أهذه حياة .. لما رقدت قبالة خدمت رأسها كأن أفكاراً هزمتها وأخذت تقول .. أهذه حياتي .. إنها كحياة الذين يموتون .. إنهم جميعاً فى المدينة يصخبون فى الشوارع والحانات .. هناك حقوق النساء وكثير من الرجال بل وجميع الرجال يركضون بينهم فترقص النساء وتمتد الأذرع وتهتز الخصور وتندلع الحياة .. هناك الحياة .. أنا امرأة بلهاء ضاعت قبلاؤها فى الهواء وسكناتها يحضنها جلباب مزركش وإذا غنت أغنيات الغجر القديمة أصمها الجبل وأسكتها صخره الأخرس ولقفتها الريح .. أنا ضائعة بين الرمال فتلك أنا امرأة خائبة عملت بوصية أبيها بأن تظل فى بيت الجبال .. وحاولت أن تنام فى فراشها قبالة فلم تستطيع وراحت فى أفكارها مرة أخرى .. ثم أخذت ترقب وجهه طويلاً حتى ذهبت فى الكرى ..

... وفى القصر القديم كانت السيدة حميدة فودة صاحبة القصر تنتظر برهوم ليخبرها عن سلامة ، وعاد إليها باكياً حزناً ولما أخبرها بأنه لم يعثر عليه فى الجبال ولا فى أى مكان بالمدينة كان يقصده ، راحت السيدة فى غيبوبة أخرى لأنها كانت تتطلع أن يعود ، والسيدة منذ رحيل إبتها الأميرة إلى العاصمة وهى غير مطمئنة على مصيرها هناك .. لقد سمعت الكثير عن مغامرات ومؤمرات حكمدار البلاد ، وأنها لو كانت إبتها الحقيقية نيروز التى تزوجت من رجل طيب مثل سلامة لا سافرت .. ومرّت أيام بعدها وهى تعاني من ألم شديد فى عينيها ورأسها وقام الأطباء فى المدينة بإجراء عدة جراحات لعينيها لإزالة المياه الزرقاء والبيضاء لكنها جميعاً باءت بالفشل فحلّ الظلام يوماً بعد يوم إلى عينيها حتى أصبحت السيدة الكبيرة ضريرة لا ترى بعينيها شيئاً لكن قلبها ومشاعرها وإرادتها وإيمانها يرى كل شئ .. وزادها حزنها أيضاً عمى على عمى ..

... وشعرت بفراغ شديد لعجزها عن رؤية الحياة حواليتها ، وبكت السيدة كثيراً على سلامة وفى اليوم التالى أمرت برهوم بأن يذهب إلى مصاليا ليجث عنه وأن يصطحب معه جماعة من الرجال ، وكان برهوم يشعر بالأذى لما أصاب سيده فعيناها عكرتان ملتهبتان إحمرت أجفانها وورمت تدمعان دون إنقطاع ، وكان محياها أليماً ينم عن كثير من ألم أصابها وإعياء مستمر وبدأت منذ يومين تسعل بشكل مخيف .. وإجهش برهوم بالبكاء أمامها قبل أن ينصرف ملياً أوامر سيده فقالت له فى رباطة جأش :

- لماذا تبكى

- على نفسى ..

- لا إنك تبكى على ..

- آه يا سيدتى .. وازداد نحيبه ..

وأطبق صدر السيدة وإختنقت أنفاسها وقالت له مشجعة فى صوت أجش :

- حمداً لله إنه مازال فى القصر أناس يحبوننى .. لقد إنصرف عنى كل الناس لما أصابنى العمى .. حتى بناتى كبراهن ذهبت إلى السلطان وسميرة المراهقة وبسنت هذه الصغيرة لا تعلم من الحياة شيئاً حتى تنفعنى بالقليل منه .. إنها فقط تلوذ بصدرى وتبكى .. وزوجى ذلك الرجل لقد مات منذ زمن بعيد فلقد ذهب إلى العاصمة فى موكب آخر .. إنه طموح مثل إبتته ...

وإنحنى برهوم على يدها يشدّها إليه حتى يقبلها لكنه لم يستطيع حيث سحبتها من يده بقوة وقالت :

- إستغفر الله أستغفر الله .. وسكتت ثم عظم على فكرها شئ إنبتق فجأة وقالت :

- أنا فى حاجة إلى جليس يا برهوم .. جليس يحكى لى ويروى ويسرى على بأسى ..

وظفق قائلاً :

- الشيخ ضياء بن على ..

- لا .. لا تأت إلى برجل مهما كان خاشعاً .. إيحث لى عن سيدة فاضلة تقيم

معى بصفة دائمة

- آه يا سيدتى سيدة .. ولكن هذا صعب إننى لا أعرف نساءً من هذا النوع

- البلدة فيها الكثيرات من الفاضلات .. إذهب إلى نفس الشيخ الذى ذكرته

ليختار لك واحدة

- الشيخ ضياء ..

- نعم إنه رجل زاهد فى هذه الدنيا وسيكون إختياره صائباً ..

وإنصرف برهوم وقصد حى الحجازية حيث كل الدور القديمة وحوانيت

العواجز وكتائب في الزمن الماضي لكنه القريب حيث كان يتعلم الأطفال فيها كيف يقرأون ويكتبون ويحفظون كتاب الله .. حتى فقير قديم لكنه كان غنياً بما كان فيه من تاريخ وتثبيت وكيف كان المشايخ يربون النشء الصغير النخوة والرجولة والخلق الكريم .. هـ لذا مر برأس برهوم حتى وصل إلى بيت الشيخ ضياء الذي أخذ بطرقه بعصاة يسوق بها البغل الذي يمتطيه، وخرج إليه الشيخ وهو يزعم قائلاً:

- حيلك .. حيلك هاتكسر الباب ..

- أنا برهوم مش عارفنى يا عم ضياء ..

- يعنى ها اعرف النطلة جتك خيبة .. وابتسم ..

- هو أنا شويه ولأى به .. ونزل من فوق دابته واقترب من الشيخ وصافحه وقال:

- كلامك زى العسل قول كمان وشده الشيخ ضياء إلى داخل داره وأجلسه على حصيرة خلف الباب إفرشها ليستقبل عليها زائريه ..

وجلس برهوم قائلاً بعد أن قعد الشيخ فى مقابلته :

- شوف صلبى على النبی عارف أنا بحبك وجايلك علشان موضوعين ..

- الله يخليك يا خويا قول ..

- إنت عارف سلامة ..

- طبعاً أحد أبطال الحرب

- غادر القصر وهرب إلى الجبل ..

- ليه هو مش سعيد بسفر الأميرة للحاكم الكبير ..

- طول عمره مش سعيد

- وراح فين

- لا تعرف

- وعازنى أعمل أیه

- نجيبه بالسحر ..

- حرام عليك أنا مش ساحر ..

- أمال أنا جاى لك ليه ..

- أنا لا أقرأ الغيب .. أنا رجل عادى مانس من السحرة ولا من الجان ..

إنت كده بتغلط فيه .. لك عليه يا برهوم أبذل قصارى جهدى مثل كل الناس الذين يحبون سلامه ويودون أهل القصر .. علشان خاطر الست حميدة لوحدها ها تعمل المستحيل ..

- طيب الله يرضى عليك على فكره الست حميدة علشان بتقدرك وتثق فيك تريد منك أن تبحث لها عن سيدة طيبة تكون لها جليسة تُشترى عنها وتقيم معها فى القصر بصفة دائمة

- هى الست عميت صحيح والدكاترة النصابين خدوا منها فلوس وخلاص .. دى عملت خمس عمليات .. إنت فاكر إيه أنا مش عارف حاجة عن الست وأهل القصر كلهم .. شوف البلد اتملت عيادات ومستشفيات خاصة ودكاترة من كل صوب وكله بيوزع على كله .. هل تعرف أن كل طبيب عملت عنده عملية من العمليات الخمسة كان يعرف أن عملياته لن تفلح ولن تعيد النظر إلى الست ، ولكنهم كانوا جميعاً يعرفون أنهم لابد أن يقبضوا .. العملية الواحدة إتكلّفت أكثر من ألفين درهم .. وأمسك برهوم من كتفه وهزه ثم أردف قائلاً :

- صح ولا لا .. عارف كل حاجة عنكم .. إنت فاكر الشيوخ مش عارفين حاجه عن الناس .. إحنا أكثر ناس نعرف ولكننا لا نتكلم .. إننا نسمع كل الناس .. وطأطأ برهوم رأسه وقال له بصوت يرجوه فيه :

- ألا تستطيع يا شيخ أن تعمل أى شئ يعيد لها البصر ..

- أستغفر الله مرة ثانية .. إنها إرادة الله .. أمر الله لا بد أن ينفذ .. إن الله يريد أن يرحمها ويصفى أعمالها حتى تقابل ربها صافية .. إنها سيدة المدينة .. وإنها تساوى مدينة كاملة من النساء وأنها طيلة عمرها لم تعمل إلا الخير وكانت قوية مثل الرجال جسورة كالشجعان .. إن هذه السيدة مدينة .. وعندما ينتهى مثل هؤلاء الناس الطيبون فعلى الدنيا السلام .. إن كل القصور ستتبنى بموت هذه السيدة .. إنها رمز للقديم للعتيق للأثرى للتاريخ .. إنها هى الباقية من الإقطاع القديم ..

- وهى مالها ومال الإقطاع والإقتصاد والسياسة والكلام ده ..

- هى غصب عنها زوجة لأكبر رجل إقطاعى فى الناحية كلها .. أنا عايز

أقول لك كلام تان وبكره هاتشوفه .. مش اليومين دولت بيقولوا قيام الرأسمالية الجديدة .. الشوية الناس الهلافيت إالىّ عملوا مصانع هشك بشك ومعامل أى كلام ما فيش رجل واحد يطلق عليه رجل صناعة حقيقى .. فين الصناعة الحقيقية ..

- يا نهار أسود كل المصانع دية وتقول ما فيش راجل صناعة ..

- يا برهوم إنت طيب .. مصانع شيكولاتة ولبان وبونبونى وملابس جاهزة وإذا كنا بنصنع حاجة تجميع مستوردة كلها من برّة ..

- لغاية كده أنا مش عارف ..

- روح شوف العمال وسخرتهم فى هذه المصانع والمعامل .. لا تأمينات ولا حوافز ولا أجازات فى أيام أجازات الحكومة .. الواحد فيهم بيشتغل إثنى عشر ساعة وأكثر فى اليوم من تسعة الصبح لعشرة واحدا شر بالليل وعاجبك ولا مش عاجبك ..

- يا نهار أسود .. وعلشان كده ها تقوم الاشتراكية إالىّ بيقولوا عليها

- الناس دلوقت والعمال والفقراء كلهم بينادوا بمبادئ ماركس وليهم حق لأن الرأسمالية هذه نتيجتها بلاوى ..

- والاشتراكية ها تحيب الخير ..

فضحك الشيخ ساخراً ..

- وزى ما جابت فى كان .. كانت نفعت أهلها أهل روسيا والمجتمع الاشتراكى كله وقع وانهار ..

- أمال إيه إالىّ ينفع يا عم الشيخ .. وقرصه برهوم من ذراعه واستطرد يقول:

- يخرّب بيتك يا شيخ دا أنت مصيبة عارف كل حاجة ..

- إسمع ولكنك سمعت حاجة أنا ما بقولش الكلام ده لحد .. علشان ما روحش فى الرجلين على الفاضى أنا راجل بتاع ربنا إالىّ مش عارفينه ..

- ولكنك قلت لى حاجه كتر خيرك عرفتى حاجة .. طيب إحنا سيينا

موضوعنا ..

- من عينيه ها جيب للست اللي عايزاه فيه ناس كثير يستحقون هذا الشرف ..

- كام يوم وأجيلك ..

- يومين بس ..

ولما إنصرف برهوم راح الشيخ ضياء يفكر فى من تكون الجليلة ..

ولما خرج برهوم من دار الشيخ توجه إلى حانوت محمد عبد الرسول ليشرب الشاي ويدردش قليلاً مع صاحب الحانوت ، ثم قام وركب بغله وذهب إلى القصر ليخبر سيده سميحة بما فعله حتى تبلغ السيدة الكبيرة .. وواصل السير إلى القصر القديم .. وهناك كانت العبدة سعدية تنهأ وتنكحل له كما تفعل كل ليلة حتى تفوز به لكنه كان دائماً يوبخها حتى تعرض عنه ، وكانت الأميرة ربما ترتب حاجياتها وملابسها فى الحقائق كى تتقل إلى قصرها بعد أن جهزته وزيته .. وكانت تدندن بأغنية قديمة وتتقل كالفراشة من دولاى إلى آخر لتملأ الحقيبة وتحزمها وتملأ أخرى حتى كادت تنتهى لما طرق برهوم الباب عليها فى رفق قائلاً :

- يا سيدتى .. سيدتى .. هل لك من خدمة .. أنا تحت أمرك ..

وكم أسعدها أن يأتيها برهوم هذا الوقت إنها فى الحقيقة تدندن شوقاً إليه .. إنها لن تنسى أبداً عندما كان زوجاً لها كيف تمتعت به وإرتوت من جسده الفحل .. إن هذا هو الرجل .. كان طيلة عمره عبداً ولما عاد زوجاً كان أيضاً نعم العبد وها هو يتمنى الرضا بطرق بابى يسألنى أن يساعدى .. يا له من وفى .. واستدارت نحو الباب حتى يسمعها قائلة :

- أدخل ..

ولما دخل عليها تغيرت وإنقلبت فهي السيدة وهو الذى قائلة فى صراحة وهي تشير بيدها إلى الحقائق والأمتعة الملفوفة :

- أين كنت ألا تعلم أنى راحله الليلة

فانحنى وقال :

- معذرة يا سيدتى كنت أفضى حاجيات امرتنى بها سيدتى الكبيرة ..

فشخبطت فيه بصوت عال :

- أنت عبدى أنا .. سيدتك لديها الكثير .. أنت عبدى لا تبرح هذا القصر
حتى أرحل .. ثم .. إنك سترحل معى إلى قصرى ..
فخفق قلبه وأحسّ حنيناً مضى وقال فى أدب :
- طبعاً يا سيدتى .. أنا عبدك كما تأمرين ..

- أينما ذهبت تذهب معى .. وكفى أن يشاركنى الناس فى عبدى .. هل
فهمت ؟

- لقد تربيتُ فى قصرك يا سيدتى .. إننى لن أنس جدرانها والكوخ وكرباج
سيدتى .. و .. وسراً ما أفصح به لكنّها ككل النساء يرفضن وهنّ الراغبات .. إنها
تتظاهر بالكبرياء والغطرسة لكنها فى حقيقة الأمر تكاد أن تطلبه فى التو أن يلقاها ..
وسرعان ما تغيرت ولّبت نداء الجسد فيها كأنها قطّة إستسلمت لقطها وقالت فى
طراوة :

- إقفل الباب .. فقفله ..

- إقترب يا عبد .. إقترب ..

- ضُمنى اليك .. فضمها بيدين مرتعشتين ..

وشدته إليها بذراعتها .. بقوة وهى تهتز .. وإنعدلت إليه وتأوهت وتركت
رأسها على صدره ثم لفت ذراعيها مرّة أخرى حول ظهره .. وتلعثم .. كان يريد أن
يقول شيئاً .. وتهدّجت أنفاسه كأنه خائف .. فقالت مضطربة :

- إقفل الأبواب الأخرى ..

- كيف أقفلها وأنت تمسكىنى بذراعيك

- إحملنى بين ذراعيك لا قفلها أنا

وحملها وذهب بها إلى باب الدرج فقفلته وكانت سعيدة تنصت خلفه وقد
سمعت كل شئ .. ثم قفلت أبواباً أخرى فى الجناح ولم تترك نافذة إلاّ واوصدتها
وكانت تتدلل أثناءها حتى تثيره فتلقاه دون أن يدخل معها فى الحرام والحلال كما

تعودت منه قبلاً وتوسَّل إليها قائلاً وهو يقترب من غرفتها :

- كيف يا سيدتى .. إننى لا أقدر ..

- فحل مثلك لا يقدر على حملى .. ألم تتعوَّد على هذا من قبل ..

- كُنَّا أزواجاً

- ضعنى على الفراش ..

... وفى رفق فعل فضربته على رأسه ووقف عند حافة الفراش متمنياً أن

تصرفه.. تأملت وجهه وحدقت فى عينيه تدعوه أن يدخل إليها .. لكنه أبى فتشاءبت

وقالت متوعة :

- حين أدعوك يا عبد عليك أن تلبى .. أنت حيوان ملك لى وسوف تذهب

معى أينما كنت وكيف أريد ..

رجع عنها خطوات وقال فى قليل من الجسارة :

- دعينى يا سيدتى لأصبح صالحاً .. إننى أنتقد الناس فى المدينة .. أدعوهم

للطهر والصلاه فكيف ؟ وسكت ..

- تعال .. بعدها إذهب لتحضر الشيخ ..

- الليل طويل يا سيدتى .. بعد أن يحضر الشيخ أفضل عند الله

فتعجبت لقوته وقالت :

- أليس عندك أى ضعف وفى نشوة الرغبة تذكر الدين وتذكر الله ..

- ولماذا لا تذكرين الله مثلى وهل قبله وبعده شئ ..

- لو لم تكن كذلك لكنت لى الرجل الذى أدعوه فى أى وقت وهو عبدى ..

لكنتى لا أجد رجلاً غيرك يصلح للعبودية وللزواج مثلك ..

- إن عبوديتى لله فى الأول والآخر .. والموت يأتى العبد فى أى وقت فكيف

أقابل الله ورصيدى معه لا شئ .. إنك يا سيدتى مثلى يجب أن تكونى حريصة على

لقاء الله ..

- إننى أحاول ولكنتى أشعر بالضعف فى لحظات كهذه ..

- كيف يا سيدتى وأنت أميرة وتملكين الكثير .. فكيف لا تجعلى من سيادتك

الكثير فى طاعة الله .. إن هناك كثيرين من الناس لا يملكون شيئاً ولكنهم يجعلون

كل أنفسهم فى خدمة الله وطاعته ..

- إنك عبد قوى ورجل تختلف عن كثير من الرجال فأنت فى إيمانك هذا تجعلنى أرضخ لك عن رضا رغم أننى أميرة وأنت عبد .. وهزّت رأسها كمن تسخر من شئ وقالت فى قليل من المرات :
 - إن المدينة ملأى بالرجال السادة لكنهم ليس فيهم جميعا ذلك الثمين والغال الذى فى برهوم .. ربما يكون هذا الرجل .. أنت عبد حقيقى لله قبل كل المعانى والاعتبارات والإعتقادات التى فى هذه الحياة .. لو كنت عبداً فى قصر أو لأميرة مثلى لما كنت اخترتك رجلاً زوجاً من قبل .. وها هو الآن أختارك ثانية .. إنك رجل تهزم فى أشياء ضعيفة .. إنك يا برهوم تخرج منى أفكارى ودواعى الخبيثة .. أرجوك إننى أختارك عن طوعية وضعف إذهب لتأتى بالشيخ ..

.. وذهب إلى الشيخ وجاء به وعقد القران بعد أن أحضر برهوم شاهدين ولما إنتهوا جميعاً ونقدتهم الأميرة الأجر السخى ودعهم برهوم حتى البوابة الخارجية للقصر وبينما يعود إلى زوجته وهو يدخل من الباب المؤدى إلى طابق زوجته فوجئ بسعدية تخبئ تحت الدرج قائلة :

- ماذا كان يعمل الشيخ يا برهوم

- فأجاب وهو يكاد يقهقه والإبتسامة تملو وجهه :

- ليزوجنى من سيدتى .. أتريدى شيئاً منى بعد ذلك ..

- جتك خييه عليها هاتطلّقك تان .. دا مش توبك جتك حسرة وبصقت

نحوه ..

- أريدك أن تفهمى جيداً .. أننى زوج للأميرة وفى إمكانى أن أوشى بك عندها .. لكننى لست حقيراً حتى أفعلها .. إننى فقط أريدك أن تعى وتتأدى .. قليل من الأدب يا سعدية ..

وتركها وصعد إلى الأميرة .. وهرولت سعدية نحو غرفتها تبكى بصوت عال وهى تتمتم بكلمات غير مفهومة ..

.. كان القمر لا يزال بازغاً فى الأفق ينير قباب المدينة العالية وفى الغابة يسطع

فى أغصان الشجر .. بينما البيوت والشوارع والخوانيت غارقة فى الظلمة .. ولم يعد فى قصر صديق يحى غير الحرس والسيدة الكبيرة تصارع الموت ، وسميرة تتعرى أمام الرجال الذين يدخلون القصر فى سفور ، وبسنت الابنة الصغرى تحاول بجهد قليل مراعاة والدتها .. والتى كانت رئيسة للمدينة ذهبت الآن فى ضيافة الحاكم الكبير تعلم بهروب سلامة وأن شقيقتها سميرة تتهيا لترأس المدينة وأنها تقابل كل يوم رجالاً تختار منهم حرس الرئاسة الجديد ، وتوقع على قروض البنوك وعقود مقاولات المباني وبيع الأراضي الجديدة على أن يتم إعتماد هذه الأوراق أولاً من ثروت المناديلى المشرف على شئون المال بالناحية .. ولم يمنع قرض لمقترض إلاً وزكاه المناديلى ولم يترك ثروت واحداً إلاً وقبض عمولته منه كل حسب قرضه وكان يساعده جماعة من مريديّة مثل حمدي سعيد لشئون الطرق ورمضان البوريّتى لشراء الأراضي وعاطف السيد للمعامل والمصانع .. وكان لكل واحد من هؤلاء جماعات تساعده على عمله وهم جميعاً يتقاضون عمولة من ثروت المناديلى وعمولة أخرى مستترة من أصحاب الطلبات المقدّمة .. وكانت الأموال التى يقوم بتوريدها ثروت إلى القصر كل يوم تزيد على مئات الآلاف من الدراهم من بيع الأراضي وإستغلال الكازينوهات العامة وضريبة الملاهى ورسوم الخوانيت ، والقروض التى تُصرف للمقاولين وأصحاب الأعمال كانت تصرف من نفس الأموال الواردة ، وكانوا جميعاً رجالاً ونساءً أمّتشرين فى أرجاء البلدة وضواحيها برخصة تعلّق فى صدر كل منهم كُتب عليها مندوب مالى ، وكانت أموال الثرى صديق يحى والد سميرة محفوظة فى خزائن بالقصر الذى كانت تقيم فيه الرئيسة السابقة نيروز ، يحرسها رجال أشداء مقاتلين من الذين طلبوا البقاء فى المدينة من أفراد الجيش الغازى ويقوم بإدارتهم رجل ذو بأس شديد يطلق عليه لقب زمخروش واسمه الدرديرى الديب .. كانت المدينة تتعش فى ظاهرها تجرى فيها أسباب الغنى .. أراض تباع وتشترى وطرق تُرصف ومصانع تقام وملاء تنتشر وسيارات فارهة تجوب الشوارع ونساءً يرتدين ملابس أحدث موديل يجب أن أزقة المدينة وحواريها .. فهن فتيات صغيرات كن فقيرات من الأحياء الفقيرة وأخريات جئن من الضواحي ومن بلاد أخرى مجاورة ، ونساء تركن أزواجهن الفقراء وذهن للعمل فى السمسرة والملاهى ومحلات الزينة والحلاقة .. وأخريات فى الليل يقفن عند النواصى والميادين يرتدين الملابس الشفافة والمثيرة .. إنهن نساء الخدمة الليلية..حتى الأحياء

الفقيرة كانت تقف فى شوارعها نساء لهن نفس الأعمال لكنهن أقل درجة فى الجمال والأبهة وحتى يتم سد حاجة الشباب والرجال فى تلك الأحياء .. وكان يدير هذه الحركة الليلية للنساء عدة رجال يمرون بعرباتهم عليهن من حين لآخر وحتى يتأكدوا من قيامهن بواجبات أعمالهن كما ينبغي .. كانت مظاهر الغنى كثيرة ومتعددة.. لكن الفقراء هم الفقراء وإن تغيرت أعمالهم أو تبدلت ملابسهم أو أحذيتهم فالأحياء الفقيرة تملأ بطن المدينة وأطرافها .. ولم يتقدم غنى ليهدم حياً فقيراً ليقيم فيه بيوتاً جديدة .. ولم يظهر من صاحب مال بادرة إنشاء مصنع حقيقى يقدم سلعة تشبع رمق الفقير أو يقيم منها رقيق الحال حرفة له .. بصناعة عدة أو جهاز أو أداة .. إنها جميعاً صناعات فالصو .. لقد أقاموا من كانوا نصابين أو سارقين أو سماسرة منحرفين .. إنها صناعات .. حرنينى طيطه طيطه يا فرخة يا أم البطة .. وكان كثير من أبناء الأحياء الفقيرة يعملون عند أصحاب هذه الرأسمالية الجديدة لكن بأجور بخسة ، وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى باعة متجولين للخبز والخضار والملابس والعطور المغشوشة ، وانتشر كثير منهم فى الساحات والميادين الشعبية .. وكانت تطاردهم بلدية البلدة ورغم صرايحهم مع رجال تلك البلدية إلا أنهم كانوا يعودون إلى أبنائهم يحملون الضرورى من الطعام .. وكان هناك كثير من العبيد رجالاً ونساءً جاءوا من بلاد بعيدة ودقوا خيامهم فى ساحة واسعة تحضن المدينة من ناحية الشرق ، حيث أصبح الأثرياء لا عبد لهم فثروت المناذيل الذى كان فقيراً لا يجد لقوت يومه غير الخبز المقدد أصبح لديه عبدان وعبدة وكل من هو على شاكلته أو أقل ، إن الرأسمالية الجديدة جعلت الفقراء وهلافت أمس أغنياء وسادة ويملكون عبيداً وقصوراً .. وكانت الأميرة نيروز رئيسة المدينة السابقة قد لاقت ترحاباً كبيراً لدى قصر الرئاسة بالعاصمة ، وأن الرئيس يمهّد كثيراً من الأمور الخاصة ، فلقد أصبح وشيكاً أن يصدر قرار رئاسى بتعيينها محافظة للمنطقة الشمالية بأكملها .. ولقد اصططحبها الرئيس فى زورق ضيفة عليه حيث إنطلق بهما على أمواج النهر ماراً بالمدينة كلها وكان الرئيس يقبل وجتها فى رقة بالغة مهتاً لها بالمنصب الرفيع .. وكانت المحافظة تستسلم حتى أخذها بين ذراعيه وكاد يلقيها فى قاع المياه الصاخبة مهزراً مداعباً ولماً وضعها فوق مقعد الزورق قالت له :

- أنا فداك يا رئيس ..

- ما رأيك أن تقضى معى الليلة فى قصرى الخاص الذى لا يذهب إليه غير الخاصة مثلك ..

- وكيف والرئيس يدعونى أن أرفض طلباً له .. أنا ملك لك .. ربنا يخليك للعروبة .. ودخل بها وأعطته كما تمنح النساء الملوك .. كانت تريد أن تكون له كل النساء .. إن نيروز طموحة وعينها أن تصبح رئيسة للحكومة فى يوم .. وقضى معها ثلاثة أيام لم يذهب فيها إلى امرأة أخرى ولم يغادر قصره هذا الذى شيد وسط جزيرة تحيطها المياه من ثلاث جهات .. وكان الرئيس ينهل من أنوثتها وجمالها وكانت نفسه تحدّثه بأن لديه امرأة حفيذة إقطاع المنطقة الشمالية .. ولما كان أجدادها يملكون الشمال ، القصور والأراضى والعز كان أبوه يعمل راعياً للأغنام عند عم له لا يملك غير أفدنة قليلة إنه سليل أسرة ريفية متوسطة الحال .. وإنه الآن رئيس البلاد وفى يده أن يضع نساء البلاد جميعاً تحت إمرته .. كم كان لذيذاً أن يأتى بامرأة كهذه .. وكيف كانت تمتعه معها لقد كان يقول وهو يضاجعها .. صنعُ جسدك من أرقى أنواع الحلوى .. فكيف بامرأة مثلك تتزوج من كانى جاء إلى بلادنا لبحث عن لقمة عيش .. وكانت لا تتكلم ولا تنبس بحرف كلمة واحدة .. كانت تتدلّل وتبتسم وتتأوه له كلما وجدته يلهث .. وفى اليوم الثالث أخذها فى زورقه مرة أخرى وكان رابط الجأش هادئاً وكأن عقله عاد ليصحو فتذكر أنه حكمدار دولة كبيرة وقال وكأنه فى إجتماع رسمى :

- أريدك أن تساعدنا فى القضاء على الزمرة المتمردة فى الجبال

- وكيف أساعدكم .. وهل معى شئ ..

- سوف نزودك بوحدات كاملة من الجيش .. ما عليك إلا أن تقودها لتحقيق ذلك ..

- ما هو المقابل يا سيادة الرئيس ..

- نائب الحكمدار للمنطقة الشمالية ..

- بس ..

- وماذا تريد بعد ..

- عندما أسافر إرسل وحداتك وسأهني لها معسكراً حول البلدة .. بعدها نخطط كيف ننفذ هدفنا ..
- وهناك شيء آخر
- ما هو
- ما هو إتحاهاك ..
- إمراة ..
- إتحاهاك السلساسى ..
- إمراة .. إمراة قاءرة ..
- أنت فى نظر الشمال لك قدر كبير .. وما زلت أنتظر الإجابة ..
- أنا إينة المال والقصور .. إتحاهاى الأ يقام قصرأ آخر غير قصورنا ، وأن يظل الناس فقراء حتى أظل دائماً ملكة فوق الجميع ..
- وما رأيك وهذه الرأسمالىة التى ظهرت بشكل كبير جداً فى الشمال ..
- شوية هلافيت .. لكن هذا كان طبعياً بعد الحرب ..
- أنت تعرفين أننا نطبق الإتحاها الإشتراكى فى البلاد جميعها .. عدا الشمال هذا ..
- أريد معرفة دورى بالضبط ..
- أن نساعدى تلك الوحدات بعد القضاء على المتمردين .. أن تقفى معهم بالمال والمؤن حتى يحدث الإتحاها .. ونمسك الحرامىة كلهم .. يعنى القضاء على الرأسمالىة ..
- وأنا ماذا يكون مصيرى ومصير عائلتى .. إننا نحن الأم الرئيسى لهذه الرأسمالىة ..
- أنتم إقطاع قديم وسيظل كما هو بركنه وتقاليدہ كما كتم فى الماضى .. ولن نمس أراضىكم أو أموالكم فى شىء ..
- وكيف يكون مجتمعا إشتراكيا ونحن هكذا بقصورنا وأموالنا ..

- أنتم من طبقة الحكام ..

- حكام العهد الجديد .. وكيف يكون لحكام الاشتراكية قصور .. ؟

- بالفعل .. الهدف هو الإستيلاء على أموال العقارات وآلات هذا المجتمع الجديد لتقيم مجتمعاً إشتراكياً ولتصبح كل هذه الأملاك أملاك دولة .. ملكية عامة ..
- وأين الدولة هناك ..

- أنت وأبوك

- لا نستطيع .. إدارة دولة بهذه الصورة .. إننا ندير مقاطعة بشكل مدنى وليس من عاداتنا إراقة الدماء ..

- الدماء لابد أن تراق .. لكن فى أقل الحدود..

- يا سيادة الرئيس أنت تريد أن تكون هذه المنطقة تحت سيطرتك .. لماذا لا تكون كما هى وتكون تحت وصايتكم أيضاً بواسطتنا .. إننا سنهئ لك ذلك .. أنا أفضل أن يكون الناس أحراراً

- لا إنهم كانوا فقراء ورأسماليتهم ظالمة .. النظام الرأسمالى الحقيقى ليس فى بلادنا ..

- لو أقمتم أنتم رأسمالية لكانت عادلة ..

- تقصد نحن عائلة الخالدى

- نعم ..

- ألم تكن واحداً من الشعب وكان الإقطاع فى رأى مثل أليك أيامها كان ظالماً .. فى البلاد التى حولنا سقطت تلك الإشتراكية .. لماذا تلجأ إليها ؟ هل هذه عادة الجنرالات ..

- سوف نطبق إشتراكية جديدة

- ومن هى السواعد التى ستقام عليها أركان تلك الإشتراكية

- عمال المصانع والمعامل ..

- فى كان عمال المصانع حكموا القطاع العام الذى هو صلب النظام الإشتراكى إقتصادياً ثم سرقوه ونهبوه .. وفى الآخر بعد أربعين سنة عملوه قطاع أعمال وبعدين ..

- لم يعرفوا الطريق الصحيح لتطبيقه ..

- كان هؤلاء العمال هتيفة وصميمة لمبادئ الإشتراكية النظرية التى تأتينا بنظريات عديدة ولتحقيق العدل والحرية ولما أداروا الشركات خربوها وزى ما قلت لسعادتك نهبوها وخلوها عزب لهم ولشللهم وأسرههم .. وكانت النتيجة إنهم إقتصاد بلد .. ودولتتى خلوها رأسمالية ..

- لابد أن تكون الرأسمالية إقطاعية فى الأصل .. الرأسمالية الصحيحة لها أهلها ..

- يعنى إيه

- أبناء الفقراء لما يقيموا الرأسمالية بيخربوها برده لأنهم يتقمون لماضيهم الجائع ..

- أmaal عجيب مين يعمل الرأسمالية

- أبناء الإقطاع .. الناس أصحاب الأصل إلى مثلكم .. الشبعان عمره ما يظلم .. أقصد إلى شبع وهو صغير .. الفقير إشتراكى طول ما هو فقير لكن لما يغتنى بيتحول إلى حوت .. إن رأسمالية العالم الثالث فى الوقت الحالى أصحابها من كانوا فقراء ولذلك فهى رأسمالية فاسدة لأنها لم تحقق أى عدل أو كرامة لبشرية هذه الشعوب .. إن أصحاب هذه الرأسمالية حثالة مجتمع بأكمله .. وعليه فانا أريد إنقلاباً ضدها ..

- طيب أنا موافك .. بس بلاش إشتراكية ..

- أنا قلت .. فى أبناء الإقطاع القديم ليصلحوا من الرأسمالية .. أو يقيموا رأسمالية عادلة ..

- إنقرض أبناء الإقطاع .. لقد سافروا إلى بلاد أخرى ولم يعودوا .. وفى

مدينتنا هذه يوجد بعضهم فمنهم المريض والأهبل والسكير والشارد والمغمور والغاية .. إنصهروا ..

- أفهم منك أنهم رحلوا وأن الباقين لا يصلحون أن يعالجوا أنفسهم وضحك الحكمدار بأبهة وقال ثانية :

- يعنى لم يبق إلا أنت

- ألسن أهلاً لأن أقوم بهذه المهمة

- ومن أجل هذا أثبت بك ..

- لكننى لا أستطيع أن أنادى بالإشتراكية لأنها بإختصار ألفضاء على رأس المال الخاص وهذا قمة الحرية التى نادى بها الأديان جميعاً .. فكيف أنادى بشئ يؤدى فى النهاية إلى تقييد حرية الإنسان .. ويمكن معالجة ذلك بوسائل أخرى مرنة ..

- إذا أنت تناصرين الرأسمالية الجديدة ..

- أنا مع الرأسمالية إذا حققت العدل للإنسان ..

- إنها لم تحقق أى شئ غير مصلحة أصحاب هذه الأموال ..

- المشكلة ليست فى الرأسمالية ولكن فى أصحابها ..

- هل نستطيع تغيير الرأسماليين .. ونبقى على الرأسمالية ..

- إن الذين يستعدون للتغيير جميعهم إشتراكيون .. وإذا إنقضوا على الرأسماليين إنقضت الأموال وأصبحت ملكية عامة .. معناها تدمير الحافز الشخصى وأن نصل فى النهاية إلى إقتصاد خرب كما حدث فى كان وكافة الدول الإشتراكية فى العالم .. وإن أصحاب الإدارة فى أى شركة أو هيئة يسرقون الأموال العامة وينهبونها بل ويهربونها للخارج ، ويصبح لدينا حيتان ألفن من الرأسماليين .. فطبقة الإدارة فى النظام الإشتراكي هم الرأسماليون الفاسدون فى النظام الرأسمالى بل أضل ..

- إذا نحن البشر فى حاجة إلى نظام عادل .. ويجب علينا ألا نلجأ إلى أى من

النظامين اللذين إعتنقتهما الإنسانية طويلاً ..

- النظام موجود .. لكننا لا نستطيع أن نقيمه ..

- هل قام أحد بتطبيقه فى الشرق

- ولا فى الغرب ..

- إذا كيف تطبق نظاماً لم يجربه أحد ..

- المشكلة أننا نطبق تجارب غيرنا بعد أن فشلنا فى مجتمعاتهم .. إننا دائماً

نبحث عن الذى يلقونه فى سلة النفايات .. وليس لنا تجربة خاصة بنا ..

- وماذا تطبق الدول الأخرى من أنظمة الآن ..

- إنها تطبق نظام الحرية الذى يحقق أكبر عدالة ممكنة للناس ..

- وماذا يسمى هذا النظام ..

- إنه نظام غريب .. لكنه خلاصة تجارب خاضوها مع شعوبهم .. لقد أخذوا

كثيراً بأسباب العلم وأخذوا كثيراً من مضمون كلمة العدالة .. وكثيراً أيضاً من

جوهر حرية التعبير وحركة التغيير التى تأتى فى النهاية بمزيد من العدل لكل الناس ،

وإنهم دائماً يتحولون ويتحركون نحو مزيد من وسائل توفير الأعمال للناس وإنشاء

مصانع حقيقية وإستغلال كل شبر فى أراضيهم .. إنهم يعملون فى حركة ديناميكية

وكانهم زورق يبحر موج البحر .. كل ذلك فى صمت وفى تجديد وتحديث .. إنهم

دائماً يبحثون عن كل ما يفيد الإنسان ويؤمن غده .. الشعوب ليست فى حاجة إلى

شعارات ..

- إذا ما إسم هذا النظام حتى نقيمه ..

- ليس مهماً الإسم .. ولكن المهم الوسائل وتحقيق الأهداف الطيبة لكل

جموع الشعب ..

- وكيف نعمل كما يعملون

- إنتى يا سيادة الحكمدار سوف أعود إلى بلادى لأفكر فى الإجابة

- لاتنسى أن تأخذى القرار الرئاسى بالديوان ..

- ما هو مضمون القرار يا سيادة .. وقامت لتتحنى ..

- أنت رئيسة المنطقة الشمالية .. رئيسة لأربع مقاطعات ..

- ومن يمسك محافظ المدينة ..

- عيّن أنت ماشئت من أهل الخالدى ..

- هل تنفع أختى سميرة ..

- إذا كانت جميلة مثلك قومى بتعيينها .. بشرط أن يكون عندها إستعداد دائم لأن تزورنا فى العاصمة .. كما فعلت أختها الكبرى ملكة الشمال كله ..

... وكان الهواء شديداً يصفعُ إنفلاق الأمواج التى يميخرها الزورق ، لكن البحر رغم الرياح الشديدة كان يتسم ولكن فى فتور كأنه لا يرتضى أفعال راكبيه ، ولما إقترب القارب الرئاسى من الشاطئ كانت الأمواج تتصارع حتى تلامس الشاطئ الرملى .. وكان الزبد الأبيض سرعان ما يتلاشى لما يلامس الرمال ، وكان الجند والحاشية تتأهب لرسو زورق الرئيس الذى كان يقوده بربرى . وكانت أشعة الشمس المنخوقة فى الأفق قد بدأت تغيب وسحاب السماء حول قرصها يُغيم .. وكانت محافظة المنطقة الشمالية مبهتجة فى مقعدها والرئيس يقعد بجوارها منهمكاً فى تأمل إنبساط البحر اللانهائى .. ودخل المركب الرشيق إلى المرفأ وهنا تعالت أصوات الجند قائلة وهى تدك بأقدامها الأرض كتفان سلاح .. سلام سلاح .. وشعرت الأميرة نيروز بثقة كبيرة وهى تتأمل حرس الشرف بجانب فخامة الحكمدار .. وسرى الهواء بصوت موسيقى العسكر وكانت أمواج صغيرة بزبدها ترش الشاطئ فى إنكسار وتعالت أصوات المآذن بأذان العصر .. وكان شئئ جسوراً قد إحتشد به قلب الحكمدار فلم يغلب على نفسه إلا زهو رخيص أخذه بعيداً كأنه نفر من الناس إنفصل عن كل ما تصدح به دور العبادة .. إن البحر دائماً ينيق ولذلك فإنه أبداً ينعش كل من ركبته .. وأعماق البحر مليئة بالكنوز والأسرار والخيرات وليس كل من ركبته أدرك أسرارهِ .. إن الحكمدارية دائماً لا يدركون الأسرار إنهم فقط يرون تحت أقدامهم فهم دائماً يقومون بتوزيع الغنائم على من تستهويهم أنفسهم

ويفسقون في الأرض ..

.. وكانت الأميرة لا تفيق لأن الجاه والسلطان الذى أغدق كان مذهلاً .. ولما كانت تستعد للعودة إلى الشمال وحرسها يعدون حقائقها ويلفون الهدايا التى حصلت عليها من أبامرة قصور الحكم وصلتها رسالة من أبيها فلما فضتها كان فحواها :

السيدة الفاضلة .. محافظة المنطقة الشمالية .. حيّاك الله ..

عندما تصل جلالتك المعظمة إلى البلاد غداً .. قومى بإصدار قرار بتعيين العزيزة سميرة رئيسة للمدينة وتوزيع هذا القرار بإقامة الحفلات والزينة فى ميادين وشوارع البلدة وسوف أصلكم بعد ثلاثة أيام عندما أنتهى من إجراء بعض الصفقات التجارية .. وأهنتك بمنصبك الرفيع الذى بثه التلفاز فى أنحاء البلاد وكم أنا فخور بك وبشجاعتك العالية فى مباحثاتك الثنائية مع فخامة الحكمدار ..

والى اللقاء

والدك / صديق يحى الخالدى

ومرّت الأيام فيها شفى سلامة وقام من رقدته وكان فى الليل والنهار يتمشى وحده فى طرقات الجبل والوادى ويجلس فوق التبة العالية يتأمل أنوار المدينة، وفى ليلة كانت تجالسه يحكى لها عن المدينة وأحوالها وكيف أتى إليها وحال الناس قبل وبعد الحرب وكانت تسمعه باهتمام شديد غير أنها سألته عدة مرات عن ماذا كان يعمل فى القصور فلم يجبها ويدخل فى مواضيع تغطى على إجابته لسؤالها .. ولما توسّلت إليه فى دلال وهى تضع رأسها على كتفه وهما يقعدان فوق التبة قال وهو يتسم :

- كنت أعمل رجلاً ..

- وهل هناك عمل اسمه رجل ..

- زى التور كده ..

- يعنى إيه ..

- تور طلوقه

- مش فاهمه حاجة ..

وشدها من شعرها فى عنف فصرخت .. وأخز يجذبها مرة أمامه وأخرى خلفه فتعرت وراحت تصرخ وهى تضحك وشعرت بمتعة لم تشعر بها من قبل وتلذذت من نسيم الليل وهو يمرجها حتى تعبت ذراعيه فتوقف .. فأثارها النسيم مرة أخرى وكانت السماء القسيحة والسُهب الممتدة على إمتداد بصرهما وسكون الجبل وشعور كل منهما بتقهقر يهزه ، وشحذ سلامة بصره نحو المدينة وتشبثت ب صدره ثم ألقت بوجهها فى حجره .. وأدرك بأنها قد تقهقرت بالفعل وأن على أفكاره أن توقظه والأى يتقهقر معها فرفع وجهها وصدرها إلى صدره وعانقها كأن أخاً يعانق أخته بعد فراق وبكت وجسدها يرتخى فوقه . وحمل جسدها عنه ووضعها برفق ممدودة على الرمال وراحت فى غيبوبة .. ومر بعض الوقت وهو يتدبر كيف يدخل المدينة متخفياً ثم آوى إليها فى مرقدتها يتأملها وقال هامساً وكأنها تسمعه :

- لقد عرفت ماذا أفعل .. حقيقى أنت أميرة الجبل .. سوف أدخل الليلة ..

وأناقت الراقدة رويداً رويداً حيث كان يردد كلماته .. لكن سوف أدخل المدينة الليلة .. هى الكلمات التى أفلجتها فقامت إليه وكان شيئاً ستفقده :

- ماذا .. تذهب إلى المدينة وتركنى ..

... ومسح على جبينها مشفقاً :

- لا .. إننى سأعود .. هناك المال الذى تركته سأتى به حتى أقيم بيتاً هنا ..

وأستزرع تلك السهب الممتدة فى الوادى و ..

- لا .. لا تأتبنى بمال وكيف أضمن أنهم لا يمسونك ..

- سوف أدخلها متخفياً .. ساعدنى على ذلك ..

ورمته بنظرة حادة وقالت وهى تنهض :

- تعال نزل إلى البيت ..

.. وكانت تهوّل أمامه حتى بلغا داخل الكهف وجلست أمام صندوقها
وقعد خلفها فوق دبشة من الحجر وإستدارت نحوه وقد أمسكت بيدها فنيّنة
بها سائل أزرق مغموساً بها قلماً أو ريشة ولما أخذت تقلّب ما فى الزجاجاة قال
لها :

- ما هذا ؟

- سوف أجعلك جبلياً .. غجربياً

- كيف ؟

- إنه مستحق سنزيله عندما تعود بالماء الساخن ..

... وكانت يدها ترتعش وهى ترسم على خديه نقشاً يدقّه العجر .. ثم
نقشت على ذقنه خطوطاً ورسمت فيلاً صغيراً يدهس بقدميه تلك الخطوط ،
وتناولت شالاً لزوجها ولفته فوق رأسه ثم قالت وهى تهقه :

- لا تنس أصلك أنك غجربى .. وغجربى قديم إن كثيراً منهم لا ينقشون هذه
الرسوم الآن ..

وسكتت قليلاً ثم أردفت تقول :

.. كان زوجى يعمل بعض الوقت سائماً للسكاكين سوف أدريك على تلك
العدة وكيف تنادى .. فلتدخل المدينة سائماً للسكاكين .. وتقول ووضعت كفها على
أذنها :

- أسن السكينة وأسن المقص .. هكذا .. وكررتها حتى يتدرب عليها ..

وأخذته إلى عرقوب بالكهف وشدت ماكينة السنّ ومسحتها ثم جرّتها إلى
خارج البيت حيث يسطع نور القمر عالياً .. ووضعت قدمها على الجنزير فدار حجر
السن كالرحى وأمسكت سكيناً تلامس به الحجر فتطاير الشرر ولفح وجهها فلم
تكثرث وقهقت ثانية وقالت :

- إنه لن يحرقنى .. لقد حملت هذه العدة على كفى وذهبت مع زوجى كثيراً

كى أساعده أينما ذهب .. وعليك أن تمرر السكين عدة مرات ثم تمسحه بقماش وتناوله للزبون ..

ودخل سلامة إلى العدة كى يفعل .. وتدرّب عليها حتى تعلّم ..

ولم يناد مرة واحدة حتى يسُن سكيناً أو مقصاً .. فلم يعره أحد أى إهتمام غير أن الأطفال كانوا يجرون خلفه ويمسكون بالعدة التى يحملها على ظهره ويصرّخون قائلين :

- قول يا راجل .. قول أسن السكين والمقص .. قول ..

ثم يفرون هاربين إلى ديارهم ، وكان يرتدى حذاءً قديماً ممزقاً .. وإختصر الطريق إلى القصر القديم من شوارع متعرجة صغيرة بعيدة عن المنافذ التى إعتادها من قبل ، كان الباب موصداً بسلسلة حديدية فى مؤخرتها قفل كبير .. وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد أحداً ونادى بصوت حذر :

- يا سعدية .. يا برهوم .. يا سعدية

والصمت يُلَفّ الجدران والوحشة تكتف فناءه .. التوافذ موصدة وكافة الأبواب مقفلة حتى الباب المؤدى إلى حظيرة الجياد .. وكان يمكنه تسلّق السور من باب القصر الخلفى لكنه أرجأ تلك الفكرة وحتى لا يمسك به أحد .. ونادى مرات أخرى ولا من سامع .. وإقتربت منه دورية من الحرس المشاة فى الليل فحشر رأسه بين قضبان البوابة وزعق كمن يتنادى على امرأة بالداخل :

- عجلى بسكاكينك .. يا ست بسرعة يا ست عايز أمشى ...

ومرّت الدورية من خلفه وقال أحدهم له :

- يا غجرى ..

فالتفت إليه قلقاً ..

فقال نفس الرجل الذى يمتطى فرسه :

- يا غجرى .. إذهب إلى الأحياء الفقيرة .. هذا قصر يا زفت ..

وإنحنى سلامة معتذراً ولكنه قال والدورية تكاد تبتعد عنه وتدخل فى شارع آخر :

- إن سيدة بالداخل دعتنى أن أنتظر ..

فلما إختفى العسكر بصق على الأرض وسمع صوت باب يُفتح ووقع أقدام تقترب .. وراها أمام عينيه .. سعدية بنت منصور وهى منزعجة ترفسُ بقدميها الأرض زاعقة :

- يخرب بيت أبوك ما عندناش سكاكين هوَّ بالعافية وسمعت الرجل يقول :
يا سعدية .. يا سعد

وبحلقت إليه .. فإذا بنقوش العجر تملأ وجهه .. لكنه وجه تألفه .. وإقتربت أكثر وهى مشدوهة قائلة بلى فيها :

- يا لهوى بالى .. إنت قريب سلامة .. إنت جايلى منين داهية ..

ومدَّ يده وطفق يضحك وأمسك بخناقها ولحقها قبل أن تصرخ :

- أنا سلامة .. سلامة ..

- أع ياليلة سودة .. ولأ عفريت سلامة ..

لا لا تخافى .. أنا والله سلامة .. إفتحى وأنا أقول لك على كل حاجة ..

- ومين نيلك كده

ومدَّت يدها لتمسك بيده كمن تتأكد أنه هو ، وأخرجت بيدها الأخرى مفتاحاً من صدرها ولفته فى ثقب القفل فانفجرت السلسلة عن القضبان ودخل من فتحة صغيرة واستدار ليقفل الباب ثم وضعت يدها على ظهره وتقدمها نحو غرفتها وهى ما زالت تتحسس ظهره قائلة وهى لا تصدق نفسها :

يا ليلة بيضة .. عمالين يدوروا عليك فى كل حته وإننت داير سايح نايح فى البلاد بتسن سكاكين .. إيه إللى جرى هو إنت غاوى فقر ..

وقعد على فراشها فى غرفتها يلتقط أنفاسه .. وراحت تقبل رأسه وتأخذ يديه

بين أكفها لتضعها على وجهها وتلامسها في رغبة ونشوة وقال محاولاً إبعادها قليلاً
عن تهورها :

- ألم أقل لك عليك ببرهوم زوجاً ..

- آه هو أنا لاقية حد .. حتى برهوم خدته سنى ..

- ستك مين ..

- ريماء .. إنجوزته تان ..

- ألم تجد وجيهاً تتزوجه ..

- لا وجيه ولا أمير .. لقد جربته إنه رجل مثل الثور .. وزى الخاتم فى
صباها يا سيدى هى مش ناقصة أوامر من أمير .. والله دى أميرة خلاصة ..

وكان إندفاعها يكاد يهدأ فأخذت تدفعه ليستلقى على الفراش لكنه كان
يدفعها فألقت برأسها بين ركبتيه متوسلة أن يضاجعها ، لكنه أمسكها من كتفها
بيديه وقال محاولاً تهدئتها :

- دعينى أقم بمهمتى التى أنيت من أجلها ..

وقعدت على الأرض قائلة :

- هكذا أنت دائماً تكبر على العبيد .. لو كنت مسلماً حقاً لتزوجتنى فى السر
.. ألم يكن ذلك عمل طيب لإمرأة تراها أرملة منذ سنوات ومتبهدة ..

- المسلم الحقيقى لا يتزوج فى عجلة ولا يتزوج فى السر .. ليس الأمر بهذه
السرعة .. إهدئى يا سعادى .. أنا لا أحب الستات الحيوانات ..

- كتر خيرك يا سيدى .. أنا صادقه وغصب عنى أمال أروح لمين ..

- لو صليت يوماً واحداً لتهدأت أخلاقك .. ما بالك أن تديمى صلاة كل
وقت .. إن الله يغنيك كثيراً .. وسوف تقل هذه الإندفاع الحيرانية ..

- كلنا بتتكلم يا سيدى .. الكلام حلو أوى .. أنا طول عمرى فى خدمة أهل
القصر منين أجيب وقت للصلاة ، وهل منعتك صلاتك عن نزواتك ..

- إنها تمنع عني الكثير وقليلاً ما أخطأ ..

- الصلاة كما أسمع يا سيدى .. المفروض تحوش النفر منا عن الخطأ
خالص .. لكن أنا شايفاك من يوم ما جيت القصر عنيك على الستات ..

- لولا صلاتى لكنتُ فاجراً .. إسمعى يا سعدية .. كيف حال السيدة
الكبيرة ..

- إنها فى حالة غيبوبة دائمة .. إنها تناديك .. هل تعرف الشيخ ضياء بن
على ..

- أسمع عنه ..

- لقد أحضر لها سيدة تُدعى نازلة عزت لتكون لها جليسة دائمة .. تحدثها
وتحكى لها وتسرى عنها إنه لم يأت لها بهذه الجليسة من فراغ .. إن السيدة تصرخ
من الفراغ الذى جرى لها .. حيث إنصرف الجميع عنها إلى حياتهم

- لها الله كما للناس جميعاً .. إنها تملك هذه المدينة .. المدينة ترعاها فى الحياة
وعند الموت ..

- عندما يفقد الإنسان بصره فإنه لا يملك أى شئ .. لقد فقدت الرؤية التى
ترى بها الحياة .. وإن المدينة لن تنفعها فى الحياة كما تقول .. فكيف تنفعها عند
الموت .. ثم إنتفضت واقفة وأردفت قائلة :

- شوف خلى كلامنا بالبلدى .. إيه اللى جابك المدينة بالشكل ده ..

- هاروح مدينة ثانية إستصلح فيها الأرض .. وأتجوز واحدة من الفلاحين ..
وأعيش حياة أهلى .. إننى أشعر بعد الحرب وبعد أن كنت فدائياً .. أشعر أن حياتى
فى القصور طالت وأن وظيفتى فى القصر شكلاً وموضوعاً لم تعد تروق لى ..
خاصة أن كل الشعب قد علم أن الأميرة زوجتى قد ذهبت إلى رئيس البلاد .. من
يومها كتر الكلام ولا بد من الهجرة ..

- وإبنك محمد ..

- إبنى محمد مثلهم .. سيكون ابن قصر حقيقى .. إنه يتربى ويتعلم مثل

الإفرنج .. إنه ابن المادة .. ولم يعد من الآن صاحب عاطفة نحوى .. هل تعلمين أنه يتجول فى المدينة بفرسه ويتطلع إلى الناس فى غطرسه وكبرياء .. عوضى عليك يا رب .. أنا كنت عايز ابن زى أبوه ..

- مش إنت إلتى اتجوزت الأميرة .. أدى مصير كل واحد يلبس غير توبه .. دى حاجه معروفة فى كل الدنيا .. خد بقه إتلقي جزاءك ..

- وعلشان كده أنا بهاجر من البلد ..

- ولو قلت لك خذنى معاك ..

- مش ها اتجوزك لأنى معقد من الخدامين أنا عايز واحدة من أسرة متوسطة

- إنت بتاع كلام وفلسفة .. أى واحده أعرابية بترعى الغنم تستهويك هاتورط معاها روح مطرح ما تروح ..

- بلاش اللهجة البايخة دى يا سعدية .. كلمينى بالعربى الفصيح .. وخلى كلامك ذوق

- أكلمك بكل اللغات .. عندى من كلّه ..

- أريد حمل أمتعى من هنا ..

- وماذا تريد منى ؟

- جهّزي العربى الكارو التى كان يحمل عليها زوجك الزبالة ..

- البغل مات .. من يجزها ..

- الحصان الكبير ميتكال .. إنه مثل البغل ..

- حاضر يا سيدى ..

وصعد إلى الغرفة التى كان يقيم فيها ورتب ملابسه فى حقيبتين وملا حقيبة بالنقود الورقية ودس فيها بعض الحلى وحمل أمتعته ونزل بها فى الفناء ليجد العربى جاهزة لحمله فقال لسعدية التى تقف تدلك جسد الفرس العجوز كعادتها :

- لا تخبرى أحداً أننى جئت وحملت أمتعى ..

- إننى مضطرة لأن أقول أنك لم تأت .. وأن لصاً طاردته فى ليلة من الليالى .. حيث أننى مسئولة عن حراسة القصر وربنا يُستر ..

وقبلها من جبينها فى رقة فاحتضنته بقوة شديدة فقال لها مهزراً :

- بلاش الحيوانية

- اللى مش طايله لحم تشرب مرق ..

- ما قلنا بلاش اللهجة دى ..

- لغاية ما تمشى ما عنديش غيرها .. على فكرة إنت ناسى عربية سنّ السكاكين هادخل أجيبها وأجيب لك بطانية تفرشها على الشُنت ..

- ربنا يخللى البلدى .. البلدى يوكل ..

ودخلت وأتت إليه فى دقائق نجر العربة بيد وبالأخرى تحتضن بطانية على صدرها ، وقذف سلامة بالعربة فوق الحقائق وفرشت سعديّة البطانية وغطت الأمتعة ..

وركب العربة مودّعاً سعديّة وممسكاً بلجام الفرس الذى إنطلق مثل أى حصان عجوز مجتازاً شوارع المدينة إلى طريق الجبل وكان يلف الشال فوق رأسه وما زالت النقوش الفجرية تملأ وجهه . وكان الطريق سهلاً فالمدينة نائمة منذ ساعة وحرس الشوارع فى الأماكن الهامة قد دخلوا تحت أغطيتهم فى أكشاك الحراسة وكان قد اجتاز طرقاتاً صعبة بعيدة عن قلب المدينة حتى وصل إلى وادى سلطنة وإنفلاق نور الصباح يكاد يبدُغ وينور الأرض ودخل بامتعة واحدة بعد الأخرى يحملها إلى الخيمة ، وكانت صاحبة الوادى تغطّ فى نوم ثقيل وفكّ العربة عن ظهر الفرس وربطه فى وتد كبير وحمل إليه الكألاً وجردلاً مملوءاً بالماء ..

... ولم تنته صلواته التى صلاًها قبل أن تبذغ الشمس ودخل معها فى فراشها يتحسّس جسدها بيده ويهمس فى أذنها مداعباً حتى إستيقظت وحكى لها أحداثه حتى عاد إليها وكانت سعديّة بيده تنتقل بين معالم جسدها وقالت له متشّية :

- لأول مرة فى حياتى يدلكّ جسدى رجل .. دعنى أخلع هذا الثوب الثقيل ..

إننى أشعر بأن حرارة شديدة تنتشر فى عظامى وتثقل جسدى ..

- إخلعنى حتى تتحرر يدى من أى غطاء ..

وإحتضنها بقوة فأنجذبت إليه وتركته وإنتعشت لحنانه فقال حتى ينال منها

أكثر :

- إننى أريد تجميل جيدك وذراعيك بالسلاسل والأساور التى جلبتها معى

- سأخلع لك كل شئ ما دمت ستغطينى بالذهب ..

- ألم يتحسّس زوجك هذا الجمال من قبل ..

- لم يكن زوجى يعرف سحر تدليك الجسد عند المرأة وهو ما أشعر به الآن ..

لقد كان فقيراً مسكيناً يأتينى كما يفعل الثور مع البقرة ، ولم أكن أعرف أى شئ آخر يفعلته الرجال مع المرأة غير أن يأتوها بعنف .. وأنها يجب أن تسلمه جسدها عن طيب خاطر .. وتوقفت يد سلامة فجأة فقالت بلهفة :

- لما تتوقف ..

- كفانى زنا .. أنا مجنون يا سلطنة .. ما كان يجب أن أدخل هكذا ..

- حرام عليك هاتجتى كده .. كملّ معايا ما تسيينيش فى النص ..

- ونزع نفسه من فراشها ونهض قائلاً :

- هكذا يفعل الجسد .. الجسد الذى يكون جيفة حين تموت هو سبب كل

مصائبى فى هذه البلاد .. وخرج من خيمتها منكوداً وتركها تشتمه ، وأمسك بعامود الخيمة ولم يستطع أن ينظر إلى السماء .. كانت الشمس قد أضحت بحرارة شديدة وكان قرصها يصدح فى الرمال والصخور وبدأت أرض السهب الممتد تسخن من حرارتها .. ورجع إليها ليستظل فوجدها عارية مكفهرة الوجه نائرة على فعلته وجلس فى طرف الخيمة وأمسك بذراعيه ركبتيه وقال يهدئ من نكدتها :

- قليل من الوقت سوف أكون لك كل شئ ..

- لكن ليس بهذا العنف من قال أن تأتيني وتجعلنى أحلق فى أبراج السعادة ثم تتركنى ..

- إن ذلك شيئاً مقدوراً عليه .. بعض الألم وليس كل الذنب ..

- عند عتبة سلطنة أنت مؤمن وأنت نائب ..

- إنهضى حتى لا يدخل علينا ولدك ويشاهدك عارية هكذا ..

ولبت جامدة بعض الوقت عارية ساهمة صامتة ثم نهضت من رقدتها قائلة :

- أين أساورك وحليّك التى حدثتنى عنها ..

- إذهى لتوقظى ولديك كى ينصرفا إلى أعمالهما أولاً ..

وقامت تعدو إلى الكوخ قائلة :

- سوف أنتهى من كل أعمالى حتى أتفرغ لحكايتك معى ..

وفتح الحقيبة وأخرج منها علبة الأساور والسلاسل الذهبية ، وحملها بين يديه واتجه إلى الفجرية فى كوخها فوجدها تجلس بينهما فى فراشها وهى تغنى فى شجن حتى يستيقظا فى هدوء .. وضع العلبة فى حجرها قائلاً هذه لك .. ثم إنصرف إلى خارج الكهف .. وتبدّل حزنها إلى بهجة وغمرها الفرح وأصابها الذهول وهى ترى بعينها كمية الذهب التى بين يديها .. لا يمكن أن يكون لى .. إنه مجنون .. سوف يدخل الآن ويأخذ العلبة منى كما فعل وتركنى فى فراشى .. وراحت فى كهفها ترتدى الأساور فى ذراعيها والسلاسل الثلاث فى جيدها .. وفى كل إصبع ارتدت خاتماً وتبقى واحداً وعلقت قرطاً فى أذنيها وبقي ثلاثة .. وقفلت علبة الكنز الذى نزل عليها دون النساء لتحفظ ما بقى من المصاغ فى صندوق الكتب القديمة وأحكمت قفله ، وتمخطرت كالسنيرة فى مشيتها تبحث عنه فلم تجده خارج الكوخ أو الخيمة ، وبخطى وثيقة تملأ رثيتها بالهواء الرطب وهى تبحث عنه خلف بيتها ولم تكن خائفة أن لا تعثر عليه .. بل من أن يرجع فى كلامه ويأخذ منها تلك الحلى وراحت تبحث عنه عند كل صخرة وهى تنادى سلامه حبيبى .. ردّ علّ يا حياتى ..

أما هو فقد أعجبه أن يتمشى خلف الجبل الصغير الذى يحضن الكهف ..

فهناك آفاق من الأرض ممتدة وتهياً له أن هناك عشرات من الناس تعمل وتزرع وتعيش فى هذا الوادى الخصب .. إنه ببعض آلات الإستصلاح وتغيير التربة وخطتها بطينة أخرى تصبح هذه السهب الممتدة من أخصب أراضى هذه البلاد .. وفى الكهف كان الولدان قد إستيقظا وأخذا يبحثان عن أمهما .. كانا يصرخان .. أمأى .. أمأى .. فتوقفت عن مناداة سلامة لما سمعت نداء ولديها ورجعت إليهما تهرول وإنحنت عليهما تقبلهما والولدان مندهشان من طبقة الذهب التى غطت صدر وذراعى أمهما فقالا فى صوت واحد وهما يمسكان بها :

- ما هذا يا أمأه ..

- إنه سلامة .. لقد ذهب إلى المدينة وأتاني به فجر اليوم ..

- وقال كبيرهما :

- من أين أتى به .. أهولص يا أمى ؟

- لا .. إنه يعمل فى قصر الأميرة ..

- وهل العمال يملكون الذهب ..

- طبعاً يا بنى .. إنه منذ سنين طويلة يعمل هناك ..

- ولماذا أتاك به ..

- فخبجت ولكنها أجابته فوراً :

- إنه يريدنى ..

- كيف يريدك ..

- يتزوجنى ..

وفى لحظات إنصرف الولدان عنها وهرولا إلى غرب نومهما فى الكهف وراحا يكيان ..

وإنتوى سلامة وهو يعود من واديه إلى خيمة سلطنة ، أن يأخذها فى الليل إلى المدينة ليعقدا قرانهما عند مأذون الحى الفقير القريب من طريق الجبل .. وتبعت

سلطانة ولديها حتى مرقيديهما وأخذت تحتضن كل منهما وتبكي كما يبكيان .. وقامت بإفطار ولديها وبعد أن تناولا شراب الحلبة الساخنة ذهبا إلى المدينة فى عربتهما كى يبيعا الزبد والجبن ويتسوقا ..

... وكانت كلماته بعد أن تناولا الطعام وبعض الفاكهة .. كلماته فى غزلها أثراً كبيراً حتى إستسلمت .. ولما أبلغها بأنه سيعقد قرانها اليوم عندما يحل المساء إستسلمت له زيادة كان يريد أن يختبر نفسه ومدى قوته فى الصمود أمام إستسلامها وإغرائها له .. بأن لا يأتيها قبل الزواج مهما فعلت .. كان يريد أن يكون مرة واحدة مسلماً حقيقياً ، ومضى الوقت الصعب حتى رجع الولدان من المدينة فقامت إلى كانونها وطهت كثيراً من اللحم وأعدت الفتة بالثوم والصلصة .. وساعدها ولداها فى غسيل الفاكهة واعدادها فى الأطباق .. إنه اليوم عرسها وفرحها .. كانت تريد أن تجرى بين الجبال تغنى وتزغرد وترقص ..

- وقبل أن تغرب شمس النهار قعدوا جميعاً حول مائدة مصنوعة من الخشب أمام باب الكوخ ليتناولوا ما لذ وطاب من طعام صنعته الفجرية العروس ، وبعد إنتهائهم من عشايتهم قاما الولدان يلعبان فى الرمال لعبة السبيجة .. وكانت الأم سعيدة بلهوهما .. كان ذلك دلالة على الرضا ولم يكن للولدان خيار لقد كانت وما زالت أمهما كل شئ فى حياتهما فكيف لهما بأى إعتراض خاصة وأنه رجل قد غطّاها ذهباً وأشبعنا طعاماً وفيراً .. وفرغت سلطانة من غسل الأطباق فى منسلها عند الطلبية ودخلت لترتدى ملابس سوداء واسعة .. وإستطاعت أن تزرر أكمام جلبابها وحتى تخفى الذهب فوق ذراعيها حيث فضلت أن ترتديه بدلاً من أن تتركه فى بيتها وسط هذا الجبل الموحش وولداها مازالا صغيرين لا يستطيعان مقاومة لص .. وفى كانون قديم لم تستخدمه منذ وقت طويل دفنت حقيبة النقود فيه وغطته بكمية كبيرة من قش حطب الذرة وأعواد القطن .. وجربت عباءة سوداء فوق جلبابها كما يرتدى سادة الغجر وغطت وجهها بالبرقع وذهبت إليه فصفق لها حيث إخفت كل معالمها وطمأنته عن حفظ حقيبة النقود وأن الولدين قد ناما فتهلل وجهه وقال كمن يهتف :

- نحيا ملكة الجبل -

- آه يا ترى أنا فى حلم ولأ فى علم .. أكادُ لا أُصدِّق .. كأننى أطير من
الفرح..

- أنت فى علم .. وتحسَّس وجهه وقال متبسما :

- وما زال النقش الفجرى بوجهى .. الفجرى والفجرية يزوران المدينة الليلة
على ظهر الفرس ميتكال ..

- هايقدر يشيلنا

- دا فرس أصيل واكل لحمه ..

- بيقه تعالى لمجوزه

- إنجوز كثير .. البركه فى إيد سعدية وغيرها .. دا تربية أميرات ..

- مش فاهمه حاجة

- مش لازم تفهمى .. أى فرس طالما ركبت عليه ست تبقة عليه خُف
الريشة..

يعنى إنت مش محسوبة .. إنت زى الريشة على ظهر ميتكال ..

- يالهورى دانا مش فاهمه حاجة .. وبخْت رذاذاً فى صدرها كما تبخ كل امرأة
خائفة ..

.. وقام وربط السرج على ظهر الفرس وهوى بقبضته على ظهره فصهل
الجواد فاهتزت رقبته وذيله ، وندت من صدرها بزفرات فرحة وطفقت بصوت مثل
سلاسل الذهب قائلة :

- فلنجرّب كيف نركب

- لسنا فى حاجة إلى تجربة ..

- ونظر إلى السماء وقال :

- وماذا ننتظر لقد دخل الليل .. وقفز فوق ظهر الحصان وسار به قليلاً نحو
باب الخيمة كى تصعد خلفه من فوق صخرة ورفعا من تحت إبطيها حتى باتت على
باب الخيمة كى تصعد خلفه من فوق

ظهر ميتكال وإحتضنته وكانت خائفة ومشى الفرس بصعوبة وأقدامه تنغرس فى الرمال حتى وصل إلى مدق به طبقة خفيفة من الرمال فسار يتمخطر ويتمايل يمنة ويسرة .. وكان الطريق حتى أول بيت فى المدينة طويلاً .. هكذا شعرت سلطانه وكان سلامة مغولاً فى أمل أضواء المدينة وأعالى مبانيها من بعيد ، وكانت مندهشة وهى ترى طرقاً وجبالاً لأول مرة لأنها منذ وقت طويل لم تذهب إلى المدينة وكانت تقصدها من طرق أخرى .. وقالت فى شغف :

- ليتك تخبرنى عن كل مكان تقابله قدر ما تستطيع .. أشعر أننى فى حاجة إلى معرفة البلدة .. وسماع حكايات أهلها قبل وبعد الحرب ..
- إننى لا أستطيع أن أقول كل شئ .. ولكن دعينى أحكى لك على الماشى ما أتذكره ..

- أنا شغوفة لسماعك .. إنت بتحكى خوش

.. وكان أول المدينة من هذه الناحية بيتٌ لرجل يدعى محمود الدبور .. وأشار بيده إلى اليمين لقد مات هذا الرجل .. وسكت قليلاً ثم تابع :

- هذا بيت كما ترين قديم من طين صاحبه كان مؤذناً لأول مسجد فى المدينة .. وكان رجلاً ضريباً .. والبيت مهجور منذ أن مات .. اليومين دولت فيه راجل يدعى فريد السبكى صاحب مصنع يريد الاستيلاء على البيت ليقيم فيه مخزناً وسمعت أن ثروت المناديلى سوف يبيعه لهذا الرجل لأنه يعتبر أملاك دولة ، رغم أن الرجل قد أودع وصيته قبل موته فى أن يؤول البيت إلى إدارة المسجد القديم وأن تقوم ببيعه وتوزيع ثمنه على الفقراء والمساكين ، أو يقام فى البيت جمعية لتحفيظ القرآن ، ولكن ثروت المناديلى المشرف على شئون المال فى البلدة .. يقول أن هذا البيت أملاك دولة وأنه سيبيعه لفريد السبكى وإيراده سيدخل خزانة القصر .. ومازال النزاع قائماً ..

- هذه حكاية طويلة .. وماذا تعنى هذه الحكاية

- تعنى العبث بوصايا الأموات .. وأن الهلافيت يدوسون الوصايا من أجل مصالحهم ..

وكانت بيوتات كثيرة قد مرّت وهو يحكى .. غير أنه سكت بعد ذلك لعدم إستيعاب سلطانة لحكايته ، وهرش فى عينيه بعصية ثم وجد نفسه يتكلم مرة أخرى وهو يشير إلى عدد من القصور يتراعى أقام ناظرهما :

- وهذا حى الزهور قام مجموعة من الرجال الذين كانوا يعملون فى القصور القديمة بالإستيلاء على الأرض بدون مقابل وأقاموا هذه التحف .. وهم جميعاً وأولادهم أصحاب أعمال وبعضهم أقام الملاهى وأشهر محلات البوطة

- وماذا كانوا يعملون فى القصور ..

- رؤساء خدم وطباخين ..

- وأنا قاعدة فى الجبل .. ذا المدينة حاجة تانيه ..

- وظهرت مقابر الفقراء فوق تبة عالية فقالت :

- يا لهوى هى دى التُّرب ..

- بتاع الناس الغلبة .. الناس المليانة قاموا ببناء مقابر فاخرة هناك. فى حى يقع آخر شرق المدينة يسمى حى الحدائق ..

- ما كانش فيه طريق تان تودينا منه ..

- إنت خافيه من التُّرب

- بدنى كله كش وشعر رأسى قشعر ..

- يا خبتك يا سلطنة .. للأسف كل الناس بتقول الكلام ده .. وسكت هنيهة ثم أردف :

- إنت عارفه إن المقابر دية .. هى أول مرحلة من مراحل الآخرة ..

- بقولك إيه أنا عايزة أعيش .. إجرى شوية بالحصان علشان أنا مخنوقة ..

وشعر سلامة بالإستياء لأنه كان يعتقد أنها وهى الفقيرة تكون أكثر أدباً وعظمة فى الكلام عن المقابر ، وإنه لشديد عليه قلة الإيمان وعزوف الناس عن الحقيقة وأن الناس جميعاً الفقراء قبل متوسطى الحال يبحثون عن المادة وبأى شكل والأغنياء قبل

متوسطى الحال يزحفون إليها زحفاً ، ماذا كنت تعتقد يا سلامة إنها امرأة

وأصلها أعرابي أو غجرى أى من قاع المجتمع .. ماذا كنت تريد أن تجد فيها
.. امرأة تختلف .. إنه يتهاى لك أنها تختلف .. والنبي إنت عيب يا سلامة وخليك
ماشى فى هيلك للآخر ..

وقالت له فجأة :

- الشنطة فيها كام ألف درهم ..

وتبرمت شفتاه وامتنعض :

- ما عدتش

وكم إبتهجت بإجابته وطفقت قائلة :

- لو أنا منك لعملت ملهى بيهم ..

- يا نهار إسود .. ولو إديتهم ليك ..

- ها أعمل ملهى فوراً .. ومحلات للبوظهة ..

... وكان سلامة يقصد الشيخ زعلول محسوب ودار هذا المأذون تقع فى
وسط المدينة .. غير أنه تذكر أن هناك مأذونا تقع داره بالقرب من هنا .. إنها خلف
تلك المقابر .. الشيخ أحمد رضوان لما لا يكون هو .. إنه أولى بالأجر .. ولماذا أدخل
المدينة وأعرض نفسى لمشاكل .. وإذا رأيت هذه الفجرية الملاهى والخوانيت
والمسارح لربما تقفز من خلفى وتدخلها ولا تعود إلى ولديها .. فلاختصر ما حدث
يستاهل الناس كلها ضايعة .. نخلص ونرجع ونشوف آخرتها ..

واحتصته بقوة وشد جسده عنها يتملص منها ولو طاول نفسه لنظرها على
الأرض ، وعليه أن يصبر حتى يتته من طريق بداه ، وكان الطريق ينحرف جهة
اليمين خلف المقابر فلكرز الفرس فى بطنه بقدميه فأسرع الجواد الخطى ، وكانت دار
مشهورة لرجل طيب مات قبل الحرب تقع على الطريق الرئيسى قبل الدخول فى
حى الدينارى الذى تقع فيه دار المأذون فقال سلامة فى سريرة نفسه يحدثها ..

عرضى على الله.. سوف أحدثها عن صاحب هذه الدار لعلها تفهم شيئاً هذه المرة
وقال فى تأثر :

- صاحب هذا البيت العتيق يدعى حداد الحاج على مات قبل الحرب
- يموت ولا يعيش أنا مالى ..

- إسمعنى حتى أخبرك عن صاحبها يا غجرية .. لقد كان رجلاً مثلاً فى
أخلاقه وبساطته وإيمانه كان الناس يأتونه من كل حدب ليحل لهم قضاياهم ..
وكانت له كلمة يسمعا وبخاصة الفلاحون القدامى وفى زمنه لم تصل مشكلة أو
قضية إلى نقطة البوليس لأنه كان هناك رجل فى الناحية وكان الناس يقدرونه
لعدله.. ورغم أنه لم يكن غنياً ولكنه كان مستوراً .. إلا أنه كان يضع كافة حيواناته
من أبقار وحمير وجمال سيلاً لكل فقير سألهم عوناً ، وكان يشتري من الفقراء كل
جاموسة عرجاء أو جمل أجرب أو قيراطاً مالخاً حتى يقضى هذا الفقير حاجته ،
وكانت زوجته دائمة الشجار معه بسبب تصرفاته هذه .. فكان يقول لها وهذه أقوال
مشهورة عنه .. أنت امرأة غبية لا تعرفين الله .. كيف أجد سائلاً ولا أعينه أو
محتاجاً لحاجة ولا أقضيها له .. أنت لا تعرفين أين تقع بركة الله ؟

- ولماذا لم يذهب هؤلاء الفقراء إلى أغنياء البلدة لقضاء حاجاتهم ..

- لأنه كان قريباً من الفقراء يشعر بحياتهم ومدى إحتياجهم .. لقد كان هذا
الرجل يعطى ما تيسر لديه .. وكان هؤلاء الفقراء يدركون أنهم لو ذهبوا إلى
الأغنياء فإنهم لن ينالوا منهم إلا التقرع والسخرية .. والسر فى هذا الرجل أنه كان
يشارك الفقراء حياتهم ويدخل ديارهم ويمشى فى جنازتهم ويعايشهم
مصائبهم ..

وتأثرت مشدودة بحديثه عن هذا الرجل وقالت متلهفة :

- وماذا عن أولاده الآن .. أهم صالحون مثله ..

- لا طبعاً ..

- إن منهم أكبر مرابى فى المدينة .. ومنهم أكبر عاق لوالديه على ظهر

- وهكذا كانت ذريته .. ألم يترك واحداً مثله ..

- يقول أن له إبناً يعيش فى العاصمة ويعمل مديراً عاماً فى إحدى الشركات ويقال عنه أنه شاعر معروف ، وإبن آخر مقاول لدى الحكومة وثالثهم من رجال القانون.. ويقال إنهم طيبون ويعملون الخير ، ولكن لا أحد يرى خيرهم ، إنهم يعيشون فى العاصمة .. إن من يعمل الخير فليعمله فى أهله .. أعنى فى بلده وليس فى بلاد أخرى .. وهكذا كما ترين فإنه لم يعد للرجل إلا أثره فى بيته هذا المجهور ، ولكن لا يوجد أحد فى البلدة إلا وترحم على هذا الرجل .. وهكذا بقى أثره .. وقالت وهى تستميله وتدعك رأسها فى ظهره :

- من يسمعك تتكلم عن الناس الطيبين وأعمال الخير يعتقد أنك حكيم أو مصلح .. وقفشت بيدها فى حجره وأردفت تقول .. ولكننى أرى غير ذلك يا شقى.. لقد عشت فى قصور الأميرات وهناك من لا يأكل اللحم يشرب المرق .. من أنت بالضبط ولماذا جئت إلى الجبل وتركت حياة النعيم .. وها أنت الآن ستزوج من غجربة مثلى ..

.. ولم يرد عليها لكنه تبسم وساق الفرس إلى وسط الحى حيث يقطن المأذون.. وأمام الدار ربط الحصان فى حلقة حديدية بالحائط ونقر الباب بقبضته منادياً :

- يا شيخ أحمد .. افتح يا شيخ ..

وفتح الباب رجل طويل القامة ملتح وقال وهو يتفحص رجلاً وإمرأة أمامه :

- أهلاً وسهلاً .. أية خدمة ..

فقال سلامة :

- جئناك لنعقد قراننا يا رجل .. وأمسك بكثفه بهزه ..

ورجع الرجل إلى الخلف وهو يجبر ضلفة الباب إلى الوراء وقال مرحباً :

- أهلاً وسهلاً .. تفضلاً ..

وأدخلهما غرفة صغيرة بها مقعدان وفرشت أرضيتها بحصيرة نظيفة مزركشة.. وكان الشيخ ينحنى قليلاً كلما تكلم ، وفضل سلامه الجلوس على الحصيرة وقعدت بجانبه ، وخرج الرجل ليحضر علبة بها الملابس وإنحنى بها لتحيتهما ثم طلع إلى غرفة مجاورة ليحضر من دولابه أوراقه وقلمه ، وإتخذ مكانه فبالتهما وقال :

- أليس معكما شهود على العقد ..

فقال الفجرية فى لهجة أغضبت الشيخ :

- إكتب الأول والشهود مش مهم .. بعدين .. بعدين ..

فقام الرجل من قعدته وقال متبرماً :

- من قال الكلام ده .. هو لعب عيال ولأى به ..

فقام سلامة إليه وربت على ظهره وكاد يقبل رأسه وقال :

- حقك على يابة .. هات إنت الشهود واعمل اللازم وأنا تحت أمرك ..

وهرول الرجل إلى باب داره وخرج إلى دكان كامل داود ليحضر من هناك رجلين محترمين كى يشهدا على العقد .. ولما عاد بهما جلس الجميع على الحصيرة.. وتم كل شئ فى قرابة نيف ساعة وكان أحد الرجلين يبخلق فى سلامه كأنه يعرفه .. وكان سلامة يتفادى نظراته إليه بالحديث إلى الشيخ .. ولما هم العريس بنقد الرجلين عدداً من الدراهم رفضا إكراميته لأنهما يقومان بهذا العمل لوجه الله تعالى ..

.. ولما إمتطى ظهر الفرس وخلفه زوجته كان شيئاً قاسياً يعتصر قلبه وأن غباءً وبلاهة لا حدود لها تملأ رأسه وتختزن فيها.. وتركها تقبله من ظهره وكتفيه وشعر رأسه، غير أنه كان يقول من وقت لآخر.. إهدنى .. بالراحة شوية .. لما نوصل .. هدى .. ما تبقى مش مجتونة.. كانت قبلاتها التى خلعتها عليه ملتبهة عجولة كأنها نار تكوى جسده .. لكن عقله كان هناك بعيداً خلف كل الأشياء .. إلى عالم لا يتلمس

مداه .. ولما دخلا إلى السهب القريب من الخيمة كان يحملق فى ظلمته كأن أشباحاً متراصة تملأ هذا المدى ، وبدأت السماء تسيل قليلاً من قطرات المطر .. ولما أصبحا على مرمى من الكهف كان تهطال المطر شديداً والولدان يقفان فى فتحة الكهف يتشدان أغنية عُجْرية .. وسارعت سلطانة إلى ولديها فاحتضنها بقوة .. فلما رآب البسمة على شفتيها والحب فى وجتيها يلمع وعينيها تبوح بالكثير من القرح قال مجيد وصوته يتهدج :

- تزوجتى يا أمى ..

- نعم .. نعم يا مجيد

فهز الولد رأسه مغتبطاً .. لكن على .. إنطوى قليلاً وإنقلب على نفسه فاحتضنته وراح ييكى ورأسه على صدرها ..

وكان المطر كفيلاً بأن يدخل الجميع إلى مرقدته ويتغطى بغطاء ثقيل ، والبرد ينصب من السماء مع تهطال شديد للماء الذى حفر جداول فى الرمال كأن بحراً تكون فى شكل برك ، ولولا ألواح خشبية صنع منها سقف الخيمة لأصبحت ترعة مياه ، غير أن الريح مع أمواج المطر كانا يضربان الخيمة بقسوة حتى تهباً لك أن الضربة التالية ستقلع الخيمة وتحط بها بعيداً .. وكانت تشعر بأن شيئاً فى داخله يعتربه ويقلب مزاجه ، فليس هذا هو الرجل الذى تلهف عليها من قبل ، وما أنذا زوجة حليلة له وفى أحضانها وهو شارد كأن عزيزاً له مات .. وانكفات عليه وأمسكت بذراعيه قائلة فى صوت حنون :

- لماذا أبت بعيداً عني .. هل صوت المطر يخيفك .. فيما تفكر ..

وتظاهر بأنه لا شئ يبعده عنها ولكن .. كان عليه أن يأتى لها بسبب بعيد وقال محاولاً رسم ابتسامة على محياه :

- إننى معك بكل كيانى ولكننى أشعر ببعض التعب .. لا شئ يخيفنى حتى ولو كان فى الجو عاصفة .. إننى فقط أقلب أمورى ..

- هل صدر منى شئ أغضبك .. إننى على طبيعتى .. خذنى كما أنا فلا قائدة أن أكذب عليك فى أى أمر .. أنا أقول ما أشعر به أننى فى حاجة إليك ولا أخفى

عنك شيئاً .. لم أفعل أمراً شائئاً حتى تشرد نيتي في ليلة زواجي .. خذني إلى
حنانك كما أخذتني من قبل ..

.. ودخل إليها .. رجل تربى في الريف النخاني ولما كبر كان أهلاً لمعاشرة
أميرات القصور .. فكان مع ريماء وهند ومع نيروز .. كان رجلاً مخضرمًا مع السادة
من النساء فكيف لا يكون مثل هذا الرجل مع امرأة من العامة ..

.. وأسعدها في ليلتها الأولى وكانت تغنى وتدعوه يا سيدي .. والغريب أن
زوجته نيروز كانت تشتمه في لقاءها معه وتلعنه بأحط الألفاظ عندما تبلغ معه ذروة
السعادة وكان وقتها يشعر بالتفوق والنجاح معها .. وأن الكلام الحلو والغناء مع
الفجيرية في نفس الموقف ليشعره بنفس الشعور ..

... وأخذ يفكر في صباح أحد الأيام أيهما أفضل .. وتوصل إلى أن لكل
واحدة طعم ورائحة وأن هذا هو أسلوب نساء الشعب أمّا نساء القصور فلهن
أسلوب آخر .. وكلاهما امرأة ولكل واحدة منهن لذة ..

.. إن سلطنة الفجيرية هي امرأة الإشرافية أما نيروز وريماء وكل نساء القصور
فهن نساء الرأسمالية .. إنهن نساء الإقطاع القديم الذي ما زال يتربع فوق العرش
رغم أن الرأسمالية الجديدة طفت على السطح وأصبحت غالبية .. ترى من هي
امرأة الرأسمالية الجديدة .. كان يريد أن يقول أنها لم تأتى فلاذهب إليها ، ولكن
أين هي .. إنها في المصانع والمعامل الجديدة بنات ونساء هؤلاء الذين كانوا لصوصاً
ومرايين وسماسرة ، إنهن نساء كل الإنتهازيين والوصوليين ، الذين يسرقون
بالقانون .. إنهم الذين يسطون على الأراضي والعقارات والمصانع والمعامل وتفتيح
المخ والرشاوى .. إنهم أخطر لصوص ظهروا هذا العصر .. إنهم لصوص القانون
وبقليل من المال يرشون مسئولى الأحياء ومديرى إستغلال المحاجر .. حتى أن
بعضهم يصرف مرتبات شهرية مدى الحياة لهم .. والمرتشون هم المسئولون من
مستشارين وحكمداية ومسئولين في كافة الجهات المسئولة وحتى يتم تسهيل
الإستيلاء والنهب إن ابنة الإقطاع تشتري الرجل بمالها وتسكنه في قصرها وتقيم له
عزاً وجاهاً ما إستطاعت .. إنهن نساء وفتيات يقدرن الرجل .. وإن ابنة الفقر والتي
تعتنق الإشرافية فإنها تعطى نفسها لأى رجل ينقدها مالا .. أو تذهب إلى الملاحى

والمراقص لتكسب مما عرقت وتعبت أو تعمل مومساً وتأخذ مكانها فى الشوارع والنواصى.. ولذلك فإنك تجد نساء الفتر الاشتراكيات أقرب النساء إلى الكفر والإلحاد.. أو أقربهن للتخلى عن كل الأديان.. لأنها تعمل كل شئ فى سبيل المال الذى يغنيها عن الفقر.. فلا خلاق لها ولا دين.. إن ما تنفوه به أولاً ماركس وأخيراً ماركس.. وجميع النساء القبيحات فى هذا العالم يعتقدن أيضاً الاشتراكية لأن رجلاً لن يتزوجها، ولذلك فإن هذه المرأة تذهب إلى كل الرجال حتى ولو كانوا صاليك.. وهم فى الحقيقة أخط الرجال خلقاً فليس بينهم وجيه أو كريم.. تذهب إليهم فى صالوناتهم الأدبية ليأخذها أى رجل منهم آخر الليل.. المهم أن رجلاً لن يدعها بمفردها وسيأخذها ليشبعها من حالة الجوع والحرمان التى تعاني منها.. إن طبق فول وإن لكعاً مثل لكع الكلاب أفضل من لا شئ.. أما تلك المرأة والفتاة ابنة الرأسمالية فإنها لا تقدر الرجال ولكنها تقدر المال عند الرجال وليس مهماً أن يكونوا رجالاً.. إنها لو وجدت الرجل مالاً لإبنتته.. وإنها إمراة شاذة تستطيع بأى وسيلة من وسائل الشذوذ أن تشبع حاجتها مع إمراة شاذة مثلها أو مع أى عضو طبى تشتريه من الصيدلية.. فهى محترفة صفقات مال وتبيع كل شئ مادام مربحاً حتى ولو كان رجل كما علمها أبوها ونصحتها أمها.. إنهن يتاجرن.. يتاجرن فقط ولا أنوثة ولا ود.. وإن كل شئ يحدث بسرعة جنونية فى الليل أو النهار وأنكم أيها السادة لا تدرن بشئ إنكم فى غفوة مما يحدث.. هكذا يترنح العالم بين ثلاثة اتجاهات..

... فكيف أستصلح أرضاً ويأخذها منى الاشتراكيون الذين يتربصون الآن بالرأسمالية الجديدة، وإن الإقطاع القديم لن يحمينى فلقد حكم عليه الزمن بالفناء.. إنه ينقرض ولا تعرف سر إنقراضه.. أخذ يحدث نفسه ويجادلها وما أسهل أن يتكلم الإنسان مع نفسه ولا يجادله أحد.. كانت نفسه قد وصلت إلى حال عسيرة كمن لا يجد مأوى، وراح يديم النظر إلى السُهب الممتدة صوب الجبال البعيدة وكانت الرمال رطبة كالطين من تهطال الأمطار التى نزلت.. يريد أن يهيم ولكن أين الشوارع والمدينة التى يجوبها.. إنه لا يستطيع أن يهيم فى تلك الجبال حيث التيه والعدم.. إنه يريد أن يخترق وجوداً آخر حيث يجد له مكاناً يغنيه.. ولكن كيف يخترق وهو قاعد فى خيمة غجرية ليس فيها شئ أغناه بعد زواجه

منها.. وماضيه الذى كان فيه قاعداً فى عدة قصور بين أميرات .. أَدْخَلَ المدينة حيث يهيم الناس على وجوههم لكنهم يعودون آخر الليل إلى بيوتهم .. إذهب إلى هناك وعش فى الأحياء الفقيرة حيث تكون الحياة ولو كانت منحطة .. وعش هناك وابن لك بيتاً مثل بيوت الناس.. لم يكن أبوك من أهل القصور ولم تكن أمك عجزية.. إنك من الشعب الكانى الذى يأكل الفول والبناو والجبن والبصل وأنه مازال باقياً وقوياً بهذا الطعام.. إن سواعد الجنوبيين قوية من الفول والجبن القديم وإن عقول الشمال فتيةً ويقظه بسبيه ، فلماذا أغير طعامى وبيتى.. منذ متى وأنا أحاول التغيير.. منذ خمسة عشرة عاماً.. كل هذه الأعوام وأنا أتردى ولم أصل إلى شئ ولن أصل .. عد إلى الفول والجبن وإلى بيتك القديم .. فليكفلوا للفقير مثل هذا الطعام وليأكل أهل القصور منه حتى يكونوا من الشعب ، وعلى كل الرأسماليين الجدد أن يعودوا إليه .. لأنه هو الطعام الذى يدوم .. عندما يأكل الجميع الفول والجبن القديم تتحقق العدالة فى هذه المدينة ..

وظل الحديث مع نفسه يساوره ويغادره ثم يساوره مرةً أخرى حتى زفرت أنفاسه وصرخ وضرب كفاً بالآخر وقال بصوت مسموع :

- لقد وجدتُها .. عثرت على ما ضاع منى فى هذه المدينة .. سوف أدخلها هذا المساء بوجه جديد وسمعته سلطانة وهى ترتب الأغطية فوق مرقدته .. وخرجت إليه مشدوها وهى تقول :

- أتكلّم نفسك يا رجل .. من هذه التى تدخلها .. أهى امرأة .. قوللى .. إنت إنجنتت

فهز رأسه فى ثبات وقال :

- لم أجن .. إن الحقيقة تبدو فى بدايتها شئٌ غير معقول .. ولكن عندما يتفاعل معها الإنسان فإنها تصبح حقيقة واقعة دائمة .. مثل إطعام الشعوب طعاماً واحداً

تفحصته بعينها وقالت وهى تنصرف فى دلال :

- مش فاهمه حاجة .. قول اللّى عايزه الجبل واسع ..

فقال في صوت خفيض كأنه يكلم نفسه :

- هذه امرأة إشتراكية جاهلة .. لو دخلت المدينة لكان لها تطلعات مثل كل امرأة إشتراكية .. إن هذ مدينتى فلاأبن لى بيتاً فى حى الدرديري .. إنه حى شعبي يجمع الفقير ومتوسط الحال .. سوف أجد نفسى بين هؤلاء .. وأخذ يفكر قليلاً فى أمره ثم نادى قائلاً :

- يا سلطنة يا مليكة الجبال .. فلما جاءته تابع يقول فى ود :

- هات حقية النقود ..

- الآن .. إنها فى الكانون القديم ..

- هاتها يا سلطنة أينما كانت .. وكان جمودُ صارَ يرين فى وجهه وبرقت عيناه فى حدة فحاولت أن تبسم لثنيه عن حدته التى طفحت فجأة فازداد بريق عينيه .. ورجعت إلى الخلف خطوة وكان شيئاً أصابها وارتجفت وقالت فى خضوع وشفاتها ترتعشان :

- حاضر يا رجلى .. أمهلنى قليلاً من الوقت حتى أخرجها من تحت التراب والقش ..

- لك من الوقت ما تشائين .. أخرجيها وهاتها حتى أذهب ..

.. وكادت تنكفى وهى تستدير لتدخل الكهف .. ولم يكن الولدان قد أتيا من المدينة بعد وأنه لم يرها أحد .. هكذا إنقلب .. يشخط فى وينظر .. يذهب إلى المدينة .. إنه لن يعود .. حتى وإن عاد كان ضعيفاً ورحل .. إنه يأخذ الحقيقة .. كل هذا المال الذى لا يعرف عدده .. وفجأة حقدت على كل الذين يحملون الحقائق وأكثر على الذين يملكون المال بهذا القدر .. إنها لا تعرف أحداً الآن غير أبنائها وكهفها وجاموستها .. قليل من هذا المال يغنيى وأدخل المدينة وأهجر هذا الجبل .. إن سبيلي فى يدى وغنى ولدائى فى هذه التى تحت التراب ، وشمرت أكمامها ورفعت جلبابها وربطته على وسطها بجديلة من التيل كأنها تدخل أرضاً مبلولة موحلة أو كمن تروى حقلاً تمتلئ جداوله بالمياه .. كانت ساقاها شرستين كساقى لص معفرتين تصطكان ببعضهما خوفاً وهلعاً من أن يدخل عليها أحد حتى ولديها .. إنها لا تريد

أن يربها أحد .. وشدت الحقيبة من التراب بعنف وانكفأت عليها وفتحتها وأخرجت كومة من النقود بين كفيها وهزلت وهى ما تزال منكفأة إلى الغرفة التى بها صندوق أمتعتها ودست النقود تحت ملابسها فى قعر الصندوق وتهدجت أنفاسها وقفلت الصندوق وإنكفأت فوقه تحتضنه .. وهى تقول هذا هو .. هذا هو .. روح فى ستين داهية تروح ماترو حش ترجع ماترجعش فى مليون سلامة .. البلد اللئى تودى .. ثم حملتها إليه والدموع فى عينيها ووضعها أمامه كالمسكينة وانفجرت بالبكاء .. كانت تريد أن تشغله حتى لا يلحظ أى فراغ حدث وأنها بالتمام والكمال .. وفيما هو يسحب الحقيبة إليه ليفتحها مالت عليه تتوسل ألا يتركها :

- يا خراب بيتك يا سلطنة طلوع الشنطة من البيت زى طلعتك يا جوزى ..
وتصرخ .. كأن أحداً توفى ثم تعاود .. النهارده جوزى مات وحياتى كلها راحت يا دخوتك يا طانة يا حزنك ياختى ..

وأصابه الذعر ووضع كفه على فمها حتى لا تندب وكلما حاول أن يمنعها عن الندب زادت فيه .. ولما إطمأنت أنه إنشغل وتأثر بحزنها عليه قالت وهى تتمرغ بالأرض وتتوسل إليه :

- إنت كده مبسوط .. فلوسك أهى عدّها .. عايز إيه تانى أجيب الغويشتين

كمان

- وبعدين بقه الفلوس زادت يا سلطنة عيب أسكتى .. ليه كل ده .. أنا

راجع تانى

وعملت كأنها راحت فى غيبوبة فانكفأ عليها .. وكم كانت سعيدة بنجاحها وحبكها لهذه التمثيلية ، ولما كان يخبّط بكفيه على وجهها ليفيقها ويدلك صدرها حتى تعود إليها أنفاسها .. تركته يفعل ولم تفق وعملت كأنها ذهبت فى نوم ، وحملها إلى فراشه داخل الخيمة وأخذها فى أحضانه يهدئ من إنفعالاتها .. كان يضع الحقيبة كالمخدة تحت رأسه ويتغطى بطرف اللحاف ثم استسلمت له وأرخت جسدها نحوه .. كانت تريد أن تغطى عمليتها بطبيعية شديدة إنها تحبه وتخلص له وتتفانى من أجله .. وأخذت تدعوه هامسة أن يلقاها لأنها فى حاجة إليه وتريد أن تذهب معه أينما ذهب ، ويكفيها أحضانه الدافئة طيلة العمر وبعد أن لقها وصل

ولداها من المدينة وأخذتهما إلى داخل الكهف وتركته يُعدُّ عِدَّة الفرس وأخبرها بأنه سيقى في المدينة عدة أيام ويعود إليها ..

.. ولما دخل المدينة ربط الفرس في مربط للدواب وكان يرتدى جلباباً ثقيلاً ويتلفح بعباءة سوداء من الصوف ولفَّ رأسه بشال أبيض مثل شيوخ العرب ، وعلَّق في كتفه الأيسر حقيبة النقود .. وفي يده اليمنى أمسك بحقيبة صغيرة بها بعض ملابسه ، ومشى طويلاً من شارع إلى آخر حتى وصل إلى دكان محمد عبد الرسول حيث كان يعلم أن هذا الرجل من الرجال الذين يعملون في أعمال كثيرة وأنه يعرف الكثير عن المدينة ، وفي حانوته كل ليلة يلتقى مجموعة من الرجال يحكون عن أحوال مدينتهم وعن تدفق الناس من المناطق إلى بلدتهم أملاً في رزق أفضل وعن الكثير منهم الذين ينامون في الحدائق والشوارع ، وكانوا يتحدثون كثيراً عن أصحاب الأعمال الجدد عن غرائبهم وظلمهم للعاملين لديهم ، ودخل الحانوت وألقى تحيته وجلس بينهم ضامئاً حيث كانت النقوش التي رسمتها سلطنة في وجهه ما زالت مطبوعة على جبينه ووجتيه وتدل دلالة قاطعة على أنه غجرى ولكن كيف يكون هناك غجرى بهذه الوجاهة وقال له رجل تفحصه ملياً :-

- أنا أعرف الأعراب وكل الغجر في تلك الجبال المحيطة بالبلدة .. من أى جماعة أنت ..

فارتبك سلامة وتململ في جلسته وانعدل قائلاً في تريث :-

- أنا لست من هؤلاء .. لقد جئت من بلاد بعيدة .. من الغجر الذين هناك .. من هناك وأشار بيديه خلف الحانوب ..
- من مصاليا مثلاً ..

وقال سلامة في حزم متخلصاً من أى شعور بالخوف :

- من أى داهية يا رجل .. وماذا تريد منى .. ونادى بصوت عال :

- تعال يا محمد هات شاي هو إحنا في نيابة ولا إيه .. مالمحوش العالم ده عنى ..

... وظهر محمد عبد الرسول من خلف أحد براميل الزيت قائلاً في غضب

وهو يشوِّح بذراعه نحو الرجل ..

- مَالِكُ يا سَيِّدُ يا بوهنطش ما تسبب الناس فى حالها .. يخرّب بيتك ..
خليك فى الشيشة بتاعتك ..

ومدّ أبو هنطش ذراعه أمامه وهو يسحب نفساً طويلاً من خرطوم الشيشة وينفخه فى
الهواء وقال :

- ستين مالى يا عم إن شاء الله تخرب .. مش ناس أغراب يا أخى بندردش
معاها .. ولأَ إحنا جاين نكتّم ..

- إتكلمّ معايا أنا ما تخبّطش فى العالم

وإنعدل رجل فى قعدته يرتدى معطفاً مثل معطف مخبرى الشرطة وقال وهو
يضرّب كفّاً بالآخر :

- إئتوا عارفين منصور مبروك .. اللى كان أبوه عمدة سجمان .. الراجل ده
طحفش على أراضى فى أول طريق المدينة الصحراوى بالفلوس وتفتيح المخ ..
أراضى مالهاش آخر بعد الحرب على طول .. بيعع فيها دلوقت المتر بأربع تلاف
درهم ..

وقال آخر يتبادل مع سيد هنطش تدخين الشيشة :

- ومين اللى معاها يشتري الأرض دى بأربع تلاف .. يا نهار اسود ..

وقال محمد عبد الرسول وهو يقدّم الشاي للغجرى الغريب :

- بيعع للرقاصين وبتوع الأبوكاتو ..

ويدخل أبو هنطش الدردشة قائلاً :

- أنا عارف واحد بيشتغل عنده بيقول إنهم بيطلعوا رواتب شهرية لناس
بتشتغل فى الحى علشان الناس دية لعبت اللعبة معاها بتاع الأرض دى ..

وقال رجل آخر يدثر بجاكت قديم ويلف فوق رأسه تلفيحة أهل الجنوب :

- إئتوا عارفين منصور مبروك ده بيشتغل الموظفين عنده من الساعة كام لكّام ..

من ثمانية ونص صباحاً حتى عشرة ونص وحداشر بالليل .. يعنى الواحد منهم يطبق ورديتين والناس مستحمة ها تعمل إيه ..

وزعق أبو هنطش متحمساً :

- يا نهار إسود ومافیش مكتب عمل ولا تأمينات ولا ..

وتبرم شفتنا محمد عبد الرسول ويمتعض قائلاً :

- مافيش حاجة خالص .. أى مندوب ييجى من الجهات ياخذه المكتب إللى تحت .. مكتب سرى بيخلص فيه ويتحفه واحدة بخمسين وإنتهى الأمر .. ويسد عنه إنه راجل تمام ومافیش بعد كده .. وكل شهر ياخذ الخمسين .. كم واحد من الجهات الحكومية فى البلد يعنى خمسة سبعة .. ثلثمائة جنيه كل شهر قضى على وجع الدماغ .. راجل بيخلص ..

وقال الرجل صاحب المعطف :

- للأسف كل سنة بيروح يحج .. إزأى مش عارف العدل ..

ويهز أبو هنطش رأسه ويقول :

- راح الحج أكثر من عشرين سنة ويروح فى السياحى بخمسين ألف درهم فى الحجة .. ولو حقق العدل فى شركته وخلا الناس تشتغل سبع ساعات وإذا طبق ياخذ أجر إضافى لكان ده أفضل له من الحج .. الحج مرة واحدة بس .. وبفلوس الحج دى كام فقير يتفجع وكام مسكين يلبس ويتستر ..

وقال الرجل صاحب الجاكت القديم وهو يسخر :

- هو فاكز إنه لما يروح يحج ربنا بيغفر له كل ذنوبه بين الحجة والحجة .. ومظهرة وحركات وبس ..

وقال محمد عبد الرسول :

- والله مش عارف الناس دى ماشية إزأى .. شغل أونطة وقلة عقل ..

وقال صاحب المعطف وكأنه يلعن :

- كل بتوع الكاوتش كده ذمتهم أستيك بيعرفوا ربنا بالمظاهر ..

ويقول أبو هنطش وهو ما يزال يهز رأسه وكأن فى جعبته الكثير :

- وباريت بيطلّع زكاة .. أى فلوس مظهره أدام الناس ويس .. ومعاملة زفت وقطران وأكل حقوق الناس إللى بتشتغل عنده زى العبيد والفلوس اللى بيدّيها كأنها فلوس مقابل السخرة عنده .. إفتراء يا جدع مافيش بعد كده .. دا منصور ده له حكايات ما تخلص ..

ويقول سلامة فى هدوء وهو يتطلّع إلى وجوههم جميعاً :

- فيه كم منصور فى البلد ..

ويردون جميعهم فى صوت واحد :

- مليون منصور

ويقول سلامة :

- وسابينهم ليه ..

ويرد أبو هنطش وهو يضحك بصوت عال :

- يا عم بيقسموا سوا .. دا منصور ده مفتّح أوى ومحضّن على نفسه من جميعه .. يعرف كل الحكمدارية والمستشارين إللى فى البلد .. بيقضوا له مائة مصلحة فى اليوم .. وعلى طول الإجتماعات فى المكتب إللى تحت .. دا كل شهر نلاقه راكب على أرض جديدة بالزور والبهتان القانونى .. يعنى هو زى ما تقول كده أكبر حرامى بس بالقانون ..

ويقول سلامة وهو يندهش مما يسمع :

- ومافيش حد عنده ضمير فى البلد يقف أدام الناس دى ..

ويرد محمد عبد الرسول وهو يضع صينية الشاى أمامهم :

- كام واحد عنده ضمير فى البلد .. قليل .. ولازم صاحب الضمير يكون عنده قوة علشان يقف أدام الناس دى .. ها يقف أدام مين ولأ مين .. ما قلنا فيه

مليون منصور فى البلد ويبحموا بعض .. تيار جارف وإذا كان فيه حكمدارية ..
كلهم حكمدارية ييقبضوا ويينمضوا عنيهم علشان كل أمور هؤلاء تمشى وتنتصر
فى النهاية .. بتاع الضمب هاياخدوا منه إيه ..

ويقول الرجل صاحب المعطف :

- يا عم إنت هو دا نظام جديد .. يقولوا عليه الرأسمالية ، إللى باستعجب له
الناس دى كلها كانوا غلبة وفقرا زينا كده .. هم ليه دلوقتى يفتروا وينسوا الغلبة ..

وقال الرجل الذى يلف التليفحة فوق رأسه :

- هى دى طبيعة الناس لما بيغتنوا .. هو الناس إللى بتشتغل عند أى واحد
منهم عايضة حقها وبس .. وقت حسب قانون العمل وأجر على أد تعب .. ويكون
فيه نظام ولوائح تطبق .. هى المشكلة إن مافيش حد ييطبق حاجة تنفع الناس ..
بيدور الواحد منهم على مصلحته وبس وتنحرق الدنيا بعد كده .. دا الناس هاتفرقع
علشان النظام الجديد ده بيمص دم الناس .. ربنا يتقم منهم

ومضت دقائق من الصمت إنهمكوا فى شرب الشاى وتدخين الشيشة، وكان
سلامة يشعر بالجزع الشديد لهموم القوم وندم على عمره الذى قضاه فى القصور،
وأن عمره الحقيقى يجب أن يقضيه بين هؤلاء الناس .. إنه من هؤلاء الناس ..
هكذا تأكد من حقيقته فى الوقت القصير الذى قضاه مع أول قوم قابلهم ليلة دخوله
البلدة .. ونقد محمد عبد الرسول حسابه وتركهم محياً ووعدهم بأنه سعيد بلقائهم
وأنه سيداوم الجلوس معهم وفرحت الصحبة بشاعره وقال له سيد أبو هنتش :

- تعال على طول علشان نعلمك الشيشة .. وضحكوا جميعاً وفهقهوا
بصوت عال ..

ولما خرج إلى الشوارع يحمل أمتعته عاقداً العزم على أن يعمل شيئاً يغير
مجرى حياته .. وكانت أبنية شاهقة قد إرتفعت فى كل مكان .. ونهض كثير من
التماثيل فى الميادين والحدائق .. وسيارات فارهة تجوب البلدة .. فإذا إخرقت حياً
فقيراً بحلق الناس فيها مبهوتين .. وإذا تهادت فى حى غنى كان كل ينصرف إلى
منتهاه ، وأسواق كثيرة إنتشرت فى الأحياء الفقيرة وأخرى مرتفعة المستوى فى قلب

المدينة مثل سوق الأميرة ربما ، والملاهي والمراقص إتخذت لها حياً جديداً فى غرب البلدة تنتشر فيه الدراجات البخارية السيارة والتي يقودها الشباب والفتيات .. البنات والسيدات اللاتي يبحثن عن الهوى يقفن هنا ويتسكنن هناك .. وقصد سلامة حى التفاح حيث يقع مكتب ثروت المناذلي للعقارات وهناك قابله مكرتيرة حسنة المظهر ولما جلس على أحد مقاعد الصالون الذى تستقبل فيه زبائن بيع ومشتري العقارات قالت له فى لطف :

- أهلاً بحضرتك .. تحت أمرك ..

- أريد أن أشتري برجاً من أبراج مؤسستكم ..

- كل ما تريده لدينا .. وشدّت ستارة بالحائط فظهرت خريطة كبيرة موزعاً بها تلك الأبراج فى أحياء كثيرة بالمدينة .. وأمسكت بمسطرة طويلة وقالت :

- هذا حى الأميرة نيروز به أكبر بنائتين فى البلدة .. وسكنت فقال وهو يهز رأسه :

- كم سعر العمارة

- مليون درهم .. لكن فى حالة الدفع نقداً تتمتع بتخفيض قدره مائة ألف درهم ..

- والتقسيط على كم سنة ..

- عامين فقط .. لكن نصف الثمن مقدم والنصف الباقي على عامين ..

- المعلم ثروت موجود ..

- لا يا حج .. هو مش معلم .. دا ثروت باشا ..

- هل كان أبوه باشا أو صاحب قصر ..

- لا أعرف يا سيدي .. لكنه يملك كل عقارات البلدة تقريباً .. راجل أد

الدينا ..

- الله يرحم الراكية وداره اللي كانت زريبة .. دا كان صاحب أكبر بربور فى

حتى مريان وكان أبوه دائماً يقول له قوم أنفض نوبة ..

- إزاي يا افندم بتقول الكلام ده .. اسمع لى ما ليش دعوة بالبربور .. يعنى
إيه بربور

- ما تعرفيش البربور .. يا خساره على الناس الفزلكة والانتكة واخدة حقها
على الآخر .. إسمك إيه ..

- إسمى دينا ..

- طيب يا دينا روى الحمام نفى وانت تعرفى البربور ..

- بلاش الكلام العيب .. إنت جاي تشتري ولأ تتريق علينا ..

- والله جاي أشتري .. هو فين ثروت هاتيه لما أعرفه مقامه الأول ..

- إنه لا يقابل أى أحد

- ومن الذى يوثق على عقد البيع

- الوكيل

- يعنى ثروت بيه على ما نوصل له نتوه ..

- بالضبط يا فندم ..

- جته نيله فى أمه مش عايز أشوف وشه .. هات الوكيل علشان أشتري
وأخلص ..

- حاضر يا فندم ..

وامتدت أمام بصره لوحة الذكريات القديمة مع ثروت وغيره قبل الحرب ،
وفى قرابة الساعتين إنتهى محامى الشركة من كافة لزومات العقد ، وإنتقل برج
ثروت إلى ملكية سلامة حيث قام بدفع مقدّم ثلثمائة ألف درهم وتم تحرير شيك
بمبلغ سبعمائة ألف درهم يقوم بدفعه صباح اليوم التالى وقضى سلامة ليلته فى فندق
العيوطى وعند الضحى ذهب إلى القصر القديم وقابل سعدية بنت منصور التى تقيم
هناك بمفردها .. وتجادب معها حديثاً حلواً يروق لآى امرأة .. حتى أصبح صعبوده

إلى الطابق العلوى سهلاً وطبيعياً ليحزّم أمتعته ويجمع باقى نقوده التى تتجاوز المليون درهم وبعض المجوهرات التى تركتها الأميرة فى دولابه منذ وقت بعيد والتى يبدو أنها نسيته .. ولما ذهب إلى المكتب العقارى كان الوكيل والمحامى ينتظرانه فسدد باقى القيمة وذهبوا جميعاً إلى محكمة المدينة لإنهاء كافة الأمور الخاصة بانتقال الملكية ، وبعد الظهر بقليل كان سلامة يتسلّم مفاتيح عمارته الجديدة المكونة من خمسة عشرة طابقاً كل طابق به أربع شقق .. وقبل غروب الشمس قام بتغيير إسم البناية بتعليق لافتة أخرى كتب عليها دار الكادحين .. ولما دخل المساء كان حنين قوى يشده إلى دكان محمد عبد الرسول فذهب إليه ..

وهناك وجد رجلاً لم يره من قبل .. هو رجل جاء مع تدفق الناس من كل ناحية ، وكان يشكو لصاحب الخانوت من أنه لا يجد عملاً ، ولما جلس سلامة بينهما كان صامتاً ليستمع إلى مواجع الرجل ، وأخذ سلامة يراقبه ويتأمل وجهه الكبير التى إرتسمت عليه علامة الحزن والبؤس الشديد وقال الرجل وهو يشعر بالمجذاب سلامه نحوه :

- كنت أظن أن هنا عملاً لكل شخص .. مرارة الحلال .. أسبوع ذابت فيه كعوبى من عناء المشى ولم أجد شغلة .. حتى ولو أعمل نازحاً للمجارى ..

وحملنى سلامة فى الرجل بشدة وقال له :

- ما هى مهنتك يا رجل ..

- حلاق .. كنت أحلق للغلابة فى البلد ..

- إذا كنت تحب الحلاقة فتعال معى الآن لأفتح لك محلاً تكون صاحبه ..

وارتبك لسان الرجل لكن لسانه تفصّح لحظة وقال :

- أنت رجل غلبان زيناً .. كيف تفتح لى محلاً وأنت مثلى تقعد فى مثل هذا الدكان البسيط ..

فابتسم سلامة وقال للرجل ..

- ألك أسرة ..

- ثلاثة أولاد وبتان وزوجة .. تركتهم فى البلدة ..
- وهل تركت لهم ما يكفيهم لمدة شهر مثلاً ..
- لم أترك لهم أى شئ .. كانت مشنة الخبز فيها يكفيهم أياماً قليلة ..
- والغموس ..
- زوجتى تتسوله من بيوت القرية ..
- قم يا رجل وتعال معى .. ونهض سلامة ووقف الرجل بجانبه وساقاه ترتعشان ، وكان عبد الرسول يملأ حلة الزبون بالسكر وتذاكر الشاى .. كانت يده ترتعشان ولما إنتهى على عجل من تجهيز بطاقة التموين لعميله .. لم يكن أحداً غير ثلاثتهم بالدكان فقال وهو يقترب من سلامة:
- أصحيح ما تقوله للرجل .. عندما جئت إلينا بالأمس كنت أظنك باحثاً عن عمل فكيف لك اليوم بتغيير هذا الحال ..
- ونظر سلامة كف يده التى تشبث بذراعه وقال :
- لا تكن عيبطاً يا رجل .. أعرفك بنفسى .. أنا رجل أملك عمارة .. لقد تملكته بالأمس .. وإذا كنت آتى إلى هنا لأننى رجل أحب البسطاء .. وفى دكانك هذا أشبع ضالتي وأجد نفسى فلقد كنت منذ أكثر من خمسة عشرة عاماً مثل هؤلاء القوم الذين يقعدون فى دكانك ..
- يعمر بيتك .. عندى كثيرون مثل هذا الرجل ..
- إصبر قليلاً .. ربما آتى لك آخر الليل .. سوف أذهب مع الرجل لتدبير حاله ..

وخرج سلامة من الحانوت والرجل يلهث خلفه حتى وصل إلى البناية الضخمة ، وأخرج كتلة مفاتيح راح يتفحصها حتى عثر على مفتاح أقل المحلات مساحة وفتحه ودخل وتعثر الرجل خلفه متهدج الأنفاس .. إنه ما زال يلهث وقلبه يضرب بضلفتيه بين ضلوعه كأن عاصفة عصفت به .. وكلمات تتبعثر بين شفتيه ولسانه قد ثقل بين شذقيه .. هل يموت الرجل .. هكذا قال سلامة لنفسه وأمسكه

من كتفه وقال له :

- أيها الرجل ويحك .. إهدأ .. لقد أتيتني في وقت أكفّر فيه عن كل خطاياي ..

ويخلق الرجل فيه لأنه لم يفهم شيئاً .. فأردف سلامة :
- أسكت ..

- أنا لا .. لا أتكلّم يا سيدي .. والنبي ما تضحكش على .. صحيحها شغل ..

... وإتكفأ الرجل على كفى يديه محاولاً تقبيل أحدهما .. فرفع سلامة ذراعيه إلى أعلى وقال له وهو يشخط :

- أسكت .. يعني بطلّ خوف .. لا تخف يا رجل إسمعني .. وحاول الرجل أن يسكت كما يريد سيده فقعده ورفع أكفّه نحو سقف المحل .. وتمكن من أن يقول ساكت أنا ساكت يا سيدي .. ساكت تحت أمرك .. قول من إيدك دي لإيدك دي ..

- إسمك إيه

- عبد الشهيد نويتو

- يعني إيه نويتو

- أصل أبويا كان راجل غليان وكان يمشي في الشوارع بالليل ويخوف العيال الصغيرة .. وطول ما هو ماش يقول نو .. نو .. فسموه نويتو ..

- إسم أبوك الحقيقي إيه ..

- متولى الأعجر ..

- وبعدين بقه في الأسماء دي ..

- من الغلب كان الناس الأغنيا يقولوا على الناس الغلابة أسماء وتمشي عليهم

- حتى الأسماء .. ربنا يتقم منهم .. إسمع ولا تثبس بكلمة :

- هذا المحل مشاركة .. سوف أأجره لك حتى تعمل بجد .. فكّر في الأدوات والكراسي التي نشتريها معاً لنجهّزه حتى يكون أرل محل حلالة في الحى ..

نسأشرها لك اليوم ..

- الله يرضى .. الله .. الله .. الله ..

- أتمنى أن تقول هذه الكلمة دوماً .. سأعود إليك بعد ساعة

وكاد الرجل عبد الشهيد أن يتبرز في المحل ولحق نفسه في خرابة خلف العمارة ولما رجع شد باب المحل حتى لامس الأرض وهول إلى مسجد قريب فظهر واغتسل بصابونة في دورة المياه ثم توضأ وقام وحده وصلى كل أوقات النهار التي كاد أن يتركها منذ قدم من قريته .. بعدها هرع إلى المحل فقعد القرفصاء ووضع كف يده على صدغه وقال مبتهج النفس يحدث سريره :

- الحمد لله لحقتني يا رب بعدما كنت هاضيع .. معقول ..

لكنه بعد قليل خرج إلى الساحة التي يطل عليها البرج .. كانت الساحة مزانة بلافتات مكتوب عليها .. تحيا الإشتراكية .. أيها الإشتراكيون كونوا شجعاناً وطالبوا بحقوقكم .. ولافتات أخرى مشطوب عليها بخطوط عريضة سوداء بلادنا تتقدم إلى الأمام .. سنوات قليلة وتزدهر بلادنا .. نحن نوثر العمل الشريف لكل مواطن .. العمل شرف وواجب وحياة .. القطاع العام أساس التقدم .. كل هذه اللافتات في الساحة قرأها عبد الشهيد وهو يحتضن حيطان البرج المطل عليها ويضع رأسه فوقها ويكاد يلصقه بالعمود .. ورغم أنه لم ينتقل من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة التالية إلا أنه وجد مفارقات كبيرة بين هذه اللافتات وأنه لا شئ يتحقق .. وقال وهو يرجع إلى المحل .. وأنا مالى .. أنا لي الشغل .. يا ترى عمى صاحب الداهية دى كلها مع أى يافطة من دولت .. وقعد على أعتاب الباب ..

وكان سلامة قد ذهب إلى سوق الأثاث ليشتري أثاثاً لشقته في البرج .. وقد إختارها بالطابق الثالث بعد الأرضى .. وما إن وصلت عربة النقل التي تحمل متاعه الجديد حتى نادى على عبد الشهيد ليحمل مع العمال الذين يتبعون العربة .. وكم كان صاحب البرج سعيداً .. ولما إنتهى العمال نقدهم أجرهم وإنصرفوا وبقي سلامة وعبد الشهيد يرتبان المقاعد والمناضد كل في مكانها كتنظيم أولي للبيت ، وعلى عجل حملاً مراتب السرير ووضعها فوق ألواح خشبية حتى يستطيع سلامة أن ينام

عليها الليلة .. وإنتوى فى الصباح أن يحضر لحجاراً من سوق النجارين لينصبُ غرفة نومه وكان قد إشتري تسجيلاً مع الأثاث فوضع الفيشة فى مفتاح الكهرباء وأداريه شريطاً للقرآن الكريم .. وقال لعبد الشهيد وهما يطلعان من الشقة :

- هذا كتاب الله فليصطحب فى البيت حتى نعود ..

- إلى أين يا سيدى ..

- إلى السوق لنشتري كافة حاجيات محل الحلاقة ..

- ياسيدى أجل هذا إلى الصباح أنت متعب .. أرجوك ..

فقال سلامة وهما ينزلان على الدرج :

- لا .. حتى أستريح منك .. لأنشغل بغيرك ..

وركبا عربة أجرة إلى السوق .. وهناك إشتري صاحب العمل كل حاجيات محل الحلاقة من كراسى وعدد أدوات .. ولما عادا إلى البرج ... كان عبد الشهيد جائعاً فطلب من سيده أن يذهب لتناول بعض الطعام فتقده سلامة نقوداً أخرى وأعطاه مفتاح الشقة وقال له :

- عندما تنتهى من طعامك إقفل المحل واصعد إلى الشقة حتى تنام على أى مرتبة تعجبك وتغظّ جيداً حتى أعود فى الليل .. نم وإطمئن إن معى نسخة أخرى من المفاتيح ..

.. كان سلامة يتنوى أمراً فى رأسه .. أخذته قدماه إلى مقهى شعبى كبير يقع فى حى الدراشة ، ولما دخله إتخذ مقعده إلى طاولة يلفها أربعة مقاعد أخرى ، ولما أتاه الجرسون طلب شيشة تفاح وشاى وكان لأول مرة يدخن الشيشة .. كان يريد أن يتغير ويصبح إنساناً آخر .. من الشعب من أى شعب فى العالم ، وشعر بأن كثيراً من الناس معظمهم من الشباب يزحمون المقهى وقليلاً من كبار السن ومتوسطى العمر وهناك بعض الفتيات والسيدات تثارن هنا وهناك جماعات وفردى .. خمسون منضدة أو يزيد وحول كل منها خمسة مقاعد أو ستة أو أربعة ، المقهى فى موقع دائرى فسيح وهناك أمام كل باب من أبوابها الأربعة إلتف الرصيف وإستدار

يحضن حيطانها ونوافذها وأبوابها ويحمل ما يزيد عن عشرين متضدة وحولها من الكراسى أكثر مما حول المنضدة داخل المقهى ، والزبائن يلعبون الطاولة والشطرنج وآخرون الكوتشينة وينتم على العملاء أكثر من عشرة جرسونات يدخلون من هنا ويخرجون من هناك يحملون بين أصابعهم الصواني والأكواب والقناني ، وكان المقهى يضج بالحديث .. رنين الملاعق فى أكواب الشاي والسحلب ودخان الشيشة يعبق ويتصاعد نحو السطح وأصوات الزبائن .. بندق .. حلبة .. وزنجيل .. قرفة .. وأصوات الجرسون .. حاضِر .. نعم تحت أمرك .. واحد شيشة وصلحه .. مبسم .. معسل النخلة .. لا الدفراوى .. يا واد يا كفتة قلت لك هنا ساقع كولا .. هناك إسبراي .. قهوة مضبوطة لا دى زيادة .. كوباية ميه يا معلم .. هات المارك يا زغلول .. قابل الزبون يا فتحى .. إنفضل هنا يا بيه .. عينية ليك .. البهوات يشربون إيه .. وكان على مقربة منه ثلاثة من الشباب يرتدون ملابس أنيقة ويتكلمون فيقول أحدهما الذى يضع نظارة طبية على عينيه :

- إشتغلت فى شركة شهرين وبعدين لا تأمينات ولا لائحة مالية أو إدارية ولا أى نظام فى أى شئ وكل الأمور فردية فى يد صاحب الشركة كأنك تعمل فى محل أو فى عزبة ..

وقال آخر وهو يرتدى قميصاً مزركشاً ويربط عنقه بكرافته أنيقة :

- إشتغلت عند تاجر كاوتش وبطاريات من الساعة تسعة صباحاً حتى جذاشر مساءً بمرتب ثلثمائة درهم .. يعنى باشتغل ورديتين بأجر وردية واحدة .. هذا غير معاملته السيئة للناس جميعاً تشعر وهو يتحدث معك إذا قابلتك صدفة أن وحشاً سيلتهمك ..

وقال ثالثهم وهو صاحب وجه حزين :

- يا ريتنى ما تعلّمت .. ثلاث سنوات من التخرج وليس معى أى فائض .. سنة هنا وسنة هناك مافيش إستقرار وكل أصحاب الأعمال يتعاملون معك بتسلط وخطرة كأننا عبيد .. رغم أن هؤلاء أصحاب الأعمال الذين عملت معهم جايينها من تحت .. المفروض يحسوا بالناس ..

ويقول صاحب النظارة :

- دلو قى بتشتغل فىن

- ما فيش شغل ..

- عايش إزاي ..

- بيع درة مشوى قرب باب السكة الحديد كل مساء والبلدية مش سايبانا فى حالنا .. تعرف كل الناس اللى بتبيع أى حاجة فى الشوارع والميادين مالهمش أى باب رزق غير كده .. والبلدية شغالة عليهم وبهدلة من كل ناحية أمال الناس تعمل إيه .. له ما يكونش فيه نظام معين .. الناس دى تشتغل فى الشوارع زى ما هى بس يحافظوا على النظافة .. يعنى كل واحد بيع يكون معاه مثلاً سلّة زباله وأمور أخرى يتم تنظيمها والمخالف بياخد مخالفة .. درهم مخالفة مثلاً والأمور تمشى بشكل منظم وما يكونش فيه ظلم وياريت البلدية بالنظام ده بتقضى على ظاهرة الباعة المتجولين .. يعنى مافيش تحقيق لأى هدف وهذا الموضوع صورة من صور البطش بين السلطة والشعب .. ومن كثرة المشاكل الناس دى كلها بيعيشوا على شفا جرف هار ولا سبيل لهم غير هذا الطريق لأنهم جميعاً لفظتهم الحياة العملية فى سوق العمل فماذا يفعلون حتى يطعموا أولادهم وأمهاتهم .. وعلى فكرة كلهم مؤهلات .. ياخسارة يا أولاد يعنى المدارس والجامعات بتخرج ناس بالشكل ده يكون سبيل رزقهم .. طيب سيوهم يعيشوا بطريقتهم أو دبّروا لهم أعمال .. وسكت .. فيه تسلط وعشوائية فى الإدارة ..

وقال صاحب رباط العنق محاولاً شد أزر زميله :

- وإحنا كلنا مهدين فى أعمالنا ويمكن يجى يوم ننزل لساحة السكة الحديد.

نبيع أى حاجة ..

فقال صاحب الدرة المشوى :

- إسمه إيه تاجر الكاوتش ده ..

- إسمه منصور مبروك

- دا مشهور أوى .. يقولوا عليه إنه إستولى على مساحة أراضى شاسعة

بحجة أنه سيزرعها ودلوقتي عندما تغيرت الظروف بيع فيها المتر بخمسة آلاف درهم .. أراضى مباني ..

- الأراضى دى فى مكان إستراتيجى فى أول طريق المدينة الصحراوى الموصّل إلى المدينة سكانية ..

وقام إليهم سلامة وألقى تحيته وصافحهم وقال وهو يقعد بينهم :

- تسمعوا لى أقعد معاكم ..

- إتفضل ..

- لقد سمعت حديثكم وهو حديث حزين ولن أسألكم شيئاً عن آلامكم وغرائب ما تروونه فى حياتكم وأنتم مازلتكم فى مقتبل العمر .. وصمت هنيهة ثم أردف يقول .. إننى أريد مساعدتكم ..

وفرفة ثلاثهم وقال الذى لا يخجل وهو صاحب النظارة :

- يا سيدى .. كيف تساعدنى .. وهل هناك فى هذا الزمان من يساعد ؟ ..
ومع ذلك فنحن معك يا سيدى أكمل .. مساعدتنا كيف ؟

فقال سلامة وهو يتسم :

- إذا أعطيت لكل واحد منكم محلاً فماذا أنتم فاعلون ..

فقالوا فى صوت واحد :

- ليس معنا مقدمات ..

- من غير مقدمات

.. فى صوت واحد :

- كيف ؟ ..

- إسمعوا لى بالحديث دون ثرثرة .. وحتى لا نضيع الوقت .. قوموا معى الآن حتى ترون تلك المحلات وأسمع منكم واحداً بعد الآخر عن المشروع الممكن

إقامته فى كل محل .. ونهض من قعدته فقاموا جميعاً بجانبه .. ونادى سلامة الجرسون وتحاسب معه ثم تقدمهم إلى الشارع وهروا خلفه وقال صاحب الذرة المشوى لهم فى صوت خفيض .. الراجل ده مجنون .. وفى همس أيضاً قال أبو الكرافت .. خلتنا وراه نشوفه للآخر .. غير أن أبو نظارة قال وهو يضم أصابع يده فى كفه .. الصبر .. قليل من الصبر .. وإستوقف سلامة عربة أجرة وأخذهم إلى برج الناس الغلابة .. والثلاثة مندهشون وهم ييحلّقون فى الالافّة .. دار الغلابة .. بقه فيه واحد فى الزمن إللى فيه الواحد بيبلغ أخوة .. يعترف إن فيه غلابة أو يساعدهم .. دا فعلاً بيقة راجل مجنون .. وتركهم وصعد إلى شقته ليحضر مفاتيح المحلات .. وقال صاحب الكرافت وقلبه يخفق بين ضلوعة :

- محل .. من غير مقدّم يا حللى يا مة

وقال صاحب الذرة :

- أنا أصل أبويا فوال .. ها اعمله فول وطعمية على مستوى .. دا إذا صدق هذا الرجل ..

وقال أبو النظارة :

- ها أعمل ملابس .. ملابس الحرىمى بالذات ..

فقال صاحب الكرافت :

- هاتبتدى تنحرف .. ما تقول يا باسط خليك بعيد عن الحرىم خلتها تمشى ..

وكانوا ثلاثهم يرقبون نزول سلامة من الدرج أو المصعد .. وكان الليل يقترب من منتصفه لما جاءهم صاحب البرج متهلّج الوجه وفتح لهم ثلاثة محلات واحداً بعد الآخر وتركهم يتفرجون عليها ويتشاورون وبعدها جاءهم قائلاً وهو يجلس القرفصاء بينهم :

- ما هو إسمك يا صاحب النظارة

- إسمى مسعد تهاى

- هل إستقرت على مشروعك

- نعم يا سيدى ملابس .. ملابس حريرى

- موافق على أن يكون فيه نفع للناس والأ يزيد الربح على عشرة فى المائة ..
وأن تهتم بملابس الحرير فى الأحياء الشعبية وسوف أراقبك فى هذا لأنه يهمنى فى
نشاطات هذه المحلات أن تكون جميعها فى خدمة الناس الغلابة .. وسوف أقوم
بتعيين عدد مناسب من الناس فى محللك .. لأنه يهمنى فى المقام الأول تشغيل
الناس .. أكبر عدد من الناس يشتغلون فى هذه المحلات ..

- أنا تحت أمرك فيما تريد ..

- أنت عندى صاحب أعلى أجر .. جميعكم ستعملون فى هذه الخوانيت
بأجر يحقق لكم الحياة الكريمة وسوف يشعر كل واحد منكم أنه سيد لنفسه ..
وسوف أوفر لكم المأوى أيضاً فى نفس العمارة .. وكان يوجه كلامه لهم جميعاً
ويراقب وجوههم التى بان عليها علامات الفرح والبهجة .. وسكت هنيهة وقال
لصاحب الكرافت :

- إسمك إيه وما هو مشروعك

- إسمى حمدى الصدغ ومشروعى . بائع أحذية رجالى وحريرى

- ولماذا لا يلحق بالمحل ورشه لإصلاح الأحذية .. كل ما يمهنى خدمة الناس
الغلابة .. جهّز طلابتك فى ورقة .. وكما أبلغت زميلك الربح لا يزيد على عشرة
فى المائة .. وتلبية رغبات الناس الغلابة وهذا مبدأ يطبّقه الجميع ومن يخالفه يتعرض
للجزاء الشديد ..

ثم قال لصاحب الوجه الحزين الذى كان يعمل فى محل الكاوتش :

- ما إسمك وماذا تريد ؟

- إسمى فتحى قرنى .. أريد مشروع المكتبة ..

... المكتبة التى توفر كتب الأطفال ولزومات المدارس بأرخص الأسعار .. أو
أفتح محل أكل .. فول وطعمية ..

وفكر سلامة قليلاً وقام يتمشى أمام الخوانيت ثم عاد إليهم قائلاً وهو يشير

ألى أحد المحلات :

- ناموا فى هذا المحل حتى الصباح .. وأجزلوا عليه الشكر والدعاء ..

وتركهم وصعد إلى حيث يرقد عبد الشهيد نويتو .. وفى الصباح نزل إلى المسجد وصلى صلاة الصبح قبل بزوغ الشمس ولما انتهى قعد يشكر ربه وجاءه خطيب المسجد وصافحه وجلس إليه قائلاً :

- أنا أعرفك .. أنت السيد سلامة زوج الأميرة ..

فران إليه سلامة وشعر بارتياح نحوه وقال :

- نعم .. أنا سلامة

- ومن بدل حياتك

- الله ..

- سوف أقول لك شكواى ..

- تفضل ..

- أنا خريج كلية أصول الدين منذ ثمانية عشرة عاماً .. مرتبى من وزارة الأوقاف مائتان وسبعون درهماً .. وأعمل فى الصباح بمدرسة خاصة مدرساً للدين وأتقاضى مرتب قدره مائة وثمانون درهماً .. لى من الأبناء أربعة فى المرحلة الإعدادية والإبتدائية وأدفع إيجار شقة خمسين درهماً شهرياً و .. وسكت ..

فقال سلامة :

- المرتب لا يكفيك ..

- نعم .. ولا أعرف ماذا أفعل .. إن حاجات البيت الضرورية لا أستطيع قضاءها بهذا الدخل .. وسكت ..

- قل يا شيخ .. ماذا تريدنى أن أفعل بالضبط ..

- عمل .. أى عمل يتناسب معى ..

- هل تعرف أين يقع برج الناس الغلابة ؟

- أسمع عليه .. لقد إنتشر هذا الإسم فى كافة أنحاء المدينة .. وعلمت أنه ملك لرجل إسمه سلامة .. أهو لك يا سيدى ..

- إنه ملكى .. لا أملك غيره بعد كل هذه السنوات من الشقاء والكفاح تعال فى مساء اليوم بعد صلاة العشاء .. وسوف أدبر لك عملاً مناسباً ..

وصافح سلامة إمام المسجد وإنصرف ليقضى حاجيات الناس فى برجه ليتتهى كل منهم من تجهيز محله بأقصى سرعة وحتى تبدأ أرزاق كل من يلتقطهم من الشوارع ومن دكان محمد عبد الرسول والمقاهى والمساجد .. وذهب إلى الكنائس وقابل قسيسها ليقدم العون لكل محتاج هناك .. وهكذا يعمل سلامة يوماً بعد يوم حتى إنتهى فى قرابة أربعين يوماً من تسلم كافة المحلات وعددها خمسة وعشرون محلاً مساحات مختلفة حيث كانت كل الحرف وحاجات الناس من طعام وملبس وشراب يعمل بها أكثر من مائه وخمسة وعشرون موظفاً وعمالاً .. كانت جميعها ملكاً له ، وكانوا جميعاً يتقاضون مرتباتهم وأجورهم منه ، حيث كان يقدّرُها بنفسه .. وكان يمنح حافزاً لكل عامل محافظاً على صلاته ، وفى كل شهر يختارون العامل المثالى حتى يمنح جائزة .. وإستأجر مخزناً كبيراً فى نفس الحى وأعدّه كمبيت لكافة العاملين فى برجه .. وكان يذهب إلى هذا الفندق كل صباح ليتأكد من نظافته ، وعمل إمام المسجد إدارياً لمكتبة ثقافية إفتتحها له سلامة فى أحد محلات برجه حيث زوده بكل أنواع الكتب وأدوات المدارس وكان يعمل فيه طيلة اليوم عدا أوقات الصلاة حيث كان يذهب لأداء عمله الدينى ثم يعود بعدها إلى عمله المعيشى ، وعمل لديه كثير من أبناء النصارى أصحاب الحرف كالترزية وصانعى الأحذية وإصلاح النظارات والساعات وصيانة الأدوات الكهربائية .. وحرص سلامة أن يكون هناك محل لإصلاح الأحذية والحقائب .. وقام صاحب السوق بجعل السعر فى متناول الجميع وتوفير كافة طلبيات الناس فى الأحياء الشعبية وما أسعد سلامة أن العاملين لديه يقومون بأداء أعمالهم على أكمل وجه وأنهم جميعاً يتنافسون من أجل الحصول على الحوافز أو جائزة العامل المثالى ، وأخذ يفكر بعد ذلك فى كيفية تأجير البرج للشباب المقبلين على الزواج والأحق

بالمساعدة وكذلك الأسر التي ليس لها مأوى وغير قادرين ، وكانت هذه مسألة صعبة جداً حيث أن كل الشباب في البلدة غير قادرين تقريباً .. فمن يختار ؟ وقام بتعيين أحد الشباب سكرتيراً له وكلفه بالإعداد لهذه المهمة حتى يستطيع وبكثير من العدل تأجير هذه الشقق لأكثر الناس حاجة في المدينة ، وتذكر في يوم أنه ترك الفرس ميتكالي في أحد المرباط فذهب وسأل عن فرسه فأخبره صاحب الزريبة بأن الحصان مريض ومات منذ شهر .. ولما استحلفه سلامة بأن يقول الحقيقة .. أكد الرجل بعد أن حلف بالله بأن الفرس مات ولم أكن أعرف مكانك أيها الرجل حتى أتيتك لترى موته .. وتركه سلامة وإنصرف قائلاً له .. لقد حلفت بالله .. وإبتسم خادم الإسطنبول لسيدته وقال .. آه منك يا حاج ..

وحدث بسرعته أن قام سلامة واشترى حصاناً من السوق وصنع خادمه كوشة من الخشب داخل مخزن العاملين لتكون حظيرة للحصان وحجب مرقد الفرس بحائط بناه من الطوب حتى لا يستنشق العاملون رائحة الوحل ، وفي ليلة من الليالي هزّه شوق جارف أن يذهب إلى الفجرية في جبلها .. وركب فرسه متمخراً بين شوارع المدينة حتى وصل إلى مدق الطريق المؤدى إليها .. وكان القمر ينور الطريق والفرس يجرى به حيناً وأخرى يمشى بزهو حتى أصبح بيت الفجرية في مرمى بصره .. لكن عينيه لم تقع على شيء فاعتقد أنه ضل الطريق غير أنه فضل أن يستمر في إنجابه وهو مشدوه كأنه رأى بيتاً خرب ولكز بطن حصانه فاخترق المسافة في لحظات حتى بات أمام الكهف وهو لا يصدق أن حياة كانت هنا وأن ركاباً منها هو الباق من قطع قماش ممزقة وكتل من الخشب ملقاة وأحبال مقطوعة وباب كهف مكسور وحفر الأوتاد الفارغة .. وأطباق صدئة وكومة من الزجاج مهشمه .. ونزل من فوق فرسه خائف القلب شارد الذهن ولم يقدر أن يدخل الكهف .. أخطفهم قطاع الطرق .. أسرقتهم جماعة سطو ، وطار الوطواط حواليه وهو يصوصو كمن يبلغه رسالة .. وغدت السماء فوقه شبيهة بالبحر تضطرم طبقاتها والسحب تنزل من بطنها كالأمواج ستضطرم بسطح الأرض ولفه دوار فأمسك بسرج فرسه .. ألا يجب أن أنادى عليها الآن ومن يضمن من يخرج إليك من بطن الكهف شياطين يسحقونني .. أو قوم من الأعراب مجرمين يقيّدونني ويقتلونني ، واقتشع بدنه كأن العفاريت والجن يحتضنونه ، وفي سرعة البرق قفز إلى ظهر فرسه وانطلق كالريح

إلى المدينة تاركاً خلفه عالماً مهجوراً .. ترى ما سر هذا العالم الذى كان ..

..

.. وكان كثيرٌ من أهل المدينة يعرفون أن صاحب برج الغلاية هو ذاته سلامة زوج الأميرة نيروز .. ولما كان هؤلاء الناس يشيعون ذلك بين الناس .. كانوا يندهشون .. كيف يخرج من القصور رجل يحب الفقراء .. أهو متمرّد على أهله الذى عاش بينهم ، وكيف تسكت الأميرة على ذلك .. وهل أهل القصور فى النهاية مرجعهم إلى الفقراء .. أم أن السيدة الكبيرة حميدة فودة هى التى وجهته إلى ذلك حيث كان أهل المدينة جميعاً يعرفون أنها سيدة محبة للخير وفاعلة له ، وأنها عند أساتذة الإشتراكية أم للإشتراكية فى داخل قصور السادة .. ولما كانت المدينة كلّها تعرف أن السيدة الكبيرة قد مرضت مرضاً شديداً وأصبحت قعيدة الفراش فاقدة البصر وأنها لن تستطيع حتى أن تسمعهم ، فلم يكن لهؤلاء الناس من جدوى أن يقابلوا هذه السيدة ، وأنه كان على مفكرى البلدة من أساتذة أن يبحثوا عن رجل مثل سلامة ربما لديه ثروة .. إنهم يؤمنون تماماً أنه بالمال يستطيعون إغاثة الفقراء وتكوين وحدات وطنية كالفدائيين وتزويد كل المكافحين بالسلاح والفكر للإنقضااض فى يوم على هذه الرأسمالية الجديدة وإعادة تكوين مجتمع عادل .مجتمع إشتراكى .. إنهم لن يستطيعوا تحقيق أهدافهم إلاّ بثروات القصور كيف نخرجها أو كيف نخرجها رجل مثل سلامة ليقيم بروجاً للغلاية وليس برجاً واحداً ..

.. وفى ليلة إجتماع أساتذة المذهب الإشتراكى أتباع ماركس ومفكرى الشيوعية وأساتذة فى الأدب والإقتصاد وشعراء وكتاب رواية فى بيت الدكتور عبد النعيم عياد وهو أستاذ الأدب الحديث والمقارن فى الجامعة وتحدّث كل منهم فى إصرار شديد عن أفكار عديدة بحثاً عن الوسيلة فقال الدكتور عياد :

- إن الفكر البشرى سوف يذهب سُدًى ، ولن يكون فى يوم من الأيام تاريخاً أو وحده من تاريخ إلا إذا كانت له قوة ..

فقال أحد الفلاسفة :

- وكيف نأتى بالقوة .. إننا أصحاب فكر ونعرف كل مظاهر الفساد فى البلدة

.. إن المال والثروة له أصحابه .. كل واحد فى هذه الدنيا يملك شيئاً واحداً ..

وقال مفكرٌ وصاحب مقال أسبوعى فى جريدة مشهورة :

- إن أصحاب القصور والثروة القديمة ليس لديهم الآن أية قوة .. وإن ما نحتاجه منهم هو كيف نستطيع الإستيلاء على ثرواتهم لنضرب بها هذا النظام الرأسمالى الجديد ..

وقال أستاذ آخر :

- إن مهمتنا يجب أن تقتصر على الدعوة .. لسنا ثوريين لكننا نعد للثورة بالفكر ..

وقال آخر :

- إذا كان لابد من وسيلة لتحقيق أهدافنا فلا بد من تكوين جماعات للإستيلاء على ثروات هذا الإقطاع المتداعى ..
وردّ عليه أستاذ فى الأدب :
- لسنا لصوصاً ..

وقال أستاذ إقتصاد :

- ألا نستطيع أن نجتمع مع سلامة ليجلب لنا هذه الثروات فى سلام دون اللصوص والدخول فى متاهات ..
وقال مفكرٌ اشتراكى :

- إذا قام هذا الرجل ببناء عدة أبراج أخرى وأقام عدة مشاريع أطعمت الغلبة وأغنتهم عن الفقر فأنا أعتقد أن هذا ليس قليلاً .. ونستطيع بعد ذلك من كل الذين يعملون فى مؤسسات سلامة أن نجندهم جميعاً كقوة فى ضرب الرأسمالية الجديدة وإقامة نظام اشتراكى عادل ..

وقال كاتب رواية :

- ولماذا نظام اشتراكى .. كنت منذ مدة فى دولة خليجية تعتنق الاشتراكية ،

فقال لى أحد رجال الحزب الكبار .. أن الشيوعيين أنفسهم فى روسيا يقولون عنّا أننا طفل لقيط للشيوعية .. وأنهم يسخرون منّا .. لأن الشيوعية فى روسيا تولدت بطبيعتها وانتشرت فى كثير من بلدان العالم ، وأن قادة هذا النظام فيما بعد أدركوا وبعد كثير من الوقت أنها لن تؤدى إلى العدل ولكن فى النهاية سوف تؤدى إلى الهلاك ..

وقال شاعر :

- إن قادة النظام الشيوعى قد عادوا ملاكاً كباراً بعد أن تمكنوا من الحكم .. وكل رفيق منهم على قدر مستواه من الحكم يملك ، وضاعت ثروة الشعب وأصبحت مملوكة ومهربة لقلّة من هذه الدولة ، والذين كانوا بالأمس دعاة المذهب وحماته هم حتى آخر رمق من حياتهم أصحاب مبادئ وأكبر دعاة للمذهب الإشتراكى ليس لأنه يحقق العدل ولكن لأنه يحقق العز والجاء لذواتهم الشخصية ، وظهرت طبقة جديدة هى طبقة الحكم .. وفى النهاية إنهار المجتمع الإشتراكى ..

وقال أستاذ فى الهندسة :

- لمّا كنا شباباً وجدنا أمام أعيننا ونحن فى المدارس الثانوية شيئاً واحداً .. نظام إقطاعى ضربته الثورة ونظام إشتراكى تقام أعمدته وكان معظمنا من أبناء فقراء أو متوسطى الحال من عمال وفلاحين .. فاعتنقنا النظام الإشتراكى كفكر أو كهدف .. ولكن للأسف وجدنا بعد ذلك الذين ضربوا الإقطاع ليقيموا مجتمعاً عادلاً إشتراكياً قد سرقوا المجتمع كله فيما بعد ..

وقال أستاذ قانون :

- من طبقة الحكام خرج أصحاب المصانع والعقارات .. إذا العجيب أن كل إنسان يعمل لصالح نفسه .. هكذا كما نرى من الإشتراكين خرجت الرأسمالية الجديدة .. هل هذا هو التطور الطبيعى لإنسان هذا العصر .. هل نحن نضحك على أنفسنا .. لا إننا لا نضحك على أنفسنا ولكننا عندما نتمكن نضحك على غيرنا .. كل واحد منا يريد أن يأكل البطّة وحده .. والمصارين والرجول والمنتقار تباع بثمان رخيص فى الجمعيات ويقف عليها الشعب طوابير ويضربوا بعض بالجزم ..

وقال أستاذ فى التاريخ :

- لم تعد هناك جمعيات ولكن هناك جمعيات فى صور أخرى أكثر رقياً ..
إنهم يريدون أن يسعدوا الشعب بقدر من الشكل الحلو .. هكذا يقول التاريخ
وللأسف يقول الاشتراكيون وأصحاب مذهب اليسار .. أن الخطأ فى التطبيق وليس
فى المذهب .. يعنى أبناء روسيا أخطأوا ونحن الذين لن نخطئ فى التطبيق ، وفى
الأصل لماذا نحن نطبق مذهب غيرنا .. لماذا لا نطبق من مذاهبنا نحن ، أيها
الفيلسوف إذا أعطيتك الفرصة وطبقت المذهب الإشتراكي فى بلدان الشرق .. هل
ستحقق العدالة للناس جميعاً ولن نغمر عينيك عن كل ناهب وسارق ، إنكم
جميعاً لن تفعلوا شيئاً وكل ما تستطيعونه أن تفلسفوا .. إعتنقوا من المذاهب كما
تريدون ولكنكم لن تستطيعوا تحقيق العدل لغيركم مهما طبقتم من مذاهب ولن
تستطيعوا تحقيق أى عدل أو حرية لأن الاشتراكيين فى أزمان تاريخهم فى كل بلاد
الدنيا قد بلغوا مبلغاً كبيراً من اللصوصية والنهب .. إن من أبناء إشتراكيكم
خرجت الرأسمالية الجديدة ، وأنتم تجتمعون اليوم علشان القضاء على الرأسمالية ..
والله مانا عارف حاجة ..

وتدخل الدكتور عياد قائلاً :

- بلاش الكلام ده يا دكتور ..

ورد عليه أستاذ التاريخ :

- لا حكبر على الراى .

- إننى أجلك تهاجمنا ..

- ماذا تريدنى أن أقول لكم .. هل أهتف لأصنام الإشتراكية فى البلد .. لا
يوجد أحد منكم جميعاً يتفع أن يكون قائداً .. أنتم مجموعة متفعون .. تكتبون
مقالات ساخنة فى الجرايد وتلقون المحاضرات علشان الفلوس .. علشان تحسن
أحوال معيشتكم ليس لكم طريق لكى تعيشوا إلا هذا وعلشان كده كل واحد ماسك
العظمة فى بقة زى .. الواحد منكم بيتفزلك ويتأنتك على إيه الله يرحم أمى شلبية
ولاً أبويا دردير .. كل واحد منكم عايش فى الدور والحقيقة بين إيديكم بس إنتم

بنحبوا التوهان .. جاتكم نيلة عاملين فلاسفة .. فلاسفة هوا .. بتعتنقوا مذاهب مُمزقة أصحابها رموها .. وجرى إليه أحد البلطجية الذى يطعمه الدكتور عياد صاحب الدار جرى إليه وأمسكه من تلايبه وشده إلى الأمام وكاد الرجل يقع على الأرض .. لولا جماعة قامت وخلصت رجل التاريخ من يد البلطجى وأخرجوه من الاجتماع .. ثم أمر الدكتور عياد الجميع بإستراحة .. فشربوا الشاي ودخنوا السجائر التى كان بعضها محشواً بالحشيش .. ثم أنهى الدكتور عياد الاجتماع بطرح فكرة مقابلة سلامه لأمرين أولهما بناء أبراج أخرى للقضاء على البطالة وإسعاد الشعب والثانية إنضمام سلامة إلى جماعة اليسار الإشتراكى فى البلدة ووافقوا جميعاً ثم إنصرفوا ..

وكان الدكتور عياد صاحب الصالون يحتفظ بصفة دائمة فى بيته بسيّدة أو فتاة، فهو دائماً حريص على إيواء طالبة عربية تدرس الماجستير أو الدكتوراة وتقيم فى شقته بصفة مستمرة حتى تنتهى من الحصول على شهادتها فهو قد أكرمها وساعدها فى الحصول على ما تصبو إليه من علم ومنحها زملائه درجه عالية ، وهو قد نال منها ما نال كإمرأة ، وكان الدكتور عبد النعيم عياد يعيش مع كل واحدة تأتبه طالبة للعلم يعيش معهن جميعاً عيشة الأزواج حتى ولو كانت فتاة ، وكن جميعاً يعتبرنه جهبوذ علم وكن يعتنقن المذهب الإشتراكى ومن عاداتهن شرب الخمر وتدخين السجائر المحشوة بالحشيش ، ولم تكن واحدة منهن تصلّى أو تصوم أو تعرف جهة القبلة مثل أستاذهن ، وكان الدكتور عياد قد هجر بيته الذى تعيش فيه زوجته وولده منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً حيث إختار لنفسه هذه الحياة، رغم أن والده فلاح كان يفلح الأرض .. يرتدى سروالاً طويلاً وبلغة ويحرق الأرض .. كان والده يصلّى ويصوم ويصلح بين الناس ..

.. ولاقى سلامة كثيراً من المتاعب والمشاق التى عايشها مع العاملين فى مؤسسته حتى إستقر كل منهم فى عمله واعتاد وتعلّم كيف يتعامل مع زملائه ورؤساءه فى العمل بشكل مُرض ، وكان يقضى وقتاً طويلاً بعد صلاة العشاء فى المسجد ثم يغادره إلى الدنيا حيث كان يقعد فى كافترىا البرج يشرب الشاي ويدخن الشيشة مع صحبة يقودها صديقه السيد أبو هنتش وسيد أبو عاطف وسعيد طرامة ومحمد حداد وأحمد أبو شيماء .. كانوا جميعاً يحبون سلامة وهو يحبهم ويتطلع

إلى جلستهم كل يوم حيث كانت هذه الصحبة تنقل إليه أخبار البلدة طازجة يوماً بعد يوم .. ولولا هؤلاء الناس لما عرف سلامة شيئاً عن أحوال البلدة .. كانت هذه الصحبة من الشعب الكادح يعملون في الحقول والمعامل والورش ومنهم أصحاب أعمال صغيرة فهم يمثلون الطبقة المتوسطة ، وأكبر ما كان يحبه سلامة في كل واحد منهم الصلاة والصوم والزكاة والإحسان إلى الفقير والمسكين ولو قلت لواحد منهم ما رأيك في الاشتراكية ما قال عنها شيئاً .. إنهم يكافحون ويناضلون في حياتهم دون اعتناق مذهب ما وليس لأى منهم أى اتجاه كما هو جار في سياسة الشرق .. حيث السؤال المعتاد .. ما هو اتجاهك .. إن اتجاه هؤلاء الناس هو اتجاه الشعب الحقيقي في هذه الناحية من بلاد الشرق .. وهو الاتجاه الفطرى لخلق الله في أنحاء الدنيا .. لكن كل المنحرفين والذين لا يقدرّون على عبادة الله بالقدر العادى هم الذين سوّكت لهم أنفسهم واعتنقوا مبادئ وضعها مارقون ملحدون كانت كل حياتهم سُكراً وعريضة وعالة على الآخرين ، وبالتطبيق العملى لنظام مثل النظام الإشتراكى أثبت فشله الذريع فى أن يحقق أية عدالة للإنسان .. بل إنه ساق بمعتقدية جميعاً إلى الانحراف والشذوذ النفسى والجسدى ..

... هكذا كانوا يتحدثون وبهذا الفكر كانت تصل جماعة سلامة كل ليلة ، وكان سلامة يقول لهم دائماً .. إن إنحرفنا الوحيد فى دنيانا هو تدخين هذه الشيشة .. فكانوا يضحكون بصوت عال ويقولون سيهدينا الله فى يوم ونبتّلها .. ولما كان سلامة قد إتخذ له سكرتيراً يرافقه أينما ذهب أو يقعد فى أحد المحلات التى إتخذها سلامة مكتباً له .. كان سكرتيّره هذا يشرف على كل أعماله وعلى أعمال الخادمة التى تأتى كل يوم لتطبخ وتنظف وتكوى ملابس سيّدها التى باتت معظمها من الجلابيب ، وكان سلامة يعيش بينه وبين نفسه ما حدث للفجرية .. أين ذهبت وأين هى الآن .. وكيف وأنا مسئول عنها تذهب عن بيتها دون إذن زوجها .. أدخلت المدينة .. أم رحلت إلى مدينة مصاليا حيث يعيش أخ لها .. إن على أن أتخذ إجراءات فعلية للبحث عنها ، وبعد أن أنصرفت صحبته فى ليلة من الليالى قال لسكرتيّره قبل أن يصعد إلى شقته :

- هناك موضوع مهم أريد أن تبحث عنه ..

- ما هو يا سيدي ..

- منذ وقت مضى تعرّفت على غجرية تعيش فى الجبل .. فلما عدت إليها منذ أيام لم أجدّها فى بيتها وكانت توجد علامات تظهر أنّها تركت البيت إلى مكان ما ، أريدك أن تبحث لى عنها فى المدينة كلّها ..

- ومن أدراك يا سيدى أنّها دخلت مدينتنا .. ربما ذهبت إلى ناحية أخرى ..
- لنبحث فى مدينتنا أولاً ..

- أمرك يا سيدى .. وأمسك برأسه وقال :

- تُرى يا سيدى لو نزلت المدينة ماذا تعمل .. وما هى مهنتها ..

- قد تنزل الملاهى لترقص أو تغنى .. إن هذا هو العمل المؤهلة له .. كانت قد حدثنى مرّة أنّها تحب الرقص والغناء .. وتنهد سلامة تنهيدة زفر بها كل صدره ثم أردف :

- نساء الأعراب والفجر اللائى دخلن المدينة عملن فى الملاهى أو فى دور الونسة الليلية .. ولن نجد واحدة منهن تعمل عملاً عادياً .. إنهن يدخلن المدينة بعد حرمان طويل ..

- ما إسمها يا سيدى وبماذا تتميز أو ما هى أهم صفاتها ..

- إنها امرأة فارعة الطول خمرية اللون شبيهة بالجميلات من الهنود .. ترى فى وجهها شيئاً من نور مصابيح الحدائق وعيناها واسعتان سوداوان تشعرانك بالدلال وبالحيانة معاً .. إنها امرأة فطرية ولكنها ليست سهلة .. إنها تتكلم مثل أهل الفجر إذا تحدّثت مع أناس من قومها .. لكن لسانها يعدل وتتكلم مثل أهل المدينة كأنها منهم إذا تحدّثت مع سكان الحضر .. إنها امرأة تتلوى بلسانها وتثنى بجسدها كعود قصب وإبتسم السكرتير خجلاً من سيده وقال :

- إنها فاتنة يا سيدى كما يبدو من وصفك لها ..

- إعتبر هذا الموضوع من أهم أعمالك .. وأن تأتبنى بخبر فى أسرع وقت ممكن ..

وكانت رياح شهر آذار قد بدأت فهبّت على المدينة واحدة منها وهرع كل

صاحب حانوت يوصد أبوابه وكان سلامة قد إنتهى من الحديث مع سكرتيره فتركه وصعد إلى شقته ، خلع ملابسه وتناول بعض لقيمات من طعام وضعت الخادمة على المنضدة ثم فتح الشرفة وجلس على مقعد بها وكانت الريح قد سكنت كعادتها هذا اليوم فهي تهب ساعة وتهدأ أخرى ، وأخذ يتأمل البنايات الشاهقة التي طلعت حوله فى كل مكان ، ورأى كثيراً من الناس يحثون الخطى على الأرصفة يذهبون ويعودون هنا وهناك ، وصفارات العربات الناقلة للمؤن إلى الأسواق والباصات تحمل جموعاً من الناس تنقلهم إلى وردياتهم فى مصانعهم ، وآخرون يعودون إلى بيوتهم غير أن هناك على مدى رؤيته بعيداً يمتد شارع أبو نواس وشارع بديعة منطقة الملاهى تزدان بالمصابيح الكهربائية المتألثة وسيارات فارغة بأصحابها تنبعث منها الموسيقى الصاخبة وأعداد من بنات الليل يقفن مع الشباب وأخريات ينتظرن لقاء وغيرهن يصرخن إتهاجاً أو من عنف الرجال أو بخس أجرهن لما إنتهت الحاجات .. عالم يأوى إلى ليله بعد نهار تعب فى مصنعه .. وبيوت قديمة تفتح أبوابها التى ينبعث منها صرير فيدخل أصحابها وعندما يقفلونها تحدث نفس الصرير فتشتعل المناقد الفخار بالنار وتقوم كل امرأة زوجة أو أختاً أو ابنة لكل عامل أو فلاح أو صناعى فى هذه الدور .. تقوم بتسخين الطعام على النار المشتعلة أو تقمير الخبز الجاف بعد بله بالماء حتى يعدو بعد تقميره طازجاً لذيداً .. وإنهم بعد ذلك يقومون للصلاة ومنهم من لا يقوم لأى صلاة فليس كل المكافحين فى البلدة عادوا يؤدون فرائض الدين .. ثم بعد ذلك ينامون حتى صباح اليوم التالي لتكون كرة يوم آخر .. إلا بعضهم يسهرون ساعات مع لفافة تبغ أو جوزة يرص عليها حجارة مملوءة بمعسل وقد تدخن معه إمرأته أو ابنة .. إنهم رغم حاجتهم وفقيرهم حريصون على أداء مزاجهم .. يحكون عن نهارهم وأحداثهم طيلة اليوم حتى تصبح نار المنقد رماداً .. وفى الصباح يسعلون حتى يخرج البلغم الذى يملأ صدورهم .. إنهم لا يأكلون غير الجبن والفول وقليل من اللحم كل أسبوع .. إن صدورهم ضعيفة لا تقدر على مقاومة كل هذا الدخان وطول هذا السهر .. إن كثيراً من عمال الشرق مرضى مثل عمال هذه المدينة .. والمستشفيات مهما كثرت لا تكفيهم ، ومن ثم كانت دور العلاج لا تقدر غير أن تصرف لهم أدوية هشة كالإسبرين والسلفا وزرنيخ الحديد .. إن كل الأمراض تُصرف لها السلفا أو البودرة التى يطلق عليها فوار .. إنهم

جميعاً عمال أكبر شئ في حياتهم الكحة وأمتع ما فيها ونسة الجوزة وألذ لقمة خبز هي الرغبة المقدد المغموس في الماء والمقمر على نار المنقد .. إن أحلى ما في حياتهم حكاياتهم لأهليهم وهم يسعلون .. وعندما يستيقظون في الصباح وهم يكحون يملأون بداية النهار عواءً مثل عواء القطط بعد منتصف الليل .. إن أحياء الفقراء كل صبيحة يوم ما أصدق أن يقول عنها شيخ المسجد .. يا رب إشف كل مريض وارزق كل مسكين .. كان الشيخ محمود الدبور مؤذن أقدم مسجد في البلدة يضرب كفاً بالآخر ويقول:

- هم دولت العمال إللى بيدوروا المكن .. يا قادر يا رب .. دا بس علشان الرزق أمال ولادهم تاكل منين .. يا كريم يا صاحب الفرج .. وكان الشيخ ضريراً لا يراهم ولكن يسمعهم ويحس بهم ويتصور حالهم ..

.. وشرد سلامة بأفكاره لما تصور حياة سكان الأحياء الفقيرة والتي يرى بيوتاتها وأزقتها وأنوارها الباهتة من شرفته بالبرج ولما بدأت الريح تهيج ثانية دخل إلى فراشه ولما جذب الغطاء فوقه تذكر أشياء أخرى يجب عليه أن يبذل جهداً فيها حتى ينتهى منها ، ولما صدح أذان الفجر من مآذن مساجد المدينة وزواياها الكثيرة كان كثير من الناس الفقراء ومتوسطى الحال وجميعهم من رجال يتجاوزون الأربعين عاماً من عمرهم يخرجون من بيوتهم كى يؤدوا صلاتهم ولما كانوا يعودون إلى بيوتهم مرة أخرى فإنهم سرعان ما يخرجون إلى أعمالهم فى الشوارع والمزارع والمعامل وكان معظم هؤلاء القوم من عمال وفلاحين يعملون أعمال خاصة فى الشوارع فمتهم صاحب عربة كشرى وآخرون يدفعون بعربة فول وغيرهم يحملون أسباتهم لبيعوا السندوتشات والسميط ، وكثير منهم يعملون ماسحى أحذية عند محطات الباصات وأبواب المدارس والمستشفيات ، وعدد لا بأس به يبيع الجرائد والمجلات ويدفعون بعربات البطاطا والدندورما ، وتحت الكبارى وعند دورات المياه وبجوار الحوايط القديمة التى يتكدس عندها المارة يقوم الكثيرون بعمل الشاى وتقديم الجوزة للزبائن السفرى والعابرين ، وأعداد لا بأس بها من الفلاحات جئن من الضواحي يحملن طشوت الجبن القريش والمش يبعنه عند كل ناصية وبجوار كل تكدس للبشر اللذين يذهبون أو يعودون ، وبائعات الليمون والفواكه الطازجة والتى تقطف كل صباح من أشجارها تجلس بها الفلاحات أينما ذهبت فى سوق أو شارع

أو ميدان ، وكانوا جميعاً حريصين على الإنتهاء من بيع بضاعتهم قبل أن يحلّ الضحى العالى حيث يلاقون الكثير من المشاكل والمتاعب من رجال البلدية .. ففى كل يوم تحدث الكثير من الأحداث المؤسفة من هؤلاء الرجال حيث يسطون على بضاعتهم ويحملونها إلى أقسام الشرطة فى محاولات صارمة وشديدة لمنعهم من مزاوله تلك الأعمال فى شوارع المدينة .. ويبقى سؤال لدى كل إنسان يرى تنكيل شرطة البلدية بهؤلاء الباعة الغلابة كل يوم .. وأين يذهب هؤلاء الناس ليجدوا أرزاقهم .. إن الدولة لا تستطيع أن تكفل لكل هؤلاء أو حتى القليل منهم أى عمل وأى رزق .. وفى المساء نجد أن هؤلاء الباعة يخرجون إلى أماكن أخرى فى المدينة كى يبيعوا الشرايات والقمصان والعدد والأدوات وكل ما يخطر على بال يدفعونها بعرباتهم أو يحملونها على أكتافهم .. وأينما ذهبت فى أى مكان بالمدينة وجدت هؤلاء .. إنه نوع قوى للنشاط البشرى فى البلدة كان فى عهد الإقطاع وإنتشر كثيراً فى عهد الإشتراكية وأصبح الآن ظاهرة مهولة فى ظل الرأسمالية الجديدة ..

.. كان سلامة يمشى فى الشوارع ويرى كل هؤلاء ويسعد لما يجدهم فرحين ببيعهم ويحزن لما يرى قسوة تعامل رجال البلدية معهم وفى ليلة من الليالى تكلم مع جماعته فى كيفية إنشاء سوق يجمع كل هؤلاء فى مكان واحد فقال موجهاً كلامه لسيد أبو هنتش :

- عايز أعمل سوق لكل بياعين الشوارع يا سيد

- هتلاحق عليهم .. ماتقدرش تعمل سوق يجمعهم كلهم لأن من مصلحتهم يبيعوا فى أى حته ولما تعمل لهم سوق واحد ماحدش هيروحه لأنه مش هايبيع .. دولت بياعين شوارع وبس .. ورد عليه سيد أبو عاطف :

- ممكن تتحل بعض المشاكل اللى بتحصل مع البلدية .. لأن بصراحة الناس دى ملت الشوارع بشكل رهيب ..

ويقول أحمد أبو شيماء :

- المشكلة فى الزبالة اللى بيسيها الناس دى فى الشوارع ..

ويقول محمد حداد :

- سييوا سيد سلامة يعمل اللّى يقدر عليه.. أهو كُّله خير منها يساعد البلدية ويساعد بعضهم الى يروح السوق ويحب بيع فيه ..

ويقول سلامة بإصرار محاولاً إقفال باب المناقشة :

- ها أقوم بعمل السوق فى مكان متوسط فى المدينة .. هىّ الناس دى إتجاهها إيه .. فيقول أبو هنطش :

- دول ناس غلابة بتوع ربنا .. مالهاش أى إتجاه .. إتجاهها مع أى نظام يأكلهم عيش وبس .. بلاش الحياة الكريمة .. بس ياكلوا عيش وفول وجبنة .. ولا فى دماغهم أى حاجة تانية .. مش إنت يا عم سلامة اللّى تسأل السؤال ده ..

- ويقول سلامة لأبو هنطش :

- أصل فيه ناس فى البلد بتحاول تثير الناس دى .. فأنا بأسأل عن إتجاهها..

ويقول أحمد أبو شيماء:

- أنا عارف الناس دى .. دول بتوع الرغيف .. عايزين من أى نظام رغيف وبس ..

ويقول محمد حداد :

- لكن الهتيفه من الناس دى .. كل الأنظمة على مر العصور بتاخذ الهتيفة والمطبلتية من الناس دى ..

ويقول سعيد طرامة الذى لم ينبس بكلمة واحدة :

- الناس الغلابة دى بتتأجر وبس .. مش معنى قال تحيا الاشتراكية أو تحيا الرأسمالية أو تحيا الباشا إنه يعرف شئ من هذا هو بيقول علشان واحد فلوس وهيروح يجيب كيلو لحمة لأولاده .. ولو جيت له بكرة وأعطيته فلوس هيقول تسقط الاشتراكية ويسقط الباشا ..

ويقول سيد أبو عاطف :

- آه لو كل واحد بيعيش فى الدنيا دى بيعب غيره أو بيعرف إن فيه أخ ليه

عايز يعيش زى ما هو عايش والله لو كل واحد يعرف ربنا وعنده قليل من الدين لعم العدل والحرية بين الناس جميعاً .. هو الظلم والتكبر على الناس وجوع الشعوب كل ده جه من الأنظمة .. ولو كل إنسان فى عمله أياً كان إتقى الله وعرفه معرفة حقيقية لكان العدل والحب والحرية هى أساس ذلك الوجود..

ويرد عليه سعيد طرامة متحمساً :

- الكلام ده لو عايش فى الدنيا ملايكة .. لكن الناس فى الدنيا كلهم بشر ، وبشر إنجنتوا بالدنيا .. فيه بلاد كثيرة فى الدنيا حققت كثير من الخير لشعوبها لأنهم ماشيين على نظام وفيه شوية صدق مع أنفسهم .. لكن إحنا همجيين وبكذب على بعض وكل واحد كبير أو صغير عايز يلبس العمة للتانى .. فهلوة وهمكة مالهاش حد .. وأى عدو ليك عايز كده .. لأن اللى بنعيش فيه ده نتيجة عدم الأخذ بأسباب تقدم الإنسان ورفاهيته من الأول .. وكل سياسى فى البلد وفى البلاد اللى حوالينا بيتاجر لما يقعد على الكرسي الكل بيستغل وظيفته وكل واحد ماسك سكيته ياخذ حقه بطريقته ، طول عمرنا شايفين كده وماعملوش حاجة .. ناس بتعمل لمصلحتها أولاً وأخيراً .. هم الناس اللى فى الشوارع دى من إيه .. ناس من خمستاشر سنة لغاية سبعين وثمانين سنة وتلاقىهم فى الشوارع علشان يلقطوا رزقهم وبرضه بيطاردوهم فى أرزاقهم المهلهلة .. على الغلبان واضرب علشان الغنى ياخذ ويلم ويكون أمل الغلابة الكبير والنبي ما تضر بنيش سيبنى دا أنا غلبان .. علشان العيال .. وما يقدرش يقول على الغنى حاجة ويصبح كل أمله أن يعيش مدرأى جنب الحيط .. والفقير بيخلف فقير والمتسول بيولد متسول والشحاذين ها يولدوا شحاذين مثلهم وبكرة كل دولت هايتكوموا فى الشوارع ها يعملوا فيهم إيه .. الناس كلها ها تنزل الشارع .. وأشار سلامة بكف يده إلى سعيد طرامة قائلاً يرجوه :

- أرجوك كفاية .. إنت هاتموتنى ..

- دى الحقيقة يا عم سلامة .. الظلم تراكم من عقود كثيرة سبقت فكانت النتيجة ..

.. وقال محمد حداد وهو يقف :

- كفاية كدة الليلة .. دا إنت يا سيد سلامة لو عملت البلد أبراج كلها مش هاتكفى تلم البلاوى دى ..

وقاموا جميعاً ينرفون إلى بيوتهم وتركوا سلامة مع نفسه وقد ملأت المראה حلقه ، ونهض هو الآخر من قعدته ورافقه سكرتيرة حتى صعد إلى شقته بالبرج ..
وفى الليل كانت كوابيس كثيرة تطارد سلامة فى نومة حتى أنه كان يتفلج مذموراً زاعقاً بصوت عال كأنه يستنجد بأحد ويضيق صدره كلما نام وينزعج مرة أخرى .. وفى آخر الليل وقبل أن تصدح آذانات الفجر فى المساجد جاءه فى المنام من يقول له :

- أخرجوا من المدينة وأتركوا دخانها وحوانيتها وحاناتها وملاهيها ومصانعها الضيقة ، اذهبوا إلى الصحراء والبحار والغابات التى لم يدخلها أحد من قبل . لكل واحد منكم قطعة أرض وبيت وشربة ماء .. أضربوا الشحاذين بسوط بالغ القسوة حتى يكفوا عن عاداتهم ، وأوجدوا عملاً لكل متسول فإن رفضوا فاجمعوهم فى ميدان عام واضربوهم بالرصاص ، وهاتوا كل الساقطات وأمرهن بالتوبة فإن لم يفعلن فاغرقوهن فى البحر الكبير عسى أن يتطهرن ، ومن تخرج من اليم متطهرة فأدخلوها معكم ومن لم يستطعن فاتركوهن .. فالبجر قادر أن يبتلعهن جميعاً ..

وقام من نومه مذهولاً وهو يقول : أستغفر الله .. ودخل الحمام وتوضأ ونزل إلى المسجد ليصلى مع المصلين .. وجلس بعد أن أنصرف الجميع مع شيخ المسجد وقال له ويداه ترتعشان :

- لقد رأيت رؤى عجيبة .. كنت أنزعج فى نومي ثم ألوذ فيه بعد ذلك أصحابي على من يكلمنى ويأمرنى كأتى رجل أستطيع أن أفعل أشياء لكل الناس المصابين فى أرزاقهم ..

فأمسك الرجل به حتى يهدأ روعه وقال :

- إن فاعلى الخير فى هذه البلدة قليلون وما فعلته كثيراً يا سيد سلامة وعليك إذا كان لديك مال آخر أن تفعل ..

وهذا سلامة قليلاً وقال منتقلاً بحديثه إلى موضوع آخر :

- ساعدنى فى تسكين البرج إتنى حتى الآن لم أبدأ فى هذا الأمر المهم ..
وهدفنى إعطاء الشقة لمن يستحق وأن يكون على خلق كريم ..

فقال الشيخ :

- إتنى أعيش فى منزل قديم يكاد يقع .. مفلوق الجدران وأمامه تجرى روائح
كريهة .. إنها مجارى الحى التى تنساب فى قناة محفورة أمام أبواب البيوت فى هذا
الحى القديم ..

فقال سلامة مازحاً :

- إنك بهذا تأخذ كل شئ .. شقة ومحل ..

- إتنا جميعاً سندعو لك .. إن كل أولادى وبناتى فى الجامعة يسألونى كل
يوم سؤالاً واحداً كلما جلست معهم .. ليم لا تخبر هذا الرجل الطيب بأننا فى حاجة
إلى بيت .. وفى الحقيقة أنا أخجل منك بأن أ طرح عليك كل مشاكلى لتجد حلاً لها
.. ولكن إنه العشم وليس الطمع .. إن زوجتى لها نصيب فى بيت أبيها يقدر
بخمسة آلاف درهم تستطيع أن تأخذه من شقيقها فى أى وقت حتى ندفعه لسيادتكم
كجزء من مقدم الإيجار ..

فقال سلامة محاولاً أن يضع النقط فوق الحروف مع الشيخ :

- الشقق للتمليك وليست للإيجار ..

فخاب رجاء الشيخ لديه وقال منكسراً وكأنه سقط على الأرض من علو :

- إتنى أعتذر لك يا سيدى .. لقد كنت خيالياً فى عشمى ..

وسادت فترة صمت كان فيها الصبح يكاد ينبجج وفاجاه سلامة قائلاً فى
صوت خنون :

- هات المبلغ الذى لديك وخذ شقة يا شيخ ..

- كيف آخذها يا سيدى .. إتنى لا أستطيع أن أعطيك أى مبلغ آخر .. وأكون
قد كذبت عليك لو قلت أننى أستطيع أن أدبر مبلغاً فى حياتى مثل هذا .. كان أدفع

لكم كل شهر مبلغاً ما .. إننى أعيش أنا وأسرتى فقط حياة طيبة بعد أن عملت فى المحل معكم .. كنت قبلها لا أطعم أسرتى من اللحم إلا مرة واحدة كل خمسة عشرة يوماً .. إننى الآن كفىل بإطعام أسرتى كل يوم .. إنها حياة كريمة بلا شك لو قورنت بما كان حالى مـ قبل .. كيف تأخذ منى يا سيدى مبلغاً كهذا وتعطينى شقة تساوى خمسين ألف درهم على الأقل ..

وسكت سلامة وهو يسمع لسان حال الرجل ولاحظ أن خادم المسجد يقف عند بابه وفى يده المفاتيح ينتظر خروجهم حتى يقفله .. فنهض من قعدته وقال ثانية للشيخ وهو يمد يده مصافحاً :

- إذهب إلى السكرتير بشرط واحد أن تنقده خمسة آلاف درهم وإختار الشقة التى تعجبك .. ووقف الشيخ جامداً فى مكانه وكاد كف يده يسقط منه لما إنتهى من مصافحة سلامة وفغرفاهه وقال وهو واقف فى مكانه وسلامة يكاد يخرج من باب المسجد :

- معقول .. هو سمع كلامى ولأ لا .. وفى صوت خفيض وكان الخادم قد إقترب منه :

- هو سلامة إلتجئ ..

- فقال الخادم :

- كيف تقول على الرجل الخير هذا يا شيخ ؟

- أسكت جتك الغم .. إنت مش عازف حاجة ..

.. وخرج الشيخ ومشى فى الشارع يكلم نفسه حتى وصل إلى البرج وفتح باب محله وقال وهو يرتب بضاعته .. ، كل شئ ممكن .. بس ده مش ممكن .. بيقه سلامة جرى له حاجة .. حتى دخل عليه أحد الزبائن ..

.. وكان كل واحد من جماعة سلامة التى تجلس معه فى الليل قد آتى إليه بكشف يبين أسماء الذين فى حاجة إلى سكن ووظائفهم ومرتباتهم وعناوينهم الحالية، وبدأ سلامة منذ صبيحة هذا اليوم يتحرى عن هؤلاء الناس فركب فرسه

واخذ يدخل جهة حكومية أو شركة ثم شارع وحارة وزقاق متحريراً بدقة عن كل طالب واحتياج إلى سكن واستمر ذلك قرابة أسبوعين وساعده أصحابه وأهل الخير حتى وقع إختياره على الذين يستحقون أولاً وثانياً وثالثاً حيث عقد العزم أن يشتري برجاً آخرأ ليحل كثيراً من مشاكل هؤلاء .. والغريب فى الأمر أن بعض الناس لم يأخذ منهم درهماً واحداً لأنه ليس معهم ما يدفعونه والبعض دفع عشرة آلاف درهم وآخرين سبعة آلاف وغيرهم خمسة عشرة ألف ألفين .. كل حسب استطاعته ومدى حاجته .. ومرت الأيام وانتشرت أخبار هذا الرجل الغريب والعجيب فى المدينة وما حولها .. وكان كثير من الناس يقولون عنه أنه مجنون وآخرون أنه غنى وقال أصحاب الأموال أنه يثير الناس ضدنا وقال الاشتراكيون أن هذا هو الرجل الذى نتظره .. إنه زعم الاشتراكية الحقيقى فى هذه الناحية .. وأخذ قادة الاشتراكيين يضعونه نصب أعينهم وكان كثيرون من الشباب الاشتراكى قد ألحق إسمه فى كشف المحتاجين لدى سكرتير سلامة ، وكان صالون هؤلاء أصحاب المذهب الاشتراكى يقضون نصف وقتهم فى تناقل أخبار هذا الرجل العجيب الذى نفذ كل مبادئهم وأهدافهم وجعلها حقيقة وبدأ يحمى البلدة من ذئابها أصحاب رؤوس الأموال الجديدة ، كان هذا إعتقادهم لكن فى حقيقة الأمر أن سلامة يكره كل ما هو إشتراكى والإشتراكية كتطبيق إقتصادى لأنها ضد الحرية الفردية ، وأنه جاء من بلد طفحت بالإشتراكية وخاضت تجربة فاشلة فى التطبيق الإشتراكى ولا مانع من تدريس الإشتراكية فى المدارس والجامعات كتناقل للفكر الإنسانى ..

.. وكان رجل ردى الملامح منحنى الظهر ذو عينيْن غائرتين فى وجه نحيل وجبهة يبرز عظامها ورأس منحولة الشعر قد إختاره صالون الدكتور عبد النعيم ليذهب إلى سلامة ليعرض عليه الإشتراك فى الصالون والإنضمام إلى فرين الإشتراكيين فى المدينة .. وفى صباح أحد الأيام لما كانت المدينة تعيش ساعة الذهاب إلى الأعمال الخاصة والعمال والموظفون يزحمون الباصات والترام ويقفون على أرصفة المحطّات .. وأبواب الورش والمحلات تفتح والأسواق تعلو فيها أصوات الباعة .. والباعة المتجولون يتشرون تزيينهم الفلاحات القادمات من الضواحي حاملات الطشوت والأقنص والقفف المملوءة بالجنين والخضار والفواكه والطيور ..

وكان الدكتور فوزى قنديل مبعوث الإشتراكيين إلى سلامة قد قدم هذا

الصباح من بلدته رهى إحدى ضواحي المدينة يركب القطار القشاش مع هؤلاء الباعة حتى نزل معهم فى محطة القطار ليركب باصاً آخر إلى حيث يقطن الزعيم الفعلى لهم .. وشعر بالحنجى وهو يصعد الدرج المؤدى إلى باب البرج .. كيف يكون زعيم الإشتراكية غنياً بهذا الغنى .. ربما يكون رجلاً مجذوباً أو من هؤلاء المشعوذين ولكنى سافوم بمهمتى .. وقبل دخوله إلى الممر المؤدى إلى مكتب السكرتير تذكر أن حذاءه ليس نظيفاً فأخرج خرقة من جيب بنطاله وأخذ يدعك مركوبه ولم يفلح فى تلميعه فرجع إلى حيث يقعد الحارس وطلب منه ماءً وبلى القماش الرثة فى يديه وأغرق البلعتين بالماء فلمعتا وإبتسم وألقى بالخرقة فى سلة الزباله وشكر الحارس وتابع سيره .. وطفق البواب مندهشاً : بهائم جاية من البلد .. كان يحمل دفترأ تحت ذراعه فلما دخل على السكرتير مكتبه ظنه كاتب صحة حضر ليكتب أسماء الأطفال المستحقين للتطعيم ، وصافح السكرتير بحرارة حيث قام إليه نصف قومة لما رآه غلباناً وإعتقد صاحب المكتب أنه سائل جاء ليسجل إسمه فى طلبات الشقق وأخرج الدكتور من جيبه كارتاً وناولوه للسكرتير قائلاً فى صوت عميق :

- تفضل .. يشرُفنى ..

وإمتعض وهو يقرأ دكتور فوزى قنديل أبو جزية .. أستاذ الرياضة الحديثه بكلية العلوم جامعة الشمال ..

- أنت ..

- نعم أنا ..

- ولكن .. أنت أستاذ فى الجامعة ..

- نعم بس أنا من الفلاحين .. لا أحب المظاهر بطبيعتى .. كل مرتبى باشتري به كتباً واصرف على ولادى .. أنا لا أهتم إلا بالمعلومة .. لا تندش فانا رجل إشتراكي ..

وكان السكرتير وهو السيد منير عمارة ما زال يتفحصه بأمر عينيه من خلال زجاج نظارته وقام نصف قومة ليتأكد من أن بلغته لم تلوث سجادة الغرفة ولما قعد

- دكتور وترتدى هذا الغبيط .. أقصد هذه الجزمة .. من أين أتيت بها ..

- أهداه أخى لى .. حذاء متين من القوات المسلحة لكننى قرطت رقبته الطويلة حتى يصبح حذاءً جميلاً يرتديه دكتور .. إن الطريق بين بيتى فى البلدة ومحطة القطار ملئ بالوسخ وجلة الجاموس وفشل الحمير عدا الأتربة .. أنا رجل وأقمى هذه الأحذية كان يرتديها أبائنا وأجدادنا ، أحب الأصالة والمتانة فمنذ خمس سنوات لم يشتك أو ينقطع إنه حمارة عرجاء لكنها ملكى ولا أستطيع إستبدالها بجزمة جديدة تنقطع بعد شهر واحد .. وأنتم تعرفون كم سعر الحذاء اليوم .. هل جئنا إلى الدنيا لشترى أحذية .. إننى صاحب مبدأ يا سيد منير .. وسكت هنيهة وقال :

- لم تسألنى لماذا جئت . ؟

- لقد عرفت لماذا جئت يا دكتور .. تريد شقة

وفوجئ الدكتور وبفراسة قماشى مع السكرتير قائلاً :

شقة طبعاً عسمى كبير .. أنتم ترون كم أشقى كل يوم فى السفر ..

وأخرج السكرتير كشفاً من درجة وقال وهو يسجل إسمه :

- دكتور فوزى قنديل أبو جزية .. يعنى إيه قنديل وأبو جزية ..

- قنديل يعنى فانوس مضئ لا ينطفى أبداً .. أما أبو جزية .. فالصحيح أنها

كانت أبو جزمة لكنها كتبت فى شهادة ميلادى خطأ .. ومشيت كده حتى الآن .. أنا

الوحيد دون إخوتى أبو جزية وضحك منير عمارة من كل أعماقه وقال :

- الصحيح يا دكتور لو بقيت أبو جزمة كانت ستكون إسم على مسمى وهى

الصح قوى .. ما تزعلىش منى يا دكتور أنا با هزر معاك ..

واحمر وجه الدكتور فوزى وتماشى معه حتى النهاية ليكون لطيفاً مع

السكرتير من أجل الشقة .. ثم فتح دفتره وراح يقرأ الأسئلة التى سيلقيها على

سلامة ..

وأخذ السكرتير يرتب أوراقه فوق مكتبة وكان ينتظر أن ينصرف الدكتور ..
لكن الدكتور قال له دون أن يرفع عينيه إلى وجهة :

- أريد مقابلة السيد سلامة فى أمر هام ..

- حتى توصى على الشقة ..

- إننا نعتبره زعيم الفقراء وناصرهم وجئت اليوم كمبعوث للإشتراكيين
للحديث معه ..

- سلامة رجل عادى متواضع يعمل ما يرضى أى ضمير حتى ويستثمر ماله
من أجل مصلحة الناس فهو رجل يحقق العدل الطبيعى الذى لو فعله كل صاحب
مال ما كان فى البلدة محتاج ..

- إذاً هو إشتراكى المولد ..

- هو مسلم المولد .. وأرجوك يا دكتور إبتعدوا عن هذا الرجل حتى لا
تخربوه علينا ..

ولكن الدكتور فوزى أصرَّ على مقابلته وتكلم كثيراً فى فلسفات ونظريات لا
قبل للسكرتير بها فلماً زهق السكرتير منه هاتف سلامة فى شقته وأخبره بشأن
الرجل وأنه أستاذ فى الجامعة وجاء إليه لمقابلته كمبعوث من الإشتراكيين فى البلدة
.. وافق سلامة وقال له .. إرسله لى إننا لن نخسر شيئاً ، ولما صعد الدكتور فوزى
إلى سلامة رافقه حارس البرج وفتحت لهما الطاهية لماً دق جرس الباب ، أجلسته
فى صالة البيت وسألته ماذا يشرب فأخبرها برغبته فى قهوة مضبوط .. ولما خرج إليه
سلامة يرتدى جلباباً ثقيلاً ويتلفح بشال من الصوف وضعه فوق كتفيه رحب به
وصافحه وقال وهو يجلس :

- من هو الإشتراكى فى نظرك ؟

- هو الذى يحب العدل والحرية والديمقراطية ..

- كانت الدنيا تمتلئ بأناس كثيرين يحبون تلك المبادئ ويدعون لها قبل أن
تصلنا تلك الإشتراكية .. إن العالم كله شهد ميلاد ذلك المذهب عندما قامت الثورة

الروسية ضد القيصرية ..

- إن تفاصيل إشتراكية ماركس مذهلة كأنها وضعت فى طبق لكل من يريد أن يغترف منها ..

- لكم ما تشاءون .. وسكت هنيهة ثم أردف :

- ماذا تريدون منى ..

- نريدك عضواً فى المجتمع الإشتراكى ..

- أنا عضو فى المجتمع الإنسانى .. الإنسانى .. هل تعرفون الإنسانية التى نادى بها الأديان جميعاً منذ عشرات القرون ..

- رجل مثلكم وضع ماله فى خدمة الناس وذاع صيته فى المدينة والناس تهتف باسمه .. خسارة إن لم تتخذة زعيماً .. إننا فى حاجة إلى رجل غنى ..

- لقد شبعنا من هذه الأكاذيب فأنا ابن كان التى تولدت الإشتراكية فيها منذ أكثر من أربعة عقود كنا ساعتها فى المرحلة الابتدائية .. هتفنا وأنشدنا للزعيم .. ولما كبرنا إكتشفنا أن هذا الزعيم قد نكل بكل رجال ونساء الدين .. كنا نعتبره شيئاً كبيراً كنا نسمع ولا نرى كنا نصدق كل من يقول كلمة أو يكتب قصيدة شعر لهذا الزعيم وفى الحقيقة أن هؤلاء الناس لم يكن فيهم واحداً صادقاً .. لقد كنا نصدق أساتذة كذابين وربما كانوا مخدوعين أو أناسا طيبين يصدقون مثلنا .. المهم عندما كبرنا رأينا الحقيقة الكاذبة .. إننا فى الشرق نعيش نعرات ونرتدى أنظمة لا تتناسب مع أوطاننا .. وصوتنا يعلو بالشعارات الجوفاء والحقيقة أنها جميعاً هراء .. ربما تقول أنتى رجل يفترى على هؤلاء .. شئ واحد أريد أن أقوله لك .. جاءوا بالقطاع العام ليقود الإقتصاد الكانى للتقدم والرفاهية الذى يحقق العدل والحياة الكريمة لكل مواطن .. ماذا حدث بعد أربعة عقود أو يزيد .. إنهيار القطاع العام لفشله الذريع .. وكل ما أقوله لك باختصار أن كل شرقى مازال يؤمن بالإشتراكية كنظام إقتصادى يحقق العدل والرفاهية للناس .. أقول لمثل هؤلاء أنتم مجانين وخائبون وتريدون أن تثبتوا وجودكم بمبادئ هراء كما تزعمون أنها مبادئ ، وأنه لم يوجد إشتراكى فى بلدنا إلا وهو عدو للدين وقيمة التى نزلت من السماء .. فكيف

بالله عليك يكون لمثل هؤلاء الناس وجود .. أقول لك إنهم جماعات لا يقوون على أنفسهم .. ضعفاء النفوس لا تجد واحداً منهم طاهراً أو صادقاً أو أميناً .. إنهم جميعاً أفاقون فمنهم العامل ومنهم الفلاح وكثير منهم الآن أساتذة فى الجامعات وطلبة صغار قليلو الخبرة بالحياة .. إنهم الآن فى كان يعملون شيئين .. يقيمون .. صالونات وندوات فى بيوتهم لا يحضرها غيرهم .. لهم ما يشاءون ولكنهم سيظلوا حتى يموتوا لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً آخر .. وهم جميعاً لا يستطيعون أن يقدموا خيراً لى إنسان .. إنهم لا يقدرون أن يقدموا خيراً حتى لأنفسهم ..

.. والشئ الآخر الذى يقومون به يقدمون مقالاتهم على صفحات الجرائد والمجلات فى محاولات للسيطرة على عقول القراء بأفكارهم .. إنهم جميعاً جماعات مرتزقة .. وهذه المقالات والفلسفات جميعها لا تغنى الإنسان بشئ .. وعلى فكرة كثير من هؤلاء الإشتراكيين سافروا إلى دول مجاورة فتاجروا بتلك المبادئ واقتربوا من زعماء هذه البلاد بالتناق وبكتابة المقالات عاشوا هناك سنيناً وعادوا الآن وقبل الآن بالمال الكثير .. ماذا فعلوا بها .. حققوا به ذاتهم وحلوا به عقدهم الإجتماعية .. فالإشتراكية التى تاجروا بها حققت لهم المال من زعماء يحبون النفاق .. فهو فى الأول منافق وفى الآخر منافق ولم تكن تلك الإشتراكية إلا وسيلة أو تياراً أو حصاناً ركبه وكسب فى الآخر .. إذهب إليهم الآن إنهم يعيشون فى قصور ويحيط بهم الخدم والحشم .. هل فعل أحد منهم الخير .. كفى أيها الدكتور .. أنا ابن هذه الإشتراكية .. لماذا جئت إلى بلادكم منذ أكثر من خمسة عشر عاماً وغيرى آلاف مؤلفة .. كنا جميعاً ضحية نظام فاسد .. وتولد عن هذا النظام مئات من الناس كانوا من طبقة حكام وإدارة هذه الإشتراكية .. هل تعرف ما نوعية هؤلاء الناس فى كان الآن .. إنهم كانوا نواة الرأسمالية الجديدة التى بدورها الآن فى كان تقوم بظلم إجتماعى لا يطاق وسوف تكون فى النهاية إنهار هذا النظام .. هل تعرف لماذا ينهار .. لأن أصحابه إشتراكيون .. وكانوا جميعاً أبناء فقراء .. ماذا أقول لك أكثر من ذلك .. لقد ألقى عليك محاضرة ساخنة .. أنا واحد غلبان مش بيه .. أنا مكوى بنار الإشتراكية وقرفان من كل ما هو إشتراكى أنا مذهبى الآن إنسانى محض أحب الغلبة بالفعل وأساعد الناس المكافحين على قدر ما أستطيع .. أنا لست إشتراكياً ولست رأسمالياً .. أنا لا أعرف من أنا حتى الآن من تلك

الهرات .. ولكننى فى ميلادى الجديد لاحظ أو اعتقد أننى أتقى الله فى كل شئ ..

وأخذ الدكتور فوزى قنديل يضع دفتره تحت إبطه وقال وهو يمد يده :

.. لم أكن أعرف أنك رجل نارى .. لا تؤاخذنى .. أنت رجل لا يطاق ..
أقصد جامد أوى .. سوف أعود إلى جماعتى وأخبر الدكتور عياد بأننى فشلت فى مهمتى ..

- أخبرهم بأننى لست رجلاً همجياً .. ولكننى رجل توصلت إلى أن العدل والحرية والإنسانية لن تتحقق للإنسان بأى نظام .. لكن هذه كلها تتحقق بواسطة الناس الذين يعرفون الله ويتقونه فى حياتهم ، وأقول لك إستكمالاً بأن هؤلاء الناس قليلون وما يعملوه يهدمه غيرهم .. وأنه ما دمنا نعيش الحياة فإنه لن يتحقق العدل والحرية والإنسانية أبداً .. إنه قد يتحقق قدر منها .. وليس معنى هذا أننا نياس وعلى كل الناس الأخيار أن يعملوا ما يستطيعون .. وأن تلك الأنظمة التى هى نتاج فلسفات العقل البشرى إنما يطبقها قوم من الناس يحترفون السياسة ويحققون منها الثروة واللذة لأهليهم وذويهم ومناصريهم .. وهب الدكتور واقفاً وقال :

- إسمح لى .. لم أكن أعرف أنك تهاجم الإشتراكيين بهذه الشاكلة .. كنت أحسبك رجلاً سهلاً ، وكلامك محفوظاً وإنشائى كأسلوب كل داعية ..

فابتسم سلامة وقال متصنعاً الهدوء :

- أنت رجل توبخنى فى بيتى وأشكرك .. ومعروف عنكم أنكم لا تحبون رجال الدين ولا حديث الدين .. إنكم لن تضيفوا إلى الدين شيئاً إذا أحببتموه ولن تنالوا من الدين شيئاً إذا هاجمتموه أو كرهتموه فأنتم خوارج على كل مبادئ وقيم وإن أظهرتم غير ذلك .. إذهب وقل لعميد الإشتراكية كفاكم صالوناتكم .. ويكفيكم أيضاً أن تؤثروا فى شباب صغير السن وأن تزيدوا الكبار من روادكم زندقة وخيبة ..

- وأنا أيضاً أشكرك لأنك مسحنتى فى بيتك ولم تبق على شئ ..

- هذه هى الحقيقة التى أراها وإن لم تعجبك فإذهب إلى شئ آخر يروق لك ..

وصافحه سلامة وشد على يده قائلاً :

- هل تستطيع أن تنقل حديثي بالحرف إلى الإشتراكيين

- طبعاً طبعاً حفظته .. شكراً ..

وإنقلب يحمل في قدميه ذلك الحذاء الثقيل متوجهاً إلى الباب الذي دخل منه، وذهب الدكتور فوزى إلى الجامعة ليؤدى عمله حتى آخر اليوم ، ولما دخل الليل ذهب إلى الدكتور عبد النعيم فى بيته وأبلغه حرقاً بما حدث مع سلامة ، وإنزعج الدكتور عبد النعيم وقال :

- دعه لى .. كان عليك أن ترتدى جلباباً تخفى تحته هذا الحذاء .. للأسف أنا لم أحسن إختيار المبعوث ..

- هكذا تسخر منى يا دكتور .. أنا رجل إشتراكي بطبيعتى .. المهم الدماغ يا دكتور عياد ..

- أين هذه الرأس .. لقد فاز عليك رجل لا يحمل أى دكتوراة ..

- إن تجربته أكبر من كل هذا .. إنه متمكن من حديثه ويبدو أنه خاض تجربة مريرة فى كان ..

- ألم تعرف ماذا كان يعمل فى كان ..

- لا أعرف ..

- إذهب يا دكتور فوزى حتى تلحق بقطارك ..

ونظر الدكتور فوزى إلى ساعته وشهق ثم قال وهو يهرول نحو الباب :

- يا لهوى يدوبك الحق .. وصفق الباب خلفه

فقال الدكتور عياد :

- جتك البلاوى .. للأسف الإشتراكية أمت كلة .. وإنطوى فى ركن بالمكتبة يقرأ ..

.. وكان سلامة ضحراً وشعر بمرارة تملأ حلقه بعد جلسته مع الدكتور فوزى وطلب سكرتيرة فى الهاتف فلما حضره أبلغه بأن يجهز الكشوف الخاصة بالسكان

اننى وقع عليها الإختيار وأمهله وقتاً بعد إنصراف جماعته التى تسهر معه فى المساء ،
وماً إنصرف السكرتير قام سلامة ونزل وتمشى إلى حيث يرقد فرسه فى مخزن
العاملين ، وهناك ركبه وإجتاز به كل ديار البلدة .. كان يريد أن يخرج إلى الآفاق
الواسعة حيث لا حياة لبشر ، وكانت الطبيعة حواله صمءً موحشة والبرد ينزل من
السماء يلسعه ، وتذكر مرض السيدة الكبيرة وأن قسوته بالغة عليها ، لكنه كان
يشعر فى الفترة الماضية أنه يريد مقاطعة كل أهل القصر .. وكان حينه إلى سيدته
كبيراً وحاول كثيراً السيطرة عليه .. لكنه اليوم لم يستطيع ، ورجع بفرسه إلى العمار
يجتاز طريق ضيقاً حتى وصل إلى مدخل المدينة الكبير . ولكز الحصان بقدميه فانطلق
كالسهم إلى القصر غير عابئ بأرتال السيارات حواله ، ودخل القصر وهرع بعض
الخدم إليه وصافحوه وهللوا لرؤيته وأخذ واحد منهم لجام فرسه وتقدم آخر أمامه
مرحباً ..

.. تعالى يا سيدى تفضل .. كل الدنيا نورت يا حبيب الغلابة .. إن السيدة
الكبيرة فرحة بك وتدعوك ليل نهار ..

فدق قلب سلامة لثناء الخادم ودعاء أمه الكبيرة له ، وكان أحد الخدم قد
سبقهما ليدق باب الغرفة التى ترقد فيها السيدة الكبيرة فردت عليه الصغيرة بسنت
من الداخل .. لا تطرق .. فقال لها الخادم .. سيدى سلامة قادم خلفى .. فتلعثم
لسانها وإبتهجت وقالت .. سلامة .. أخبره بأن ينتظر فى صالون البيت .. إننا نبدل
ملابس أمى .. هل سمعت .. لن نستطيع أن نفتح الباب ... دعه ينتظر وسوف آتى
إليه .. وانقلب إليه الخادم وأخبره فجلس حيث قالت بسنت وجاء بقية الخدم
وسلموا عليه ومنهم إحتضنه بحرارة .. وأغرورقت عيناه بالدموع وتغلبت عليه
العاطفة القوية التى تلازمه لما كان فى القصر خاصة لما كانت السيدة الكبيرة تغرقه
بلمسات الحب والعطف وتعتبره رجل العائلة وسيد القصر .. ولم يتمالك نفسه
وهطلت الدموع بغزارة من مقلتيه وذرفت عيون الخدم حوله الذين ما زالوا يحبونه
لمعاملته الطيبة لهم ، ثم بكى الجميع حزناً على سيدة القدر وما آل إليه حالها من
عجز كلى ومرض شديد ، وهمست بسنت بالخبر فى أذن السيدة عفاف على وهى
قريبة لأهل القصر جاءوا بها من الضواحي لما عُرف عنها فى تطيب المريضات
والسهر عليهن ، وكانت تعشق القيام بهذا العمل لإعتقادها أن هذا خير الأعمال فى

هذه الدنيا لأنه آخر مرحلة من مراحل الحياة قبل الموت ، فلماً ذهبوا إليها وأخبروها أن السيدة حميدة فودة مريضة مرض الموت وذكروها بأنها قريبة لها وأن السيدة هي التي طلبتها لتكون بجوارها وهمست سيدة تدعى وفاء توفيق فى أذن عفاف بأن بناتها إنصرفن عنه وأنه لا توجد واحدة منهن تقوم بجوارها وأنهن تأذين منها وإنصرفن لمشاغل الدنيا .. ويتأففن منها لما تقضى السيدة المريضة حاجتها وهي عاجزة فى فراشها ، ولماً شعرت السيدة بذلك طلبتك لأنها تريد واحدة أصيلة مثلك تقوم لها بهذا العمل وتكشف عليها لماً سمعت عنك وأخلاقك .. فهي من عزة نفسها تطلب واحدة تمرضها عن طيب خاطر ولا تتأذى منها ..

ولماً إنتهين ثلاثتهم بسنت وعفاف ونازلة من تلبس السيدة ملابسها قالت نازلة:

- لقد سمعت هرجاً بالخارج ودقاً بالبواب .. ترى من كان يا بسنت ..

وقالت بسنت وهي تمسك بصدر أمها :

- سلامة .. إنه سلامة ..

فقالت السيدة وهي تشهق :

- سلامة .. يا نهار أبيض .. سلامه بره .. وزغردت .. لكن زغرودها تقطعت وإنكفأت السيدة نازلة عليها تهدئها وتمسك بانفعالاتها قائلة وهي تضع يدها على فمها :

- خلاص يا ست الكل .. أنا هازعرد .. وزغردت السيدة مرات .. زغردت .. وزغردت ولماً توقفت صفقت السيدة الكبيرة بأكفها وأخذت تغنى أغنية قديمة وتحاول محاولات صعبة فى أن تهز جسدها يمنة ويسرة كأنها ترقص وتقول بأنفاسها متهدجة :

يا وردتين فى طبق بنور ..

يا زهرتين فى جنية نور ..

ياما الزمان قاللى إنك راجع يا ولدى

يا نور فى مدنة جامعى .. يا حى منور أملى ..
يا قنديل زهرة شبابى لما خدتك فى حجرى ..
كبت صغير يا ضناى يا كرم الله يا ولدى
يا ريتك كنت ابن بطنى وولدتك وأنا فى زمنى
ما خلاص الطبق راح .. الطبق إنكسر خلاص
يا بنى إمشى فى جنازتى وقول وصوتك عال
يا رب يا قادر .. أنا لك مقابل .. كلنا هانىجى يا ربى ..

أنا لله راجع .. أنا لله راجع

الطبق خلاص إنكسر وعمره ما يبقه طبق .. الطبق إنكسر خلاص ..

ولما وجدن أنها لا تريد أن تسكت فرددوا خلفها الملحمة .. أهى ملحمة ما
قبل الموت .. أما زال فى الحياة أياماً .. كانت الأصوات مؤثرة مبكية والسيدة تبكى
بعينها اللاتى لا يبصران ولما دخل سلامة عليهن لم تحتضنه السيدة لكنها عبطته كما
تعبط الأم وليدها وتخاف عليه .. وإنكفات تقبله ووجهها تكسوه دموع لا تحف أبداً
وأخذت كل النساء تبكى ويرددن كلمات متقطعة من الأغنية القديمة .. ولما انفكت
ذراعيها من فوق كتفيه قليلاً استطاع أن يمكس قدميها بكفيه حتى يتمكن من
تقبيلهما دون أن تسحبهما منه لأنه يريد أن تسامحه وترضى عنه لجفوة عليها فى
الفترة الماضية، وكانت تدفعه بكفيها الواهتين فلم تستطع .. ثم قالت مستنجدة ..
أستغفر الله .. أستغفر الله .. لا يا بنى لا .. لا تحملى ذنوباً .. كفى أن قبلت وجهى
ورأسى وكفى .. كفى يا بنى لقد رضيت عنك .. سامحتك .. أنت ابنى الوحيد
الذى لم تلده بطنى ولكنك أحسن على من العالم كله .. لقد أغنيتنى عن بناتى ..
خلاص يا بنى أقعد بجانبى وحدثنى عنك .. وجلس إليها .. حدثها قرابة الساعتين
فلما تعبت نامت على جنبها الأيمن وهى ما تزال تقول .. أكمل قل .. وماذا حدث
وسلامة يسترسل حتى وصل إلى دخوله المدينة وحكى حكاية البرج وتشغيل الناس
الغلابة وعزمه فى تأجير شقق البرج للمحتاجين والفقراء وقامت إليه كأنه أيقظ فيها

شيئاً قوياً وقالت له هامة وهي تشده من ذراعة :

- سوف أوصيك بوصية .. وأنت تعرف معنى الوصية أن تنفذها بحذافيرها بعد موتى .. يا بنى إن موت هل .. إنه قريب جداً وقد يكون هذا الليل أو غداً أو بعد غد .. لقد إنتهى كل شئ ولم يبق غير مقابلة ربى ساعدنى يا سلامة فى أن أقابل ربى وأنا مطمئنة .. والحمد لله أنك أتيت الآن .. ثم التفتت بعينها حوالها .. ولكن عينها التى يتسع بياضها يوماً بعد يوم لم تر شيئاً لكنها فعلت كما يفعل المبصرون ، وقامت عفاف تمسك بيد السيدة نازلة لتساعدنها فى الخروج من الغرفة وقالتا فى صوت واحد :

- نحن ذاهبتان إلى المطبخ لنشرف على شئونه .. بعد إذذك يا سيدتى ..

.. ابتسمت السيدة قائلة :

- هكذا أنتما .. بارك الله فى أخلاقكما ..

وأطمأنت أنه ما زال جالساً بجوارها فتحسسته بيدها من كتفه وأمسكت بذراعة وقالت :

- إسمع يا بنى إنه مالى الخاص وهو عبارة عن مشغولات ذهبية وسبائك وتماميل صغيرة وكتل مثل القوالب من الذهب الخالص مدفونة فى الغرفة القديمة التى كنت أنام فيها بالقصر القديم .. هى الغرفة التى تحتها بالضبط التى كنا نخزن فيها الدقيق والسمن والجبن و .. و .. عندما تدخل تلك الحجرة شد كاوتشاً قديماً ظاهراً من الأرض فى العرقوب الشرقى للغرفة .. لماً تحفر فإنك لن تحفر أكثر من متر .. لقد بنيت حوضاً من الطوب وغلّفته بالأسمنت .. الذهب يا بنى فى صندوق ألقته فى هذا الحوض .. فى يومها دحرجنا الصندوق بصعوبة وكان معى السيدة أم إبراهيم شرفة وزوجها اللذان كان يعملان عندنا منذ أكثر من ربع قرن .. لقد ذهب الإثنان فى رحاب الله .. فى يومها دحرجنا هذا الصندوق بصعوبة بالغة حتى وضعناه فى داخل هذا الحوض ووضعنا باباً قديماً من خشب متين فوق الحوض كسقف قوى له .. ثم كسونا السقف بلحاف سميك حتى لا يتسرب إلى الصندوق أية أتربة عندما نحرف فوق الحوض التراب .. ولما إنتهينا من الردم ألقينا فوقه فردة من الكاوتش لتكون

علامة للمكار .. لقد أظلت عليك يا بنى وأنهكت نفسى لكن هذه وصية والمال كثير .. هذا الذهب وهذه وصيتى .. للناس الفقراء والمحتاجين .. إبن بهذا المال مسجداً كبيراً ويكون المسجد تحت بناية .. هذه البناية ملكها لكل محتاج .. الشقة إذا كانت تساوى خمسين ألف درهم ملكها بخمسة آلاف ، أو أجرها بما يساوى واحد على عشرة من دخل الفرد .. وهذا المال يكفى لبناء بناية أخرى لجعل الدور الأرضى محلات أو مصنع يشتغل فيه مئات العمال والموظفين ونفس الكلام ينطبق على الشقق مهما كانت فاخرة .. الإيجار لا يزيد على عشر دخل الأسرة .. وعليك بأسر المدرسين والموظفين الغلابة غير القادرين واجعل جماعة صالحة تساعدك ، هناك مشاريع كثيرة تفيد الناس ولكن علاج مشكلة من لا يملكون مأوى من أهم أعمال الخير خاصة أن كثيراً من بيوت المدينة فى الأحياء الفقيرة لم تعد تصلح ليسكن فيها الكلاب .. وسكنت قليلاً ثم قالت كمن تستغيث :

- أنفاسى يا بنى .. إتنى أشعر كان أحداً يقبض عليها

فقام وساعدها فى أن ترقد على جنبها .. وتركها دون أن يتكلم حتى لا تتكلف الرد عليه وهى فى حالة إجهاد شديد ولكنها بعد دقائق قالت :

- أسمعت يا بنى ..

- هذا كثير على يا سيدتى .. وبناتك .. ألن تأخذ كل منهن نصيباً منه ..

- أنت تريد أن تزيدنى مرضاً على مرض .. إذا أعطيت واحدة منهن فلن تعطى أى منهن فلساً واحداً للمحتاجين .. وهل بناتى فقراء .. إن والدهن يملك ثروة تقدر بمليارات ، فيكف يكون لهن نصيب فى ثروة لن تزيد قيمتها على ثلاثة ملايين درهم .. إنك يا بنى أمين على هذا الكنز .. إنك مجرد حارس تقيم به عقاراً يكون فيه حق لكل محتاج وائق الله فيه حتى يكون صدقة جارية تزيد قبرى نوراً وعسى الله أن يوسع قبرى ويرحمنى ويجعل ظلامه نوراً .. ماذا أقول لك بعد ذلك .. هل سمعت .. هل تستطيع ؟ هل .. هل .. وراحت فى نوم ولم تعد تسمع كلمات قالها سلامة لما كان شخيره يعلم من شدة تعبها لحديثها الطويل معه :

- هكذا كانت معزتى عندك .. أأمنينى على كل هذا .. والله لإنك سيدة

فاضلة .. إنك أم لوطن بأكلمه .. فكيف تذهبين وتركين وطناً بلا أم .. وراح يبكي ثم إستلقى على كنبه بجوار فراش الأم .. وبعد وقت دخلت عليه السيدة عفاف قائلة:

- إن الطعام جـ نـز يا سيد سلامة فهل لك أن تفضل ..

وشكرها وقام إلى الطعام فى الغرفة المجاورة وسألها عن طعام سيدته فقالت له .. لا نستطيع أن نوظفها الآن .. عندما تقوم فإننا ندخل إليها بطعامها .. إننا نسعد عندما تنام حتى تستريح .. ولما إنتهى من طعامه جلس فى نفس الغرفة يحتسى كوب الشاي وبعد نصف ساعة دخلت عليها السيدة نازلة متكئة على عصاها وبعد قليل من الوقت سمع همساً يدور بين السيدة وجليستها فدخل سلامة عليهما وقال فى تأدب:

- هل لى أن أدخل .. إننى أريد أن أنصرف وسوف أعود فى المساء ..

فقالت له السيدة لا تذهب الآن .. لا تتركنى إننى فى حاجة إليك .. فجلس وقالت هامة :

- اقرأ

- ماذا اقرأ

- اقرأ القرآن

- لستُ حافظاً يا سيدتى

- يا حسرة على العباد

- إننى يا سيدتى أختم القرآن كل شهرين مرة . ولكننى للأسف لم أحفظه لأنه كان علىّ وأنا صغير أن أستمّر فى كتاب الشيخ محمد الجريس .. ففى يوم ضربنى علقه بالعصاة بعد أن جعل رجلاً يعبطنى إليه ، فلما ذهبت وأبلغت أمى .. قالت لا تذهب ثانية إليه .. فمن كان يريد لولده أن يحفظ القرآن فليكن هذا من الصغر وليتحمل الأهل عقاب الشيوخ حتى يتعلّم الأطفال عندما يكبرون شيئاً جليلاً ..

- أمك يا سلامة كانت امرأة خائبة ..

- نعم يا سيدتى ..

- هات الكتاب واقراء ..

ودخل سلامة إلى مكتبة القصر وحمل الكتاب بين يديه وجلس إلى جوارها وأخذ فى خشوع يقرأ فاتحة الكتاب ثم سورة البقرة وبعدها سورة آل عمران حتى راحت فى النوم مرة أخرى

.. وذهب سلامة على عجل إلى دار الشيخ عبد الرحمن الأمين ابن الشيخ أمين ، وأتى به وأجلسه فى صالة الدور الذى تقيم فيه السيدة ، وبدأ يقرأ جافظاً من أول الكتاب دون إنقطاع وذهب إلى سيدته وقال :

- هل تسمعين يا سيدتى ..

- إننى أسمع صوتاً حافظاً .. ولكن قرئه قليلاً يا بنى .. من هذا الرجل ؟

- الشيخ عبد الرحمن الأمين ..

- يا بخت هذا الرجل .. إجمعه قريباً منى .. أين يجلس الآن

- فى الصالة ..

- لا .. إننى أريد أسمعه جلياً واضحاً .. حرفاً حرفاً .. أتى به فى هذه الغرفة وإجعل الباب موارباً ولا تقفلة ..

- حاضر فى ثوان سيكون ما تريدن ..

وصدحت الآيات فى أذنيها فقامت قائلة وقد وضعت كفها على ركبتيها كأنها تصلى :

- يا سلام .. إنه يدخل قلبى ليتنى كنت أستطيع أن أقف حتى أذهب إلى جانب هذا القارئ وأحييه حتى يقول ويقول ..

- يا سيدتى إنك تسمعين القرآن من الراديو ولديك كثير من الشرائط لعدد من المقرئين ..

- لا .. إن هذا رجل حى أمامى .. هذا أكثر تأثيراً .. ماذا لا يتشر قارئوا

القرآن فى البيوت كما كان ذلك فى الزمن القديم ..

- كان زمان يا سيدتى .. لكننا الآن .. ولم يكمل سلامة جملته إلى أمه التى
إستغاثت قائلة :

- بطنى بطنى .. ألمٌ يمزقها .. واقترب منها فأمسكت بيده وشدتها فأعطاهها
إياها فأخذتها إلى فيها وقبلتها ..

- كيف يا سيدتى لا .. لا .. وحاول أن يشدها منها برفق .. فقالت :

- دعنى أقبل الأكف التى ستحملنى إلى قبرى .. نادى نازلة وسحب منها يده
فى رفق وهرول حيث تجلس السيدة نازلة قبالة الشيخ فاقترب منها وهمس فى أذنها:
- السيدة تريدك .. ومدت له يدها ليساعدها على النهوض .. وقامت متكئة
على ذراعه ودخلت السيدة قائلة :

- نعم يا زينة الستات .. ماذا تريدن ؟

كانت السيدة تبجلق فى سقف الغرفة ولا ترى شيئاً وكان بياض عيناها يتسع
وترفع يدها إلى أعلى كمن تريد أن تتعلق بشئ وأنفاسها تتهدج كمن تتلقف بساعد
ينقذها .. كانت السيدة كمن تغرق وقالت ثانية .. بطنى بطنى ونادى سلامة السيدة
عفاف فلما أته طلب منها أن تعمل كوب نعناع به قليل من السكر فانقلبت إلى
المطبخ والشيخ يقرأ لكنه يشعر بالجلبة حواليه وانفعل وهو يقرأ فبكى وبع صوته
ولكنه إستمر يقرأ فقالت السيدة لهما بصعوبة .. فليرفع صوته فليرفع صوته ..
وناداه سلامة حيث يقف .. يا شيخ عبد الرحمن إرفع صوتك .. فرفع الرجل صوته
فصدحت كلمات الله تملأ المكان رهبة وخشوعاً والسيدة تمسك بيد سلامة وتتشبث
به .. هل ترى شيئاً هائلاً مثل جبل .. هناك أحدٌ تراه ونحن لا نراه .. وإستجارت ..
أرقدونى فأرقدوها فسكتت قليلاً ثم رفع سلامة رأسها على كفة كى ترشف ولو
قليلاً من شراب النعناع ودفعت الكوب عنها بعد رشفتين ثم طلبت سمكة مسلوقة
وحتى جاءوها بالسمكة كانت قد قبلت يد السيدة نازلة وعفاف وسلامة مرة
أخرى .. هذه السيدة الكبيرة تقبل أيدى أناس أقل منها قدراً .. هكذا كان من حولها
يتساءل فى نفسه ، وأكلت من السمكة مقدار بلحة ثم طلبت كوب ماء فلما أتوها

شربته عن آخره .. بعدها بحلقت فى سماء الغرفة كانت ترى سحاباً أبيضاً وخيالاً كالجليل .. على هيئة رجل لم نجد مثيلاً له ماحيت .. وكانت دائرة السواد فى عينيها تذهب ثم أمسكت بقوة يد سلامة فسلمها لها وانحنى وحنت من عينيه كل الدموع .. وضغطت على كفه بأصابعها الواهنة مرتين وغرغرت ثم شهقت شهقتين وسقطت الرأس على مخدتها كأنها تنزل من علو .. وصعدت الروح إلى بارئها وصرخ من حولها صرخة وإنهمروا فى بكاء شديد والسيدة نازلة تردّد قائلة .. لا تموتى لا تموتى يا أم .. يا أمى يا أم الناس جميعاً .. لا تموتى لا تموتى .. وإنكفات عليها تقبّل رأسها وجهها ويديها وسلامة يقبّل القدم .. وعفاف تقبل كل مكان فى جسدها .. أثناءها جاء الشيخ وعند الباب وقف وقال :

- كفى بكاء يا سادة .. كفى .. إنها تلاتى ربّها الآن .. أغمض عينيها وأرقدتها على ظهرها .. أرقدتها بالراحة على مهل .. ضع القدم على القدم .. نعم هكذا .. لتلف الساق بالأخرى .. غطوها .. غطوها كلها .. قولوا معى .. إنا لله وإنا إليه راجعون وكررها ثلاث مرات وهم يرفعون أكفهم إلى أعلى .. ثم قال الشيخ : الفاتحة على روحها الطاهرة ، ثم رجع الشيخ إلى مكانه وجلس حيث كان وبدأ يقرأ آية تبدأ بقول الله تعالى .. كل نفس ذائقة الموت .. إلى آخر الآية والسورة .. كان صوت الشيخ باكياً مؤثراً وكلمات الله تجمع الناس جميعاً فى الحياة على خير وترحمهم حين الموت ..



وأخذتها نجلاء من يدها وأوقفتها قبالتها ثم إحتضنتها وجرتها إلى غرفه
نومها فاستأنست وراحت معها عن طيب خاطر .. وهلعت نجلاء إلى
دولابها لتتزين وتتعطر وترتدي الحرير من قمصاتها ..

كانت العجربة قد قررت أن تذهب إلى أي مدينة خاصة وأن معها مالا وفيرا سرقتها من حقيبة سلامة، وفي ليلة من الليالي التي تلت ذهاب سلامة إلى المدينة قعدت مع ولديها وأخبرتاهما بنيتها هذه وأنها تعزم مغادرة الجبل بصفة نهائية وستبيع كل شيء، ولما قال لها الصغير :

- ماذا نعمل في المدينة ومن يذهب إلى الغابة من بعدنا .. إننا نعيش من حيث لا ندري يا أمي وقال أخوه الأكبر مؤيدا كلام الصغير :

- صحيح يا أمي إننا نعيش حياة بسيطة .. الهواء نقي ولبن جاموستنا دافئ وجبنها وزبدها لذيذ .. ثم إننا هنا أسياد الجبل وأنت يا أمي وأنت .. وسكت..

- أنا ماذا يا مجيد ..

- هنا لا أحد من الرجال يراك .. وعندما يعود سلامة سيجد الدار خربة .. هل نسيت أنك امرأة زوجة ويجب أن تحصلي على موافقة زوجك.

- ليته ما كان زوجي، لقد تمرد علي وقد لا يعود أبداً.. إن حياة القصور تهويه .. إنها مجرد نزوة عابرة .. أنا أعرف أنه لن يعود ..

وقال الصغير علي :

- ولكنه زوجك لابد أن تنتظريه لتأخذي موافقة أو ليدبر أمرنا في المدينة. وحاصرها الولدان من كل جانب بالأسئلة ..

ماذا نعمل ونحن صغار لم نمتهن مهنة، وماذا نعملين أنت وأنت بلا مهنة إنك لا تجيدين عملاً إلا حلابة الجاموسة وطهي الطعام .. المدينة تعني بالنسبة لنا توهان ..

وقالت لهما بصراحة :

- أنا كفيلة بأن أراكما وسوف أشتري لكما بيتاً في المدينة، أما العمل فأنه أعرف ماذا سأعمل واندعش الولدان من عبارة سأشتري بيتاً ومد مجيد كفه لأمة قائلاً:

- ومن أين أتيت بالمال .. وكيف جاء يا أمي .. ملايم معك ستشتري بها. بيتاً .. أي هراء تقولي به يا أمي إننا لا نملك غير الجاموسة والحمار ؟ يساوي شيئاً.

- إن جدكما ترك مالا وأبوكما كذلك وأنا ادخرت القليل .. فقال علي :

- لم نخبرينا بذلك من قبل ..

- لقد آن الأوان لأخبركما.

فقال مجيد :

- إن أقل بيت في المدينة يساوي عشرين ألف درهم .. فكيف لنا بهذا

المبلغ ..

فقالت وهي تنهي قعدتها معهما :

- أنتما صغار وأنا أعي ما أقول .. في الصباح سوف نذهب سوياً إلى سوق

الضواحي لبيع الجاموسة والحمار والعربة وكل ما لا نحتاجه هناك حتى

قماش الخيمة سوف نبيعه .. وقد لا تذهب إلى السوق فأني أعرف رجلاً

يدعى فوزي رزونة يتاجر في كل شيء سوف نذهب إليه لنبيع حاجاتنا

والأشياء التي لن يشتريها سنذهب بها إلى السوق ..

ووثب على إلى أعلا ثم قال مبتهجاً :

- سأركب المورجيجة هيه ..

وانتصبت بينهما وقالت :

- إذهبا إلى فرا شكما

وإنصرف الولدان من حولها وشعرت براحة بال وهي تجلس بمفردها وكانت

الليلة قليلة البرودة فأضطجعت على الأرض أمام الكهف وأخذت تكوم حبات

الظلط حتى رسمت هراً ثم هدمت ما شكلته فوق الرمال، وكانت تريد أن تتكلم

مع نفسها بصوت مسموع لكنها آثرت الصمت وكظمت ما في نفسها وتجلدت،

وبعد هنيهات قامت وابتسمت ابتسامة مرة لخوفها مما عقدت العزم عليه

واستمر ذلك لحظات ثم تجاسرت وانقلبت إلى الكهف تجمع أمتعتها وحاجيات

ولديها فني بقج من جلايب قديمة كانت تحتفظ بها لزوجها وأبيها .. ولما

انتهت احتضنت إحداها وألقت برأسها فوقها فأنتكش شعرها الأسود الطويل

وسرى في جسدها حنين لئاليها مع سلامة وداخلها حرج لو قابلته في المدينة

صدفة ماذا ستقول له وهي زوجته وكيف تركت بيتها دون أن تخبره .. إن

سلطاناً قوياً يكاد يقهرها ويثنيها عن دخولها المدينة .. لكن قراراً اتخذته ثابتاً

في أعماق نفسها لتغيير حياتها خاصة بعد أن اشتتت رائحة المال والمصاغ

من رجل جاءها فجأة من المدينة "إن البلدة المتلألئة ليلاً والملاى بضجيج

الناس في النهار المليئة بالمال والذهب فلأذهب إلى هناك لأغترف منة وكان

شيئ دفين قوي يصرخ في جسدها ويدفعها لأن تطمح وتصرخ بتلك الطموحات التي اختمرت في رأسها، وراحت في نوم يشبه حلم اليقظة .. وكانت نسمات باردة كالتي تقبل قبل نزول الصقيع تهرب من تحت عقب باب كهفها المقفل وتلسع ساقيها العاريتين لكن حرارة شديدة في جسدها اليافع كانت تقاوم تلك النسمات، ثم راحت في نوم عميق وهي ما تزال تحتضن متاعها وقد ثبتت في ذهنها تماماً أن سلامة لا يستحق أن تنتظرة، إنه رجلاً يحب التمتع بالحياة ويملك منها الكثير لدرجة أنه لا يعرف كم لديه من مال وما أنا إلا نزوة صادفها في قارعة طريق ونهل منها .. فليذهب إلى منتهاة ولأدخل المدينة كي أعيش مثل بقية البشر الذين ينهلون من نعيم الحياة هناك ..

- وفي الهزيع الأخير من الليل قامت من رقدتها هذه ودخلت غرفة ولديها وهي ترتعش من البرد ودخلت معهم تحت الغطاء وكان شخيرها عالياً من شدة تعب النهار، وفي الضحى العالي قام الولدان قبلها واغتسلا وتناولوا بعض الطعام ثم دخلا تحت فراش أمهما كل من ناحية .. وسرعان ما ذهب مجيد في النوم مرة أخرى ، وأخذ على يحتضنها بقوة ويشدها إليه ثم وضع كفه الصغير على رأسها في حنو وأخذ يهمس في أذنها كي تصحو .. واستيقظت قليلاً وسعدت بحضن الصغير ودعته أن يتركها تنام قليلاً لكن أسنلته الملحة جعلتها تستيقظ وتنتبه إليه وأخذت تجيبه، فلما سألها .. هل يذهبان إلى الغابة اليوم فاستدارات نحوه منفجرة وطفقت قائلة :

- الغابة .. كان ذلك في الأيام القاسية .. الغابة للغربان والطيور .. للتائهين والمتشردين من الناس .. أما أنتما فكفى ..

وسكت الطفل مذهولاً من كلماتها الصارمة وكأنها وضعت حداً لحياة مضت ولن تعود، ولم يطل صمته وقال في لطف :

- والسوق.

- ولا السوق ..

- لم يعد في البيت أي طعام.

- إننا سنذهب جميعاً حيث كل الأطعمة والحاجات.

- ألا تحلبى الجاموسة كي أشرب اللبن الدافئ من القدر.

وضحكت من كل قلبها واهتزت واهتز معها الفراش فقال الولد :

- لما تبيعي الجاموسة يا أماة ..

- سنشتري اللبن من اللبان .. هناك محلات لبيع منتجات الألبان.
- ولماذا لا تستيقظي حتى نذهب .. إنني متشوق لتلك الحياة ..
- فقلت له رغبة منها في أن تبعده بعض الوقت عنها :
- إذهب وضع الكلاً للجاموسة حتى تدر اللبن الوفير فهذا يومنا الأخير مع حليبيها .. ولا تنسى أن تضع للحمار طعاماً ..
- وهرع الولد فرحاً كي يفعل ما أمرته به، وراحت في بعض النوم حيث إنشغل على بعد ذلك في ربط البقج المفكوكة وجمع بعض حاجياتة في قفة كبيرة، ولحقه أخوه لما استيقظ من جوار أمة والذي كان حريصاً على تركها حتى تستريح وعدل الفراش فوقها، وقصد مربط الجاموسة وحمل الفأس على كتفه ولف حول الخيمة مرتين ثم راح يحفر حول أوتادها المثبتة في أعماق الرمال ليخلع الخيمة من الأرض، وكاد النهار ينتصف فانتصبت من رقدتها بصعوبة وتناولت القدر من فوق الكانون وهرولت لتطلب الجاموسة قبل أن يجف اللبن في ضرعها .. وأخذت تغني كالغجر القدامى وكانت تتناعب ولما انتهت قبلت ضرع الجاموسة وقامت تحمل القدر بين يديها لتسقي ولديها منه، وشربا حتى نبعوا واستراحاً قليلاً ثم قاما ليحزما العربية، ودخلت الكهف ترتب حاجياتها في صندوقين ووضعت ما لديها من مال ومصاغ في حقيبة علقته في كتفها وخرجت إليهما ووقفت عند باب الكهف ونادت قائلة :
- أدخلنا لتحملنا أشياء أخرى ..
- فالتفت إليها مجيد بعصبية وقال :
- لا مكان لشيء آخر لقد حزمنا العربية ..
- فهزت رأسها وزعقت قائلة :
- إنها ضناديق بها كل غال ونفيس .. إن كل ما في العربية خردة سنيبعة ..
- إلق بعضاً منه وخذ ما تبقى .. وأشارت إلى مجيد بكفها في عصبية ..
- .. وإندفع الغلام إلى الحبل وفكه فوقعت مرتبة قديمة وبعض الحلل .. وفي أجناب العربية وضعا صندوقاً يميناً وآخر في الجانب الأيسر لتحفظ العربية بتوازنها كي لا تنقلب ويموت الحمار وتصبح كارثة وراحا يربطان الأمتعة ويسلبان الحمولة الثقيلة والحمار ينهق ..
- .. وبدأ المساء يقترب وكان عليهم أن يرحلوا قبل أن تغرب الشمس بوقت يسمح بدخول المدينة قبل الليل وفجأة صرخ على صرخة حادة وانتصب على

قدميه وقال بصوت يدوي في الآفاق : هاي ياداري هاي هاي هاي .. وكان
 صدى الصوت قوياً ومؤثراً فاحتضنت المتاع المرصوص فوق العربة وأسندت
 رأسها فوقه وراحت تبكي .. وأخذ مجيد يربت عليها ويمسح دموعها بأصابعه
 .. وشدها من ذراعها لتركب العربة كي تبدأ الرحلة "وكف علي عن صراخه
 وقفز ليجلس بجوارها وقال علي للحمار "حا. حا. وخلفهما مجيد يمشي وهو
 يسحب الجاموسة وكلما ابتعدت العربة عنه .. ناداهما قائلاً .. يا علي .. يا
 علي .. حتى تركوا الرمال ودخلوا في الطريق الأسفلت المؤدي إلى المدينة
 وكانت الشمس ما تزال في الغسق .. وبدأ المطر يتساقط ورياح تهب من
 الشمال .. رياح كريهة مخيفة تصفر خلال فراغات الحقول فتحمل معها رمالاً
 تصفع الوجوه وتذرق الدمع من العيون، وكانت الأشجار الهرمة في الغابة
 تطرقع وأعالى الفروع بها تتلوى وأخذت الجاموسة تنعر .. هع .. هع ..
 والحمار ينهق كأن أحداً يضربه .. هاء .. هاء .. هاء وقد أطلق أرجله الأربع
 ما استطاع يحمل أثقاله نحو المدينة ليحتمى قبالة الجدران العالية .. والغلام
 على يلوذ بصدر أمه .. لكنه مهما لاذ فماذا يفعل سقعان لسقعان هكذا قالت
 أمه وأوقفت العربة وشدت من بين المتاع بطانية ولحافاً ، وتركت أحدهما عند
 علي وحملت الآخر ورجعت به إلى مجيد التي وجدته يهرب تحت العربة
 احتماء من الجو الهلع وهو يمسك بحبل الجاموسة فأمسكت به وقالت له ..
 أقفز .. أقفز على ظهرها كما تعودت .. وقفز مجيد إلى ظهر الجاموسة وركبها
 كما يركب الخيال فرسة ولفت الغطاء حوله بأحكام ثم قالت على البركة ..
 ورجعت إلى حيث على واحكمت الغطاء حوله بإحكام وقالت له مداعبة ..
 الدفيان يابني يغطي الدفيان" هل أحضنك يا حبيبي ؟ .. وضحك الولد قائلاً ..
 هذا يكفي يا أماه إن الغطاء قد شملني تماماً فلا داعي لأن ألوذ بصدر بارد
 وضحك وضحكت الأم بصوت عال حتى قال لهما مجيد من الخلف .. على ماذا
 تضحكان ؟ .. على الموت الذي يكاد يخلعني من فوق ظهر الجاموسة،
 واصططكت أسنانه بشدة وسكت .. ورفعت الأم صوتها وهي تزعق قائلة .. قليل
 من الوقت يا مجيد سنكون عند فوزي رزونة "فقال علي هامساً في أذنها" ألدني
 فوزي مكان يأوينا حتى الصباح فطمأنته قائلة وهي تشد لجام حمارها : الرجل
 عنده دار وكان يعرف أبي وسيحسن مأوانا إليه "ولكن كل شيء بالفلوس يابني
 سنضطر للمبيت في داره حتى الصباح" أنت ترى يا بني الطريق خال من أي

آدمي "ولم أر إلا عربتين تحملان الحيوانات إلى سوق المدينة" لكن أناساً مثلنا فم نقابل أحداً البتة" لم أكن أعرف أنه سيقابلنا هذا الطقس اللعين .. ثم سكنت قليلاً بعدها نام على في حجرها وعلا شخيرة .. ولما أمعنت النظر في أسفلت الطريق وأقدام الحمار الأربع تمر عليها وجدت أن العربية تسير ببطء شديد وأن الحمار يجبر أقدامه جراً من شدة التعب، وأشفقت عليه فأوقفته قليلاً ونادى مجيد من الخلف "كيف تقفين يا أمي في هذا الجو اللعين، وردت عليه صارخة : الحمار يكاد يحتضر .. لم يعد إلا القليل" فقال مجيد مستغيثاً .. ألا ندخل أي دار على الطريق تطوينا حتى الصباح .. وشدت لجام الحمار ليتابع سيره وأردفت تقول .. الأمر لا يستحق لقد أصبحنا على مشارف البيوت التي تسبق المدينة ودار رزونة أول دار بعد الطريق ..

وبعد قليل أشرفت البيوت فسألها ما اسم هذه البلدة :

- كفر الشرقانيين ..

- لية ..

- كده يا بني دا اسمها ..

- إنها من طابق واحد ولا يوجد بها بيت من طابقين ، وجميعها مشيدة من الطوب اللبن ..

- ألم أقل أن اسمها يدل عليها ..

- وكيف يعيش الناس في مكان عميق منحدر عن الطريق وكان البيوت تسقط في بطن الأرض.

- من قديم الزمان والناس تعيش هنا ورغم أن القرية تقع في هذه الهوة فإن المكان أعلى من المدينة وأن في داخل تلك البلدة طرق كثيرة تؤدي إلى المدينة مثل أفرع تتدلي من شجرة نحو الأرض وكان الناس وهم يذهبون إلى المدينة يكادون يسقطون من تلك الأفرع.. إنهم بالفعل يسقطون على تلك المدينة ليلتقطوا أرزاقهم ..

- كيف يا أمة ..

- عندما نصل إلى دار رزونة ونجلس معه سوف يروي لنا كيف تعود الناس السقوط إلى تحت في تلك المدينة وما هي أرزاقهم ؟ ..

- وما الذي أعلمك بأحوال تلك الناحية وأهلها ..

- كان أبي يحكي لي عنها "وسوف تري بنفسك أن فوزي هذا رجل طاعن في السن وهو يعرف جدك وكان يجلب لأبي الزبائن من كل حذب في تلك المدينة .. أيام كان الأغنياء فيها يعدون على أصابع اليد الواحدة .. ثم دخلت العربية إلى لسان رملي على يمين الطريق وقطعت شوطاً كبيراً وهي تنزل إلى تحت حتى استوقفتها سلطنة أمام بوابة كبيرة يحيطها سور عال ويقف عند مدخلها ثلاثة رجال يرتدون الجلابيب ويكورون تلافيح فوق رؤوسهم ويمسكون بالعصى الغليظة ونزلت سلطنة من العربية واتجهت نحوهم قائلة :

- عم فوزي هنا ..

فرد عليها الذي يقتل شاربه بإصبعية :

- وماذا تريد مني ؟

- أريد أن أبيع حاجاتي .. وأشارت إلى العربية والجاموسة ..

وجرى أحدهم نحو باب السور ليفتحه والآخر نحو الحمار ليسحبه إلى الباب ثم أسرع صاحب الشارب إلى الولدين ليساعدهما في النزول ثم أمسك بحبل الجاموسة وسحبها إلى داخل السور ليربطها في حلقة حديدية، ودخل الولدان مع متاعهما. وكل منهما مازال يلف الغطاء حول جسده ورأسه .. وفك أحد الرجال العربية عن كاهل الحمار الذي أخذ ينهق ثم تمرغ في الأرض حتى خلع بردعة عن ظهره واصطبر عليه الرجل حتى انتهى ثم سحبه وربطه في حلقة بجوار الجاموسة وفي لحظات كان الرجل يحمل الكلاً الأخضر إليهما، ولما إطمأنت سلطنة على معاشها اتجهت مع أحدهم إلى داخل البيت يتبعها ولداها لمقابلة صاحب الدار .. وكانوا يجتازون مربطاً واسعاً قد إمتلأ عن آخره بكافة أنواع الحيوانات والدواب حتى وصلوا إلى باب آخر يوصلهم إلى الدار الآهلة بالبشر فدخلوا منه ومشوا قليلاً حتى هداهم الرجل إلى عدد من الأبواب. أحدها طريقة ففتح رجل بالداخل وعند الباب استفسر الرجل عن هوية القادمين فأبلغه صاحبه بأنها امرأة ولداها يبغيان المبيت وبيع بعض الأغراض .. وفي الصباح سيغادرون إلى المدينة .. فأفسح الرجل الباب قائلاً :

- تفضلوا.

ولما دخلوا قعدوا على دكة خشبية .. كانت الغرفة واسعة بها سرير خشبي قديم وصحارة خشبية عالية وضع فوقها مفرش من فرو الماعز وشبكة للصيد منصوبة على أوتاد دقت في الحائط ، ومنضدة خشبية مثل طاولة كالتى يعمل عليها السنجار مرصوص فوقها أطباق كبيرة من الخوص مغطاة بقماش مثل شرائشف الأسرة .. وفي وسط الغرفة يرقد رجل يضطجع على معدته ويسند وجهه وذقنه على راحتي يديه ويشخص إلى منقذ من الفخار وقد صدحت فوقه النار المتوهجة والتي تملأ الغرفة دفناً، ويبدو أن الرجل يرقب في سعادة إبريق من التحاس يفور منه بخار الماء المغلي وسط النار، ورمق الضيوف بغبطة وحياهما بهزة من رأسه الصلعاء وبرزت أسنانة الصناعية من فمة الواسع وقال في صوت واهن للرجل الذي يقعد بجواره :

- من هؤلاء ؟

- علمت أنهم جاعوا من الجبل ومعهم أغراض يريدون بيعها .. وسكت هنيهة .. وقال موجهاً كلامه لسلطانة : أتريدون أن تقضوا ليلتكم هنا .. فاومأت برأسها بنعم ثم قالت مشفقة وهي ترى رجلاً طاعناً في شيخوخته :
- أهذا عمنا فوزي رزونة ..

فقال الرجل :

- نعم وأنا أين أخته ..
- هل تستطيع أن تهمس إليه بأنني أعرفه عندما كان في ريعان شبابه .. كان عمره حينذاك لا يتجاوز الخمسين عاماً ..
- خمسين عاماً تعني بداية الكهولة.
- حينها كان قوياً ..

- إنه لا يتجاوز السبعينات .. ولكن تعباً وشقاءة في الحياة أنه لم يكن يأكلها بالساهل. مثل كثير من الناس في هذه البلاد أضيفي إلى ذلك المرض وطيلة عمره بلا زوجة وليس له ولد .. كل هذا حظ عليه فأقعهده هكذا .. فأصبح سمعه ضعيفاً وبصره قصيراً .. واهنا كما تريد لكنه مازال يتذكر جيداً ويشترى ويبيع ومعظم رجاله من أقاربة انتشلهم من الجوع وهم صغار ومازالوا يعملون معه بإخلاص حافظين له الجميل .. وسكت الرجل وراح يقلب النار ثم حمل صينية إمتلأت بأكواب صغيرة فارغة وضع في كل منها السكر ثم حمل الإبريق وأخذ يصب الشاي المغلي فيها، وانحنى

أمام العجوز حتى تناول إحداها .. ثم استدار نحو الضيوف ليحتسوا شاية "بعدها خرج بالصينية ليوزع الكيف الساخن للعاملين في الدار، ولم تمض لحظات حتى رجع وقفل الباب فوجد العجوز قد اعتدل قليلاً من رقدته ليستطيع رشف شاية .. ثم جلس المضيف قبالتهم وهو يقتل بين أصابعه سيجارة تبغ وأشعلها من النار وبلغ ريقه وبدأ يسحب دخانها بشرارة بشفتين رفيعتين متبرمتين فيخرج الدخان من فيه وفتحتي أنفها بغزارة كالذين أضمرُوا شيئاً وعقدوه مع أنفسهم ، وراح من بين شاربية المنتصبين كعرف الديك يدقق النظر في الولدين محاولاً إظهار عطف ما ببريق عينية ، ثم ينزل على المرأة ومازال العطف الظاهر في بريق عينيه بنظرة شرهة كأنه يريد أن يقول أنه عطوف وله قلب وفي نفس الوقت فإنه لا يستطيع أن يداري اشتهاه لها .. وهزت سلطانة رأسها دلالة على فهمها للرجل لكنها تجاهلته كما تجاهلت كل ما يعتريه ولم ترة أدنى اهتمام، وأيقظ ذلك فيها شعوراً بالاستنفار منه، وانحنى قليلاً نحو العجوز وارتفع صوتها وهي تقول له :

- ألا تعرفني يا سيدي ؟
- قولي يا ابنتي من أنت .. وتهللت أساريره .. فساعدها ذلك أن تقول دفعة واحدة :
- أنا ابنة حافظ طراونة .. وسكنت ..
- حافظ طراونة .. حافظ .. حافظ .. وظل يقول حافظ حتى وصلت رأسه إلى الفرشة التي يقعد عليها كأنه يسجد محاولاً الرجوع بكل ذكاراته ومازال يضع أصابعه على أذنه ثم سكت وراح يقوم برأسه حتى إنتصبت ورمقها عن كثر وإمعان وقال في تودد :
- العراف .. أنت .. أنت .. ابنته الصغيرة .. إسمك .. إسمك ..
- سلطنة يا أبي .. سلطنة .. ورق قلبها وكادت تنفطر لما فتح لها ذراعيه وقال تعالي يا ابنتي .. تعالي .. وسقطت سلطنة بين ذراعية والرجل يحتضنها ويبكي ونزل على إلى حيث أمه وأخذ يشدها من أحضان الرجل .. وأخذ الرجل المضيف يدخن سيجارة أخرى ويضحك قائلاً لمجيد .. خلاص طلعا قرايب .. عوضي على الله .. فقال له مجيد .. ليه يعوض عليك الله أحدثت لك مصيبة أم هذا خير .. فسكت الرجل برهة ثم قال للصبي :-

- عوضى علي الله في كل وقت .. أنا خايف تبقوا قرايب لنا ..
فقال مجيد :

- كل شيء جايز حتى لعب العجايز ..
.. وراح الشيخ في غيبوبة من شدة إنفعاله فأرقدته سلطنة في فراشه وشدت
الغطاء عليه قائلة :

- نم واسترح .. أنت مثل أبي .. وكان الرجل يتهدج وينفحم بين الفينة
والأخرى وجلس علي بجانبه يربت عليه كلما آتته نوبة الإنفعال ..
وارتاحت سلطنة في قعدتها على الفرشة فجلست عند قدمية تدلكها بكفيها
وتبكي ضعف الرجل حيناً وتذكرها لوالدها حيناً أخرى .. بعدها ذهب الرجل
في نومه الثقيل الذي لا يصحو منه حتى الصباح .. هكذا أخبرها الرجل أبو
الشاربين المفتولين ، ثم قامت وجلست على الدكة تحتضن ولديها ، وقام
الرجل يحمل أدوات الشاي وأطباقاً وحلاً أخرى ليغسلها، وجاءهم رجل
قصير بدين ودق الباب فلما فتح له على قال له :

- هل تريدون طعاماً ..

وجرى إلى أمة ليخبرها بما قاله الرجل فقامت إليه قائلة :

- وماذا عندك من طعام.

- جبن، قریش وقديم وبيض مقلي ..

- هذا طعام جيد آت لنا ما يكفي ثلاثة ..

وجاءهم الرجل الملائم للشيخ مرة أخرى وهو يحمل الأدوات مغسولة ووضع

كلا في مكانة وقال وهو ينظر إليها يعينين غير راضيتين :

- أتريدون أي شيء ..

فقالت له سلطنة :

- عليك أن ترسل الرجل بسرعة ..

- أي رجل.

- رجل جائعنا وطلبنا منه طعاماً ..

- هذا عمله وسيأتكم به .. ثم عض أصبعه وقال :

- لقد نسيت إن الغرف مليئة بالنازلين والنازلات .. لا أعرف حتى الآن أين

تنامون ليلتكم.

- أليس للدار رجل تخصص في هذا الأمر ..

- في الحقيقة أنت زيادة يا أم ..
- يا أم مجيد ..
- يا أم مجيد .. ليس أمامنا إلا هذه الغرفة ولم ينم فيها أحد من قبل..
"ولكنني سأضطر أن أحضر لكم فرشاة وغطاءاً وتناموا هنا وأعتقد أن
الشيخ لن يضجره ذلك خاصة وإنكم تربطكم به صلة، وسكت قليلاً قبل أن
يخرج من الغرفة وتابع قائلاً :
- على شرط أن تقولي له في الصباح إنك طلبت هذا حتى تأمني على نفسك
وولديك.
- نعم سأخبره بذلك .. حقاً آمن على نفسي وولدي مع الشيخ .. هات لنا
بمرفقنا ونكون لك شاكرين .. وذهب الرجل فقفلت الباب من الداخل وفي
ركن الغرفة بعيداً عن مرأى ولديها غيرت ملابسها وارتدت أخرى للنوم
من صرة حملتها معها .. وكانت حريصة أن تحمل حقيبة النقود معها وإنما
ذهبت. وتهندمت وعقست شعرها وراحت تشكر الله على الستر .. وكان
الرجل القصير قد دخل ووضع صينية الطعام الساخن فوق الدكة
وإنصرف.. وأخذ الولدان يتهامسان في صوت خفيض ويعدان أصناف
الطعام أمامهما، ونادى علي على أمة .. يا أمة الطعام .. هيا لقد جعنا ..
وردت الأم بصوت مكتوم حتى لا تقلق الرجل .. ثوان .. ضعا الصينية
أمامكما وأبدعا لست جائعة مثلكما .. إعطيني فرصة لترتيب الحقيبة
واطمأنت على سلامة نقودها في حقيبة يدها واحتضنتها كالعادة تحت
ذراعها ثم طلعت تتناول الطعام مع ولديها، بعدها اغتسلوا وقضوا حاجتهم
في حمام خاص بصاحب الدار، وكان الرجل قد أتاهم بالفراش والغطاء
فعدلته لولديها واتخذ كل مرقده وغطتهما، وقفلت الباب بأحكام ثم
إضطجعت عند أقدام صاحب الدار وراحت تلف دخينة من التبغ، وحددت
بصرها إلى وجهة ورأسه الأشيب محاولة تكوين هوية هذا العجوز الطيب،
وبسدا وجهه أليفاً لناظريها ، وتساءلت كيف يكون في هذه العمر ويستطيع
البيع والشراء وإدارة بيعة كماوى لكل من هب ودب بواسطة هؤلاء
الرجال، ثم دخلت في الفراش بين غلاميه وأنها النوم حتى ضحى اليوم
التالي. ولما حاولت إيقاظ ولديها لم تستطع وطلبا منها أن تتركهما في

- مزيد من النوم.. وخرجت إلى الحمام ولما عادت لم تجد الكهل في فراشه .. ودخل عليها الرجل صاحب الشاربين قائلاً :
- صباح عليك يا أم علي .. أتريدين أية خدمة
- صباح عليك .. الشيخ فين..
- يتجول في النزل كل صباح كعادته ..
- إنني أريدة أن يشتري حاجياتي التي في العربة
- تعالي نلحقة قبل أن يأتي لأنه لن يخرج ثانية
- وتبعته حيث يجلس الكهل عند بوابة النزل فألقت عليه التحية وصافحها وهو قاعد وأجلسها بجانبه وشدها إليه وقبلها من خدها وهمس في أذنها قائلاً :
- ألسنت أنت إبنته الراقصة .. وضحك ثم راح يمشط لحية بيده
- .. وابتمت وجالت بناظريها حولها فوجدت الرجلين الذين كانا في جلسة قد تركاه ووقفوا عند البوابة ليفسحا له الحديث معها ولما اطمأنت أنه لا يسمعها أحد قالت :
- ومازلت أرقص يا عمي وأنوي النزول إلى المدينة هذا اليوم لأبحث عن مرقص ..
- ألا ترقصين لي .. طيلة عمري أمعن النظر في أجساد النساء ولا أفعل شيئاً غير ذلك ..
- .. فضحكت ضحكة عالية جلجلت مدخل النزل ووضعت رأسها على كتفه، فمد الرجل ذراعه مرة أخرى وشدها من ظهرها نحوه فقالت له عابثة:
- مازلت شاباً يا عمي ولكنك تحب النوم ..
- أنا يا إبنتي مثل أي شاب أشتهي النساء ولكني لا أقدر على غير ذلك، وكل ما أستطيع أن أنظر إلى واحدة مثلك وهي ترقص ..
- فقالت في دلال وهدفها أن تببعتها أشياءها بما فيها جاموساتها وحمارها بأعلى قيمة :
- سوف أرقص لك اليوم ما تريد ..
- والولدان ..
- إذاً أنت تريد شيئاً آخر ..
- من نفسي يا بنتي .. يعني حرام عليّ أبل ريقى ..

- إشتري حاجاتي قبل أي شيء ..
- وسحب يده من فوق جسدها ونادى بصوت مبحوح على واحد من رجال يقفون عند البوابة :
- تعال يا زكي ..
- فهرول إليه رجل قصير البنية يمسك شمروخاً غليظاً.. قال وهو يضرب العصا بالأرض :
- نعم يا عمي أمرك ..
- إذهب مع الست لتري حاجياتها كم تساوي ولا تبخسها شيئاً .. هل تفهم إنها ابنة صديقي القديم.. وأخذ زكي يهز رأسه حتى سكت الكهل من كلامه فقال له :
- ولماذا لا تأتي بحاجياتها أمامك حتى تقدرها أنت ؟ .. إنني لا أعرف غير أن أخسف الأشياء قيمتها ..
- فامتعض الرجل منه وقال :
- إذهب أنت وجهز الأغراض وسوف آتي لأراها بنفسي وحق في وجهه هنيهة.. كان يريد أن يوبخة لكنه قال :
- هات الشمروخ معي .. لماذا تمسك به.. هل تسير في غابة وتخاف الذئاب والثعالب .. أنت طول عمرك طالع فيها يا زكي ..
- ولم يبتسم زكي لعمة وناولته الشمروخ وأنصرف .. وأخذ الكهل يقلب في العصا بين يديه وقال هامساً في أذنها :
- هكذا كان أبوك .. مثل هذا .. قالها في خبث وابتسم ..
- لم يكن أبي يمسك بعصاة ..
- لقد كان أبيك يقتني شمروخاً لا يقتنيه أحد .. تزوجت مرة واحدة في حياتي ولما كنت أذهب إليه بالزبائن من أغنياء المدينة .. أخذت في أحد المرات زوجتي هذه وكانت سيدة جميلة وطويلة هيئة تمام .. فلما رآها أخذها مني ليلة واحدة بعدها لم تعد ترضي بي رجلاً وطلبت مني الطلاق ..
- وطلقتها
- طلقها لما أدركت أنه لا فائدة من إصلاحها .. والسبب كله شمروخ أبوك ..
- أنت غلطان يا عمو .. وضحكت ملئ فيها .. ولم يستطع الرجل أن يثنيها عن ضحكات أخرى مثيرة كأن رجلاً يداعبها في الفراش ، وهلع كثير من

الرجال والنساء العاملين في النزل يتطلعون إلى البوابة ثم إنصرفوا مندهشين من امرأة صبية يثيرها كهل .. وقالت وهي ماتزال تضحك وقد أمسكت ركبته بكفها :

- كيف ترضي أن تترك زوجتك مع رجل ..

- كان أبوك أيامها أقوى رجل في الجبل .. وكانت الأعراب من حولة تناصرة .. وكنت فقيراً أطرق بابة بحثاً عن الرزق .. ولما تركت له زوجتي وقتها كان بناءً على رغبته، ولم يكن في مقدوري أن أمنع .. وكانت امرأة خائبة تميل إلى كل من زاغ بصره نحوها .. وذهبت إلى سبيلي وكأنني لم أتزوج ..

- يا عمو .. لم تكن الرجل الوحيد الذي فعل .. كنت أرى كل شيء وكان أبي رجلاً جباراً ، حتى أن بعض النساء من أسر غنية وعريقة بالمدينة .. كن يتركن أنفسهن له بمجرد أن يضع يده عليهن أو يلامسن تلك العصاة الغليظة التي كان يقتنيها ..

.. وضحك الرجل واستغرق في ضحكه طويلاً ثم قال :

- إنه لم يعتق واحدة في هذا الزمان .. وكانت الشريفة من المترددات أقل ما كانت تفعله أنها كانت تمسك بعصا الرجل في مزاج وطيب خاطر .. وحال الأزواج في هذا الوقت أنهم كانوا ينتظرون بالخارج حتى تنتهي نسائهن من جلسة العلاج النفسي .. رحمة الله على أبيك ..

- رحمة إيه يا عمو .. لا رحمة ولا خير ..

وتنهَّد الرجل ملء صدره وقال :

- هو ذا اللي كان ماشي وشففته بعيني .. بس أنا خايف من حاجة يا بنتي .. ابن الوز عوام

- إزاي يا عمو ..

- بقه واحدة زيك هاتنزل المدينة إزاي ..

- زي كل الناس ..

- إنت لوحذك يا بنتي والذئاب في البلد كثير ..

- ها أرقص في أي مكان يا عمو ..

- ما تقعدني معانا ونعمل لك مرقص هنا ..

- يبقه ماعملتش حاجة .. المكان دة زي الجبل يا غمو .. أنا عايزة المدينة .. المدينة
- سوف تزداد المدينة فسقاً وفجوراً.
- بقة كدة يا غمو "تَهَل على بنت صاحبك كدة ..
- هو أبوك عمل حاطر لحد .. وضحك الرجل وشدها نحوه يقبلها من خدها .. وكانت تقول له كلما قبلها ..
- يعني بتاخذ بتارك .. فيقول :
- كله سلف ودين .. آه يا بنتي خدي إيدي لما أقوم "فلما أخذت يدة وقام قال وهو يضطجع على ذراعها ويسير نحو مربوط الحيوانات ليرى أشياءها :
- خدي فلوس من غير حاجة .. قضى الليلة معاه وأدخلني البلد الصبح ..
- زي ما إنت عايز يا غمو ..
- كله بيطل لبعضة .. دنيا .. وبصق الرجل على الأرض مرتين ..
- كل اللي تقولة حلو يا غمو ..
- يخرب بيت غمو .. على النعمة يا بنتي كلمة غمو دي عندي توقع مدينة بالكامل .. يا خبر إسود إنت معجونة بأية إية النعومية والطراوة دي يا بنتي ..
- فقرصته من خدة بأصابعها وقالت في دلال ودعة :
- هو إنت خليت حاجة لبنتك .. دا إنت يا عجوز يتخاف منك على بنتك ..
- آه .. آه .. هي الدنيا خربت من شوية ..
- ودخلا من باب إلى آخر والرجل ينتصب وما كان يظن أنه يستطيع فمئذ سنوات لم تلامسه امرأة ، واكتشف أنه ما بعد السبعين عاماً لا ينتصب الرجل إلا إذا تحسسته امرأة ناعمة ، وقال الكهل وقد طلع الدم إلى نافوخة :
- سبحان الذي يحيي الحي من الميت والميت من الحي ..
- وبعد خطوات كانا في مربوط البهائم وأقدم زكي يسحب الجاموسة التي مررها مرتين من أمامه كي يراها الشيخ ، وهز رأسه وقال له .. خذها وأربطها وضع الحشيش والماء أمامها .. أين الحمار والحاجيات .. نيف ساعة قام زكي بتفريغ كل الحاجيات أمامه فقال له "أدخلها قاعة التبن" وقالت سلطانة مستكملة قول الشيخ لزكي .. عدا الصندوقين يا زكي.. أدخلهما غرفة الشيخ وأوما إليه الكهل برأسه حتى يفعل كما قالت سلطانة ..

- وتطلع العجوز في أنحاء المربط الذي غمرته أشعة الشمس واضطجع ثانية على ذراعها وسارت به في الدهليز المؤدي إلى غرفته وشعر بألم في صدره فهرول فطوت معه أبواباً مقفلة على الجانبين حتى دخل الغرفة في عجل وقانت وهي تعدل فراشه هل ألم بك شيء ؟ :
- نعم يا ابنتي.. كنت منذ ساعة أتحدث معك عن علاقات مشينة وأشياء تافهة، هكذا أكون عندما أشعر بالعافية ..
- إن كل الرجال في هذه الناحية يلهثون عندما تصاحبهم امرأة مثلي ..
- معهم حق .. خاصة مثلي من الرجال .. إنني لا أستطيع غير الكلام ..
- ودخل الرجل في الفراش وسحبت عليه غطاءة وقال :
- لن أجد غير النوم وسيلة كي أستريح .. سوف أشتري منك كل الأشياء ..
- أيقظيني في الثانية ونادي على الطباخ لتتناولي فطورك مع ولديك .. خذي راحتك حتى أستريح يا ابنتي ..
- تمام يا عمو سوف أفعل .. نم واسترح ..
- وضحك الرجل وقال :
- الله يرضى عليك كلمة عمو دي دوا .. ها اخدها في حضني حتى أشفي ..
- إنت شقي يا عمو ..
- وجاء الرجل أبو الشاربين بالقصعة تصدح النار فيها ووضعها على الأرض بين الفراشين فقالت له :
- يا أخينا قل للطباخ يحضر الأكل ..
- فنظر إليها شذراً وقال :
- وصلت خلاص .. أنا مش خدام ..
- أعرف .. إنت سيد .. قل لي أقول لمين ..
- إطلعي من الباب واندهي قولي يا حلواصي ..
- وكان الشيخ يذهب في النوم دقائق ويصحو ثم يذهب مرة أخرى حتى يدخل في نوم عميق ، فزعق من تحت غطاءه قائلاً :
- يا منصور يا كلب هات الأكل لست الستات ..
- فانتفض منصور وقال :
- إنت سامع يا عم رزونة بتعاملني كأني خدام .. ماتعرفش إنك عمي ..

- عمك مين .. يخرّب بيت عمك يا منصور طاول الست زي ما تقولك ، هو كل واحد من العيلة أبقى عمة ..
- حاضر يا عم .. حاضر ..
- وخرج خجلاً .. وسعدت سلطنة وقالت :
- لقد ذهب لا تقلق ! ك يا عمو .. أرجوك نم حتى تستريح ..
- هات إيدك أبوسها ..
- فقامت إلية وأعطتة يدها وبالأخرى مسحت على رأسه .. فأمسك يدها وقبلها وضغط عليها وقال :
- الله يعمر بيتك ماتسينيش يا سلطنة ..
- والعيال
- فوق رأسي
- ومستقبلي ..
- تزوجيني وخذي كل ما أملك ..
- أنت لا تملك غير الدار وشوية الناس الشمحية دولت .. أريد مالا كثيراً ولن يأتي بغير الرقص ..
- فشدّها إليه فمالته نحوه وهمس في أذنها قائلاً :
- عندي براني مليانة ذهب ..
- يا نهار أسود ذهب ..
- وحياتك عندي ذهب يشتري ناحية ..
- فين يا عمو شايلة فين ..
- هاتقعدني معاية ..
- أنا عايزة أرقص .. نفسي أروح المدينة ..
- ها أعملك مدينة هنا ومرقص وزبائن وكل حاجة ..
- وتسبيني حرة ..
- يعني إيه
- بلاش جواز .. خلينا إصحاب أحسن ..
- لأ إتجوزيني وإعملي اللي أنت عايزاه ..
- يعني لما زبون يبوسني مالکش دعوة ..
- هو أنا شايف حاجة .. أنا عايزك آخر كل ليلة تدلكيني وبس ..

- يا خبر إسود يا عمو ..
- مش عايز غير دي يا بنتي حتى يطول عمري ..
- وإزاي هاتجوزني وتسبيني للرجالة ..
- زي ما سبت مراتي لأبوك وكنت أيامها شباب
- يعني خدت على كده يا عمو ..
- هو إنت تنتظري إية من راجل خايب طول عمره زيي ..
- بس إنت ناصح أهة .. عملت دار واستراحة ونزل .. وعندك ذهب ..
- نزل مثل هذا مايعلوش غير ندل زيي .. والحرامية والنصابين والقوادين
- وولاد الحرام كل ليلة في بيتي بيعملوا اللي مايعلوش الناس في أيام
- الجاهلية الأولى.
- وإنت عارف وسأكت ..
- الخايب واللي مايعرفش ربنا تنتظري منه إية .. وا أنا عمري ما صليت
- ولا صمت أنا عارف إن آخرتي سودا وإنت هاتنوريها شوية ..
- ففين الذهب يا عمو ..
- أتجوزك الأول .. فكري على ما نام شوية ..
- طيب نام يا عمو ..
- وقامت إلى وليها توقظهما وهي لا تكاد تصدق ما حدث من كلام الكهل "وكانت
- سعيدة" ذهب ومرقص وزبائن ورجال يغدقون على ذهباً آخر .. الدنيا مرة
- واحدة في يدي بمجرد أن تركت الجبل .. إذاً لو ذهبت إلى المدينة لكانت
- المدينة كلها تحت قدمي .. هل أذهب واستمر في رحلتي أم أبقى هنا .. ولماذا
- لا أبقى هنا حيناً لأخذ نصيبي .. إنه رجل كهل يشرف على الموت ويكون كل
- هذا ملكي أنا .. بعد أن أخذ نصيبي هنا أذهب إلى المدينة ولا عجل .. فكري
- يابست يا سلطنة .. فكري على مهلك يا سلطنة يا نهار أسود أنا حلوة كدة ،
- راجل عايزك يابست وبيرمي الدنيا كلها تحت رجلك تسببيه .. لا يا سلطنة لأ ..
- وجاءهم حلواصي بالطعام وبعد أن انتهوا من فطورهم طلب الولدان منها
- أن يخرجوا لمشاهدة الدنيا في الخارج ويتفرجوا على الدار والناس فوافقتهما
- لكنها طلبت منهما ألا يطرقا الباب قبل ساعتين لأنها تريد أن تنام فوافقاها
- مهالين .. وقفلت الباب من الداخل بعد خروج وليها وتلھفت على الشيخ ولم
- تدخل في فراشها ودخلت مع الشيخ واحتضنته بصدرها ولفت ساقها فوق

جسدة فاستيقظ وشعر بها وتحركت الدماء في رأسه واستدار إليها ولفها
 بذراعة الواهنة فأمسكت به فتحرك شيئاً فشيئاً حتى أصبح كالخطبة وطوته
 بين أصابعها وتأوه الكهل قائلاً في رجاء .. خذيني إلى جنتك فأصابعك ذهب
 ووجهي عاد قنديلاً .. قلبي يا عمو حتى أصير عوداً كعود القصب .. فتمرغي
 فوق حقل صارت سنابله الخضراء قمحاً وأطحنى منه دقيقاً ولا تنسى منه
 رغيفاً طرياً لي خبزته يدك .. سأعود شاباً لو بقيت سيظل الربيع عقداً آخراً
 لو عقدت العزم أن ترافقيني وسينتهي زمني القديم على يدك، وسيقم الرجل
 العجوز مملكة الغواني والرجال من كل النواحي سيأتونك .. قلبي يا عمو تعمر
 الديار بصوتك وسلامك الذهب تأتيك .. ووهني وضعفي الذي جعلني أرقد في
 انفراس سنيناً سوف يعدو صبا غير صبا الشباب فائتيني .. لو تصبحين
 عشيقتي دوماً سوف أنحر من الجبال بحوراً .. لا تخجلي من شيخوختي فلن
 تراك عيون .. سأشد الغطاء من فوقك فتلك سماء اللقاء تخفيني .. قلبي يا
 عمو حتى تكون حرارتي في الحب جنونا .. أقول لكل من جاعني أنك زوجتي
 فلقد رجعت وسيما ... ولما انتهت لقاء الزمانين الغريب ارتمي الزمن القديم
 في رقدة فكومت عليه الغطاء وأصبح مثل كومة قش في طريق لا يعبره سبيل
 .. ونامت هي كما تنام النساء بعد كل متاع وجاعها ولداها فارتميا في
 أحضانها التعب وحكيا لها عن ما رآها في كل غرفة وعند بوابة الدار .. بعدها
 ناما بعد طول حركة .. وكانت ضحكات الرجال العاملين في الدار تصل إلى
 إسماع الرافدين فتقلقهم لكنهم كانوا يعودون إلى النوم ثانية ، وكان الرجل
 منصور صاحب الشاربين المفتولين يروح ويحيى أمام الباب بلا عمل .. وكان
 يحدث نفسه قائلاً .. آه يابنت الأبالسة كنت قاعد ومرتاح جنب عمي دفيان في
 القوضة .. بقيت زي الرحالة بره والبرد لاسغني .. إمتى تغوري من هنا إنت
 وولادك .. وكان يذهب بعض الوقت إلى مغنى الدار حيث يتصاعد الطبل
 والمزمار وتغني صبية صغيرة في صوت عذب والقاعدون من رجال جاعوا من
 كل ناحية يصفقون ويجأرون قائلين أيوه يا ورد .. يا قمر ما فيش واحدة
 ترقص .. وكانت هناك مغنية تأتي في الليل .. وهي امرأة عجربة دقت الوشم
 على ذقنها وفوق خديها وكانت تتمايل وهي تغني لكنها كانت ترتدي ملابس
 طويلة .. وكان الرواد في الليل يتزايدون من العابرين من النواحي إلى
 المدينة، ومن الناحية نفسها التي تقع فيها الدار ومن الأعراب في الجبال

المقاخمة وشباب وفتيات صغار من ذرية غجر الناحية .. وكان أهم شيء في دار قنوزي رزونة أنها مأوى للمبيت حيث يوجد ست غرف كبيرة فرشت بحصير سميك وبطاطين ومخدات .. فراشها حصير وغطاؤها بطاطين خشنة ومخدات محشوة بقش الأرز .. غرف خصصت للرجال وأخرى للنساء ، ومن آوي إلى الدار ومعهم امرأة اصطادها من الجبل أو المدينة أو من أي ناحية فإن هناك عدة أمكنة أخرى حول مرتبط البهائم تم تعريشها بالبوص والحطب وبنيت من الطوب اللبن وهي تشبه الخص .. "مساحات مترين عرض ومترين طول وحصيرة مفروشة ومخدة وبطاطين قديمة داكنة من مخلفات المعسكرات، فيها يلتقي الذي يسرقون الهوى والعاشقون من الشباب ومتوسطي العمر وهناك كهول من الرجال وغجائز من النساء مازال لهم نفس يأوون إلى هذه العشش وعندما ينتهون بالليل أو النهار يدخلون مطعم الدار المشهور بتقديم الباجة .. أي لحم الرأس وهناك أطعمة أخرى مثل الرنجة بالزيت والبصل ، والفول بالزيت الحار مع الطعمية ، والبيض المقلي مع الجبن القريش والقديم .. وكل شيء في الدار رخيص من طعام ومبيت غير أن دخول عشش الهوى أغلى من المبيت العادي .. والمعنى عبارة عن مسرح صغير في صالة كبيرة مزودة بعدد من المقاعد الخشبية لا تزيد على سبعين مقعداً فيها يتناول الرواد البيرة والنبيذ والشاي والحلبة والبارد والشيشة ومنهم من يشرب الجوزة بالمعسل، وغالبية الرواد من الفقراء ومتوسطي الدخل والذين يرتدون الجلابيب والتلافيح وأحذية الجيش والعمال الذي يرتدون الجواكت القديمة والبناطيل المدموغة بالشحم والزيت والراقي منهم يرتدي بناطيل الجنز التي تم شراؤها من سوق الروبانيكيا.. والنساء والفتيات يرتدين كما يرتدي الرجال فهن من نوعيات الرجال ويا قلبي لا تحزن .. وهذه الخلطة من البشر لها نشاطات كثيرة فمنهم من يعمل برعي الحيوانات أو يحمل الفأس ليعمل عامل زراعة، أو عامل بذاء أو تاجر مواشي، أو صانع جبن وعمال المصانع والمعامل والمخابز وعاملات في مصانع الملابس والتريكو والخدمات والسماسرة وغيرهم وقليل يأتي من المدينة لينهل الهوى مع امرأة ولم يجد مكاناً في المدينة فيأتي إلى الدار ليدخل بها في تلك العشش فيقضي حاجته ويهرب .. غير أن هناك شباباً وشابات من أسر غنية يرتادون المكان من وقت لآخر لأكل الباجة وتدخين الشيشة أو لدخول عشة .. وهناك كثير من اللصوص وقطاع الطرق يقصدون هذه الدار

لإستقاط الأنفاس أو للراحة أو التخطيط لعملية جديدة .. ولا أحد في هذه الدار أو من خارج الدار يسأل أي زبون عن هويته فليس لأحد سلطان على أحد فالجميع في هذه الدار أحرار يفعلون ما يريدون على ألا يمس أحدهم الآخر بضرر، ولقد عين صاحب الدار رجالاً أقوياء مثل الفتوات ليحافظوا على أمن هذه الدار وسلامها .. ولهم حرية التجول بين أنحاء الملهى لتحقيق الأمن الخاص بها، وكان فوزي رزونة يعمل في أحد القصور وكان يرتدي في شبابه البنطال والقميص ويتكلم الفرنسية بطلاقة تعلمها من أصحاب القصر وكان يعمل مشرفاً على إدارة القصر، ولما إنهارت القصور وسقطت الإقطاعيات في الناحية كان عمره وقتها خمسين عاماً أو أقل قليلاً عمل فترة قواداً وأخرى سمسار زبائن للعراف حافظ طراونة وسمسار إيجارات يرابي في أي شيء ويتاجر في خذاء أمة لو كان له ثمن ولا يهم أن تمشي أمة على الشوك بعد ذلك .. ولما كان يعمل في القصر استغرق في تأليف الأغاني والزجل وكانت بعض سيدات القصر يستدعيه في بعض الأوقات ليلقي عليهن كلمات أو أبيات منها ، وكان حاقداً على كل القصور وعلى النساء بالذات لأنه حاول في شبابه إقامة علاقة مع سيدة من سيدات القصر الذي كان يعمل فيه فبصقت في وجهه وضربتة بالجزمة على وجهه ورأسه وطردته.. ومن يومها هجر المدينة واستقر في هذه الناحية واشترى هذه الدار وزاد عليها بكل ما توفر لديه من مال إكتسبه من أهل تلك القصور ، وكان أبوه يعمل حلاقاً لأهل القصور ويقال أنه كان رجلاً يحلق للرجال والنساء فيها ، كان ناعماً دحلاباً لدرجة أن نساء بعض القصور كن يطلبن منه حلاقة العانة ، وتربي ابنه فوزي في كنفه فرأى كل شيء وعرف مالم يعرفه أحد لكنه لم يستطع أن يحقق ما كان يعمل في نفسه وهو أن ينال امرأة من القصر "فكن جميعاً يعاملنه على أنه حلاق ابن حلاق وبارد ابن بارد .. وكان يعوض ذلك بأن يقيم علاقات مع خادومات في تلك البيوت الكبيرة، ولما خرج من القصور اعتنق المبدأ الاشتراكي كمذهب اقتصادي وللأسف فقد اعتنقه كعقيدة وأصبح كارل ماركس نبيه المختار .. واسمه فوزي شاكر رزونة غير أن كثيراً من الناس أعرضوا عنه واحتقروه لأنه كان يعيش في عالم خاص به، وبعض الناس أطلقوا عليه المخبول وفي يوم شعر بأنه لا أحد يقبله والجميع ينفر منه .. فجاء إلى تلك الناحية وفي هذا المكان الذي يرتفع عن المدينة حتى يرى المدينة كلها تقع تحت قدميه ،

واشترى هذه الدار القديمة وزاد عليها واختار هذا النشاط ويجمع هذه الخلطة من المجتمع قائلًا أنا هنا .. وتفنن في أن يختار كل العاملين في دارة أن يكونوا بارعين في التخصص والنصب، فكل واحد منهم له تاريخ حافل في العريضة والسرقه والتمرد على كل قيمة ، اللص والقواد والعرييد والنصاب هي تاريخ ماض لكل من بدأ معه العمل، وقال لهم يوم أن عملوا معه .. أنه لا سرقه من لص .. فأنا كبيركم ولا سرقه من كبير ومن يومها وهم يعملون في شرف أقسموا يومها قسماً أعده لهم .. حيث كان يقول ويرددون بعده تلك العبارات ..

.. عاش النبي ماركس منقذ الإنسانية من الشرور والطغيان ..
 ماركس نبي الغلبة والمطحونين والمظلومين في هذا العالم ..
 ماركس رفيقنا فلنتبعة وعاشت الشيوعية للأبد والاشتراكية
 لباسنا وطعامنا وصباحنا ومساؤنا .. يا ماركس أنت رفيقنا
 إلى الأبد .. وكل واحد منا رفيق مخلص .. فلنعمل عمل
 الشرفاء .. نحن الآن مثل الأنبياء كنبينا ماركس نأكل من كد
 نضالنا وجهادنا .. نحن الآن شرفاء كرفيقنا ماركس نحن اشتراكيون
 .. ماركس لم يمت تحيا الشيوعية .. عاشت الاشتراكية .. إلى الأبد ..
 أبد .. أبد ..

.. سندخل المدينة في يوم .. بل سوف ندخل كل المدن .. ونوزع
 ثرواتها بالعدل ..

.. وأمضى الكهل فوزي رزونة طيلة يومه في نوم ، وفي الليل قام وهو
 يستند على ذراعها إلى الحمام ولم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة
 ولكنه كان يئن، ولما رجع إلى فراشه شرب قليلاً من الماء ثم دخل في
 نومة العميق، وكانت العجربة سلطنة ابنة الجبل وخليفة عراف زمانه
 قد فطنت من الوهلة الأولى أنها ستكفي عليه قفة من أول ليلة، وأنه
 عاشرها مرة وقد لا تعود هذه العشرة ثانية وقد يأتيها بعد شهور،
 وأنه مثل كل الرجال في هذه العمر .. ضرب النار لهم حلال عند امرأة
 شابة، لكن هذا ليس هدفها .. وخرجت في أول المساء تتأمل النزل
 وهي تتمشى في دلال ودعة وكبرياء على كل من يقابلها من العاملين

أو الزبائن وكانوا جميعاً يتأملونها ويفحصونها بأعينهم في إندهاش شديد لأنه لم يقد إلى النزل امرأة مثلها منذ إنشائه، وكان يمشي خلفها الحارس وهو الرجل صاحب الشاريين المقتولين ولقد أشبعها إشتهاءً بعينية الوقحتين ومن حين لآخر تلتفت إليه فيتململ ويكاد يتعثر ويهتز يمينه ويسرة ثم يضرب بيده على دبشك البندقية المعلقة في كتفه ويزعق :

- كنفان سلاح .. انتباه ..

وكان كل من في النزل من عاملين وزبائن يعرفون أنه رجل همباك وفالصو وبتاع حركات فكانوا يضحكون ويتقافشون على منصور وخركاته، ولكنهم كانوا يكتمون ضحكاتهم حتى تمر المرأة من أمامهم وحارسها من خلفها وبعدها انفجرون في أحاديثهم وثرثرتهم .. وكان الزبائن والعاملون يسأل كل منهم الآخر .. ترى من تكون هذه المرأة .. أهى قريبة فوزي رزونة، أهى زبونة .. من هى ؟ .. حتى تسير بهذه الأبهة ولا تتحدث مع أحد ويمشي خلفها الحارس الخاص بصاحب النزل .. لكن الناس الذين استقبلونها هى ولديها فى الليلة التى وصلت فيها النزل "كانوا يقولون" إننا نحسبها زبونة عادية أو عابرة سبيل .. لقد كانت ترتدى فى ليلتها جلباباً عادياً .. لكن لماذا تتمشى وتتأمل الدار كلها وكأنها ستشتريها .. امرأة تركب عربة كارو يجرها حمار وتسحب جاموسة من خلفها .. إنها فلاحه أو أعرابية من الجبل .. لكنها الآن تبدلت .. حذاءها .. نفنوفها .. شعرها المسترسل على أكتافها .. وجهها .. إنها امرأة من المدينة ومن أحلى بيوتات الحضر .. وهل هى مهمة عند الشيخ حتى يحرسها حارسه الخاص .. ولما انتهت من جولتها فى أنحاء النزل كلة شخبطت فى منصور قائلة :

- خذنى إلى مقهى المغنية .. تعال وسر أمانى .. ويبدو أنها أدركت شدة وقاحتة ..

- حاضر .. حاضر يا ست الكل .. وضرب على بندقيته بيده مرتين وزعق .. من هناك .. إوع يا ضضع إنت وهو .. يقصد يا جدع .. ولكنه ينطقها هكذا .. كل من يسمعه يضحك لهبالته أو لاستهباله .. ولما وصل إلى باب المقهى دخل أمامها ووقف عند الباب قائلاً بصوت عال :

- قيام .. قيام يا واد إنت وهو .. وإنت يابت بطلي غنا .. الست وصلت .. وتركته يزعل ويشخط وينظر فقد كان الجميع يبدون طاعة لكل كلمة قالها .. ويركزون أنظارهم الفضولية الشرهة على المرأة .. حتى أن كثيراً منهم .. ضرب تعظيم سلام وهم يديرون وجوههم نحوها .. وبرزت على وجوههم علامات الدهشة والذهول .. وجرى خادم المقهى ليحمل أفخم كرسي ويضعه في مكان عال قرب المسرح الصغير قائلاً وهي ينحني :
- اتفضلي يا باشا .. اتفضلي يا ست الباشا .. وظل ينحني ويرفع كفيه نحوها حتى قعدت في كبرياء ووضعت ساقاً على الأخرى فجرى منصور وقعد على الأرض قرب قدميها ووضع البندقية على الأرض بين ركبتيه وهو يقول كأنما يأمر الجميع :
- كله يقعد .. كله يقعد .. ياللا غني يا نجلاء .. أحلى غنوة علشان الست .. سكوت .. كل واحد يبص أدامه .. جتك نيئة إنت وهو .. خلاص بص أدامك هناك .. ومد أصابعه إلى شاربية ليقتلها ويعدها إلى أعلا .. وأخرج ورقة تبغ من علبة دخانه وأخذ يلفها سيجارة يدخنها دلالة على نجاة ومزاجة العالي الذي بلغه مع الست ..
- وكانت الفرقة الموسيقية المكونة من طبال وزمار ورجل يضرب على العود قد بدأت لحنها ، وارتبكت المغنية قليلاً ثم هزت رأسها يمنة ويسرة وتمايلت قليلاً إلى الخلف وترنمت شفتاها كأنها تمهد لأن تبدأ .. بعدها ضربت أرضية المسرح بأطراف قبقابها الخشبي العال ثم تعالي صوتها قائلة :
- يا بلد .. يا بلدي يا بلد .. ألا من ولد .. هلا يا ولدي يا ولد الوطن
يا بلدي يا بلد .. وسلام يا عم فوزي يا بو الجبل .. يا سلام
عليك .. يا سلام عليك يا ملك الجبل ..
يا بلدي يا بلد ..

وجأر الزبائن ووقف بعضهم وهم يصفقون وبعضهم هتف .. قولي يا ست ..
يا خرابي .. إنت بلدي ووطني يا نجلاء الجبل .. وأعادت وهي تبتسم وكان
صوتها حلوأ قوياً يخرج من أعماقها .. وكانت نبراتھا حزينة ثم قالت :
في الشوارع الحويلة المضينة كنا نلهث كالأغنام من أجل الطعام .. بل
بلغة خبز ..

واليوم في مدينتي الطويلة المضينة العريضة يجري أطفال مثلنا لما كنا
صغاراً يلهثون ..

الناس يعملون ولا يكادون يشبعون ..

طعامهم في كل يوم فول .. ويصل وخبز مبلول وعلى قصعة النار
يقمرون ..

والأغنياء يرقصون ويمرحون في قصورهم ويذبحون النساء من الحي
الفقير

فلا ثمن لإمرأة فقير أو ابنة عامل أو أجير .. أو إمرأة مثلي ترقص أو
تغني من أجل أن تعيش ..

جوعوا أولادنا قرونا .. وعندما فطرنا آخر النهار أكلنا فولاً ..

واليوم نحصل عليه بعلقة أو بعد قسوة .. اليد التي تطبخ الفول تملأه
حصوة ..

إنهم لا يريدون أن نأكل طعاماً مثل الفول بدون شقفة ..

أهم أبناء الوطن ونحن لا ..

أهم أطفال البقر ونحن أطفال الحمير ..

ويقولوا لنا جوعوا كلما تجوعوا تكونوا عبيداً أصلاء ..

لأنكم ستعملون عندنا عبيداً وستظلون من أجل لقمة خبز مبلولة ..

إننا نبل الخبز ونقمّره على النار لأثمة مقدد وجاف ..

ولما نضعه على النار تلسعنا وتكوينا حتى نظل دائماً متذكرين ..

إننا عبيد تلسعنا كرابيجهم أينما نكون
وتلسعنا النار لما نقعد نأكل بعد جوع ..
إننا دائماً نواجه النار في الصباح والمساء ..
ولما تخرج الشمس علينا جميعاً .. إنها شمس الله
لو كانوا يستطيعون أن يحببوا عنا لحببوا
وعملوا منها مصنعا لضوئها كي يبيعوها للعبيد ..
أهم أبناء الوطن ونحن لا ..
أهم أطفال البقر ونحن أطفال الحمير ..

وأخذت المغنية تقول وتعبد والزبائن تجار .. يعيش نجلاء .. يا خرابي عليك
.. يعمر بيت أبوك .. وأغنيات أخرى ليس فيها كلمة حب أو جنس .. لكنها
جميعاً أغنيات تحكي عن الظلم والقهر وتنادي بالعدل والحرية .. وراحت
سلطانة التي دخلت عليهم بعظمة وكبرياء تتخلى عن كل ذلك وشعرت بمضي
الوقت أنهم قوم يجب احترامهم ، وأنها لابد أن تكسب هؤلاء الناس خاصة
وأنها في طريقها لكسب صاحب الدار، ولما انتهت المغنية من وصلتها وقعدت
على كرسي قرب المسرح ذهبت إليها سلطانة وقبلتها وجلست إلى جوارها
قائلة :

- من أنت ..
- أنا نجلاء ..
- نجلاء إية ..
- نجلاء أمين العبيدي ..
- عبيدي ..
- حتى أسهل لك .. اسم شهرتي نجلاء القصر
- ولماذا القصر
- لأنني إبنة القصر
- ومن رماك هنا
- لي الشرف أن أغني لهؤلاء الناس .. إنهم الشعب الحقيقي ..
- هل تأتين كل ليلة.
- أكل عيشي من هنا .. منذ خمسة عشرة عاماً .. كنت وقتها فتاة لا
تزيد على العشرين عاماً ولولا هذا الرجل صاحب هذا المنزل لكنت

- أتصور جوعاً أو كنت خادمة في قصر من القصور المزيفة .. أو
مومسا تقف عند ناصية تنتظر رجلاً يلتقطها ..
- حيلك على حيلك .. دا إنت دنيا .. إيه العالم ده .. وا إنت عايزة
قعدات معاينة .. فقلت لها نجلاء بحرص :
- من أنت
- أنا سلطنة
- سلطنة مين ..
- غجرية جئت من الجبل .. قريبة الشيخ ..
- طالما قريبة الشيخ تبقى فوق راسنا ..
- لكن إنت بتحبني الشيخ أوي ..
- لآله راجل لمني ولم الناس دي كلها من التشرد .. الناس دي كلها
الشغالون هنا والحرس و .. كانوا حرامية وقوادين ومتشردين من
صغره .. الراجل دة عمل لهم كيان وإحنا كلنا من حنة واحدة ..
- وهل أنت إبنة القصر حقاً ..
- نعم كان والدي صاحب قصور وإقطاعات .. ولكن هذه القصور
تهدمت جميعاً في الحرب المشنومة ، ومات أبي من حنة عليها
وعلى أمواله التي سرقوها وكانت أمي قد ماتت في أول تلك
الحرب، ولي شقيق هاجر إلى بلد أوربي منذ زمن طويل ولا نعرف
عنه شيئاً ..
- كلهم ذهبوا وتركوك ..
- نعم ..
- ألم يبق قصر واحد ..
- لقد سرقه اللصوص الذين أصبحوا اليوم رجال أعمال .. أوهم
أصحاب الرأسمالية الجديدة .. والأرض التي كانت عليها القصور
نهبت .. كان هناك مئات من اللصوص التي تفننت في الاستيلاء
على حقوق الناس ..

- ولماذا لم تحاولي استردادها ..
- حاولت ولم أستطع .. وآل بي المآل إلى هنا ..
- .. هزت سلطنة رأسها وسكتت وهي تتأمل نجلاء القصر ثم قالت :
- هل هذه كلماتك التي غنيتها ..
- إنها كلمات شاعر شعبي معروف يدعى سامح عرجان
- لماذا لا تغني كلمات الحب ..
- هذا الشاعر .. يؤلف كل أنواع الشعر .. ولكنني كثيراً أفضل كلمات الثورة لأني محروقة بنار الرأسمالية الجديدة ..
- وهل هناك حل للقضاء على مساوئ تلك الرأسمالية ..
- يقول الناس هنا وعلى رأسهم الشيخ فوزي أن ماركس العظيم قد وضع نظاماً عادلاً للإنسانية جميعاً وأن النظام الاشتراكي هو البديل الوحيد حيث يحقق العدل والحرية والديمقراطية وأشياء من هذا القبيل كما يقولون ..
- لقد قرأت كثيراً واستمعت إلى آراء كثير من الناس كانوا يأتون إلى دارنا، أن النظام الاشتراكي تنحل منه طبقة تنهب وتسرق، وهي الطبقة الحاكمة أو التي تمتلك الإدارات في المصانع والشركات وإن كل ثروات البلد يتم نهبها تحت شعار مصالح العمال والكادحين، بل إنه من وسط العمال والكادحين تخرج نماذج مخضمة في النهب والنصب على مستوى عال .. ويقولون أن الرفيق في المجتمع الشيوعي أصله من حثالة المجتمع.
- أقسم لك أنني لم أعد أفهم شيئاً .. ولكنني أتذكر أنني عندما جئت إلى هنا منذ سنين طويلة أقسمت قسماً لماركس مفاده أن أكون ابنة مطيعة لأمن الاشتراكية .. هذا ما وجدته وهو أنني وجدت سبيلي عند رجل شيوعي أو اشتراكي .. فماذا كنت أفعل وقتها.. هل كنت أقول له إنني لن أقسم إلا بالله الذي تعلمت على القسم به وحده .. ساعتها كنت سأكون في الشارع تلتهمني الذئاب.. وقلت لنفسني لاضير أن أقسم بأن أكون وفية أو أعمل لمذهب إنساني طالما أن هذا لا يمس إيماني بالله .. وها أنذا سوف أرى

.. إن الاشتراكية ومبادئها مازالت في بلادنا حبراً على ورق وكلمة ثقيلة مكررة على لسان ناس كثيرين ..

وقالت سلطنة وهي تقف ممسكة بذراعها وتمشي بها إلى خارج المقهى في الطريق المؤدي إلى بوابة الدار.

- لقد سمعت من هؤلاء الناس أيضاً أن تلك الاشتراكية في أم بلادها قد بدأت تسقط الآن والسبب في سقوطها الذين قاموا بتطبيقها، وأصبحت في تلك المجتمعات طبقة من الأباطرة جميعهم هرب أموالاً طائلة خارج بلادهم في بلاد أوروبا .. بمعنى أنهم جميعاً ضربوا بلادهم وسرقوا ثرواتها وأودعوها في بنوك أوروبا .. أقصد البلاد الأوروبية الرأسمالية .. لأن كل واحد منهم يحلم أنه في آخر الأمر سوف يذهب إلى تلك البلاد ويتمتع بأمواله هناك ..

- أفهم من هذا أن النظام الاشتراكي خرب بلاداً من الداخل وسقط بكل مؤسساته .. وليس هذا فقط بل إن ثروات هذه البلاد قد هربت بمجهودات شخصية وأساليب مثل ما تفعله عصابات المافيا في السرقة والنهب .. وتركت بلادهم خراباً ..

- المشكلة إذا يا نجلاء .. ليست في النظام ولكن في الإنسان الذي يطبق النظام ، وأن الطموح الإنساني لدى الناس جميعاً يؤدي بهم إلى الإتحراف عن طريق العدل، فكل واحد عندما يملك الأمور يعمل لنفسه ومن بعده الطوفان .. وخلصه القول وأقوله وأنا امرأة أصلي من العجر وأخطو أولى خطواتي نحو المدينة وأعرف أن رأيي لن يساوي شيئاً .. أنه ليس هناك دين حقيقي يسكن قلوب الناس، وأن الأديان جميعاً التي نزلت من السماء لم تصلح من الإنسان حتى الآن، وإن أصلحت شيئاً فإن أشياء أخرى كثيرة لم تصلح .. وأن كل الناس يتكلمون عن العدل والحرية والمساواة بين الناس، ولكن الناس جميعاً إذا أصبحوا ملاكاً فإنهم يجعلون من غيرهم عبيداً، وأن هناك كثيراً من رجال الدين كانوا في المساء رجال دين وفي الصباح عندما أصبحوا ملاكاً كان الدين لديهم أقوالاً وأصبحوا يقومون بأعمال فخرية وكأنهم لم يعرفوا شيئاً عن الدين من قبل ..

- يا خبر أسود .. وسكتت نجلاء .. ثم طفقت تقول :
- أفهم من ذلك أن رجال الدين بتوع كلام ..
- معظمهم يقول كلام الدين لأن هذه وظيفته .. وقليل منهم من تكون وظيفته الدينية رسالته .. وفي لحظة فإن الناس جميعاً بما فيهم رجال الدين يتخلون عن أديانهم ليذهبوا إلى مادية الحياة في الوقت الذي تأتيتهم فرصة التملك ، وهكذا كان المال دائماً هو أول طريق هلاك الناس ..
- هل أفهم أنه لا يوجد في الدنيا رجال دين حقيقيون ..
- يوجد .. لكنهم قلة .. لو تسأليني عن حالهم أقول لك إنهم لا يجدون طعام يومهم وأنهم من الفقراء المساكين الذين يجب أن يفتحوا أيديهم ليقبلوا أموال الزكاة ..
- إذا نحن نعيش مأساة ..
- هذه حقيقة .. وسوف تقولين لي ما هو الحل ..
- نعم .. ما هو الحل ..
- الحل باختصار في داخل كل منا .. لو راعي كل واحد في العالم حدود الله وراعي حقوق غيره من الناس لتحقيق العدل والخير للناس جميعاً، والفطرة الإنسانية تجعل الإنسان يحقق ذلك بالفطرة التي خلقه الله عليها دون التطرق لأصول الدين التفصيلية .. ثم سكتت سلطنة .. فقالت لها نجلاء :
- لقد مشينا بعيداً عن الدار .. علينا أن نعود حتى لا نضل الطريق ..
- وإنقلبنا إلى النزل وأمست نجلاء ذراع سلطنة بكفها وقالت :
- وهل يعني هذا أنه قد يوجد إنسان بفطرته يبقى طيلة حياته فعالاً للخير خلوفاً عادلاً دون أن يكون عالماً أو فقيهاً في الدين .. أو صاحب مذهب سياسي ؟

- كثيرون بالطبع، وإن كان هناك في الدنيا مازال بعض الخير فاتمه بركة هؤلاء الناس الذين ينتشرون في أنحاء الأرض .. والدين في قلوبهم وأفعالهم دون أن يكونوا علماء أو دعاة ..
- ما كنت أصدق أننا امرأتان تعملان في مرقص ويخرج منهما.. كل هذا الكلام الصالح ..
- إننا لم نصف شيئاً وصدقيني كل الناس العاديين يعرفون أكثر من هذا .. وليس من الضروري أن نطلق عليهم الفلاسفة .. ولكن المشكلة الكبيرة في هذه الحياة .. أن هناك فرقاً كبيراً بين القول والفعل أو بين العقل الإنساني والفعل الإنساني .. وقليلون الذين يستطيعون إحداث التوازن بينهما .. ولكن الفعل الإنساني دائماً في جملة معيب لأن هناك صراع دائم بين الخير والشر في داخل الإنسان الواحد .. فما بالك بكل هذا العالم .. ولذلك فإن العالم في جملة آثما ..
- ومن نحن في هذا الواقع ..
- إمرأتان ضائعتان ..
- كيف يا سلطنة .. إننا نعمل ونتكسب ولنا مأوى ..
- إنني حتى الآن ليس لي بيت ..
- إذا دعينا نعيش في الواقع حتى يكون لكل منا بيت .. ولا داعي لهذه السفسطة التي خيلت رأسي ..
- أنت لم تعرفني عني شيء ..
- نعم من أنت حقاً ..
- إذهبي إلى عمك وغداً سنلتقي ..
- وأين تذهبين الآن ..
- إلى حيث يرقد ولداي والشيخ ..
- ولدك .. شيخ .. وأومات برأسها مودعة .. وأخذت تتمتم بشفتيها حتى دخلت المقهى .. ولدك .. والشيخ .. من هي بالضبط ..

.. ويلوح لكل من زار النزل وأصبح واحداً من زبائنه .. أن كل شيء فيه .. الماء والطعام والغناء .. والشمس بالنهار والهواء العليل بالليل .. وفيه فندقة بسيطة مريحة في تلك الغرف التي فرشوها بالحصير فيها قصعات تصدح بالنار لتدفء الزبائن في نهار وليل الشتاء ، ومبردات هوائية بالماء تعمل في الصيف ، وإمرأة البخور تمر في الصباح وعند الضحى وأوقات المساء تبخر الغرف .. حتى أنها تذهب إلى كهوف الغرام لتبخرها فتدخل الخالي منها وتقف على باب المشغول كي تنفذ رائحة البخور كعطر مميز يهديه صاحب الدار لهم، إن الذين يقضون عملاً قاسياً في النهار يذهبون إليه في الليل لينقذهم من عنائهم فيأكلون من طعامة ويدخنون من دخانة وفي المقهى يستمعون إلى أغاني مغنيته الشابة نجلاء القصر أو من المغنية الأخرى التي تدعى هايدي يوسف، والذين يعملون في الليل يصلون إليه في الصباح ليتناولوا كيفهم وينامون في غرفه ويغرقون في كل ما لذ وطاب في النزل .. إنه يسع كل الناس ولكن أعظم طبقته ..

.. هؤلاء الناس الكادحون الذي يأكلون بصعوبة .. فالأعرابي يأتي بعرق هدومة الزنخة، وراعي الغنم لما يدخل المقهى تشم المغنية رائحة غنمه، وتاجر المواشي عندما يبدأ في دخول البوابة تشم رائحة كوكيتيل من روائح الحيوانات كأنه حظيرة بهائم متقلبة ، ورائحة الكاوتش وحامض البطاريات وزيت السيارات يحمله الميكانيكية الذين يعملون في كل أنحاء المدينة حيث يصلون إلى النزل تبعاً في مركبات زبائنهم التي مازالت تحت الصيانة، وبنات مصانع الملابس تفوح منهن رائحة الخيوط والتريكو، والحلاقون وكولونيا ثلاث خمسات ممزوجة بصابون وكريم الحلاقة، والإسكافيه بنكهة أحذيتهم وجلودهم، وعمال معامل الطورشي والجبن ومصانع البسطرمة واللنشون والنجارون والحبدادون والاستورجية وتجار العدد والأدوات الصغيرة في سوق القلة، وتجار الأسماك بزفاراتهم مهما تعطروا، والجزارون بدماء اللحم تلتطخ قمصاتهم

وجلايبهم، وعمال النسيج وتجار السيارات والروباييكيا، والفلاحون بخشونتهم ونعراتهم وقفشاتهم، ناهيك من طلبة وطالبات وقاطعي طرق والمتشردين وعابري السبيل واللصوص والأفاقين والقوادين، وبعض شعراء الأغنية والزجالين الذين يروجون لكلماتهم أو يبحثون عن أحد يسمعهم ويشجعهم، ونساء ليل من الدرجة الثالثة، وأعرابيات يتسولن وفلاحات جئن يبعن التوت والتين والبلح وأخريات منهن يعرضن أنفسهن على الزبائن بأشكال مختلفة، وأماكن أخرى في النزل يقعد فيها السماسرة وتجار الأراضي وأصحاب الأراضي الزراعية وموظفين، ومجموعات من الصبيان والبنات يلعبون الكوتشينة والدومنة والطولة والشطرنج ومجموعات أخرى متنوعة من الزبائن جلسوا أمام التلفاز في صالة شيدت قرب مدخل النزل، وعدد من دورات المياة منتشرة في الدار تعبق رائحتها بالصنان من كثرة التبول لهذه الخلطة من البشر فيرشون سائل الفنيك لكتم هذه الرائحة، وكان عدد من عسكر الشرطة يجوبون أنحاء المكان من وقت لآخر كمظهر من مظاهر الأمن جاءوا من المدينة ليقضون عملهم كأى مكان عام .. وحتى لا تحدث أى مشاكل من رجال الأمن هؤلاء .. فإنهم يتناولون وجباتهم بالمطعم مجاًناً في أى وقت بالنهار أو الليل .. ليس هذا فقط فإن الشيخ فوزي صاحب النزل يصرف لهم شهرياً مرتبات تفوق رواتبهم التي يتقاضونها من الشرطة .. وجميعهم يصرف من المطعم بشكل مستمر طعام الفول والباجة والعدس معبأة في أكياس إلى أهليهم .. وكل واحد من هؤلاء العسكر يرش رئيسة في الشرطة من حين لآخر حتى لا ينقله من هذا النزل طيلة حياته، والأمن وفي لصاحب النزل وفاقاً يفوق الوصف، ولما كان فوزي رزونة يعرف أنه لا توجد رصاصة واحدة في بندقيته أى عسكري وعليه فإنهم غير قادرين على حفظ الأمن وكذلك حماية الدار وزبائنهم من أى اعتداء، فلقد قام الرجل بتوظيف عدد ستة حراس على مستوى عال كانوا أبطان

مصارعة وملاكمة وجهز كل واحد منهم بمسدس وذخيرة .. يتناوبون العمل في الليل والنهار .. وكلاب تحرس الدار بالطبيعة الخاصة لتلك الحيوانات الأمنية والتي تحرس كل من يطعمها ويأويها، وكانت هناك بعض أشجار التوت والجوزين انبسقت حول الدار وفي داخل الدار طلعت خمس نخلات تتدلى منها أسباط البلج ..

.. وشعرت سلطانة أنها يوماً بعد آخر تندمج مع أهل الدار جميعاً لكنها لم تصاحب أحداً منهم، كان ذلك بينها وبين نفسها، تتجول في الصباح مع ولديها حول الدار دون الحارس منصور، وفي الليل تتجول هي وصاحبها نجلاء القصر بين ردهات النزل وصلاته وغرفة .. حيث كانت تأتيها نجلاء بعد أن تنتهي من نمرتها ، وفي ليلة من الليالي ألحَّت سلطانة على المغنية أن تبيت معها فقضت معها الليلة في غرفة الشيخ، ورحب صاحب النزل بالضيافة كثيراً وطلب منها أن تقيم في غرفته مع سلطانة إذا رغبت في ذلك ، وفي ليلة أخرى طلبت نجلاء القصر من سلطانة أن تذهب معها إلى المدينة لترى البيت الذي تقطنه، فذهبت معها في عربة الشاعر سامح عرجان الذي أوصلهما حتى دارها التي تقيم فيها بمفردها، وكان بيتها صغيراً محاطاً بسور من الحجر يحضن حديقة كبيرة زرعت بها شجرتين من النبق ونخلتين والحشيش الأخضر ونبات الخلّة وبعض شجيرات الخروع طلعت في الحديقة بشكل عشوائي، وباب حديدي من ضلقتين مدهون باللون الأسود يحضن جانبي السور بإحكام حيث تربطه سلسلة حديدية وقفل كبير .. وبالصدفّة ومن بقايا عهد مضى كان البيت محاطاً برصيف يسير عليه المارة، وعسكري درك يروح ويجيء يمشي بخطوات ثابتة يحرس البيت بعناية وبيوتاً أخرى تعود أصحابها كلما رأوا العسكري أن ينقذوه ما تيسر معهم .. وكانت نجلاء تعتني بكل عسكري نوبتجي يكون عمله في منطقة بيتها خاصة أنها تتركه وقتاً طويلاً في الليل، والمدينة لا يأمن أهلها من الرجال، بيت أنيق نظيف من الداخل مكون

من ثلاثة غرف وصالة فرشته صاحبة بأحدث الأثاث وزينة بفازات الورد واللوح التي تحمل مناظر طبيعية خلابة وصور فوتوغرافية لقصور قديمة وحقول قمح وفاكهة وصورتان لرجل وامرأة وصورة ثلاثة لشاب يركب فرساً، فلما أشارت لها سلطنة قائلة :

- هذه أسرتك.

- نعم أبي وأمي وهذا أخي .. كان فارساً ..

- أهذا بيتك

- اشتريته من بقايا ثروة أبي التي نهبت ..

- ألا يأتي أحد لزيارتك هنا ..

- لا أحد .. هذا البيت للنوم فقط .. ليس فيه من الحياة إلا النوم إذا كان في النوم حياة ..

.. ثم انصرفت نجلاء إلى المطبخ لتعد الطعام وتبعثها سلطنة بعد أن تأملت كل مكان في البيت ، وساعدتها في وضع الطعام في الأطباق وملأت الدورق بالمياه وبسرعة حملت سلطنة الصينية وهلعت بها نحو الصالة فانفجرت نجلاء ضاحكة وقالت :

- يعجبني فيك أنك عملية وتتصرفين بلا كلفة ..

- أعشق البساطة وأنا معجبة بك .. فلم أكن أتصور أن تكون مغنية النزل بهذا المستوى ..

ولما جلسا حول المنضدة كانت كل منهن متشوقة لأن تعرف الأخرى فقالت نجلاء :

- ألا تخبريني من أنت ..

- أنا سلطنة .. أبي كان يعمل عرافاً في الجبل ، مات منذ سنين طويلة وأمي ماتت وأنا صغيرة،

- أهنك صلة قرابة مع الشيخ فوزي

- عندما أتيت إلى هنا بالصدقة تعرفت عليه ، وهو الذي عرف أبي .. كان صديقاً له وبينهما تاريخ .. كانا يعملان معاً ..

- أين ؟
- في الجبل ..
- هل الشيخ كان يمتن هذه المهنة
- .. الشيخ فوزي لم يترك شيئاً في حياته إلا وفعله ..
- ما رأيك فيه ..
- أنا أعتبره أبي .. إنه يعاملني معاملة طيبة وهو يعرف أبي ويتعامل معي بتقدير خاص وهذا يريحني كثيراً ..
- وهل تجددين صعوبة في التعامل مع الزبائن ..
- جميعهم يركع تحت قدمي .. ولكنني لا أحب ذلك
- هل تجددين مضايقات شديدة من أحد ..
- عندما أجد ذلك أنادي على أحد من الحرس الخاص ليتصرف ..
- ألم يطلب الشيخ منك أي شيء في أي يوم منذ أن عملت معه ..
- مثل ماذا ..
- مثل حاجة الرجل إلى المرأة .
- طلب مني منذ وقت طويل .. كان أيامها قوياً .. وسكنت ..
- ما الذي طلبه بالضبط ..
- طلب مني كثيراً أن أقيم معه في غرفته ولا داعي لأن أعود إلى بيتي
- آخر كل ليلة .. وكنت في كل مرة أرفض في حياء ..
- وهل نكل بك بعد ذلك أو هددك بالرقت ..
- لا .. لقد زاد تقديره لي .. واحترم رغبتني ورفضني له وقدر حيائي ..
- والله إنه رجل غريب .. رجل له كل هذا ويحترم حرية الناس ..
- ورغم أن العاملين عنده وممكن أن يسلط أحداً ينال منك في أي أمر من الأمور ..
- وسكنت نجلاء وجالت بناظريها نحو الحائط وأغرورقت عيناها وقالت :
- لقد كان يعرف أهلي تماماً .. وأضيفني إلى ذلك أنه رجل تربى في القصور .. وكان دائماً يحاول تغيير طبقة الاجتماعية ..

- ..إن أي عبد تربى في قصور الإقطاع القديم يعرف الأدب والحياء والأصول .. أضيفي على هذا أنه كان يلزم السادة وهو شاب، ويجيد اللغة الفرنسية ولقد قرأ مئات الكتب وأطلعني عليها في غرفته الخاصة ..
- غرفته الخاصة التي يعيش فيها ..
- لا .. إنها في نفس الغرفة .. تدخلين إليها من دهليز في الغرفة الكبيرة خلف ستارة ..
- خلف ستارة ..
- نعم .. إن يحتفظ بكل نفيس فيها ومفتاحها يخفية في مكان لا يعرفه أحد ..
- وسكنت سلطنة واندشت ، وانقلبت إلى الحمام لتغسل يديها بعد الطعام، ولما عادت إلى الصالة .. كانت نجلاء مازالت تتناول لقيماتها على مهل وابتسمت إليها وقالت :
- وسامح .. هذا الشاعر ..
- إن يكتب كلمات تعبر عن حال المدينة .. ولكنه في حياته بوهيمي ..
- وهناك علاقة طيبة .. أقصد مستقبلية معه ..
- المستقبل معه كلمات شعر وأن أنقده قيمتها .. إذا كانت الكلمات تساوي خمسين درهماً أعطيه مائة ، وأدفع له مصاريف انتقالات شهرياً مقابل ذهابي وإيابي كل يوم معه
- لكن ما معنى أنه بوهيمي ..
- إنه لا يعرف كيف يحترم امرأة .. رغم أنه يكتب كلمات رقيقة في الحب .. وعلى فكرة كل امرأة في الدنيا تميل إلى الرجل الذي يحترمها .. ثم أنه يلهث خلف كل امرأة .. إنه شرس كالكلب ..
- ولكن لا بد لك أن تتزوجي .. كل امرأة إذا لم تجد رجلاً تحبه فإنه لا بد أن تقبل على الزواج من أي رجل حتى ولو كان بوهيمياً من أجل الأطفال ..
- أنا أتقزز من أي رجل ..

- كيف ؟
- إنني لا أقبل أن يمسنى رجل .. حتى الرجل الذي يحترمني .. إن الرجل الذي يحترمني يحقق لدي سعادة معنوية وأدبية فقط .. لكنني أيضاً لا أريده ..
- مرة أخرى .. كيف ؟ ألسنت امرأة ..
- أنا أحب المرأة التي مثلي ..
- كيف ؟
- أنت ابنة عَرَاف ولا بد أن تفهمي ..
- لكنني لم أخالط أحداً من النساء ..
- اقتربت منها نجلاء واحتضنتها في حرارة وهي ترتعش وقالت لها وهي تقبلها من شفيتها كما يقبل رجل امرأة .. ألا تفهمين .. إنني أريدك الآن..
- وكيف أنفعك بشيء وأنا امرأة ..
- وأخذتها نجلاء من يدها وأوقفها قبالتها ثم احتضنتها وجرتها إلى غرفة نومها فاستأنست وراحت معها عن طيب خاطر.. لقد رغبت نفسها أن ترى ماذا تفعل النساء، وهناك أرقدتها على فراشها وهلعت نجلاء إلى دولا بها لتتزين وتتعطر وترتدي الحرير من قمصاتها ..
- وفي صبيحة اليوم التالي هز زلزال البلدة فتمايلت البنايات القديمة وانفلقت حيطانها وبعض الأسوار العليا وقعت في الشوارع وتحطمت بعض السيارات من جراء ذلك ، ووقعت بيوت أخرى على أهلها فمات العشرات وامتألت المستشفيات بالمئات من المصابين، وكانت سيارات الإسعاف تجوب الشوارع بكثافة وكأنها المركبات الوحيدة في شوارع المدينة، واهتزت أبراج حديثة البناء وإنهار أحد أبراج ثروت المناديلي، ووقع جزء من مخزن سلامة المصري الذي كان قد اشتراه ليقم فيه عماله وموظفوه واهتز الجبل الذي يحمل نزل فوزي رزونة بعنف فانفلق جدران الجزء القديم من داره ووقعت بعض عيش الغرام حتى أن امرأة

وقع عليها الطوب وهي عارية فنقلوها إلى المستشفى بعد أن لقوها بشرشف .. وشعر الناس جميعاً بالخوف والقلق من ليل هذا النهار أن يأتيهم زلزال آخر وهم نائمون، وفي الليل كان أغلب الناس أكثر جموحاً للذهاب إلى الملاهي والمراقص وشرب الخمر، وذهب كثير من الزبائن إلى نزل فوزي رزوناً ليستمتعوا هناك بعيداً في الجبل، فإذا حل زلزال في المساء كانوا في مأمن فوق الجبل حيث لا بنايات عالية تنهار فوق رؤوسهم، وكانت هناك طوابير من الرجال والنساء ينتظرون دورهم في دخول العشش وكأنهم سيموتون غداً، وتم رفع كافة أسعار الدخول والطعام والشراب في النزل، ومع ذلك فلقد أقبل الناس بلا تردد وأنفقوا ما في جيوبهم، وفي آخر المساء فضل كثيرون البقاء في النزل ولم تكفي الغرف لاحتوائهم، فافترشوا الطرقات والأسطح رغم برودة الطقس خوفاً من زلزال آخر يهز البلدة في الليل، وفي تلك الليلة نامت نجلاء القصر مع حبيبها سبطانة في غرفة صاحب الدار.. حيث إفترشا مرتبة وغطاءاً في ركن بالغرفة بعيداً عن مسمع الولدان والشيخ، وهكذا كان أعظم الناس يتخذون سلوكيات فردية مع أنفسهم الخائفة والقلقة من الغد، وقليل منهم لجأ إلى المساجد والكنائس ليذكر الله هناك تضرعاً وخشية ورجاء أن يسامح البشر ويعفو عنهم، وصنف آخر من الناس لم يفيقوا إلى أي اتجاه قعدوا في بيوتهم غير عابئين باللحظة الآتية .. ولم يخرج أفراد من تحت أسقف أقرانهم ومطاعمهم ومناجمهم لأنهم لابد أن يعملوا حتى تأكل بيوتاتهم مهما كان الثمن وكان هؤلاء الناس أكثر الناس اتجاهاً لمصلحة الجماعة،

ومرت أيام أخرى لم يأت فيها زلزال آخر ، واندفع الناس في حياتهم العادية، وقام فوزي رزونة من غرفته متكئاً على ذراع سلطانة كي يتفقد الحيطان المتضررة وأمرهم بترميمها بالسرعة الممكنة وطلب منها أن تأخذه ليسييراً قليلاً خارج النزل فاستجابت قائلة :

- ليتك تطلب مني هذا كل يوم ..

- آد يا إبنتي كم أنا مرتاح لوجودك معي ..
- إن هذا يسعدني كثيراً يا عمو ..
- علشان عمودي أهد الدنيا علشانك .. هل تعلمين يا ابنتي إن كلمة لطيفة من امرأة لرجل كهل : لهي خير من أي دواء .. ولكن النساء الخائبات لا يفعلن ذلك .. إن المرأة التي تقول كلمة حلوة للرجل خاصة إذا كان زوجها أدخلها الله الجنة ،
- آه يا عمو .. والله إنك تقول كلاماً حكيماً .. أخبرتني نجلاء أنك واسع الثقافة ..
- نجلاء .. آخ إنها بنت ناس .. مسكينة .. وسكت ..
- ماذا تعني مسكينة ..
- لا داعي لأسرار الناس .. هل هناك أحد يصدق أن رجلاً مثل أبيها كان من أغنى الناس في المدينة منذ نصف قرن، أن يأتي الغيب ويقطب الأمور ويموت في الحرب وتنتهي من بعده كل ثروته فيحتال عليها الناس الحرامية وينهبوها .. وتتشرد إبنته .. هل أحد يصدق أن إبنته هذه نجلاء تعمل مغنية عندي لكي تعيش ..
- لقد فعلت خيراً بها وبغيرها ..
- لكن الظاهر يا إبنتي أن داري كما يقول بعض الناس أنني أفتحها كرخانة ..
- ما معنى كرخانة ..
- يعني دار للدعارة ..
- تسمح لي يا عمو .. هي فيها خليط .. العشش .. العشش يا عمو ..
- وهز الرجل رأسه وقال في شيء من المرارة :
- حتى أنت يا سلطنة .. آه هل تعرفين يا إبنتي أنني أعمل خيراً للشباب والفتاه اللذين لا يجدان مأوى ليلتقيا فيه .. هل أتركهما يلتقيان تحت عربة أو في مكان خرب يخرج عليهما ذئب بشري يتقاسم معهما وإلا قتلها .. هل أترك شباباً لو لم يفعلوا ذلك في تلك العشش

لاقتربوا جرماً آخرًا كالقتل أو أي عمل من أعمال العنف كالسرقة والنصب والاحتيال .. صدقيني إن هذا العمل يريح أناساً كثيرين من عناء الحياة ، وأنهم يتخلصون من مشاكل يجدون لها حلاً في تلك الغرفة ..

- والدين .. والدين يا عمو .. يا عمو أرجوك أنا أسألك لا أمنعك .. أنا أستفسر منك .. أنت ترى أنني لست إلا امرأة عادية ولكن دعنا نتكلم ..

- إن لم يفعل الرجل عندي فإنه سيفعل في مكان آخر، أو يقترب شيئاً مَخْلاً يضر بالمجتمع .. أنا قدمت له العشة كي أحل مشكلته وحتى لا يضر بالمجتمع .. وفائدة ثالثة إنه سيذهب إلى عملة في الصباح خالي الذهن سيعمل كالثور .. وكذلك الفتاة ..

- وحبل البنات يا عمو .. ومشاكل العذارى .. إنك تتكلم كأنك أوريبي ..
- دي مش مشكلتي .. دي مشكلتها هي مع الولد .. أنا أحل مشكلة عند حد معين ولكن لا أجري خلف النتائج حتى أجد لها حلاً هي الأخرى، وعلى فكرة البلد إمتلأت عيادات ترتق للبنات غشاء البكارة .. والسبب كله هو انشغال الأهل بتدبير العيش فحدث إنهيار ..

- البلد مليانة مصائب .. هل تعلم أن هناك كثيراً من هؤلاء الأطباء .. يشترطون على الفتاة شرطاً خطيراً قبل أن يقوم بعمل العملية.

- ما هو يا إبنتي

- أن يعاشرها قبل أن يقوم بإجراء العملية

- وماذا يكون رد الفتاة ..

- طبعاً بتوافق لأنه في أغلب الحالات يكون هناك عريس ينتظرها عند باب أبيها ..

- وطبعاً هذا العريس لا يعلم شيئاً ..

- طبعاً طبعاً ..

- المهم أن تتوب تلك الفتاة وألا تعود إلى تلك الأفعال التي كانت تقوم بها قبل الزواج ..
- المفروض أن يحدث ذلك ..
- الفعل شيء والمفروض شيء يختلف .. المجتمع مفتوح .. نحن الآن بسبب العلم يتضرر المجتمع .. رغم أن المجتمع يحاول أن يعالج مشكلة عند العلم ،، ولولا العلم الذي يقدم مثل هذا العلاج لما تركت كثيراً من الفتيات أنفسهن للرجال..
- تريد أن تقول أن العلم أحياناً يجعل الناس يقدمون على فعل أشياء ضد الدين..
- بالطبع هذا واضح .. ليس كل وسائل العلم أو غايته تقيم الدين، ولكن في كثير من الأحيان يستخدم العلم ضد الدين، وأن علاج العلم يجعل الناس تعترف الكثير من الموبقات لأن العلم سيعالجها فيما بعد .. وعليه فإن دائرة الإضرار بالآخرين تتسع بسبب العلم ..
- العقل البشري الفردي استخدامه المطلق يؤدي إلى هلاك البشر ،
- ويؤدي إلى إنفاسخ المجتمعات والإضرار بأديانها ..
- يعني بسبب العلم الناس تعيش في بوهيمية ثم يضعون حداً لهذه البوهيمية لكي يبدأوا حياة أخرى جديدة .. إذا العلم يساعد الناس على البدء في حياة جديدة ولكنه لا يقيم حياة جديدة بالتأكيد ..
- وإنه يجعل الناس يتفقون مع أنفسهم على فعل أشياء مخلة بالدين والأخلاق والمجتمع .. لأن كثيراً من الرجال في هذا العصر لا يتزوجون من عذاري حقيقات ..
- كل الناس تعرف هذه الحقائق ، في المدينة والريف والبادية .. والناس تعيش ..
- إنه المجتمع والمصالح الفردية تهزم مصلحة الجماعة .. مثل عيب النظام الرأسمالي عيبه الفردية ...حتى المجتمع الاشتراكي لقد سقط بسبب الفردية .. ومن أجل هذا لن يتحقق العدل والحرية والديمقراطية

للإنسان لأن هناك فردية ، ولا توجد مصلحة المجتمع والناس لتحقيق هذه المفردات في أي نظام ابتدعه الإنسان، إنها توجد في الدين فقط والناس جميعاً يخافون من الدين ويفرون إلى الفردية لتحقيق مصالحهم فقط .. ولذلك فأنت تجدين أغلب الذين يملكون المصانع والمعامل والعقارات في البلدة كانوا فقراء قبل الحرب .. لماذا ذهبوا إلى الرأسمالية لأنها ملاذهم إنها الفردية، ولماذا لم يذهبوا إلى الاشتراكية هل تعرفين لماذا .. لأنها تضيع وقت .. حيث أنها تؤدي إلى فردية غير طبيعية بمعنى أن الطبقة الحاكمة تنهش أموال وثروات أي شعب بعدها نذهب إلى الرأسمالية لتحقيق الفردية الشخصية .. فالفردية الشخصية أفضل من فردية مجموعة حاكمة أي مجموعة قلة .. فالمجتمع الرأسمالي هو مجتمع اقتصادي يقترب منه كل أفراد المجتمع بأشكال متعددة، لكن فردية الطبقة الحاكمة في النظام الاشتراكي تجعل أفراد المجتمع بعيدين عنها.. لأنهم يصبحون أباطرة تحمل سيوف الدم ..

- لكننا في أي من النظامين لا يتحقق أي من العدل والحرية والديمقراطية ..

- لا يتحقق أي شيء من هذا .. وكلاهما يفرز الصراع الإنساني الرهيب بين الفقر والغنى وبين الخير والشر ..

- إن كل نظام يفرز للمجتمع الإنساني عندما يسقط مجموعة كبيرة من اللصوص الذين يسرقون ثروات شعوبهم .. وكان الشيخ وسلطانة قد سلكا طرقاً ضيقة تؤدي إلى الجبل وهما لا يدریان أن ذلك يعرضهما لقاطع طريق أو أعرابي مخبول يهيم على وجهة .. فقال وهو يحتضنها بذراعة من ظهرها :

- ملعون أبو الاشتراكية والرأسمالية ، أنا لم أطلب منك كل هذا العناء من أجلهما ، فلا تنفعلي من أجل حفنة مارقة تنهب في الأول والآخر أموال شعوبها، إنني أريدك في شيء آخر هام .. قال لها ذلك وهما

- يقفان يتلفتان حولهما واستدار بها ومشيا نحو الطريق الرئيسي ثم
صعدا تبة من الرمال تؤدي بهما إلى طريق يؤدي إلى الدار وقال :
- تعالي يا إبنتي نقعد على هذه الصخرة .. إن حديثي إليك يحتاج أن
نستريح حتى تجيبيني على ما أريد ..
.. وقعدا على صخرة كالمقعد بين كومتَي رمال وقالت مبتسمة سعيدة
باحتراس الشيخ لها وكأنها ستقع من فوق تبة عالية :
- قل يا عمو .. ما الذي تريده بالضبط مني ..
وأخذ ذراعيها بين يديه وقبل كفيها .. قبلات راحت تنهال على جلد
أصابعها الطري كأنه وجه طفل صغير جميل جاء إليه يبتسم فحنا عليه
عطفاً وحباً ودفئاً .. فسعدت لتبتله وإنكفات بشعرها إليه فوضعت أنفها
فوق أنفه في مبادرة منها تهززع فقبلها من وجنتيها غير مصدق أنها
تندفع إليه وتبادلته العاطفة، وكانت خصلات شعرها الأسود الناعم المعطر
مثل شجرة ظليئة انتشر ظلها على الأرض يحمي من آواها مثل خيمة
أعرابي أظلمته وسط الصحراء من حرارة الشمس ورياح الخريف الشديدة
.. وقال الرجل وهو يلتقط أنفاسه من حرارة اللقاء :
- وشعرك المنسدل على كتفك يا إمرأتي لولاه تعدو قبلاتي جوفاء ..
.. وقبّلته من شفتيه في علف فقال :
- ليتني أستريح في أحضانك من تعب الزمان
- أنت يا عمو لست أجيراً حتى تتعب .. إنك صاحب دار الهوى في
الناحية .. فعندك يستريح العالم من عنائه ..
- إنهم يستريحون وصاحب الدار مهود القوى ينام كل أوقات النهار
والليل .. وأنت صحتي منذ أتيتني .. فهل لي مثل خيل كبير
أشتاق .. فهل لي مثل جمال كبير سنمه يشرب من كأس الحليب .. أنا
لي عنفوان وقوة الرجال وطعم القصب .. هات شعرك فوق أنفي مثل
حقول القمح فأنا مفتون بالغناء على فروع الشجر .. كنت أشم السنابل
الخضراء فأنتعش وأجري هناك في آخر حقولنا لأعتلي جذوع النخيل

وألفَّ الجريد الطري بيدي حول خصري .. أنا لست عجوزاً كما
تظنين أتذكرين لقائي معك في فراشي الدفء .. الست قوياً شديداً
كعود الحديد .. لن أطيل الكلام فالكلام يزيد من رقادي .. تعالي إلى
داري .. خذي داري .. ومالي .. خذي كل شيء هناك .. لكن في
آخر الليل تعالي فحاجتي قصوى تنادي .. لأشم السنابل من خديك
وأشرب الحليب من شفثيك وتظلني شجرة التوت في جدائل شعرك
المفروش على كتفك .. إن عمري سيطول يوماً آخر وذهي في قدرة
سيرتني بين ساقك .. إن مهراً لإمرأتي .. أولى به جيدك على أن
تعيدني إلى الحياة بعد أن جف الحبر من مخبرتي، خذي القلم بين
يديك واكتبي شعرا بين نهديك .. ورسالة منثورة للحب في كحل عينيك
لا تجرحي شعوري ولا تخيبي ألمي .. واشتري بالذهب الحرير والقيه
تحت رجلك طريقاً مفروشاً بالورد والريحان مثل القميص يهتف فوق
نهديك .. وحياء عينيك وشعرك المنثور على وجنتيك قومي لعاشق
عجوز إرتمي عند عتبك ..

.. وأخذت سلطانة في أحضانها لما إرتمي عليها برأسه وكأنه نام أو
استكان أو أفرغ بكل ما في جعبته .. لقد اكتفى بما قال فليس شيء آخر
يقال .. وبكت سلطانة بصوت عال وسالت دموعها على رأسه، وعوت
ونحبت كما تفعل القطط والكلاب .. بعدها حاولت أن تحمله لتعود به إلى
الدار فلم تستطع .. وقام هو واستند على ذراعها ومشى بجوارها ولم
ينبس كلاهما بكلمة واحدة حتى عادا إلى النزل ..

.. وفي الدار كان الغناء والصخب والزبائن الداخلون والخارجون وعطر
البنات وريحة النساء وحرس يتمشى بين الرواد وآخر عند العشش وثالث
في مقهى الدار وآخران يراقبان الطرق المؤدية إلى كل باب ..
واستقبلهما منصور الذي كان يقعد عند البوابة ينتظر سيده وأسرها
الولدان إلى أمهما يقبلاتها، لكنهما سرعان ما عادا إلى لهوهما مع شباب
صغير السن في صالة التلفاز، ولما دخل الشيخ وسلطانة الغرفة أمر

منصور بأن يحضر الطباخ الطعام وألا يطرق أحد الباب عليهما فهو محتاج إلى الراحة.. حتى الولدان عليه أن يخبرهما بذلك .. فلا يدخل أحد عليهما عدا الطباخ بعده لا أحد لمدة ساعتين وعليه أن يجلس على المقعد بجانب الباب من الخارج حتى يؤدي تعليمات الشيخ له بكل دقة .. وجلس منصور بعد أن أبلغ الطباخ والولدان بكل ما سمعه ، وكان يكلم نفسه وهو يلف التبغ ويدخن سيجارة بعد أخرى ويقتل شارببيه لأعلى : ياتهار أسود الراحل مصحصح وهو بيقول الأوامر .. يا ترى بيعمل أيه .. صحيح من حكم في مالة ما ظلم .. يخرب بيت أمك يا فوزي .. راجل كبير وشايب لكن قادر .. يا قلة بختك وخيبتك يا منصور حتى الطباخة مش عاجبها ..

وعلى فرشة العجوز انحنى عليه المرأة الشابة تقبله في وجهة وبديه .. كانت تتمحلس وهي تقبله كأن خادمة تقبل سيدها كي يرضى عنها أو تشكره لفضله عليها .. فقال لها الشيخ بعد أن أشبعته تلك القبلات :

- ليست هذه قبلاتك .. فأنا لست سيدا لك .. أنت من طبقتي وأنا منك .. فلا سيد ولا مسود .. إنني في حاجة إلى قبلات امرأة لرجل .. مثلما فعلت من قبل .. إن الذهب لك إذا كنت معي امرأة .. أنا في حاجة إلى امرأة قدرها ألف امرأة من المدينة .. أجيبيني ما حييت .. هذا الزرع الجاف إجعليه نضراً يا نعا لست في حاجة إلى قبلات من فضل له على أحد .. أعطيني الحب أعطيك الحياة .. إمنحيني نفسك أمنحك الذهب ولا زيادة فخجلت سلطانة وعقصت شعرها المنكوش على وجهه ثم ارتمت على صدره واحتضنته بقوة وقالت بصوت مكتوم :

- أيكفيك أن أحترق فيك
- لا تحترقي .. أريد أن أعرفك أكثر .. أدخلني نفسك في نفسي ..
- ينقلني حبك من عجريتني ..
- وأنا بدوي

- والقصور ونسائها ..
- كنت مثل العبيد فيها ..
- ألم تكن جليساً وونيساً لأصداً ما وصاحباتها في الزمن القديم ..
- أقول فقط كلامي الرقيق والامس الحرير وليس لي .. وأرى السيقان والصدور العارية فأغمض عيني وأخدع نفسي لأني فقير ولن أزيد ..
- كنت عبداً راقياً فوق العبيد ..
- كنت شاباً يافعاً وقتها ألم تهواك امرأة في طول السنين ..
- هي امرأة واحدة ولما أخذتها من قصرهم عاشت معي شهوراً ..
- بعدها عشقت أباك كما علمت وتعرفين ..

وخلعت ثيابها الثقيلة وقالت له خذني إن استطعت بكل ما أوتيت من شعور فالبحر العاصف في نفسي المحدودة لم تعد له جسور .. وسوف أغني في مرقصك أغنية أبدية .. آه لو تعرفون أنني كنت يوماً عاشقة .. وعشيقتي رجل عجوز .. كان له في عمره شباباً وكنوز ولكنه لم يرتو حينها .. كن يعاملنه على أنه شاعر وفيلسوف ومجنون .. كان ينحني للنساء في القصور ويحكي بين رجالهن بكلام معسول .. كان مثل ماسح الجوخ يكفيه إعجابهن بلسانه ودراهم منهن وقروش .. وفي نهاية ذلك الزمان وذاك الغنى خلص منهن بامرأة حلوة يختلط بعينيها ماء البحر الأبيض ولون الزيتون، بني لها بيتاً هو جزء من هذا النزل ، فلما أخذها إلى صديقه العراف المشهور اغتصبها منه وراحت إليه كجارية تنشد الحرية بين بيوت العامة معتوقة مرة أخرى من دار فوزي المتاخمة للمدينة إلى كهف في الجبل مهجور .. كان يسكنه وقتها رجل عراف مشهور .. كان نساء العجر حينها يسمونه بالرجل الشمروخ فلم يعتق منهن واحدة شابة أو عجوز .. وهكذا الزمان ينطوي .. لا إنه يطوينا .. ما فعله العراف في زوجته زمانها .. اليوم صاحب الزوجة مهما طال عمره يأتيه في إبنته وهكذا الزمان يطوينا ولا ينطوي .. هكذا قالت لنفسها وأيقنت أن كل شيء سلف، ولما انتهت بها الرجل للمرة الثانية

كانت تريد أن تقول لة الكثير فأحكمت الغطاء حولة وربت على صدره
وجالت بعينها إليه فتبين كأنه نائم فوضعت كفها على جنبه وقالت :
- أنت تعب ..

فهز رأسه وأمسك بكفها وقربه من فمه وقبله قائلاً :

- ضعي كفك على رأسي إن فيها نباحاً

ففعلت وقالت في صوت خفيض مشفقة عليه :

- يجب ألا .. ألا تفعل .. إنك تتعب بعدها ..

.. مد يده وأمسك بكتفها وقال راجياً :

- لا أرجوك .. إنها آخر الحياة ..

- ولكن هذا حرام .. وأنا امرأة هجالة على ولدين وليس لي في الدنيا

شيء .. كنت أريد أن أقول ..

.. إستضافتك لنا كل هذه الأيام تكفي وهذا كثير علينا .. ويجب أن

نرحل ..

- فأغض عينيه وضغط بأصابعه على كتفها وقال :

- أريد أن أكفر عن هذا الحرام .. كل الحرام الذي مازلت أفعله ..

- إذا كنت صادقاً فافعل ..

ومد يده إليها لتشدّه حتى يضطجع ، وكورت له المخدة حتى يسند ظهره

عليها :

- إن بعدي عن الحرام في يديك

- كيف ؟

- تزوجيني .. فإنني لا أستطيع أن أتوب وأنت في هذا النزل

- والناس هناك وأقاربك ماذا يقولون .. إنهم قد يقدمون على قتلي ..

- أي ناس .. لا يهمني الناس أو أقاربي .. إن أحداً لا يستطيع أن يفعل

ما تظنين .. إنهم جميعاً هنا رجالاً أو نساءً تحت إمرتي ..

- أقصد أنهم قد يفعلوا أشياء تؤذيني أو حتى تؤذيك خاصة وأنهم

يعرفون أنك تملك ثروة كبيرة.

- إن فضلي كبير على هؤلاء الناس .. لقد جمعتهم من أوكارهم التي كانوا يعيشون فيها وأقمت لهم حياة كريمة وإن أحداً لا يجروء حتى أن يمانع زواجي بك ..
- أنا مستعدة أن أفعل لك ما لا تفعله امرأة لرجل مثلك .. ولكن الضمانات .. الضمانات الحقيقية لكي أبقى هنا .. وأتزوجك ..
- أوضحي ماذا تريدن .. وسوف أوافق على كل طلباتك ..
- الأمان .. وانحنيت عليه كالتي تغرق رأسها في قدر من الفخار .. فاحتضن رأسها بذراعه الواهن فاهتزت فوقه لما أخذت تبكي كأنها تشكره على صنيعه لها .. ولما أخذ يربت على ظهرها حتى يهدئ من روعها إنهمكت في بكائها وروت دموعها عبايته .. فقال مكرراً نداءه:
- أرجوك .. أن توافقي على بقائك هنا بصفة نهائية ولك ما تريدن .. فقامت إليه بوجهها قائلة .. صحيح يا عمو .. صحيح .. ووقعت برأسها فوق وجهه تقبلة وتغمس وجهها المبلول بالدموع الغزيرة فامتلاً وجه الرجل بالزفرات وكأنه هو الذي يبكي .. وقال :
- إهدئي .. لا تنفعلي .. أعذر لك يا إبنتي عن الذي يبكيك مني .. إنني أكرر وأقول .. سوف يكون لك ما تطلبين ..
- لا :- لا أريد شيئاً في الدنيا غير أنت .. حبك يكفيني يا عمو .. ولأنت بجواره تحت الغطاء ووضعت رأسها فوق صدره وسكتت قليلاً ومسحت دموعها في جلبابة ولم ينبس الرجل بكلمة فقالت له :
- هل تضع الذهب هنا ..
- في الغرفة الداخلية بعد الستارة التي هناك .. وأشار بيده إلى الخلف ..
- هل يعرفها أحد ؟
- إنه يعرفون فقط أن في هذه الغرفة متاعي ..
- كم كيلو يا عمو ..
- لم أزنه ولكنه كثير ..

- منذ متي وأنت يا عمو تكنز الذهب ..
 - منذ خمسة عشرة عاماً .. كل إيرالـه الدار أحوله إلى ذهب ..
 - من الذي يغيره لك يا عمو
 - لا أحد .. إنني أرسل في طلب الصانغ إلى هنا .. يأتي بذهبه وآخذ ما أريد ..
 - أمن حقي أن أراه ..
 - كم الساعة يا إبنتي
 - الثالثة صباحاً ..
 - الوقت مناسب خذي يدي حتى أقف ..
- ووقف مستنداً إليها ثم قال لها .. إذهبي بي إلى تلك الستارة .. وأشار بيده نحوها .. فأخذته إليها وكان الرجل يهرول ولما كشف الستارة كانت تخفي فوهة في الجدار تؤدي إلى ممر كلما مشيت فيه تأخذك الأرض إلى تحت كأنك تختفي ، وسارت معه في سرداب مظلم فلما التفتت خلفها لم ترى الستارة التي بدأت منها فايقنت أنها والرجل قد نزلا في أعماق بطن الأرض .. ثم ظهر على اليمين فتحة أخرى من الحجر كأنها شقت من صخر الجبل فدخلا فيها وتجاوزاها حتى باب آخر صغير مغلق من الصخر مثل سابقة لكنه مثل الحديد الصدئ وكان طبقة سميكة من غبار قديم قد كسته .. وأمسك بذراعها وقال هامساً :
- لا تتكلمي واسمعي فقط ولا تسأليني عن شيء حتى نخرج من هنا..
 - يا هفها يا سيدي آه بنهتهم فلا تستطيعون ردها ولا هم ينطقون ..
 - وأخذ الرجل يكررها .. ووقع شيء مثل كوب .. وقع على الأرض وإنكسر .. وترك يدها ثم تقدم خطوات وتركها وهي ترتعش .. وانحنى نحو الأرض وتناول شيئاً ثم قال وهو يمد ذراعه وראה تعالى .. لا تتكلمي .. وكانت تريد أن تقول له كفى أرجوك أريد أن أعود .. إنني أموت من الخوف .. دعني أريد شيئاً .. ولكنها لم تستطيع أن تنبس ببنت شفة ثم توقف ثانية وترك يدها وتقدم نحو حائط حجري ورفع يده لأعلى

في الحائط كمن يفتح باباً أو نافذة .. وشد بيده ضلفة حديدية خرجت من الجدار بصعوبة ثم ارتقى حجراً وقال :

- تعالي ..

فلما أتنه أمسك بها من كتفها ثم نطق قائلاً :

- قفي معي على الحجر .. فوقفت بجانبه .. ثم أردف .. أترين شيئاً .. نعم إنني أرى زلعات ثلاث مثل التي كانت تملأها الجذات جنباً قديماً .. أو كالتى تذهب بها البنات إلى البحر لتملأها ماءً .. فقال وهو يضمها إليه في دفء وكأنه يودعها سرّاً كبيراً .. هذه زلعات ملأتها البنات في الزمن القديم من عرق هذه البلدة التي تقبع تحت هذه الصخور .. منذ ما يقرب من نصف قرن .. كنت حينها في العشرينات من عمري .. هل تستطيعين أن ترفعي معي واحدة .. ومدت ذراعيها ورفعت قبالتها فلم يستطيعا أن يحركاها فقال :

- طبعاً إنها ثقيلة لا يحملها رجلان شابان .. سوف نأخذ منها ..

- كيف ..

- جوال .. ليس هنا أي جوال ..

- هل أخلع ثوبي لنأخذ فيه يا عمو ..

- والبرد ..

- إنني أشعر بدفء شديد يا عمو لا تخف علي ..

وخلعت ثوبها وربطت فتحته العليا بأكمامه .. وقدمته جوالاً يسع الكثير من الذهب .. وأمسكت بطرفيه واقتربت من فوهة الزلعة وقالت والسعادة تكاد تنفطر من قلبها :

- هات يا عمو ..

وأخذ الرجل يغرف الذهب بكف يده ويضع في جراب سلطانة حتى قالت :

- لقد أصبح ثقيلاً يا عمو ..

وأغلق فوهة الزلعة وقفل الضلفة الحديدية في الحائط، وكان النور ضئيلاً خافتاً بعد أن تركا العرقوب الذي يقع فيه الكنز ، وكان الشيخ يمشي على

مهمل معتمدا على نفسه وهي مشغولة بحمل بقجة الذهب التي لا يقل وزنها عن عشرة كيلو جرام وتعثر في عتبة حجرية فبعثت صرخة حادة كأن أحداً سيخطف منها الذهب وتهدجت أنفاس الرجل وكانت تشهق من أجله وتدعوه أن يستمر في السير حتى يصل .. وفي صندوقها الخشبي وضعت مهرها تحت أغراضها وقفلت بقفل صغير وراحت إليه تحتضنه بصدرها الحنون ممتنة شاكرة وتركها تحتضنه وتغمره بقبلاتها ولما انتهت وسكنت برأسها فوق صدره قال :

- هذا مهرك ..

- يا عمري كله .. هل تريدني ثانية ؟

- ليتني أستطيع .. "إن نفسي تمتلئ بهذه الرغبة .. كما تشتهي أي نفس وبلا حدود .. لكن الجسد لا يمتلك أية قوة حتى أفعل .. غير أنني هادئ ومستريح ..

- متى سنتزوج ؟

- آه يا إبنتي يكفيني سعادتي بهذا السؤال .. متى نتزوج .. إذا هذه رغبتك ..

- ولم لا .. إنني أجد الأمان في أحضانك والمستقبل في دارك .. ولكن هل تمنع بعد الزواج في عمل تحسينات بالنزل ليصبح ملهى على مستوى رفيع .. لأن طموحي لا حد له وحتى تصب المدينة كلها هنا .. كنت أريد أن أذهب إلى المدينة لأراها ولسوف أتى بها عن بكرة أبيها لتراني أنا .. أتوافق .. وسكت الرجل قليلاً وقال :

- كم يتكلف هذا الملهى الذي تبغينه ..

- لا أعرف ولكن .. أنا مستعدة لأن أبيع كل مهري منك في سبيله ..

- لا هذا لك .. إن زلعة واحدة تكفي لهذا الغرض ..

- آه يا عموا آه .. هكذا أنا عزيزة عليك ..

- أنت حياتي آخر العمر ..

- وهل تمنع في أن أكون راقصة الملهى الأولى ..

- فشهى الرجل وانعدل في رقدته قليلاً وقال :
- كيف هذا .. ستكونين محل أنظار الذئاب ..
 - لا تخف علي أنت لا تعرف سلطنة .. ووقتها فأنا زوجة ملك الجبل فوزي رزونة على سن ورمح ..
 - وكيف أضمن ذلك ..
 - الضمان عندي كلمة ..
 - كنت أريد أن أقول .. هل تراعين الله في ؟ .. ولكنني يجب أن لا أقول لك هذا الرجاء حيث أن كل أعمالي ليس فيها مراعاة لله ..
 - وهكذا تكون المجتمع .. مجتمع المدينة وما حولها .. تكون دون مراعاة الله ..
 - لقد خلق الله الدين في داخلنا حتى يحافظ كل منا على الآخر ليصبح المجتمع في النهاية مجتمعاً قريباً من الخير لكننا جميعاً جرحنا هذا المكنون الساكن في داخل كل منا ..
 - يا عمو أنا لا أفهم في الفلسفة .. ولكن دعني أقل لك شيئاً هاماً في هذا النزل .. ولكن قبل أن أتكم .. هل تريد حقاً أن تقترب ولو قليلاً من الله ..
 - نعم والله أريد أن أفعل .. يا ابنتي ثم سكت ورفع نفسه لأعلى واضطجع ثم أردف يقول :
 - لقد قرأت كل كتب الأديان ومن الكتب الأخرى قرأت ما كان كفيلاً بالحصول على أكثر من دكتوراة .. عرفت كل شيء أو كثير منها من علوم الدين والدنيا .. ولكنني أأسف على حياتي لأنني نلت قدراً كبيراً من الثقافة ولم أحصل على أية شهادة تعليمية ، والأسف الآخر الشديد أنني عرفت الله علماً ولم أراع في أعمالي حقوقه .. لقد كانت كل أعمالي حقيرة متدنية في القصور وما بعد القصور وها أنذا منذ عشرين عاماً .. إنني أدعو الناس أن يخرجوا من ملابسهم ويتعروا وأفتح لهم داري لأن يقتربوا كل الموبقات .. كل واحد من المدينة أو

- الجبل أو أية ضاحية يأتي إلى هنا ليرمي بزبالته بدنسه ووقاحتته ثم يذهب وأنا في الطين .. وكلما يمر الزمن بي أنزل إلى تحت .. إلى تحت .. لأن هذه أعمالي .. وسكت الرجل وهو يعض بأسنانه إصبعه.. فقالت له تشجعه على أن يقترب من الخير كما يتمنى :
- أهناك أي مانع لديك أن يتم هدم العشش .. عشش الغرام في التجديدات التي ستتم ..
- ولكنها تأتي بالمال الكثير .. الذهب يا سلطنة ..
- إذا فأنت لا تريد أن تقترب من الله .. إنني أرى أنه يكفي أن يكون ملهي على مستوى عال فقط ، وكل واحد من الناس يرمي بقرفه برة ولا داعي لهذه الغرف ..
- ألم أخبرك بفائدة هذه الغرف .. لها فلسفة نابعة من عمق المجتمع الاشتراكي
- أعتقد أن هذا الذهب يكفي ..
- لا أعنى الذهب في المقام الأول .. إنها نوافذ كي يتنفس الناس منها ويستريحوا ..
- إذا أردت أن تبلغ كثيرا في الخير ابن مستشفى ..
- لست أبلها إلى هذا الحد .. لا أحد يستحق ..
- ألم تأت الاشتراكية من أجل الفقراء ؟
- لم ينفعني أحد لما كنت فقيراً .. أرجوك يا ابنتي أنني لا أستطيع أن أفعل .. أنا بيئة .. الواحد منا بيئة .. وسكت ..
- إذا أنت يا عمو .. تعلم كل شيء عن الناس ولكنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً من أجلهم بل الأدهى من ذلك أنك تعرف الأديان كلها وما تدعو إليه ولا تستطيع أن تفعل شيئاً واحداً بوازع من نفسك.. إذا أنت بعيد عن الاشتراكية رغم أنك اشتراكي ..

- أنا صنف من الناس .. لست مثل سلامة المصري الذي خرج من القصر الكبير ليشتري أبراجاً ويقدمها للفقراء بأسعار رمزية .. أنا لست داعية يا سلطنة ..
- سلامة المصري ..؟ يا لهوي ..
- نعم .. ألم تسمعي عنة .. إن هذا الرجل يغرفني وأنا أعرفه ، لقد ساعدتهم كثيراً أيام الحرب وكنت آوى في داري هنا كثيراً من المناضلين، وساعدتهم بالمال أيضاً .. إنه لن ينسى جميلي معهم .. على فكرة يا ابنتي هذا الرجل غريب .. ليس من هنا إن مهاجر من دولة أخرى وكان زوجاً للأميرة نيروز .. إنني أعرف تاريخ المدينة كلها .. وكانت السيدة حميدة فودة التي يطلقون عليها أم المدينة والتي ماتت منذ عام قد أهدقت عليه أموالاً كثيرة لأنه كان زوجاً لابنتها الأميرة .. تزوجها سلامة في وقت لم يكن هناك شاب في المدينة يليق بها.. أما الآن وخاصة لما ماتت هذه السيدة فلقد هجر سلامة حياة القصور ويقولون أنه ترك الأميرة أيضاً بعد أن دخلت في السياسة وذهبت إلى حاكم البلاد وعاشت في قصره هناك أياماً طويلة.. وحاكم البلاد هذا الذي لا تعرفين عنه شيئاً يشاع أنه أرسل إليها ليقولها منصباً رفيعاً تصبح فيه كل منطقة الشمال تحت سلطاتها، وطبعاً هذا الحاكم الدموي لا يقلد امرأة شيئاً إلا بعد أن ينالها ويرضى عنها .. وهكذا تسير الأمور من حولنا جميعاً .. عالم واسع كبير يحكمه السلطان والمال والشهوات .. فأين نحن من هذا العالم .. هل تعلمين أنني الآن نفسياً في حاجة لأن تقيمي هذا الملهى بأقصى سرعة وحتى يكون لنا مكان في هذا العالم .. ما الذي تتوقعين .. أن يكون في هذا المكان .. شيدي أرقى ملهى في الشمال كله .. لسوف يكون أكابر البلد هنا جميعاً .. ساعتها سوف يكون لي شأن كبير ..
- ونك شهرة كبيرة كراقصة وعليك أن تتدربي جيداً لأن هناك راقصات على مستوى عال.

.. وتنهدت بشدة وجنحت إلى الصمت وتأرجح رأسها على صدرها وشهدت كما يقول الناس أن الدنيا ضيقة، تلك دائرة قد أحكمت عليها وأن سلامة المصري قد يدخل عليها في أي وقت .. لقد وصل إلى العجوز من قبل أن يراني بسنين طويلة .. ولما نظر إليها وجد كأن النعاس يلفها هكذا تهيأ له خاصة أن ضوء النهار قد بدأ يظهر من خلال زجاج النافذة المطلة على خرابة تفضي إلى مقلب زبالة خاص بالدار .. فقال لها بعد أن تأملها ملياً :

- قومي لترقدي يا ابنتي ..

- لا.. وعدلت رأسها التي مالت على صدرها .. لا إني أسمعك .. وهل سلامة المصري هذا يأتي لزيارتك.

- لا .. إنه لن يأتي لزيارتي أبداً .. لقد جاعني مرة هو ورفاقه أيام الحرب ليسألني عن سلاح ويومها اشترى مني أسلحة كانت عندي أيام كان اللصوص منذ وقت بعيد قد سرقوا من مخازن الجيش الإنجليزي عتاداً هائلاً.. وانعدلت لتسمعه جيداً .. وسكت قليلاً ثم تابع:

.. كنت أتاخر في السلاح واشتريت منهم كمية كبيرة .. وجاعني سلامة يومها ونقدني مبلغاً كبيراً فيه .. حتى الذخيرة والطبنخات والبنادق القديمة بعثها له .. ومن يومها عرفتة وعرفني والتقيت به مرة أخرى بعد الحرب وصافحته أثناء الاحتفال الكبير بالانتصار .. إنه رجل هذا عصرة ولما ترينة تشعري كأنه ابن المدينة .. وبعض الناس يعتبرونه بطل النصر الحقيقي لكنه رجل مدني لا يحب العسكرية ورغم ذلك فهو مناضل كبير .. هذا رأيي فيه .. إنه وليد دولة كان .. وهو خريج حرب أكتوبر العظيم في بلاده

- هل الرفاق معه ..

- أي رفاق لقد اقتسموا جميعاً غنائم ما بعد الحرب معظمهم الآن من كبار الأغنياء .. هم الذين كونوا الرأسمالية التي انتشرت الآن في البلاد .. إنني أعرفهم جميعاً وعلى رأسهم ثروت المناديلي ..
- وهو .. هل أخذ شيئاً من هذه الغنائم ؟ ..
- لا .. لقد كان شبعاناً لأنه خريج أحد القصور الكبيرة وكان غنياً بالمال الذي آل إليه حيث كان زوجاً للأميرة والابن الذي لم تلده السيدة الكبيرة والذي يشاع أن السيدة حميدة فودة أم المدينة قد منحته مالا كثيراً قبل موتها ..
- وأين هو الآن .. أمازال يعيش في القصر ..
- لا .. لقد أقام برجاً كبيراً وجعله لفئات من الناس معظمهم من الفقراء والطبقة المتوسطة بنظام التقسيط المريح جداً وبسعر التكلفة وأظن أنه يعيش فيه ..
- ما اسم البرج وفي أي حي من أحياء المدينة ..
- لو دخلت إلى المدينة في أي وقت وسألت عن برج سلامة المصري لقال لك أي صغير أين هو .. إنه أشهر رجل في المدينة ..
- وكان هناك خليط من المشاعر قد انتابتها فثقلت رأسها وكان شيئاً في نخاعها صرخ وارتمت عليه وقالت في صوت واهن وهي ترتعش محاولة حبس الدموع في عينيها لأنها إن بكّت فسوف تصرخ .. أريد أن أنام نوماً ثقيلاً في أحضائك .. في أحضان رجل مثلك يأخذني عن هذا العالم ..
- .. إنهم جميعاً يعيشون دون شيء يوقظهم ، يريدون أن يندمجوا داخل أنفسهم فقط .. تلك النفس المحدودة المخنوقة من بغيص هذه الحياة ، رغم أن الله خلق لنا الخيال لنخرج من حدود أنفسنا الضيقة، غير أننا لا نريد ونقفل أبواب الخيال وكل النوافذ المؤدية إليه لأننا نريد أن نغمس في اللذة والأثانية والفردية ، إننا لا نريد أن نندهش حتى لا نتغير لنحافظ على المكاسب الحيوانية القريبة من حواسنا .. رغم أن القلق الذي يهددنا

والشعور بعدم الأمان يجب أن يدفعنا للبحث عن شيء يحمينا .. إلى قوة كبيرة خارج حدودنا الضيقة لتنتشلنا من ضعفنا .. إننا لا نريد أن نفيق حتى فرادى .. ولكننا ننغمس جماعة وجماعات وفي كل وقت إلى تحت .. ألم يخلق الله لنا جميعاً قدراً من الخيال للتأمل قليلاً في هذا الواقع المحدود .. إننا بأقل قدر من الخيال نستطيع أن نلوذ بالدين الذي أرسله الله إلى الأرض ليحمينا في دنيانا من هذا الضعف، لأن ضعف الناس في الواقع يؤدي بنا جميعاً إلى أن نعيش واقعاً سافلاً ومنحطاً .. إنه لا بد من السنتين حتى نحافظ على المجتمع الإنساني كله من الإتحدار .. إن كل شيء في الدين ينمو ويكون فاضلاً .. ولكن كيف وأنا رجل عجوز باق له خطوة واحدة بعدها القبر .. كيف أقول كل هذه الكلمات الجميلة وأتردي في الحرام .. أليس هذا زنا .. إنني أفتح أبواب داري ليأتي إليها الناس كي يزنوا من أجل المال والذهب .. أم أن هذه العقدة في نفسي المريضة .. هل أنا ديوس ، وأن حياتي التي إمتلأت أثناء حياتي في القصور بالإنفاق والاحناء والسكوت هي التي جعلت مني أخيراً فوزي رزونة صاحب هذه الدار .. إنني أجمع كل الأعمال المنحطة في مكان واحد .. وأجعل كل واحد من هؤلاء يرمي بنفاياته في مقلب الزبالة هذا الذي صنعتته في داري .. ألا أصحو قبل قبري وهل يفعل الذهب شيئاً من أجلي بعد موتي .. إن لم يفعل أي شيء في حياتي فكيف يفعل بعد موتي .. لم لا أتخلص من كل تلك النفس العريضة مرة واحدة .. أو واحدة بعد الأخرى .. لماذا أرضي أن أعيش كلباً وأموت كلباً ..

.. وكان قلبه الواهن الضعيف يكاد يتمزق من هول حياته التي حيكتها بإرادته هذه التي كانت دوماً بين الترددي في واقع مرذول وآمال في الرأس بل وأفكار واجبة أن تكون، لقد عرف كل ما قاله الله في كتابه ولم يفعل واحدة منها في حياته .. فطمست غيبوبته حياته وختمها بهذه الدار، فلم يصلح أبداً ولم يصم ولم يساعد فقيراً ، وكل ما فعله أنه قام بلم شمل مجموعة من اللصوص والمتسكعين كانوا يجوبون هذه المنطقة ليلاً

ونهاراً بحثاً عن الكسب الحرام بالسطو والقتل وفعل الحرام، وجعلهم جميعاً قوادين في هذه الدار يأمنون على رزقهم في مكائهم ولكنهم جميعاً يعملون في وكر يجلب جميع الذين في قلوبهم مرض ..
.. وعدل رأسها حتى نامت على صدره .. أنزلها على المخذة وغطاها وقال بصوت مسموع يحتقر نفسه :

- مرقص وعشش ودعارة وآوى في داري كل مشبوبة وذهب مكنوز في دهليز مظلم .. هو حق لكل فقير ومسكين في تلك المدينة التي تحت .. وعجربة إبنة عراف في زمان ملأ الدنيا خرافات وضحكا على عقول النساء ليقعن في النهاية على هول شمروخه ولم يشبع في يوم حتى أنه كان على فراش مرضة الأخير يدعوني أن آت له بالنساء حتى يظل يتمتع برغباته لآخر نفس في حياته .. أنا من سلالة هذا الرجل وابن هذه المدينة ، وهذه إبنته مهرها من ذهب جمعت من عرق سيقان النساء، كيف يدخل الصلاح إلى قلب معطوب، وعقل لم توقظه قراءات في علوم الدنيا والدين ، ألا يوجد في المدينة أو حولها رجل ينهائي .. إنني أتمنى ملك صالح يقيم المشائق لأمثالي حتى ينشد الرجال مقصداً حسناً في حياتهم وألا تخرج امرأة من بيت لتلتقي برجل .. إن الناس في المدينة كلها مثلي وإن كثيراً منهم لو أتاهم المال لأقاموا داراً مثل داري .. لا أحد في المدينة يبصر والذين يبصرون قليلون ولا يستطيعون .. إن رجال الدين فقراء ومساكين يتكلمون كثيراً ويوعظون لكنهم يتسولون دراهم من أغنياء فاسقين .. ولولا هذه الدراهم لخرجت نساؤهن وبناتهن إلى الشوارع يتسكنن مثل ما يحدث لكل بيوتات المحتاجين .. حتى سلامة المصري كان فاسقاً ولكن بشكل جميل .. إنه الآن يتوب ولكن بعد أن تمرغ في القصور .. آه والله كان لهذا الرجل أعمال طيبة وبطولات في الحرب وتحريره للعبيد أمثال برهوم .. أظن أن سلامة هذا يبحث عن حل يسعد الناس في حياتهم ويزيد الأرض نوراً .. لماذا لا أفعل مثله .. قد

يفتح الله على وينفذ النور بعد الظلام .. لما لا تكون داراً أخرى غير هذه الدار ..

ونام الرجل نوماً عميقاً حتى اقترب الليل من النهار .. أما هي فقد استيقظت قبله ونقدت مندوب مشتريات الدار ويدعي عبده الكبش ليشتري لها سلسلة حديدية كالتي يجر بها الثور عامود الساقية وقفلاً كبيراً ومسامير لزوم ربط الصندوق الذي تحفظ فيه بأموالها وذهبها في حلقة حديدية دقت في الأرض بجوار فراشها.. وكان الصبيان ولداها قد تعودا العمل في الدار كمساعدة الطباخين أو تنظيف الكراسي والطاولات التي يقعد عليها الزبائن وأحياناً يذهبان إلى المدينة مع مندوب المشتريات الذي يعاود البلدة كل يوم ليشتري حاجات الدار من بقالة ومؤن وخضر وفاكهة .. وفي الليل يقضيان بعضه في مشاهدة التلفاز أو اللعب بورق الكوتشينة مع صبية مثلهن وبقية وقتهم يستمتعان بمشاهدة الرقصات والاستماع إلى المغنيات في صالة المرقص، وظلت سلطنة أياماً وليالي تفكر كيف تبلغ الشيخ بأحداثها مع سلامة المصري. وهل في هذا الأمر ما يغضب الرجل .. إنها في حاجة إلى كسبه حتى النهاية لتمتلك كل شيء بعد ذلك تنتظر موته .. والمشكلة إذا انقلب الرجل عليها وأخذ صناديقها بواسطة رجاله من الحرس .. إنهم جميعاً يحسدونها على المكانة التي وصلت إليها مع شيخهم .. إنها ترى كل معنى في عيونهم وهمساتهم وأحاديثهم التي كان ينقل بعضها ولداها لما كانا يسمعان شيئاً بالصدفة أو يتنصتان على أحد يقلب في سيرة أمهما .. إن هؤلاء الرجال والنساء الذين يعملون في هذه الدار سينتقمون منها بقوة إذا إنقلب عليها كبيرهم .. إذا فكيف تضمن عدم حدوث هذا عندما تخبره بكل أحداثها مع سلامة، خاصة أنها تريد الطلاق منه حتى تتزوجه وتكون العلاقة صحيحة وقوية وعلمانية أمام الجميع .. بعد ذلك تستطيع أن تدعم وتسيطر على كل شيء.. وراحت تطيعة وتظهر له اللطف والود والحنان وهو مالم يره في حياته ، حتى أنها قالت له في يوم أنه كالملك ولا يقل عن أصحاب

القصور شيناً، وأن مملكته هذه ليس كمثله مملكة أخرى .. موقعها وناسها .. وهو بارادته وسلطانه على العاملين جميعاً .. حتى أوصلته إلى أنه فعلاً مثل الملك فإزداد الرجل ثقة وشعر بحيوية وانتصب عوده كأن عمره قد نقص .. وبدأ الدم يجري في عروقه كما يجري الماء بين أعواد الأرز فتفتتح حباته وتنتصب سنابلها .. إلى أن جاءت ليلة وهي كذلك له أعضاء جسده أشبعته فيها كلاماً معسولاً وأكثر من كلمة يا عمو .. تقولها في دعة ودلال وقال الرجل لما زادته منها وتمكنت من أحياء جسده بين أصابعها الطرية البضة الحارة .. إحكي وقولي .. ولا تجعلني من حديثك إلى أغنية يسمعون الآخرون ويحكونها ويجعلوها طريقاً إليك .. فقالت له بعد أن وثقت أنه أصبح في حكم إرادتها :

- إن الناس عندي لا شيء .. وأنت العالم لدي يا حبيب القلب

- قد يعرفوا الحب عنا فيكرهونا ويحقدوا علينا

- إنهم يمرحون ويتسامرون وهم عبيد . فكيف للملك أن يغار أو يخاف من الرقيق ..

- أنا أعرف الناس عنك .. إنهم فقط يتونسون .. يتجرعون الكأس يجارون ..

- والعشش التي هناك ومئات اللقا .. إنهم يا حبيبي مثلنا يتمتعون ..

- وإن صدقت .. فالرجال هناك لا يسمعون كلامك .. إن النساء هناك لا يتكلمون

- وكيف لإمرأة لا تغني في الهوى وهو صنيعة ..

- كلامهن ليس مثل كلامك إنهن بائعات للهوى يقتلن كلاماً رخيصاً يطير في الهواء ولا يدوم .. إنهن يتصنعن كلاماً مثل كلامك ..

- إنست تعرف يا سيد الناس أنني حافظة لجميلك وحبك وتقديرك لي ولكن .. وسكتت ..

- ولكن ماذا ..

- أنه يجب أن تعرف شيئاً عني يحول بيني وبين زواجي منك ..

- ألم أعطك مهراً مثل مهر الأغنياء ..

- ليس المهر ولكن أنا .. أنا زوجة لرجل آخر ..
- فقام الرجل وانتصب واقفاً .. واندحشت سلطنة للقوة التي أنته فجأة .. وقال ..
- يا نهار إسود ؟. يعني أنا زاني ..
- فقامت إليه وأمسكت يده فارتعشت بين كفيها وقالت على سبيل الشفقة وضغطت على ذراعه :
- مهلاً يا عمو .. إن العالم كله يزني ولا أحد يثنية عن فعله ما لم تنته أخلاقه .. ماذا جرى يا عمو .. أقعد .. فقعد .. وأردفت تقول كمن تقنعه بأنه لا مبرر لغضب أو إنفعال :
- لك أن تثور وتغضب إذا كنت عبداً شكوراً مع الله .. أو أنني جعلتك تزني لأول مرة في حياتك فذلك شيء ليس غريباً عليك .. يا عمو أرجوك خذ الأمر بواقعية وهدوء فأنت رجل مثل عامة الناس هنا لا يعرفون الله حق المعرفة .. إن الحيطان في بيتك تزني والمقاعد والكنوس حتى حصير الأرض يبكي على الفجور .. أرجوك فإن زوجي من أهل القصور .. فلا تبتس ولا تحزن فإني زوجة ولست غانية ودعني أكمل وأقول ..
- قولي يا سلطنة .. معذرة فإن التقوى في قلبي رياء وكذب بلا حدود ..
- وحكت له كل شيء عن زواجها بسلامة المصري وكيف عاش معها أياماً وليال وحتى هجرها ولم يعد .. ولما سألتها هل هوائه أو عالمه كبير لدرجة أنه ينسى أن له زوجة في الجبل قال وهو يضرب كفاً بالآخر :
- إن عالمه أكبر من ذلك حتى لو تزوج من كل نساء الجبل الجميلات ..
- ويبدو أنه تزوجك لما كان في ثورة عارمة من شيء ما، أو كان في جولة مع نفسه كي يعدها للتمرد على العالم الغني كله .. فوجدك في طريقة وعملها .. بعدها كأن لم يفعل شيئاً .. لقد بنى له عالماً آخر وكأنه يعيش في صومعة مع أناسه الجدد ..
- خلصني منه .. أنت تعرفه جيداً .. إنها أقل قواعد الأصول في الدين ألا يتزوج رجل من امرأة وهي على ذمة رجل آخر ..

- إن ذلك سيوقعني في مشاكل كثيرة وعلى أن أتجنب بأس هذا الرجل ..
- أريد أن أعيش مستوراً حتى ينقضى أجلي .. فأنا لست على استعداد لأن أحارب قطرة ..
- أفهم من هذا أنك لا تريد أن تتزوجني ..
- لماذا لا نتزوج سراً دون أن يعلم أحد ...
- إن الدين يقول ينبغي ألا يتزوج رجل من امرأة وهي زوجة لرجل آخر، أو أنه ممنوع أن تجمع المرأة بين رجلين .. وهذا ما قلته ..
- إن أحداً لن يعلم شيئاً .. وماذا تريدان لقد أعطيتك ما لا يكفي لبناء بنائيتين.
- إنني أريد أن أقرب من ديني .. لقد حدثتني كثيراً عنه فكيف تكون عارفاً به ولا تطبق مبادئه ..
- أليست هذه هي الغفلة الحقيقية .. أنت لست جاهلاً يا عمو ... من حقي الآن أن أغضب منك وأذهب إلى المدينة ..
- فرفع ذراعه نحوها صائحاً :
- لا .. لا مدينة إيه. وسكت هنيهة وقال:
- سوف تجديه هناك ..
- هذا طبيعي أن أذهب إلى زوجي لأعيش معه ..
- لن يفتح لك ملهى أو يجعلك ترقصين ..
- وماذا تريد المرأة غير أن تعيش في كنف رجل وتلد الأطفال ..
- إنه لن يعطيك مالا .. فهو الذي يتصرف في ماله .. لن تكوني إلا خادمة ..
- ولماذا لا أكون زوجة مثالية بالعيش معاً وما الزوجة إلا خادمة
- إذا أعيدى الذهب وأذهبي إليه ..
- خذ الذهب .. إنني لا أستطيع أن أكون لك عشيقة أبداً مهما كان الذهب .. صدقتي إن الدين يقترب من نفسي وينقصني أن أعمل به حتى يملأ حياتي كلها ..

- لا تنسى أنك تعشقين الرقص وسوف تأتي المدينة كلها هنا لتراك .. لا تذهبي .. إن كل شيء هنا لك فكيف تعرضي عن النعمة ..
- إذهب إلية وأعرض عليه الأمر ليطلقني إذا كنت تريدني زوجة ..
- دعيني أفكر في حيلة ..
- أنا أريدك وأتمنى أن أبقى هنا لأكون لك كل شيء فأنا أحبك .. قالتها وسكنت ..

.. فأخذها إلية وراح يربت على ظهرها في رفق ..

.. وهكذا نرى الناس في هذا العالم يحاولون تطبيق نصف دينهم ولا يستطيعون تطبيق الدين كله .. وإنهم في محاولاتهم تطبيق بعض الدين لأن هناك مغريات أخرى تشجع على تحقيق هذا النصف .. وإن دار فوزي رزونة بكل أهليها يؤمنون بالمذهب الاشتراكي في محاولة منهم لإرتداء أي درع يحاربون به الإقطاع القديم لأن هذا الإقطاع أذل آباءهم وأجدادهم زمناً طويلاً، وكان الخمر والميسر والزنا سلوكهم وعبادتهم الوحيدة كي يعيشوا ويجمعوا الذهب كل على مستواه ليحققوا في النهاية شيئاً في أنفسهم المنحطة .. ولم يستطع أي واحد منهم أن يخرج من ظنون وبواعث تلك النفس الشريرة .. ولو استطاع أي واحد منهم أن يفلح في ذلك لخرج إلى الدين، ولكنهم جميعاً لا يستطيعون أن يكونوا صالحين ولو أن فرداً صالحاً منهم لأصلح عشرة أفراد .. إن عقل الإنسان وحده لا يصلح شأن أي مجتمع .. والهيئة الإنسانية لابد لها من الأخذ ببواعث الروح حتى لا يمضي البشر وتنزل المصائب، فالذين يملأون بطونهم بأذ أنواع الطعام لو أخذوا قليلاً من البر والعطف والتأمل .. لاقتربوا قليلاً من مبادئ الدين ما كان هناك فقير ولا بائس، ولكن المشكلة في هذه الدار أن كل أهلها وزبائنها من الفقراء والكادحين الذين لسعتهم نار الأغنياء، فاختراروا الخمر والرقص والونسة ليكون لهم مجتمعاً خاصاً قائماً على النزوة واللذة الوقتية، وكان أفضل لهم أن يذهبوا إلى مبدأ واحد من مبادئ الدين، لكن أنفسهم الضعيفة لم تقدر أن تحمل قيمة روحية تحقق الخير للجميع واختاروا طريقاً سهلاً .. هكذا كانت تعرف نجلاء القصر وأبلغت سامح مرجان بذلك

مراراً .. لكن سامح الذي يكتب الشعر للمغنيات والراقصات يقتل أباه في سبيل
لذته وحيوانيته، وهو من الاشتراكيين المتحمسين بأنه لا سبيل لإصلاح
المجتمع إلا بالثورة على كل ما هو إقطاعي أو رأسمالي مهما كانت الدماء
التي تراق في سبيل ذلك .. كان عنيفاً فظاً لا يرحم امرأة في المنزل إلا نالها
وكانت كل امرأة تسبه وتشتمة فلا يشعر ولا يحس ولا يعدل من شخصيته،
وفي ليلة من الليالي لما كان يوصلها إلى بيتها حاول أن يكون مهذباً على غير
عادته معها من قبل، حيث كان يحاول في أي ليلة يقوم بتوصيلها أن يدخل
معها البيت لكنها كانت تمنعه وتعرف أنه حيوان من الداخل وفي هذه الليلة لما
فهم أن نجلاء فتاة رقيقة وأن تربيتها لا تسمح لها بأن تكون مثل أي فتاة
يقابلها في الشارع أو في دار رزونة فقال لها محاولاً أن يكون لطيفاً :
- لماذا تتمنين .. ألسنت امرأة .. ثم أنا شاعرك وأكتب لك كلمات جميلة

معبرة ..

- للأسف كان الشاعر في الزمن القديم يتصف بالأدب والرفقة وكان يعامل
المرأة بلطف، وأنت للأسف شاعر غنائي ولا شك أنك تكتب كلمات حلوة أغنيها
ولكنك للأسف جلف في معاملة النساء وأنت مثل ابن عمي الذي اعتدى على
وأنا صغيرة ومن يومها وأنا لا أحب الرجال، لأن الرجال ليس لديهم غير
الاعتداء كأسلوب مع المرأة .. وأنا لا أقبل العنف وبالتالي لا أقبل الرجال
بصفة عامة ، وقد أقبل أن يحدثني رجل بشكل رقيق .. وكنت أتمنى أن يكون
شاعراً مثلك مهذباً ورقيقاً .. والله إنني أندesh لك لأنك مثل العامة، فهل أنت
كاذب وكيف تكتب مثل هذه الكلمات ..

وكانت العربة تقترب من دارها .. فقال رداً عليها بعد استغراقه في الصمت :
- ليس عندي وقت في أن أتعامل مع امرأة برقة ، وأنا مثلك لقد كانت أُمي
لا تحب أبي وتتعامل معه بفظاظة، في يوم رأيته وهي تذهب إلى رجل في
بيته فجري الدم في عروقي وظللت أرقب البيت من الشارع .. ثم دخلت
البيت وطرقت بابه ففتح لي الرجل ودفعته من أمامي ودخلت الغرف أبحت
عنها حتى وجدتها تنام في فراش الرجل وهي عارية فهجمت عليها

أضربها بقسوة حتى سالت الدماء منها ثم خرجت منهاراً إلى الرجل كي
أقتله فلم أجد أحداً في البيت .. كان الرجل يعرف أبي إنها وتأكدت أنه
هرب إلى الشارع .. وخرجت أبحث عنه فلم أجده .. ومن يومها لم أعد
إلى بيت أبي وأعيش وحدي منذ عشر سنوات ..
وكانت العربة قد توقفت أمام بيتها حتى يكمل سامح حكايته فقالت له متأسفة
على ما حدث له :

- وأين أبوك .. ألم تخبره بشيء ..
- ذهبت إليه ولعنته وحكيت له كل شيء فوقع على الأرض مغشياً عليه
- وأمك لم تعد إلى البيت في هذه الليلة ..
- إنها لم تعد أبداً وذهبت إلى أخت لها تعيش في أحد الأحياء الفقيرة
- أما زالت تعيش هناك .. ومن يعولها ..
- لا يهمني أن أعرف أين تقيم .. وواضح أنها عرفت الطريق الذي
تتعيش منه ..
- يا له من أسف ..
- أي أسف .. أنا لست حزينا على شيء .. لقد نسيت كل هذا .. أقصد
نسيت هذه الأم ..
- وأبوك
- مات بعدها بأيام ..
- وهكذا أنت مسكين .. وذرفت الدموع من عينيها .. فقال لها مهرجاً :
- لأ بلاش كده .. إنت بنت ناس يا نجلاء .. أعرف هذا تماماً ..
- ولكن عندي سؤال يحيرني منذ أن عرفتك .. لماذا تعملين مغنية في
هذه الدار المشبوهة ..

فهزت رأسها بسخرية وقالت :

- أنت تعرف أنني خريجة كلية الفنون الجميلة من أنقرة .. وعندما عدت
بعد الحرب لم أجد أي أحد من أهلي وكان أبي كل مالي في الدنيا الذي
مات كمدا وقهرا لما تعرض له من هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ثوريين

أو اشتراكيين فقد نهبوا كل شيء .. ولو عاش أبي ما أدراك أنهم كانوا سيزجون به في غياهب السجن بالتهم إياها .. الخيانة العظمى .. التهم على شخص الرئيس .. التجسس لصالح دولة أجنبية .. هذه التهم الذي دائماً ما يلصقها كل الثوريين في هذا العالم بالناس الأفاضل .. الحمد لله الذي مات مظلوماً والتاريخ يقول أن ثروته سرقها هؤلاء الذين أقاموا المصانع والشركات ليصبحوا بعد ذلك نواة للرأسمالية الجديدة وهم الذين كانوا عبيداً ..

- قلت لي موضوعاً كبيراً جداً ربما لا أستوعبه.. ولا شك أن ذلك جزءاً من حياتك .. ولكنك لم تجيبيني على سؤالي .. لماذا تقومين بهذا العمل وأنت بنت ناس ..

- كل ملاهي البلد ممتلئة ببنيات الناس مثلي وأحسن مني .. التغييرات الاجتماعية خاصة الناتجة عن الثورات أو التي تأتي بعد الحروب يكون لها ضحايا كثيرة جداً .. هل تعلم ما هو الغائب عن مجتمعنا .. ما هو ..

- دور رجال الدين .. إن دورهم على مر العقود دور تشريفي .. وليس دوراً حقيقياً .. هل تعلم أنه في رحاب الأديان تمت كل الفنون .. كان الفنانون وهم يقومون بعبادتهم في محاربيهم يخرجون أبداع ما خرج إلى الإنسانية من روائع .. المصريون القدماء برعوا في الهندسة وفن العمارة .. هل تعرف الوازع الرئيسي الذي جعلهم يبرعون في ذلك ..

- لا أعرف

- أنت لطخ يا سامح ..

- لطخ .. لطخ بس قل لي ..

- كانوا يقيمون المعابد لعبادة الآلهة .. الوازع الديني هو التقرب للآلهة بالشعر والرقص والغناء والفن بكل صورة .. والآن لما نزلت الرسائل السماوية الثلاث لتنور للعالم درجة بعد أخرى وليخرج الناس من الظلمات إلى النور تردي الناس بين الأنظمة الاقتصادية والمالية التي وضعها

المفكرون والفلاسفة فلم تؤد بهم إلى شيء .. ظلام بعد ظلام .. أكان الناس تذهب إلى الأسهل .. ألم يستطع الناس أن يكونوا متدينين، لقد ظنوا أن العلم والتكنولوجيا سيحقق لهم كل شيء فما كان آخر العلم .. هل يمنع العلم الظلم والفساد .. هل يمنع الزنا وسوء الأخلاق .. هل يحقق العدل والحرية والخير لكل الناس سواء .. هل يحمي العلم الفقير من ظلم الغنى .. هل ..

- هية هية .. يا نهار إسود وأنا مالي ومال الكلام ده يخرب بيتك يا نجلاء ..
- إنك لن تستطيع معي أن تواصل .. أنت لك طريق وأنا لي طريق .. وسلطانة لها طريق ..

- أخ .. سلطانة .. هي المرة دي جاية منين .. ومالها لابددة عند العجوز ..
دا خايبة أوي هو ده ها يعملها إيه .. تيجي عندي علشان تشوف الرجالة بصحيح.

- وفتحت نجلاء باب العربة ونزلت منها ووقفت بأرض الشارع آسفة عليه وقالت وهي مازالت تمسك الباب بكفيها .. وكأنها تتوعده في روية وتدبر:
- إنت فعلا غلبان ما تعرفش غير بتاعك .. جتك خيبة إنت والرجالة اللي زيك ..

وصفقت الباب بعنف ووقفت أمام باب بيتها تضع المفتاح في القفل .. ومرت أيام بعدها أعد فوزي رزونة نفسه حتى يذهب للقاء سلامة، وكان دخول المدينة عند الشيخ صعباً لكن هذا أمراً مجبوراً عليه، إنها تذكره بأيام الصبا والشباب والأيام المأسوف عليها في قصور الإقطاعيين .. ولن ينسى أيام طفولته عندما كان يحمل حقيبة الحلاقة ويمشي خلف والدته متنقلاً من قصر إلى آخر .. إنه يستمتع في بيته الذي أنشأه منذ سنين طويلة بأن ينظر إلى المدينة من فوق ويراه كالبدة الهاجعة تلتقط أنفاسها بصعوبة لأنه جاثم على صدرها .. إن كل ما فيها يسيطر عليه ويتحكم فيه، ففي النهار يلجأ كثير من أهلها إلى داره ليلتقطوا أنفاسهم وفي المساء يتونسون ويمرحون .. إن كثيراً من مفكري الناحية يعتبرونه صنماً من أصنام الاشتراكية ففي داره القسم وفي

مرفصه يتمتع العمال والفلاحون والحرفيون والطلبة والطالبات أبناء الكادحين .. وهي جميعاً فئات تتأهب للانقضاض على تلك الرأسمالية الجديدة التي كان أصحابها منذ سنين ليست بعيدة يسكنون معهم ويعيشون .. لقد خرجوا منهم فكيف اليوم يذيقونهم الذل والظلم والهوان، وإنه لفخور شديد الفخر بأن هناك نساءً كثيرات وأولاداً من طبقة القصور القديمة يعتبرون نزله ملجأ لهم ومبعث أمل .. بل وإن امرأة مثل نجلاء القصر تعمل في دارة وتتقاضى أجرها منه، وإن كثيراً من بنات الليل اللائي ينحدرن من الطبقة المتوسطة وسلالات الإقطاع الذي ولى يعتبرون دارة من أهم المحطات التي يلجأن إليها في أي وقت فيجدن رجالاً وشباناً يقضين معهن ليلتهن بأي أجر .. إنه ملهه مدينة تمتص آلام وآهات تلك المدينة الكبيرة .. وابتسم وسائقة الخاص ينحدر بالسيارة إلى الطريق الذي يتجه إلى المدينة الكبيرة .. وأخرج رأسه من نافذة المقعد الخلفي للمركبة وإبتلع منظر دارة بناظرية قابلاً فوق التبة كالمنارة.. هكذا تهيأ له ثم إنعدل في قعدته فخوراً بكفاحه الطويل وقال لسائقه :

- ما الذي تعرفه عن سيدك بعد كل هذا العمر الطويل ..
- تاج رأس ..
- لا تتجامل معي .. أشعر أنني لم أفعل شيئاً رغم أن داري تمتلئ بالناس كل ليلة .. إلا أنني غير مقتنع فليس هذا وجودي .. أما كان يجب أن أمتهن عملاً آخر ..
- وماذا كنت تريد أن تمتهن يا سيدي ..
- أحياناً أسأل نفسي لماذا لم أمتهن مهنة أهلي ..
- لا يا سيدي .. أنت رجل مقامك كبير ومعك مال كثير .. كيف تعود إلى الوراء ..
- أفهم أن أبي لم يكن له مقام ..
- بالعكس .. إن حلاق القصور له مكانة كبيرة جداً في حينها .. ولولا عمل والدك ما جمعت مالاً يا سيدي .. لا تنسى أنك جمعت مالاً كثيراً بحكم عملك في تلك البيوتات الكبيرة ، وكنت تعرف أسرارهم وتأكّل البامية

واللحم مجاناً .. ألا يكفيك متعة أنك كنت تنتف شع إبط النساء
وسيقانهن.. لقد كنت تنكشف على كل شيء وهذا متعة كبيرة .. ليت
الزمان يعود وأكون أنا حلاقاً في تلك القصور ..

- لكن يا كلب .. كن يحترقني ..

- أنا أتكلم معك بصراحة .. لا تنسى أنني قريبك ..

- لولاي لعملت زبالاً في البلدية لا تجد قوت يومك ..

- أنت خيرك على يا جدي .. وعلى أبي وأمي .. ولولاك لكان أبي وأمي

مازالا يعملان خادمين كما كانا .. ولكن الكارثة الآن أن الخدمة كانت

ستكون في قصر أحد رجال الأعمال الجدد الذين كانوا عبيداً وهذه هي

المهانة الحققة .. إنك تعطيني من المال ما يكفيننا جميعاً وأصبح أهلي

أسيادا ..

- هذه مصيبة هذا العصر .. أن الناس جميعاً لا تتحقق من مصدر

الأموال التي تصل إليهم ..

- وكيف لنا أن نعرف ..

- للأسف إن أموالنا ناتجة من أعمال سفلية للبشر ..

- لا .. لا يا جدي لا تتمرد على الرزق .. خليها تمشي .. إن هذا الرزق

يحقق لنا السيادة فيجب أن ننحني له ..

- كنت أتمنى أن أفلح أرضاً أو أقيم معملأ لأقدم فيه سلعة حقيقية للناس

.. أي سيادة تتكلم عنها .. إن السيادة لها معاني نبيلة لا تعرفها

أنت..

- لا يوجد في المدينة رجل أعمال واحد يقدم سلعة للمجتمع .. إنهم جميعاً

يقيمون مصانع اللبان والشيبس والشيكولاتة .. وكل أرباحهم يهربونها

إلى البلاد الأوربية .. والبنوك مضطرة لأن تتعامل معهم لأنها لا تستطيع

أن توقف التعامل معهم بعد أن تورطت معهم بالديون، وأصول هذه

الشركات جميعها لا تكفي إذا تم بيعها لسداد الأرباح السنوية على تلك

- القروض الممنوحة لهم.. خليها على الله يا جدي .. دا العملية مضروبة
- على الآخر والناس ماشية بقدرة قادر وربنا يستر ..
- يخرب بيتك يا شفيق .. ومن أدراك بكل هذا ..
- لا تنسى أنني دبلوم تجارة وأشتري الصحف الأسبوعية التي تكتب الكثير
- عن فضائح المجتمع اقتصادياً واجتماعياً ..
- إذا أنا أفضل من كل هؤلاء الرجال ..
- ومكسبك حلال .. كفاية أنه ليس من البنوك ..
- كنت أفكر في إنشاء بنك ..
- لأيا جدي لا تعملها .. ساعتها لن نجد طعاماً ويعود أبي وأمي إلى
- الخدمة وأنا أذهب إلى البلدية ..
- للأسف أنا أقرأ كتب وثقافات ثقيلة وراحت على الحركة السريعة والحدث
- الجاري للمجتمع .. لقد اعتبرت نفس جاهلاً من اليوم لأنه يجب على أن
- أتناول الصحف الأسبوعية هذه ..
- ألا حظ عليك أنك لم تعد تقرأ منذ وقت ..
- منذ عام تقريباً .. لقد مللت كل شيء ..
- واعتكفت في غرفتك منذ شهرين .. إنني لم أذهب بك أي مكان منذ
- مدة طويلة ..
- ماذا تقصد يا حمار ..
- الست دي .. حجتك عن العالم ..
- هذه ضيقة عندي ولا بد أن أحسن ضيافتها .. إنها ابنة صديقي
- القديم ..
- لا أعرف أصدقاءك القدامى .. ولكننا جميعاً نخاف عليك منها ..
- وضربه الشيخ على قفاة وقال زاعقاً :
- خليك في طريقك يابن الداخه ..
- إلى أين يا جدي ..

- ألم أخبرك أن تذهب إلى برج سلامة المصري
- وضرب السائق جبينة بكف يدة وقال :
- سلامة .. ذلك الرجل الخائب ..
- لماذا خائب ..
- يقولون أنه قام بتمليك شقق البرج للفقراء بأقساط شهرية على مدى طويل ..
- إنه ابن نظامين ..
- أهو اشتراكي ..
- لا أعتقد لأنه كان من ضحايا الاشتراكية في بلدة
- وكيف يكون من الضحايا ولا يفني في سبيل الحفاظ على ماله
- ألم تقل أنه خائب .. وسكت الشيخ وأخذ يجول بناظريه في إندهاش شديد
- إلى البنايات العالية ثم أردف وكأنه يكلم نفسه .. هل برج سلامة مثل هذه الأبراج ..
- إنه يفوق هذه الأبراج ..
- خلق .. والله بنى آدم يا سلامة ..
- وأخذ السائق يقهقه وكأنه يسخر من كلمة خلق ثم قال وهويتهم :
- أين نجد الرجل الخلق .. من المجتمع الرأسمالي أم الاشتراكي ..
- قلت لك إنه ابن نظامين .. كان هو والملايين من بلاده ضحية اشتراكية
- دامت أكثر من أربعين عاماً فلما هلهعوا جميعاً إلى دول الذهب الأسود،
- كان سلامة بحكم زواجه من الأميرة نيروز ابنة صديق الخالدي أكبر
- إقطاعي في الشمال .. يبدو أن شيئاً في داخله كان نبيلاً فقام بأعمال
- مادية مثل بناء البرج لكنه يعتبر وهبها للفقراء .. وكذلك السوق الذي
- أقامة بشكل شعبي حتى تتوفر كافة السلع والحرف بأسعار رخيصة للناس
- وإن أعماله قريبة من فعاليات التدين ..
- لماذا لا يكون مجنوناً أو معتوها .. أو مخه ضارب ..
- نهارك إسود يا شفيق .. بص أدامك يا حمار ..

- ولما وقفت المركبة المرسيديس أمام البرج وسط الساحة التي يتوسطها تمثال كبير لرجل يلبس طربوشاً منحوتاً من البرونز .. كانت هناك أعداد كبيرة من الناس تتجمع في شكل مجموعات تتصايح بأصوات عالية ويلوحون في غضب، وجماعات أخرى تصل إليهم هاتفية بحياة الاشتراكية مطالبة بالعدل .. وطلع أحدهم وهو ضخم الجثة على مقعد حجري وزعق في صوت مبوح :

- لا شك أن العدالة في جانبنا ولكن إلى من نذهب .. يجب أن نتصرف بحكمة، أين الرجل القوي الذي يستطيع أن يحمل قضايانا إلى المسؤولين ليقدم الحلول الفورية لنا .. إن بيوتنا ستقفل وأبنائنا سينتشدون والنساء سوف تذهب إلى نزل فوزي رزونة ..

... هنا بصق الشيخ على أرض الساحة وقال لشقيق وهو يتفرس وجه هذا الصائح :

- إن وجهه مألوف .. أليس هذا واحداً من زبائن الدار ..

... واهتزت رأس السائق لأنه راح يضحك والتفت إلى سيدة وقال :

- هذا سامح شاعر الأغاني ..

- آه .. هو ذلك الشاعر الحماسي الذي ينشر حكاوي العمال في شعره .. ولكن لماذا يقل أدبه على داري ..

- لا يهم إنها كلمة عابرة لا تضر في شيء .. عليك أن تنزل يا جدو .. هذا برج المصري ومكتبه في الدور الأرضي ..

- لا .. دعنا نسمع هؤلاء ثم نذهب إليه .. مازال النهار طويلاً ..

- على كيفك

ثم تابع سامح يقول والناس مشدوهين إليه في دائرة واحدة :

- ليس في المدينة رجل يسمعا أو يكلمنا .. لأنهم جميعاً مشغولون ويقولون أننا مجانين ، ولكننا جئنا إلى رجل ليس من بلادنا .. إننا جميعاً نشعر أنه قريب لنا بأفعالة وتمردة على الأميرة والقصر .. إنه منا .. هو أكبر اشتراكي في البلدة .. قولوا معي .. عاش سلامة زعيم الاشتراكيين .. عاش الزعيم سلامة حبيب العمال والغلبة .. عاش بطل الاشتراكية ..

وكانت أصواتهم كالسيل الذي إنهمر على الأرض الجافة فجعلها كالبحر .
 ففتحت أبواب النوافذ في بيوتات الساحة وإمتلأت الشرفات واعتلى بعضهم
 الأسطح ليروا ما يجري في ساحة الزعيم درة الأمة باشا الذي تزعم الأمة في
 الزمن القديم وبنى اقتصادها وحرر الرقيق حتى إن نساءً زغردت من هذه
 البيوت ورجالاً أخذوا يهتفون خلف صيحات الجماهير التي احتشدت في الميدان
 .. وبعد نيف ساعة من الصباح والهتاف إمتلأت ساحة الزعيم درة الأمة
 بجمهرة كبيرة من كل مكان في البلدة .. فلم يبق زبون في مقهى أو عامل
 قاعد على رصيف وخرجت المدارس بتلاميذها إلى ميدان الزعيم لأن مدرسي
 المدارس ذهبوا إليهم يهتفون ويتقدمون بمظالمهم .. والمرضى في مستشفى
 قريب نزلوا واختلطوا بالأقوياء الأصحاء وأخذوا يتأوهون ويهجعون ويتبعون
 الجموع، حتى عمال الغاز ذهبوا بعرباتهم التي تحمل أنابيب الغاز إلى المعامل
 والبيوت وأخذوا يضربون الأنابيب بالمفاتيح فعلى الضجيج وقال أحدهم ..
 يارب ما حد طبخ، وقال الآخر .. العربية دي رايحة لمعمل فريد السبكي ربنا
 يخرب بيته يوم، ووقف شيخ الجزائري عبد المجيد وحوله صبيانه وآخرون
 بملابس ملوثة بدماء العجول وبعضهم يحمل سواطير وقليل منهم يسحب
 خروف أو يمسك برقبة ذكر من الجاموس ونعرت البهائم وكست بروثها جداول
 الحشيش الأخضر بحديقة الميدان، وهؤلاء محاسبو شركة يعقوب يتداولون
 الحديث فيما بينهم ومندهشون وقال محمد فريد .. هل جاء الناس إلى الميدان
 ليتحاسبوا أم أن هذا اليوم صرف أجور .. ورد عليه زميله محروس مورييس ..
 لا أستطيع الوقوف .. اليوم الجمعة الحزينة عندنا .. سوف أعود حتى الحق
 بصلاة الكنيسة ثم أرجع إليكم بعد الطقوس، وزعق ناجي قائلاً وهو ينقلب
 هارباً من بين الصفوف .. وأنا مثل محروس، وجاء الشيخ مندور وجماعة
 معه من أئمة المساجد ومدرسي الدين وقد تعطروا بالعطر وقال أقصرهم قامه
 ويدعى فضل النور .. هكذا الناس جميعاً ينصهرون في بوتقة واحدة مثل يوم
 البعث ولكن هذا بعث المظلومين الجائعين .. لماذا هذا يحدث أمام برج هذا

المصري .. إنني والله أندش .. كيف يتجهرون لغريب ويطلبون منه أن ينقذهم وهو أضعف من أبناء البلدة جميعاً .. ودفعه إبراهيم وهو أكبرهم سناً قائلاً .. ليس هذا الغريب ضعيفاً إنهم يرون فيه الزعيم لأنه تمرد على القصر وأنه بالاشتراكية خير ، وإنزعج الشيخ أحمد أبو دردير من كلمة الاشتراكية ورفع ذارعة لأعلى قائلاً كأنه يخطب .. اشتراكية زفت كان هذا ينجلي علينا ونحن صغاراً لكننا الآن وقد كبرنا فإن تلك الاشتراكية كلب مسعور تعلق به كل الجانعين والذين كانوا عمالاً كادحين وكبروا في صفوفها ليصبحوا بعد عشرات السنين أمناء لنقابات ورؤساء بنوك عمال ورؤساء أحياء وأعرف واحداً كان عاملاً ثم حصل على بكالوريوس وأصبح بعد ذلك وزيراً للحافين وأودي به كرسية هذا إلى كبير النهابين حيث فرض عمولة على كل الحقوق وهو من العمال وكان يرتدي جاكيت الكادحين .. يا أعزائي إن الاشتراكية لن تنفع للقضاء على كل شكوى من مظلوم .. لأن الجائع إذا أمسك بمقاليد الأمور سرق السوق وكحل العيون وصفى مصارين البطون .. هذه دروس حولنا ألا نستفيد .. وهمس الإمام عبد الرحمن الغندور لزملائه لقد دخلت صلاة الظهر ألا يجب أن نعود لنلحق بالصلاة .. فأمسك بذراعة أحمد أبو دردير وقال بصوت مسموع .. إن خيراً لنا أن نصلي هنا فالصلاة في أرض الله كلها تجوز ونحن أكثر من عشرة وأكد من بين هذه الجماهير ستدخل معنا .. إننا يا سادة يجب علينا أن ننفّث في ديننا والدين كله أبواب ميسرة .. إنه يجب علينا أن نندمج مع الناس ماداموا على حق ولنتنظر لنرى ما يسفر عنه هذا الترحف، ولنكون في أول الأمر وآخره مع حق يقربنا في عدل دنيوي أو من نافذة نور، ونحن علينا أن ندفع الناس جميعاً إلى قول عادل وفعل ميسور وأن نمنع كل من تسول له نفسه إلى عنف أو تطرف مكير .. وانسل رجل من بين الجموع يرتدي بنطالاً أبيضاً مبقعاً بالزيوت وجزمة مفتوحة بلا رباط ممزقة .. وكان في أذنيه مغرفة تدلت من قحط الماعون .. إسمه أحمد الدولتلي .. قال له صديق يتبعه محاولاً منعة على أن يجهر بشكواه يا أحمد يادولتلي .. وإندهش

الناس من اسم شامخ كهذا وصاحبه صعلوك وجنتاة بارزتان كإبريق ملحود، وسرعان ما ذهب إندهاشهم لأنهم تذكروا أن جاريات القصور في الزمن القديم كانوا يطلقون على أطفالهم أسماء كآسيادهم وهذا ما يستطيعون أن يملكوا، ولما وقف أحمد على جزع شجرة انبثقت وسط الميدان قال بصوت مبوح كمن قضى وقتاً طويلاً في البكاء :

- يا سادة .. يا سادة .. باعوا شركتي وكنت باشتغل ساعي وطلعوني معاش وبأخذ خمسين جنية وسني بقعة سبعة وأربعين .. اشتغلت في توزيع الصابون وبيع الخيوط والفلايات وكل يوم أروح لمراتي وعياني بجنيهن اثنتين أجيب بيهم عيش وطعمية .. كل يوم ناكل عيش وطعمية .. لدرجة إن مراتي قالت كقرتنا كلي يوم عيش وطعمية .. قلت لها هذا رزقي المرة الجاية هاشتري فجل، قلعت الجزمة وحدفتها في وشي .. وقالت من بكرة هأنزل السوق .. وسبتها تنزل السوق .. مافيش أي حد خادها تخدم في بيته وحتى الشقق المفروشة مافيش شاب قبلها تغسل له .. تعرفوا علشان إيه .. علشان ملحوسة .. يعني وشها يخوف .. وحكت لي عن كل اللي حصل وإنها مرفوضة حتى نت .. وقعدنا نفكر أنا وهيه تشتغل إيه، وكان الحل الوحيد تاخذ عيل في إيديها وعيل على كتفها وتمشي في الطريق تشحت وتركب الأتوبيس تنسول .. هانعمل إيه .. هم المتسولين كتروا ليه اليومين دولت معظمهم نسوان سعاة وفراشين طلعا معاش مبكر .. أو وحشين مش لاقيين حد ..

وتعالت الأصوات في كل مكان صارخة وصوتت بعض النساء وتمايلت شابات صغيرات بأجسادهن على أجساد أصدقائهن من الشباب فتعانقت الرقاب وتلامست الوجنات وشد بعض الصبية شعور الفتيات فصرخن صراخاً عم كل الأرجاء وغطى على صوت أحمد الدولتي الذي سرعان ما إنهال عليه مجموعة من الرجال بالضرب بسبب أنه نذل لأنه قال مراتي مش لاقية حتى نت ..

.. وطلع على جزع الشجرة رجل آخر وقال في رجاء شديد للناس :

- لا تضربوا الدولتلي .. أهذا جزاؤه .. إنه يريد أن يقول لكم أنه لم تعد هناك أية إنسانية وأن المجتمع أصبح مادياً بشكل رهيب، وأن الفقير والقبّيح لم يعد لديه غير التسول .. هل تعرفون أن رجلاً مثل الدولتلي لو كانت إمرأته جميلة أو مقبولة لما جاء إلى سوق التسول إمرأة وطفلاً، إن جمالها كان سيهئ لها عملاً عزيزاً بعيداً عن الشارع، عند أي رجل أو طالب مغترب، والمثل يقول الحيطان ياما مدارية .. إن كنزاً لدي إمرأة جميلة يكفيها عشرين عاماً حتى تكبر ويكبر معها أبنائها ويصبحوا رجالاً، وبناتها تكبر ويصبحن نساءً مثلها يفعلون صنيعها حتى يكبر أبنائها كذاك، وهكذا يجد الجميل سبيلاً للعيش يمنعه من أن يكون متسولاً .. فالتسول فقط للفقيرات القبيحات....

.. أيها الناس قولوا معي عاشت الفضيلة ، وساعدوا كل متسول أو وفروا له عملاً شريفاً .. إن النساء الجميلات حزن جميعاً كل عمل بعيد عن الشوارع والأنوبيسات، ولا حاجة لهن أن يتسولن .. إن إمرأة جميلة تعمل بين الحيطان إن ساعدت متسولة أمام الناس فإنها إمرأة فاضلة، والنساء الفاضلات حقاً اللاتي يعملن أمام المأ بعيداً عن الحيطان، لا يستطعن أن يساعدن متسولة واحدة .. إنهن لسن فاضلات، إن المتسولة لا تستطيع أن تلتقي إلا بمتسول مثلها وإلا ما كانت متسولة .. اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر والقبّح.. واللهم اجعل كل إمرأة جميلة تعمل بين الحيطان أن تتوب توبة نصوحة.. وأرزق المتسولات بعمل شريف ..

وتغالت صيحات الناس وقال كثيرون للرجل .. من أنت .. هل أنت من المدينة..

فقال الرجل وقد تهدجت أنفاسه :

أنا غريب .. لست من المدينة .. جئت من مدينتي عبر آلاف الأميال لأبحث عن عمل لي .. فلم أجد أي شيء ..

ههز الكثيرون رؤوسهم وهم يمصصون شفاههم :

- يا حسرتي عليك وعلى اللي زيك .. ما إحنا زيك يا قليل البخت... وتابع الرجل :

- أيها السادة سوف أنتهى من حديثي إليكم وأرجوكم ألا تنفعلوا وسوف أكمل حديثي إليكم بالعربية الفصحى لأنني أشعر أنكم لا تفهموني .. لو كان في حضوركم هذا صوت عال وإنفعال فلا فائدة منكم ولا بارك الله فيكم .. ولكن المجتمع العاقل هو الذي يعالج مشكلاته واحدة بعد الأخرى ..

فمثلا الأطفال المشردون والمتسولون الجدد والمتسولات اللاتي يحملن أطفالاً في حجورهن وفوق أكتافهن...

.. فزعى إلية واحد من بين الجموع .. فيه مكاتب عمل يروحوا مكاتب تشغل الخادما والمربيات و ..

.. فاتجه إليه الرجل وقال ساخراً ..

- هذا المكاتب تشغل الجميلات .. الخادمة والطباخة والمربية والسكرتيرة .. جميلة الوجه المليحة .. أو تكون حركات أوليها رفراف أو رجلان ملفوفتان

- تشغل زبالة يا أخي ..

- هيّ الزبالة بتشغل فترة في كنس الشوارع والفترة الثانية شحانة .. يعني ده مش علاج وبعدين إنت فاكر إيه .. الناس القادرة إلية بتفهم بتعطي زكاة مالها وزكاة رمضان للزبالين اللي بتشغل في الحكومة لأن دي الفئة الظاهرة والتي تستحق ويجوز عليها الزكاة ..

وتعاليت الصيحات وحدث هرج ومرج وأصبح الناس من شدة الزحام كأنهم أمواج مصطفة خلفها أمواج هائلة وتتقدمها نفس الموجات .. وقام إليهم رجل بدين وقف فوق عربة نصف نقل وقال :

- كل الأعمال التحتية كالعمل في الأفران وبيع الأمشاط والفلايات والوقوف على الرصيف في الميدان لبيع القمصان أو الأدوات وعربات الكشري والبول والعرقسوس وماسح الأحذية يتزايدون يوماً بعد آخر بشكل مذهل... والبلدية تنكل بهم.. أهذا شكل قانوني .. إنهم يأخذون أدواتهم

وأوانيهم وبضاعتهم بعد أن يلقوا بالأطعمة على الأرض بشكل مهين فيتعالى الصراخ والنباح في الشوارع ويقف المارة ومنهم أجنب جاءوا للسياحة ليشاهدوا مناظر مؤسفة وعين النظام عن كل هذا غافلة، بل إن يد النظام هي التي تفعل ذلك وكأنها تؤدي عملاً جليلاً، وفي أقسام الشرطة عندما يذهب هؤلاء الغلبة لعمل المحاضر ودفع الغرامة فإنهم يجدون بقايا من مواعينهم وأدواتهم، ويتقاسم العسكر فيما بينهم ما ينفعهم من طعام وحاجات، ومعنى أن البلدية هذه قد دمرت رأس مال هذا المسكين الذي يتسول رزق أولاده في الشوارع، يعود إلى بيته آخر النهار بلا طعام لأولاده حتى الأداة التي كان يعمل بها نهبت منه، فكيف يعود إلى الرصيف في اليوم التالي وهو في حاجة إلى مال ليشترى به قدرة قول أو عربة كوشري أو منضدة يضع عليها بضاعته، ويكون حال أرباب هذه الأسر مزرياً أمام أولادهم ونسائهم، وشيء طبيعي أيها السادة أن يخرج من هذه الأسر .. الأطفال المشردون في الشوارع والنساء المتسولات والبنات الفقيرات المتسكعات، وهم جميعاً دوائر سرقة ونصب ونهب ودعارة رخيصة ولدتها الإدارة، لأنها لم تجد العلاج المناسب لهؤلاء، والنتيجة أن العنف يولد عنف، وفي النهاية تقولون زادت الجريمة في المجتمع، أنتم الذين جعلتم الجريمة تولد.. أنتم الذين أنشأتم الجريمة والمجرم الحقيقي، لأنكم دفعتم هؤلاء الناس إلى ذلك .. إنهم يريدون أن يعيشوا كما يعيش الناس، رغم أن الدولة لا تستطيع الآن أن تجد الأعمال الكريمة لأصحاب المؤهلات والمواهب الرفيعة.. إذاً أيها السادة لابد من تهيئة الجو السوقي العام في الاقتصاد داخل الدولة ليستوعب تلك الأعداد الفقيرة في إنقراط أرزاقها ..

وقام إليه رجل وقف على سور نافورة الميدان :

- هذا كلام صحيح .. لابد على الدولة أن تهيئ قدر ما تستطيع من الأسواق العامة وأن تقوم بشيء من التنظيم لهؤلاء الذين يتزايدون يوماً بعد الآخر نتيجة أن سوق العمل العادية تلفظ كل هذه الأعداد فلا يكون في مقدورهم

إلا أن يفترشوا الأرصفة والنواصي والميادين .. هذا معناه أن كل الأرصفة والشوارع ستكون مسرحاً لهؤلاء .. وهذا منظر يسيئ إلى المجتمع الحضاري ..

فقال له الرجل الذي طرح المسألة :

- يعني المجتمع الحضاري نترك البلدية تنكل في هؤلاء وتتقاسم أموالهم وتخرج فئة المجرمين من هذه الفئة من الناس، وتقولوا الجريمة والأطفال المشردين والنساء ..

.. يا عزيزي أنا طرحت المسألة .. وهذه مسألة خطيرة جداً لأن هؤلاء الناس يتزايدون يوماً بعد آخر بالآلاف، والتعامل بالإهانة مع هؤلاء الناس سوف يولد منهم من يهين مجتمعه في الظلام وأخطر الأعمال هي أعمال الظلام .. وقام إليهم مدرس جامعي يحمله طلابه قائلاً في صوت رقيق :

- يا حضرات إسمعوني أنا شيوعي ولا أستطيع إلا أن أكون ذلك، عندما ولدت وذهبت إلى المدرسة الابتدائية في قريتي كانت الأناشيد الوطنية عظيمة وهائلة .. من خلالها تشفى صدورنا وتنهد قوانا ونعود إلى بيوتنا في المساء وليس في قلوبنا وصدورنا غير القومية العربية وكلنا بنحبك نادر .. كان هناك تغيير حقيقي في المجتمع .. كل العمال الزراعيين الذين كانوا يفلحون الأرض ويمشون خلف الحمير ويدرسون القمح ويجنون القطن .. كل هؤلاء فجأة جاءوا إلى العاصمة ليصبحوا عمال صناعة وشيدت مئات المصانع وتم استيراد آلات وتم تعيين الآلاف في كل مصنع وأقيمت النقابات وأصبحوا جميعاً أصحاب حق، لقد تغير المجتمع فجأة من مجتمع إقطاعي إلى مجتمع اشتراكي ودارت الأيام ومرت أربعة عقود وما كانت الصناعة إلا مباني مصانع دون سلعة إنتاجية حقيقية، وإن كانت هناك سلعة استهلاكية فلع العمال في إنتاجها من كثرة التكرار فإنها عالمياً لا تساوي شيئاً إذا ما قورنت بالسلع التي تنتج في بلاد أخرى .. والمصيبة أن التجربة الاشتراكية في تلك البلاد عاشت خمسين عاماً والنتيجة إنهار كل شيء، حتى شعارات هذا المجتمع قد تهتك جميعها، وأول من مزقها هؤلاء العمال، حتى

المباني الضخمة المكتوب عليها اسم مصنع لم تبق وهم الآن يبيعونها .. هل هي تجربة تحول مجتمع من مجتمع زراعي إقطاعي إلى مجتمع صناعي اشتراكي .. أين هذه الصناعة .. وماذا فعلت الاشتراكية بالصناعة .. وإنني أتعجب الآن كيف تكون مبادئ هذا الفيلسوف العظيم ماركس مدعاة للسخرية، إنهم لم يقدروا عليها ولم يستطيعوا تطبيقها، أيها السادة إن ماركس باق في قلوبنا وعقولنا، وإننا نستطيع الآن أن نحول هذا المجتمع الرأسمالي الجديد إلى مجتمع اشتراكي حقيقي فيه ينال كل فرد قسطاً وافراً من الحرية والعدالة والديمراطية ..

وقام إليه رجل طويل القامة حملته جماعة فوق الرؤوس :

- كيف تقول أيها الأستاذ أن ماركس عظيم بمبادئه والاشتراكية صاحبته فشلت فشلاً ذريعاً ، وأنا أقول لهذا الماركس شكراً لتصورك وفكرك الاشتراكي وأقول لابنة هذا الفكر الشيوعية وطفله الضال وهي الاشتراكية والتي قام بتطبيقها كافة الثورات العسكرية في العالم .. أقول لها إذهبي دون رجعة لقد خربت بلاد نصف الدنيا بسبب هذا الوليد الحرام .. إن ماركس هذا قد زنا في هذا العالم، وكانت نتيجة هذه الفعلة امرأة حبلى اسمها الشيوعية .. هذه الشيوعية هي الأم التي ولدت للعالم كله أطفالاً أطلقوا عليهم جميعاً اسم الاشتراكية وهذه الاشتراكية هي الظلام الحقيقي والتخبط العشوائي والشقاء والتعاسة الذي وصل إليه كل بلد دخل إليه هذا الطفل الضال، وهكذا كان الإنهيار هو الفصل الأخير الذي ختمت به حياة القرن العشرين في هذه البلاد ..

ولما نزل هذا الرجل من بين سواعد أصحابه ذهب إليه أستاذ الجامعة واشتبك معه بألفاظ نابية، ثم تطور بعد دقائق إلى تشابك بالأيدي ..

وكان عامة الناس قد استاءوا من كثرة الكلام عن الشيوعية والاشتراكية وقال الكثير منهم جماعة بعد الأخرى .. ومالنا بكل هذا .. نحن نريد العدالة .. إن في بلادنا رأسمالية من نوع خاص .. إن الناس تتظاهر بالحماسة والغباء، ومالنا نحن بهذه المصطلحات نحن في بؤس من العيش وحالنا وضع، هؤلاء

الفلاسفة هم سبب الغم الذي بلانا، أي اشتراكية وأي شيوعية إنهم جميعاً يساومون وكأنهم في سوق للبيع والشراء، إنهم لا يعرفون أصل المشكلة .. إن أقرناء لنا تربوا معنا في الشوارع والحارات كل ما فعلوه أنهم استطاعوا أن ينهبوا ويسرقوا أثناء الحرب وبعدها .. كل هؤلاء يملكون اليوم المصانع والمخابز وأسباب الحياة ونحن كل الشعب نعمل عند هؤلاء، وهؤلاء يكيلون لنا كل أنواع العذاب والمر حتى تصل اللقمة إلى أفواهنا وأفواه أطفالنا..هم يعيشون في قصور نهبوها وأخرى شيدها ونحن نعيش في عشش من الطوب اللبن وتجري في شوارعنا المجاري ومياه الكوائف .. إننا نريد بعض العدل .. قالوا كثيراً دون أن يسمعه أحد .. لم يكن بينهم واحد من الخطباء، لكن

رجلاً وسط الميدان تسلق الرقاب وقال في صوت يصل إلى كل الأجانب :

- المشكلة أن الغني في بلادنا غناه غير طبيعي وأصبح بعيداً عن الناس بقسوة وشراسة، إنهم يدمرون كل شيء من أجل المال وبدأوا يشترون الأعراض بما لهم .. والفقراء يزدون والبطالة تكتسح المجتمع، لقد كثر الحقد بين الناس، لقد كان الإقطاع في الزمن القديم يتعاون مع الفقراء ويعول كثيراً من المساكين وكان في نفس الوقت ظالماً ولكن بعض الظلم أرحم من كل هذا الظلم، لقد كان ظلاماً تستطيع حصره والسيطرة عليه وكان يتم معالجته، إن الظلم هذه الأيام يأتيك من كل جانب، والله إنني كل يوم أقابل ناساً محترمين يحملون الحقائق ويدورون على المقاهي لبيع الصابون، وفي يوم سألت أحدهم .. أنت رجل محترم فكيف تلف في الشوارع على الناس هكذا... فرد الرجل على بكل هدوء وكأن شيئاً في داخله قد إنكسر .. لقد خرجت معاش مبكر ومعاشي خمسمائة درهم وبيتي في حاجة إلى خمسمائة أخرى حتى يكملوا حاجاتهم من الطعام وغيره.. ولما لم أستطع أن أرد عليه قال وهو ينظر إلى في أسى .. إنني مستعد لأن أعمل حماراً يحمل أثقالاً .. لأحصل على هذا المبلغ .. لكنني للأسف لم أجد حماراً يأخذ أجراً بهذا القدر والصابون الذي أحمله لا أحصل منه على ربع هذا المبلغ ولكن هو العمل الذي وجدته حتى أحجز أولادي في البيت ولا

أجعل أحداً منهم يضطر للنزول إلى الشوارع خاصة أنهم ما يزالون صغاراً، غير أنهم يتألمون في البيت والصغار يصرخون لأنهم لا ينالون وجبة واحدة كافية كل يوم ..

وصاح الناس وكأنه 'عماب' مواعهم جميعاً ورفع أحد الجزائريين ساطورة قائلاً:
- أيوه يعمر بيتك جبت المواجه كلها .. قول كمان قول ..
وقال آخر :

- الراجل ده هو الشعب كله .. إحنا ما بنفهمش غير الكلام ده ..
ورفع خادم الكنيسة القديمة أحد القساوسة ليقول في صوت رخيم :
- إن الذين يملكون يضربون الفقراء بقسوة .. أين يذهب فقراء هذا البلد؟
هل يتسولون كما يتسول الموظفون في أي مجتمع اشتراكي.. ثم إنني أسألكم سؤلاً.. لماذا لم تحمي الاشتراكية موظفيها من التسول ؟ ثم تابع في سخرية يقول .. إنني أوافق كل الأعزاء الذين تكلموا، ولكنني أضيف إن ماركس هذا نسى شيئاً هاماً .. أين النظام الثالث الذي كان يجب أن يضعه وأن يذهب الناس إليه بعد فشل تلك الاشتراكية .. للأسف لا يوجد نظام ثالث كي يذهب إليه الناس ليحلوا مشاكلهم .. وتهدجت أنفاسه وسكت قليلاً ليلتقطها ثم أردف:
- ما هو الحل إذاً .. هل الدين لا يصلح لتنظيم هذه الحياة المتهرئة .. طبعاً هناك مقولة مشهورة في الشرق .. أن الدين لا يصلح لإقامة نظام دنيوي.. وأنا أقول إن قليلاً من الدين لو تدثر أي واحد بالقليل منة لصلح حالة وبالتالي صلح حال الجميع، إنهم جميعاً أباطرة هذه الحياة لا يستطيعون أن يسلكوا سلوكاً دينياً واحداً لأنهم لا يستطيعون أن ينتصروا على أنفسهم.. وإن أعظم شيء في الأديان أن ينتصر الإنسان على نفسه.. بعد ذلك يصلح كل شيء ..

وصفق الجميع للقسيس ونزل الرجل من فوق كتفي الخادم وذهب إليه أحد الأئمة ليقبله .. ورفع الإمام يده وساعده القسيس في أن يعتلي أكتاف خادم الكنيسة وحاول الإمام أن يثنى القسيس عن ذلك لكن القسيس أصر قائلاً .. يا

عزري إن قضيتنا واحدة وبلدنا واحد.. فسعد الإمام لذلك وقبله ثم قال وهو يعتلي كتفي الخادم :

- نحن جميعاً مواطنون وهؤلاء المتسولون والفقراء وبائعو الرصيف لهم نفس حقوق المواطنة، فكيف تتركون الأغنياء يعيشون وتمنعون المساكين، إن هؤلاء أولى بالعطف والمدارة والحماية، هل الغنى مواطن والفقير لا.. أم أن المواطنة لها ثمن يستطيع أن يدفعها الغنى، ومن أين جاءوا بهذا الغنى أليس كل المواطنين خريجين مجتمع اشتراكي منذ نصف قرن.. المجتمع واحد الذي أفرز كل هؤلاء .. أكان والد الغنى رقيقاً شيوعياً أو قائداً من زعماء الاشتراكية، وكيف لا يكون الرقيق والزعيم مثلاً يحتذى به، لقد كان كل هؤلاء الرفقاء والزعماء من الفقراء والمساكين.. هل نالوا الملكية العامة بشيء .. هل أخذوا من دم الشعب مالاً والشعب قد آمنه على إدارة ملكيته .. لقد كبر هؤلاء الرفقاء الآن وأصبحوا كهولاً وهؤلاء أولادهم.. أرانب سمينية... إنهم جميعاً أصحاب المدن الصناعية والشركات السياحية و...، إذاً ليس في الوطن مواطن واحد .. ولكن هناك فرق في المواطنة ناس تنضرب بالجزم وناس ننحني لها لأنها تدفع، إن هؤلاء الأغنياء يعيشون لأنهم يدفعون وهؤلاء يتسولون ويسرقون ويتسكعون كي يعيشوا وكيف يرضى المجتمع بالذل على نفسه، أي مجتمع هذا وكيف يرضي بهذا على نفسه، أكان الاستقلال لبلادنا أن تهين طبقة طبقة أخرى، لماذا تحتقر طبقة كل الشعب ..

أين مبدأ الأمة .. ليس هناك شيء اسمه أمة ولكن هناك شيء اسمه أنا .. وطالما أن المواطن يقول أنا .. فليس هناك أمة .. نحن الآن في حاجة إلى الأمة .. فأين هي ..

هل يرضى الغنى لأمة أن تهان .. إذا فكيف يرضى الغنى أن يهن أمهات كل الفقراء والمساكين .. كيف يرضى أن يهين أم هذا الشعب .. إذا أهينت أمهات الفقراء أهينت الأمة كلها، لأن أم الغنى لها ابن يحميها لأنه يدفع، وأم الفقير لها أمة تحميها ولكن أين هذه الأمة إذا كان هؤلاء قد ذبحوها منذ عقود ..

وتنهذ الرجل وكادت ضلوعه تتمزق من حرقه آهاته ثم قال بعد أن تعب :

- أيها الناس لقد رمانا هؤلاء على قارعة طريق .. إننا فقط نريد أن نعمل والقطاع الخاص ضيق لا يستطيع أن يستوعب هذه الآلاف .. هذا ناهيك أن القطاع الخاص ليس به أية ضمانات وهو عبودية جديدة حيث يعمل فيها الفرد ثلاث عشرة ساعة أو يزيد ولا رقيب حقيقياً عليه، وإذا ذهب إلى إدارة شركة ما رجل يتبع التأمينات الاجتماعية ليفتش عن تطبيقها.. فإنه عندما يدخل إلى أي مسئول في الشركة ويرشوة بخمسين درهماً يأخذها ويكتب في تقريره كله تمام .. إذا الدائرة غير محكومة وأنا لا ألقى اللوم على الحكومة.. ولكن العيب في الناس ومرتبات الحكومة وحاجات الناس والأثنية .. من هو الناجي من كل هذا .. أنا نفسي لا أعرف، والاشتراكية لن تكون الحل أبداً لأنها هي التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه.. إن كل الفقراء في العالم ولدتهم الاشتراكية، لن تكون الحل أبداً لأنها هي التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه .. إن كل الفقراء في العالم ولدتهم الاشتراكية، وكل رأسمالية المجتمع الآن ولدتهم أيضاً الاشتراكية، إننا نحن جميعاً أبناء الاشتراكية .. فقراء ورأسماليين.. وما ذنب الحكومة في أن شقيقاً غنياً يتعامل مع شقيقه بهذا العنف والظلم..

هل المشكلة كانت في بيوتنا منذ خمسين عاماً هل تربي الناس جميعاً في بيوتهم تربية ناقصة ..

وقام أستاذ في كلية الحقوق إلى الناس ورفض أن يعتلي كتف أي رجل أو يقف على مكان عال وقال :

- أنا لست خطيباً ولست شيوخياً ولا أملك من الدنيا غير راتبي، أقول أن القانون لا يصلح من الناس ولكن الناس تنصلح من أنفسهم، والحكومة شرعت قوانين لا حصر لها ولكن الناس يتحايلون على القانون

.. إن القاضي لا ينزل إلى الشارع ليجعل القانون ينسحب بين الناس ولكن القاضي يفصل في المنازعات ورجل القانون يفصل القوانين، يا سادة لا تتعبوا أنفسكم إن العيب فينا جميعاً، فهؤلاء الفقراء جميعاً .. وأشار بيده عالياً فوق

رؤوس الجموع .. إن هؤلاء الفقراء لو أتتهم الفرصة ليصبحوا أغنياء فإن أول شيء يعملونه أنهم سينتقمون لأنفسهم من ما ضيهم كما يفعل هؤلاء الأغنياء الآن ..

.. لماذا يجتمع كل هذا المجتمع على الانتقام من نفسه، لماذا تنكل طبقة طبقة أخرى .. هل نزلت الحكومة بين الناس لتأمرهم أن يفعلوا هذا .. أم أن الناس ديناميكياً تفعل هذا وكأنها دائرة طبيعية تعمل من تلقاء نفسها .. ولماذا أنتم اليوم تتظاهرون .. وسكت فردت عليه أصوات من هنا وهناك قائلة جماعة بعد الأخرى :

- نطالب بالعدل .. نريد حقوقنا ..

- نريد سلامة المصري ..

- نريد أحداً من الحكومة يسمعنا ..

- نريد أن ننتقم من هؤلاء الأغنياء الذين ينكلون بنا ..

فقام إليهم الأستاذ هذه المرة ووقف على سور النافورة وقال وهو يضحك في سخرية :

- هكذا حال الفقراء في كل أنحاء العالم .. طيبون ساذجون لأنهم وصلوا إلى درجة كبيرة من الضعف .. صدقوني أنا واحد منكم .. من يريد حقوقه فليطالب بها صاحب مصنعة أو معمله وبشكل جماعي حتى يرضخ لمطالبكم .. ومن يريد سلامة المصري فإنه لن يفعل لأي واحد منكم شيئاً .. الحكاية باختصار أن هذا الرجل بماله الذي آل له يحاول أن يقدم سكناً أو عملاً للناس بشكل فيه عدل وفيه تسهيلات لغير القادرين .. وهو متمرد على الاشتراكية ولو كانت هذه الاشتراكية رجلاً لقتلها لأنها الفقر بعينه، ونسمع أن هذا الرجل قد تمرد أخيراً على القصر وترك الأميرة وأقام مجتمعاً جديداً يحاول فيه أن يساعد الناس، فهو يعتبر رأسمالي عادل غير بشع، إننا نريد من كل الرأسماليين في بلادنا أن يكونوا عادلين، وأن تكون مشاريعهم فيها دافع اجتماعي كتشغيل الناس بأجور تكفل لهم بعض الحياة الكريمة، وأن يعمل الناس ثماني ساعات بدلاً من ثلاث عشرة ساعة وأن يعمل آخرون ورديّة ثانية حتى يشتغل أكبر عدد ممكن من الناس الذين يعانون من البطالة، إننا فقط نطلب من هؤلاء أنه بدلاً من أن يأخذوا كل الرغيف

فليأخذوا ربع هذا الرغبف وحتف بعفش الناس بجانبهم وأن يطل على المجتمع بعض العدل وحتف لا تهدم البيوت.

وقال رجل أضخم الجثة في يده مسبحة يرتدي بنطالاً واسعاً بحماله متهرئة وقميصاً فكت أزرار أكمامه .. يدعى سيد رسلان وهو يعمل مدرساً للتاريخ في المدرسة الابتدائية القديمة.. اعتلى جذع شجرة مقطوعة وقال وهو يرفع يده نحو جبل المدينة :

- اتفقتم جميعاً أننا لابد أن نتخذ الاشتراكية طريقاً لإصلاح أوضاعنا، فهل أصلحت تلك الاشتراكية بلادها .. لا .. إنها أفقرت مجتمعها فقراً لا يجدون له حلاً، دعوني أسأل أولاً هل نحن جادون في إصلاح أحوالنا.. إذا كنا كذلك فلماذا يذهب الناس من كل الفئات يسهرون في ملهى الجبل كل ليلة حتى الصباح، عمال وفلاحون وطلبة ونساء من كل الأعمار.. هل هذا مجتمع يريد تصحيح أوضاعه .. في ملهى فوزي رزونة تقترف كل الموبقات والغريب أن هذا الملهى صاحبه رجل عجوز وهو ابن هذه المدينة وربيب القصور وابن حلاق قديم مشهور عرف كل أسرار تلك البيوت الكبيرة في زمانها .. فلما مات أبوه أخذ ثروته وذهب هناك ..

.. وأشار بيده .. هناك فوق أعلى تبة وشيد هذه الكرخانة .. وهذا الملهى الوضيع يقبع فوق أنفاس المدينة، وإذا كنا أحراراً فلنحطم هذا المكان المظلم قبل أي شيء في بلادكم تريدون القضاء عليه .. وهز الرجل رأسه وكأنه يستهزئ من الناس ثم أردف .. إنه لأسف شديد إن المدينة كلها تذهب إلى هذا الملهى .. فقراء وأغنياء .. هذا المكان أنتم صنعتموه .. هو منشق من تباريحكم وأعمالكم، أنتم فقط تريدون الحقوق وتناضلون من أجل دفع الظلم.. للأسف ما هو سلاحكم في النضال أن تتظاهروا ويخرج من بين صفوفكم خطباء فصحاء .. كلام شعارات فقط، أنتم أنفسكم تقولون مالا تفعلون فمن أين يأتي التغيير .. لابد أن تغيروا ما بأنفسكم أولاً ويكون لكم سلوك سوي، لكن إبهأ الناس أنتم جميعاً غارقون في ملذاتكم، وهؤلاء جميعاً الذين تكلموا لهم أبناء يذهبون إلى هذا الملهى .. ثم سكت قليلاً وتابع يقول :

- أنا على يقين من أن هؤلاء الثوريين الذين خاطبوكم اليوم يذهبون إلى هذا الملهى وأنه يروق لهم .. لأن كل اللذات هناك رخيصة وفي متناول الجميع،

لقد نسيت أن أقول لكم أن صاحب هذا الملهى رجل اشتراكي طاعن في الاشتراكية وهذا هو السبب الأساسي في جعل ملهات أسعارة رخيصة لتكون في متناول الناس جميعاً، لقد أقامه بعدل الاشتراكية، وتجد هناك في ملهات لافتات كتب عليها .. الخير للجميع .. بلادنا تتقدم ما دمنا في خدمتك.. المدينة الغالية في قلوبنا .. الاشتراكية طريق التقدم .. الفساد والإقطاع شيء واحد .. لافتات خائبة .. وأنتم جميعاً خائبين .. لا تتظاهروا وكفانا خطابة، ثم لمن جنتم أيها الناس تستغيثون بواحد من الناس .. هو واحد مثلكم لا حول له ولا قوة .. هل يأخذ مطالبكم للأميرة وماذا تفعل تلك الأميرة .. لقد ذهبت الأميرة إلى الحكمدار وأصبحت واحدة من نساءه ولن تعود .. ولو كانت هنا فإنها لن تفعل شيئاً ولن يعمل أبوها أي شيء .. إنه مريض الآن، وهؤلاء الناس كانوا كبار البلاد في زمن الإقطاع .. لكن هذا قد انتهى .. لقد كانوا كباراً لأنهم لم يظلموا أحداً وابنتهم هذه الصغيرة التي تدعى سميرة إذا كانت رئيسة للمدينة فهي لا تستطيع أن تفعل لنفسها شيئاً فكيف تعمل للآخرين .. إنها مناصب شرفية فخرية ولا أكثر .. إنها مشغولة بشيء واحد رجل تتزوجه أو رجل تتونس معه .. هل عرفتم الآن .. لماذا أنتم خائبون .. ألسنت على حق..

ورفع الإمام يده إلى الرجل يحييه وابتسم فنظرت الجموع نحوه فإذا بالقسيس يقف بجانبه والذي هز رأسه هو الآخر دلالة على اتفاقه مع الإمام على شيء.. وأمسك الإمام بيد القسيس واعتليا جذع الشجرة ورفع كل يده إلى الناس قائلاً :

- إذهبوا إلى أعمالكم وحسنوا من تلك الأعمال ..

.. الملاهية هي الفساد وإذا كان في الإقطاع فساد فقد انتهى.. وليست الاشتراكية طريق التقدم .. إنها طريق الفقر والعوز والحرمان .. إننا مع الحرية الاقتصادية للفرد ولكن بتوفير الأمان والضمان للعاملين .. إن على صاحب رأس المال ألا يكون بشعاً فيكفيه ربع رغيف وربع رغيف للضرائب ونصف رغيف للعاملين ..

.. إنبهر الناس من كلام الرجلين وبدأوا يتفرقون وانسحب كل منهم إلى طريقة وهم يفكرون في كل ما جرى، وأن عليهم أن يذهبوا إلى أعمالهم وأن يحسنونها وتساءل الكثير منهم كيف يحسنونها، وكان فوزي رزونة صاحب

الملهى قد تخفى ولف شالاً على رأسه وغطى به وجهه ولم يظهر منه إلا بصيص من عينيه، وآثر أن ينتظر ليرى ما يسفر عنه اجتماع هذا اللفيف ليطمئن على أنه لا أحد من هؤلاء تراوده نفسه في أن يذهب إلى داره ليحرقها، إن الناس قالوا كل شيء وإنهم لن يفعلوا أي شيء، إنهم يعبرون عن آرائهم ولا شيء أكثر من الفلسفة، وابتسم فوزي إلى سائقه وقال والعربة تمر بصعوبة بين الناس:

- الفضاء واسع والخلاء ليس له حدود إنه يتسع لكل صيحاتهم ..

فقال السائق وهو يحاول أن يقترب بالعربة من برج سلامة وسط الجماهير التي تتزاحم في الميدان منصرفة إلى أرجاء البلدة :

- إنك لن تجد في نظام آخر أساليب ومبادئ لتحقيق العدل والحرية كما في الاشتراكية

.. وهرش رزونة في رأسه وقال :

- نحن جميعاً في هذه المدينة نحب الاشتراكية لأنها سبيلنا الوحيد، أنا اشتراكي عندي من المال ما يشيد حياً من الأبراج السكنية، ولكن المشكلة أو الذي لا أستطيع أن أصل إليه أنني لا أستطيع أن أساعد فقيراً أو مسكيناً من هؤلاء .. إنني أستطيع فقط أن أشغل في داري الذين يحمون هذه الدار ويعتبرون أن كل الأعمال فيها من رقص وغناء وونسة أشياء عادية وطبيعية، أما هؤلاء الذين يتقربون من الأديان مستنيرين بمبادئها فإنني لا أقدر على هؤلاء الناس وبالتالي فأنا لا أستطيع مساعدتهم، لأن هؤلاء إذا نالوا قدراً من الحياه فسوف يحطمون كل ملاهي البلدة، وهنا فإننا إلى أين نذهب حتى نقيم أعمالاً لنا، إن الأعمال الشريفة التي يدعون إليها لا تسمن ولا تغني من جوع وهم جميعاً يقومون بهذه الأعمال، وإنني لو اقتربت من الدين وتمسكت بمبادئه فإنني سوف أنهى عملي الذي يدر على أموالاً طائلة .. إنني لا أقدر على الدين لأنني لست صاحب إرادة فاضلة أو نبيلة إن حياتي ونواقصها وميلي إلى جمع المال من الرذيلة أو من أي أعمال دنيا وكما هو حالي الآن جعلتني أقرب إلى الاشتراكية .. وكان لابد من اعتناقها كمذهب وضعي جاء به فيلسوف منذ ما يقرب من قرن ههنا الزمان، إن ما في الاشتراكية هو كل ما في كل نفس

مريضة، وإن كل الذين حاربوا الإقطاع وقضوا عليه أقاموا دولة الاشتراكية فنهبوا أموال البلاد وسرقوها تحت شعارات العدالة والديمقراطية والقطاع العام وكانت النهاية أن تلك الاشتراكية وهي الأبن الضال للأُم الشيوعية كان وريث هذا النظام المدمر .. فسرقوا أموال الشعب كله وأقاموا الرأسمالية الجديدة .. إن كل هذه المصانع الجديدة أصحابها كانوا قادة للاشتراكية أو أبناء قادة لتلك الاشتراكية، وعدد كبير من هؤلاء تفنن في سحب أموال من البنوك .. إن كثيراً ممن هؤلاء وظفوا في شركاتهم موظفين كانوا يعملون في البنوك وقاموا بتعيينهم مديريين في شركاتهم بمرتبات عالية جداً، ومهمة هؤلاء في هذه الشركات التفتن في سحب أموال البنوك وكانت النتيجة أن أصحاب هذه الشركات أصبحوا مدينين بمبالغ ضخمة للبنوك وأنهم لا يستطيعون الوفاء بنسبة واحد في المائة منها حتى ولو باعوا كل أصول شركائهم .. فأين ذهبت هذه الأموال .. إنني أعرف حكايات لا أول لها ولا آخر، والمصيبة أنك لو ذهبت إلى أحد من هؤلاء وسألته ما رأيك في الاشتراكية لقال لك .. إنها تاج رأسي وتاج راس أبوي .. هي الفرس الذي أوصلنا إلى هذا العز ، وضحك رزونة ضحكة عالية وهز رأسه حتى كادت تسقط على صدره وقال لسائقه وهو ينزل من العربة :

- أقول لك إية تاني يا بن الداخه ...

- بكفاية يا سيدي .. عرفت .. كله بيضحك على كله .. واللي بيطول حاجة بيلهفها .. وأمسك الشيخ بذراع مخدومه يتكى عليه، وطلعا عدة درجات في نهاية الحديقة التي تحتضن البرج من جهة الميدان حتى دخلاً ممراً طويلاً يؤدي إلى نهاية البناية من الناحية الأخرى، ووجد الشيخ لذة كبيرة في تأمل الحوانيت على صفي الممر، وكان سعيداً بتلك السوق التي يعمرها ناس من جميع طبقات المدينة وقال مندهشاً لخادمه :

- ما هذا .. إنه سوق متكامل يعمر بكل السلع .. هل دخل الناس الذين

تجمهروا هنا .. إننا لا نستطيع السير من الزحام ..

وقال له الخادم منبهراً :

- إنها مدينة داخل مدينة .. أطفال ونساء ورجال من كل الأعمار .. لا

ليس هؤلاء الذين تجمهروا .. إن هؤلاء قوم محترمون ..

- الله أنا سعيد لأنني أرى قوماً منصرفين للعيش .. أعتقد أن هؤلاء لا يعرفون تعريفاً بسيطاً لتلك الاشتراكية التي انشغل المتجمهرون بها .. ولا يهمهم أن تعبيرات أخرى
- المدينة فيها كل شيء ونحن نعيش في آخر الدنيا .. حتى الناس الذين خطبوا في الناس تكلموا عن تجارب بلادهم ..
- يا حمار .. ضروري اختلاف المدن لاختلاف المقاصد .. البلد مليئة بالأغراب ..
- وماذا فعل سلامة بهذه السوق حتى يأتي كل هؤلاء إلى حوانيته ..
- ألم أقل لك أن سلامة قد شاهد تهالك المجتمع الاشتراكي في بلاد .. وأكد استفاد من هذه التجربة الكاملة .. إن الشرق كله تجمع مدينة واحدة كهذه ..
- كأنك يا سيدي تهاجم الاشتراكية ..
- أنا لا أستطيع أن أتخلى عنها أبداً .. إن مدينتي التي أقمتها في الجبل كل شيء فيها اشتراكي، فيها كل صنوف العدالة الاجتماعية .. أغلب زبائني من العمال والفلاحين وأصحاب الحرف .. لو لم أقم هذه الدار بهذه الأسعار المناسبة لما كان لهؤلاء الغلبة ملهى .. أنا الوحيد في هذه البلاد الذي طبق مبادئ الاشتراكية بحذافيرها وحققت سعادة الغلبة ..
- هل تقصد أن خير تطبيق للاشتراكية أن تقيم ملهى ..
- يا ابن الدايخة .. لولاها ما كانت حياتنا .. إنني أستطيع توفير كل المتعة لهؤلاء الناس .. حيث لا أراعي أي مبادئ دينية في تلك الأعمال .. هذه هي الاشتراكية في كلمات قليلة ..
- هل تعتبر هذه السوق اشتراكية ..
- لا .. ليس فيها حانوت واحد للبعث .. إن هذه السوق وهذا الكيان الذي أقامه هذا الرجل يعتبر خروجاً عن كل النظم الاقتصادية .. إنه مجتمع خاص يحاول فيه توفير الكثير للكثير من الناس ..
- هل هذا مذهب جديد .. توفير الكثير للكثير ..

- يا بن الداخه .. السكرتارية أمامك ..

ونقر السائق الباب وسمع من يقول له تفضل .. فدفعه بيده وظل ممسكاً به حتى دخل سيده وقام إليهما الرجل الذي كان يقعد منكباً على دفتاره ليقابلهما في منتصف الغرفة وصافحهما في بشاشة ثم قال مرحباً :

- أهلاً وسهلاً

وأجلس السائق سيده على مقعد كبير في منتصف المكتب ثم قال وهو يستدير إلى الرجل :

- سيدي يريد مقابلة سلامة باشا ..

- من هو سيدك ..

- فوزي رزونة ..

- حاضر دقائق ..

وتناول سماعة الهاتف وحدث سيده وأخبره باسم الرجل .. فقال له سلامة :

- من هو فوزي رزونة ..

- دقيقة يا سيدي ..

وقال للشيخ :

- إنه لا يعرفك يا سيدي .. هل تستطيع أن تذكره بشيء ..

وقال الشيخ ضاغظاً على حروف كلماته :-

- أنا رجل الجبل الذي اشتري منه كثيراً من السلاح أثناء الحرب ..

فأخبر الرجل سيده فقال له :

- أدخله غرفتي حتى أتى إليه في دقائق وقدم له الواجب ..

- حاضر يا سيدي ..

وأدخل السكرتير فوزي رزونة غرفة مكتب فخم الأثاث فجلس في مقعد وثير وإنعدل في جلسته ثم نادى سائقة وأخبره بأن يذهب إلى العربة وينتظرة هناك .. وسأله مدير المكتب عن المشروب الذي يفضلهُ فأجابهُ ببراد من الشاي، وخرج المدير إلى عمله وقبل أن يقعد إلى مكتبه أخبر الساعي بطلب الضيف، وبعد نصف ساعة دخل إليه سلامة مرحباً فقام العجوز من كرسية

واشرأب على أطراف أصابعه وتعلق في رقبة سلامة وأخذ كل منهما يقبل لآخر حتى كاد العجوز يقع من حرارة اللقاء فاحتضنه سلامة بيديه وأقده ثم قال من أعماقة :

- أين أنت .. ثم جلس قبالة ..

فقال الشيخ :

- ألا تعرف مكاتي يا بطل

- أعرف .. أعرف كل شيء عنك، ولكن مشاغلي الكثيرة تحول دون الرجوع إلى القديم .. لأن كثيرا من أصدقائي في الحرب أساؤوا إليّ عندما حل السلام ..

- لكنني لم أغير .. أنا طيلة حياتي نصير الفقراء ..

- أعرف .. ودارك ملهى شعبي يرتادها المكافحون والمناضلون

- إذا أنا في الحرب قدمت السلاح للأبطال وفي السلم يأتيني كل البشر

ليتمتعوا ويفسّلوا همومهم من عناء يوم مرير مع أصحاب الأعمال ..

- أقسم لك أن هؤلاء الذي تجمهروا اليوم نسبة كبيرة منهم تذهب إلى دارك ..

- إذا فقد سمعت كل شيء ..

- كنت أطل عليهم من شيش الشرفة .. وهذه الجمهرة ذكرتني عندما كنت

طالباً في الجامعة نظاهرنا في يوم أمام سفارة إحدى الدول لأن رئيسها

قال أنه يجب أن نحل مشاكلنا مع إسرائيل بالجلوس معهم والتصالح،

وليس بإلقائها في البحر كما قال البعض .. في هذا اليوم خرجت كل

الجامعات في العاصمة وأشعلت النيران في مبنى السفارة وأتلفت سيارات

لا حصر لها في كل الشوارع المحيطة بها .. وفي يومها وقعت على

الأرض وتمزق بنطلوني وداسوا عليّ بالأقدام ..

وإمتعض رزونة وقال مشفقاً على سلامة :

- أكان ذلك في الستينات ..

- نعم كان في عام ستة وستين.

- كانت نعمة القومية والاشتراكية وشعارات العدالة والحرية في بلادكم قد وصلت إلى القمة ، واستطعتم أن تصدروها لبعض الدول الفقيرة المجاورة ولاقت قبولا كبيرا لدى الحكام العسكريين في بلاد كثيرة في أفريقيا .. وتنهذ سلامة ملأ صدره وقال وكأنه أيقن أشياء كثيرة :

- وماذا يعرف الطالب حتى يتظاهر .. نحن جميعا عندما كبرنا ندمنا على كل التظاهرات التي قمنا بها ، وعرفنا من كان الذي يدفعنا إلى ذلك .. إن هناك مخربين يدفعون هذه المظاهرات بدس الفتن ثم إشعالها بثقاب، والطلبة في العادة يتحمسون ويندفعون ويكون كثير من هؤلاء الطلبة ضحايا والنتيجة إثارة الفتن وإتلاف الممتلكات وقلقة البلاد .. وقال الشيخ محاولا تهدئة إنفعال سلامة :

- إن هناك دولا كثيرة في المنطقة لم تقم فيها أي مظاهرات للطلبة أو غيرهم .. كل الدول التي تسير على النظام الطبيعي للحياة .. ماذا تعني .. لا أفهم ..

- كل الدول التي دخلتها الاشتراكية وكان بها ثوارا أهلكتها هذه المظاهرات وتلك النعرات ... لكن الدول صاحبة الأنظمة المدنية أو الملكية لم يكن بها أي شيء من هذا القبيل وهذا تاريخ، ولكنني يا سيد سلامة مازلت اشتراكيا .. وداري لكل الاشتراكيين ..

- هل تريد مني أن أتكلم معك بصراحة .. وهز الشيخ رأسه وقال :

- بالطبع ..

- لا تضيعوا بلادكم واتركوا الأمور تسير بشكل طبيعي، ابتعدوا عن التعرّات والمظاهرات والشعارات الجوفاء .. حاولوا أن تلامسوا وجه الحقيقة.

- وكيف نقضي على هذه الرأسمالية الجديدة ..

- بالرأسمالية ..

- كيف .. ؟

- بالرأسمالية العادلة ..

- وأين هي .. ؟

- إن كل صاحب عمل حقيقي سوف يقيم تلك الرأسمالية

- بلادنا كلها لا يوجد صاحب عمل حقيقي ..

- صاحب العمل الحقيقي هو الذي يقيم صناعة حقيقية تخدم بلاده، والذي

يقيم صناعة حقيقية سوف يأخذ في النهاية خمسة وعشرين في المائة من

الربح لنفسه وخمسة وعشرين في المائة للدولة لتقيم البنية الأساسية

وخمسون في المائة للعاملين في المصنع ..

- وكيف يتم صناعة صاحب العمل هذا ؟

- إن الرجال لا يصنعون ..

وهز العجوز كتفيه وقال :

- ألا نجد في الاشتراكيين رجالاً يعملون على تحقيق هذا ..

- جميعهم بتوع كلام وفلاسفة .. فمثلاً أساتذة الجامعة الشيوعيون

والاشتراكيون .. ماذا يفعل هؤلاء بهذه المذاهب .. إنهم فقط يكونون

أجيالاً تؤمن بهذه المذاهب وإنهم فقط يقيمون في بيوتهم صالونات فكرية

وأدبية لتمجيد الشيوعية والاشتراكية وخذ منهم فلسفة وآراء عن هذا

الفيلسوف وهذا المفكر الملحد وهذا .. إنهم يقيمون صالونات لأنفسهم

حتى تزيد من أستاذيتهم .. وللأسف إن الأستاذية الحقيقية مكانها الجامعة

وأن يعلموا الطلبة كيف ينتمون لأوطانهم وكيف يكونوا خلوقين ..

وظهر على العجوز بعض القلق فتلملم في جلسته وقال :

- إنك لم تجنبي .. من أين تأتي برجل الأعمال هذا ؟ ..

- من التربية وسكت ..

- يعني إيه ..

- التربية في البيت وفي المدرسة ثم الجامعة ..

- وكيف يتوفر لبيت أن يربي أطفاله وصاحب البيت لا يستطيع توفير أسباب

الحياة الضرورية لبيتة .. هذا في بلادنا ..

- الاشتراكيون هم الذين أوصلوا بلادنا إلى هذه الحال .. هذا في مدينتي أما في بلادكم فإن طبقة المنتفعين بعد الحرب وأثناءها هم الذين أقاموا تلك الرأسمالية الظالمة .. وفي كل الأحوال فإن الاشتراكية لم تستطع إقامة نظام اقتصادي وكذلك الرأسمالية الجديدة .. لقد أقاموا أنظمة اقتصادية جوفاء لها أسماء وليس لها جسد .. وهي جميعها متجردة من سمة العدل ..

- هل هذا لأننا نحاول استيراد أنظمة بلاد أخرى ..
- إنه يجب علينا أن نقيم نظاماً قائماً على الحرية الفردية، ولكن حرية فردية تراعى حقوق الدولة وحقوق العاملين وفي هذا نكون قد حافظنا على الأمة، الأمة التي نمزقها منذ خمسين عاماً ..
فقال له الشيخ مندهشاً من غزارة أفكاره :

- لماذا لم تخرج إلى الجماهير .. لقد تجمعت في هذا الميدان لأنهم يعتبرونك نصير الفقراء ..

- ومن أجل هذا الاعتقاد لم أخرج إليهم
- لماذا ..

- لأنهم كانوا سيهتفون .. يا زعيم الاشتراكية .. وأنا برئ منها حتى أموت لأنها هي التي جعلت الملايين من بلادي يهاجرون منها بحثاً عن العيش في بلاد أخرى .. ويذوقون مرارة الغربة من أجل توفير الطعام لأسرهم في الداخل، وبسبب هذا الذي جرى حدثت انحرافات كثيرة لهذه الأسر التي تركها عائلها إلى تلك البلاد .. ليوفر لهم الطعام .. وكيف يتربى أطفال بيت وصاحب البيت غائب، والرجل في بيته شيء كبير والنساء بلا رجل يتعرضن لكثير من المسائل التي تمس الشرف .. مشاكل اجتماعية لا حصر لها لأن كل الآباء قد رحلوا ليطعموا أبناءهم .. والتربية ليست الطعام فقط ، والذئاب في داخل البلاد استغلت ظروف كثير من النساء إلآتي هجرهن أزواجهن لتحقيق هدف توفير لقمة العيش .. ومن هنا تفتق المجتمع وظهرت مشاكل اجتماعية جديدة لا قبل للمجتمع بها من

قبل.. مشاكل غربية صنعتها الحالة الاقتصادية للبلاد .. وهذه هي الاشتراكية التي هتكت المجتمع ..

وركن العجوز راسه على كف يده لينتبه إليه أكثر ثم قال بعد أن سكت سلامة قليلاً :

- وهل مشكلات الهجرة الداخلية في بلادكم مازالت مستمرة - إن كثير من هؤلاء المهاجرين عادوا إلى بلادنا نتيجة أن الدول الخليجية إنكمش اقتصادها وأصبحت كثيراً ما تعتمد على أبنائها أو عمالة أخرى رخيصة من الهند والفلبين فأصبح طرد عمالة بلادنا يتخذ شكلاً طبيعياً فيعود العاملون لأن حياة الغربة لم تعد مجدية كما كانت، وأصبحت الدولة الآن تواجه مشكلة كبيرة لم تقابلها من قبل نتيجة أن العائدين لم يسلفوا أبداً مرة ثانية، لقد كانت البلاد تلقائياً تحل مشاكلها عن طريق دولة أخرى، أما تلك البلاد قد قفلت أبوابها الآن لأنها لم تعد تتسع لاستيعاب آخرين .. إن بالونة من المشاكل الداخلية أصبحت جد متقخة وعلى الأمة أن تقوم بفك وتهوية تلك البالونة يوماً بعد الآخر، وأن يعتمدون على أنفسهم في حل مشاكل البلاد، وأن هذا ليس مسؤولية طرف واحد ولكن مسؤولية أمة بأكملها، ولكن على الدولة أن تتعامل مع المواطنين جميعاً بشيء من العدالة ولا تفرق بينهم، فليس بحق ولا عدل أن تمنح فرصة لمواطنين بأن يأكلوا البط وباق المواطنين يقفون في طوابير للحصول على قطعة من مصران ..

وعض العجوز شفوية وظل يعضها من كل جانب ثم قال :

-مشاكل كثيرة ..

- لا ليست مشاكل ولكن .. هل تعرف ما هي ركيزة بلادنا التي لا تنضب .. ثم تنهد وقال دون أن ينتظر رداً من العجوز :

- إن جميع ما في بلادنا طيب والناس أقوى ما فيها، وأن نسيج هذا الوطن واحد لم يتجزأ، ولكن المشكلة أننا طيبون والسبب في ذلك أننا نعتنق مذاهب اقتصادية لا تتناسب مع أدياننا بقيمها وتقاليدنا العظيمة ، مثل

الرجل الطيب الذي يصدق حكاية لص أو نصاب، إننا نقع ونتعثر ونحزن في سبيل تحقيق حياة أفضل لمواطنينا، فمنذ خمسين عاماً والشرق يتردى وهو يقيم شأن مجتمع اشتراكي يحقق العدل وكانت النتيجة أننا .. لم نقم أي شيء وضاعت ثروة البلد وإنهار القطاع العام، وكان هناك أستاذ يدرس لنا المالية العامة في الستينات يقول دائماً أن القطاع العام رمز للعدالة وهو كيان المجتمع الاشتراكي، ولما كبرنا وأصبحنا محاسبين نعمل في شركات هذا القطاع، ذهبت إلى هذا الدكتور وكان يشغل منصباً كبيراً وقلت له .. هل مازال القطاع العام يقود التقدم هذا يا دكتور وأنا أرى القطاع العام من الداخل .. قال لي كيف تراه .. أرى أنها شركات خاسرة وتظهر في آخر العام أنها شركات تحقق أرباحاً طائلة .. فظل يقول كيف وكيف .. فأكملت له الحكاية عن آخرها ..

وإنتفض الشيخ وشهق ثم قال :

- وكيف لا يظهرون الحقيقة ..

- هذه هي مصيبة أخرى .. ثم تابع سلامة يقول وهو حزين ..

- الوزير يريد أن يبقى كوزير للصناعة ولا بد أن يكون عدد كبير من شركاته قد حقق أرباحاً ليكون ذلك مقياساً واقعياً للدلالة على نجاحه ويظل باقياً في قيادته لوزارة الصناعة فتكون هناك تعليمات إلى رؤساء الهيئات التي تسيطر على شركات الصناعة بأن تكون نسبة الشركات الخاسرة في هيئته لا تزيد على عشرين في المائة .. فإذا كان في هيئة التعدين مثلاً خمس شركات فيكفي أن تكون شركة واحدة هي الخاسرة ليكون ذلك مقياساً على نجاح هذه الهيئة وبذلك يبقى رئيس الهيئة في منصبه وبالتالي رؤساء مجلس إدارة الشركات .. والحقيقة أن ثمانين في المائة من هذه الشركات خاسرة .. وهكذا بنيان من تحت خاسر وحتى إلى قمة خاسر في الحقيقة .. لكن الظاهر أن كل الشركات ناجحة وأن كل الهيئات على خير ما يرام وأن الصناعة مزدهرة في عهد هذا الوزير فليبق على قمة وزارته هو وجماعته رؤساء الهيئات ورؤساء مجالس إدارة الشركات ..

.. هل تصدق أن وزير صناعة يبقى في منصبه أكثر من خمسة عشرة عاماً.. وفي الآخر يظهر أنه قاعد على مصيبة إسمها إتهيار الصناعة .. وأين كنتم من أول الحكاية أيها السادة .. فيخرج هذا الوزير ومعه بطانته.. وفجأة يا عزيزي نرى هؤلاء جميعاً وقد أصبحوا من كبار رجال الأعمال .. أقاموا المصانع وفتحوا الشركات ومكاتب الاستيراد.. وكان مرتب الواحد منهم لا يزيد على ألف جنيه .. ألم أقل لك من قبل أنه من كيان المجتمع الاشتراكي وقادته خرجت إلينا الرأسمالية الجديدة بوجه جديد ومخالب مثل مخالب الذئب .. إنهم في إطارهم الجديد يلقون بكل المصالح من أجل تحقيق أهدافهم، إنهم فئة جديدة طفت على السطح لا يراعون أي مبدأ يعمل على إصلاح الأمة، ومازالوا يقولون نحن شيوعيون واشتراكيون، إن الشيوعية بالنسبة لهم الصنم الذي أغناهم من فقرهم لدرجة أنهم لا يقيمون أي عبادة لله فالشيوعية كل عبادتهم، ومازال إيمانهم بها يفوق كل إيمان بعد أن أصبحوا أصحاب ملايين بسببها.. هل كان هؤلاء أبناء للإقطاع القديم .. لا .. إنهم جميعاً أبناء فلاحين فقراء وعمال كادحين ومن أجل ذلك انتقموا لفقرهم وكل ما عملوه أنهم قوم وصوليون وإنتهازيون فركبوا القطار العام ليصلوا منه إلى رأسمالية خاصة .. وهذا الحال في بلادكم أيضاً .. إن ما جرى في بلادكم يجرى في بلادنا .. إن هؤلاء الناس الذين تجمهروا مجانين وخائبيون عندما يهتفون للاشتراكية ثانية .. فالاشتراكية هذه قد خربت اقتصاد بلاد الشرق جميعاً .. لابد من حلول أخرى يا شيخي العزيز ..

.. إنقط رزونة أنفاسه لأنه يتقلب في قعدته منفعلاً فيما يقوله صاحبه عن الاشتراكية وشعر كأن جبلاً سينهار فوق رأسه وقال محاولاً الدفاع عن عقيدته:

- العيب ليس في الاشتراكية .. إنها مذهب وعقيدة وخلاصة فكر إنساني..

.. العيب في الاشتراكيين ..

- إذا هذا مذهب نظري لا يمكن تطبيقه فهو عسارة فكر إنساني من هذا
الفيلسوف لمحاولة إقامة العدالة .. ولكنه لا يتناسب مع نفسية البشر لأن
الذين يطبقونه يديرونه لصالحهم

- لا يا سيدي إنه مذهب حقيقي واقعي يمكن تطبيقه
- لقد فشل في كل بلاد العالم ..

- لابد من تطبيقه ..

- قم أنت بتطبيقه .. إن الذين قاموا بتطبيقه في أنحاء العالم كانوا طبقات
متعطشة للشعب بعد جوع .. واتخذوا من النظام وسيلة لحمايتهم ثم تحقيق
أهدافهم في النهاية .. ممكن ينجح لو قام بتطبيقه فلاسفة ومفكرين ..
وليس في كل بلاد العالم مفكرون أو فلاسفة ، وهم قلة في أي بلاد ..
وحتى هذه القلة فإن الفيلسوف أو المفكر زاهد في الحياة وليس له في
أمر الاقتصاد .. إنهم لا يستطيعون أن يديروا اقتصاد أنفسهم ..

وقام سلامة وتمشي في الغرفة وهو يضع إبهامه على فمه، وبعد أن كان
يجلس على مقعد في مواجهة رزونة إقترب منه وقعد بجانية ، وقال متوددا
إليها :

- نحن تافهون يا سيدي نضيع الوقت في الحديث عن أمور لا تفيد

-وما الذي يفيد إذا

-الذي يفيد ما الذي قدمته أنت لهذا البلد ..

-أنا مثل كل الناس يعمل لمصلحته ..

-ولكنك تضر بالمجتمع ..

-كل الذين يعملون لمصلحتهم يضررون مجتمعهم ..

-الذي أقصده أنك أقمت ملهى يذهب إليه الناس للونسة، وأقمت أفعالا لو
كانت في بلد آخر لأعدموا صاحبها ومقترفيها .. ولكن القانون والعرف
والثقاليات في هذا البلد في جانب والذين يعملون المنكر في جانب آخر،
وهما يعرفان كل منهما الآخر ويراه، ولكن كل واحد في حالة .. اللامبالاة
وأكل العيش والمصالح جعلت الناس جميعا في غيبة عما يحدث في

واقفهم .. وكل واحد بيقول وأنا مالي .. أنا عايز أربي ولادي بس ..
وسكت سلامة وأخذ يهز رأسه فقاطعة الشيخ قائلاً :

- هل تقصد أنني لم أعمل عملاً صالحاً .. يا سيد سلامة إن داري يعمل فيها
أكثر من خمسين رجلاً وامرأة، يكفي أنني أساعد في القضاء على البطالة،
وأنني أقمت في داري ملهى ومغني بأسعار رخيصة للفقراء، وأن هؤلاء
الرواد جميعهم اشتراكيون يجمعهم فكر واحد .. ولو لم يكن هذا الملهى
لتجمهروا كل يوم ..

- ليس مشكله أي شيء يجمعهم .. كنت أتمنى ألا تذكر شيئاً عن الاشتراكية
بعد أن أفضينا فيها ..

- إن مدينة تمتلئ بالآهات والآلام لا ينفعها إلا ملهى مثل داري يهرعون إليه
في منتصف الليل ويدخلون ديارهم عند الفجر .. إن على الدولة أن تحيى
ملهى الشعب

- إنني أعرف كل شيء عنك يا شيخ ..

- لما لا تأتي لزيارتي

- إذا قمنا بعمل بزنس مع بعض سوف أتى لزيارتك ..

- أي بزنس ..

- نقوم ببناء برج يصلح لسكن هؤلاء الغلبة .. إذا كنت فعلاً تحب الفقراء ..

- أنا أحب الفقراء لأنني كنت منهم ولكنني أحب أن أسحب نفودهم أو ذلك

الجزء من دخلهم الذي يوفرونه للملهى، فإذا قمت بإشباع هؤلاء لما

جاءوا إلى داري كل ليلة وذهبوا إلى ملهى آخر بالمدينة .. إنني أريد

هؤلاء القوم فقراء كما هم حتى يزخر ملهائي ..

- دعك من أن تشيد برجاً للغلبة .. أقم مصنعاً يتعلم فيه الفقراء وأبنائهم

الحرف ليكونوا في يوم عمالاً مهرة ..

- إنك سوف تجعل العالم يضحك على إذا أقمت برجاء أو مصنعاً للفقراء ..

الفقراء لا يعيشون في أبراج، إنهم يعيشون في العشش طيلة حياتهم ..

فكيف تجعل القردة تسكن البيوت وقد ألفت حياة الغابة .. وكيف يقبلون على تعلم صنعة وهم يحترفون التسول ..

- إن هؤلاء الفقراء يسكنون في أبراج أقمتها، وأقسم لك أنهم ليسوا حيوانات، بل أصبحوا أكثر إنسانية.. وعادوا مواطنين صالحين يعملون في أعمال نافعة وهم جميعاً يؤدون صلاتهم عن ذي قبل عندما كانوا يعيشون في ديار مثل الكوانيف، فالمسلمون أصبحوا أكثر إسلامية والمسيحيون الآن أكثر مسيحية ..

- إنني لم أعود على ذلك ولم يطرأ على بالي في يوم أن أقدم عملاً جماعياً يفيد الناس بهذا الشكل .. أنا لست عبيطاً. يا سيدي عندما أنفق مالي على الناس ..

وأمسك سلامة بذراعة محاولاً إقناعه وأخذ يضغط عليه ويقول :

- إنك سوف تأخذ جميع أموالك التي تنفقها في إقامة البناية، ولكن في شكل فيه رحمة بمعنى أن يصل إليك مالك على مدى سنوات طويلة وفيه ربح معقول .. والهدف من ذلك هو إعطاء فرصة للفقير أن يعيش ويسكن في مكان يشعر فيه بالآدمية وحتى يزداد حباً وانتماء لوطنه، هذا بالإضافة إلى أن الله سوف يعطيك ثواباً كبيراً في دنياك وآخرak .. وأمسك الشيخ بيد سلامة وقال له :

- أنا لست رجلاً مثالياً .. وإذا قمت بهذا الصنيع فإنني سأصبح رجلاً شاذاً سوف يضحك الناس على ويقولون أن رزونة إتجنن..

- إذا كيف تتكلم عن الرأسمالية الجديدة وتلغنها .. وكيف تكون رجلاً اشتراكياً وفيها مبادئ تدعو إلى العدل ومناصرة الطبقات العاملة ..

- إنني اشتراكى لأنني كنت في يوم وأنا صغير .. بل وطيلة حياتي عندما كنت أحمل حقيبة الحلاقة وأمشي خلف أبي من قصر إلى قصر آخر ...

كان الفكر الاشتراكى يروق لي بل كان يملأ دمي ونفسي لأنه الطريق الوحيد لكي ينال الناس شيئاً من العدالة وأنا واحد منهم، ولكن اليوم كل شيء قد تغير.. لم يكن في بلادنا ثورة للاشتراكية .. وكانت مراحل التطور

السياسي والاقتصادي من إقطاع إلى رأسمالية كما ترى .. فلم أكن سياسياً اشتراكياً أو أنني كنت من ضمن الرجال الاشتراكيين الذين قاموا بالقضاء على الإقطاع ليقيموا مجتمعاً اشتراكياً وركبت معهم هذا الحصان لأصل نهاية السباق إلى ثروة .. إن الاشتراكية لم تكن سبباً في غناي .. إن بلادنا كلها لم تمر بالنظام الاشتراكي سياسياً واقتصادياً .. ولكن الفقراء والمحتاجين والذين كانوا يعانون من فساد الإقطاع إتخذوه فكراً لهم وكنا نتمنى تطبيقه كما حدث في كان منذ خمسين عاماً فعندما مات أبي منذ ربع قرن قمت ببيع عدة الحلاقة وبيتنا في المدينة وغادرت البلدة إلى أقرب تبة تحضنها والتي منها يبدأ الدخول في الطريق الجبلي، إشتريت داراً واسعة من سيدة عجوز تدعى أم العلو سطوحي وكانت نواة للبداية الجديدة حيث أقمت المقهى في جزء كبير منها وأقمت في بقية الدار .. ومرت حياتي فوق هذه التبة بأحداث غريبة وكثيرة وكان الشيء الوحيد الذي يشبع نفسي أنني أرى المدينة كلها تحتي حين أنظر إليها في أي وقت وعندما أنسجم مع نفسي وأظل أضحك حتى يكاد رنين ضحكتي يصل إلى مسامع المدينة كلها .. وتطورت المقهى وأصبحت الآن ملهى الجبل المشهور الذي يقدم خدماته للفقير والغني .. أليس في هذا عمل خير يقدم الخير والسعادة حتى للأعرابي الذي يرعى الغنم في الجبل ..

- إذا أتمم الاشتراكيون تتمسكون بالاشتراكية كشعار ويعضكم يأخذها مذهباً .. وعندما تصحبون أغنياء أو تشبعون فإنكم تنسون كل شيء، وتظلوا ترفعونها كشعار أو كمضغة في فمكم تلوكونها وقت ما يحلو لكم، وتكيلون للشعب الإذراء والإحتقار فلا تعاونون فقيراً ولا تحققون عدلاً انتقاماً من عقبتكم القديمة عندما كنتم صغاراً تعانيون الجوع وتسكنون في الأحياء الفقيرة ..

- إننا لسنا مرضى اجتماعيين يا سيدي .. ولكن لا تنسى أننا بشر ..

-إننا جميعاً في حاجة إلى مجتمع آخر يجمع شملنا .. إنني أشعر بأن كثيراً من حياتنا قد تهرأ واستهلك ، في حاجة إلى مجتمع اقتصادي طبيعي يتناسب مع تقاليد الشرق ومبادئ الأديان فيها ..

-كيف ؟

-الحرية الفردية الطبيعية التي تراعى حقوق الأمة .. فالرزق هو رغيف في يد كل صاحب عمل .. عليه أن يراعى فيه أن كل الناس لها بطن مثل بطنه ومن حق الجميع أن يأكلوا .. فيقوم بتوزيع هذا الرغيف بالعدل، حقوق العاملين وحقوق الفقراء حوله وحق الدولة التي تقوم بحماية وحراسة الجميع .. إن علي كل صاحب عمل ألا يخرج عن مجتمعة وأن يكون فاضلاً صاحب قيم لا صاحب سفالات .. خمسة وعشرون في المائة للعاملين وخمسة وعشرون له وخمسة وعشرون للفقراء وخمسة وعشرون للدولة.

-أنت رجل غريب .. لقد أجملت كل إقتصاديات الدنيا في رغيف .. ولكنك ظلمت صاحب العمل

-حتى تعلم أنك لا تعرف الاشتراكية إلا نكرة وكلاماً .. لقد انحزت إلى جانب صاحب العمل مجرد أنك أصبحت تملك ملهى .. ليس مشكلة وما هو اقتراحك أنت ..

-خمسة وثلاثون في المائة لصاحب العمل حتى يشعر بالحافز وأن هناك حرية فردية طبيعية وثلاثون في المائة للعاملين وعشرون في المائة للأقارب والفقراء المحتاجين وخمسة عشرة في المائة للدولة، ويجب أن تتأكد من أن جزء الدولة يدخل فعلاً ميزانيتها ويخصص لصالح مشروعات نفع البلد والمجتمع .. إنه في كثير من بلدان العالم .. الدولة تبيع كل شيء ولا يدخل الميزانية إلا قليل من حصيله هذا البيع ..

-ويكون بعد ذلك مبادئ وقوانين تطبق هذا .. إن مراعاة حقوق الجميع كما ذكرنا هو مراعاة لحقوق أمة ..

-صعب .. إن حماية حقوق الأمة صعب لا تنفعه القوانين

- لابد من الشعور العام والإحساس بأننا جميعاً أمة، وأن الأمة هو ذلك الكيان الكبير الذي يطلق عليه الوطن وأن الوطن لا يمكن حمايته بالجيش وحده .. ولكن الأوطان تحمي بالإقتصاد .. والعدل في الاقتصاد .. وأن نتأكد أولاً أن رغيف الخبز يصل جزء منه إلى كل مواطن وأن جميع من في الوطن يشبعون ولا يببب واحد في بيته وهو جائع .. وإن كل واحد في الوطن ينحني على الآخر ليساعدة ويودة ويعطف عليه .. وأن يطبق القانون على الكبير مثل الصغير وأن يكون المسئول مثلاً .. فلا سارق ولا كذاب ولا ناهب بين من يمسكون أمور الدولة .. وأن يكون الكبير خادماً بمعنى أن يطمئن بأن رغيف الخبز قد وصل إلى كل مواطن .. أن يكون راعي أمة وليصافح الفقير وليقف بجانب كل صاحب حق وينحني على الجميع في حب .. يأخذ بيدهم جميعاً من أجل أن ينحنوا جميعاً أمام أمة .. إن الوطن يحمي بأبنائه الذي يعملون في اقتصاد حر يراعى حقوق الجميع بلا أدنى ظلم أو خنوع المحتاج للغنى .. وألا يكون في الوطن عبد .. وليكن الأغنياء وأصحاب الأعمال أول الذين يقومون بتحرير العبيد ..

- كيف يذهب الأغنياء لتحرير العبيد ؟ لا أفهم ..

- إذا لم يعط الغنى الفقير نصيبه في العيش فإن سقف العبودية يبدأ، وإذا ظلم الغنى الفقير في رزقه ورضى الفقير بأن يأخذ بعضاً من حقوقه فإن هذه هي العبودية .. وإذا أهينت الأمة في فقرائها ومحتاجيها فلا أمة .. ويجب على الفقراء ألا يتوقفوا عن نيل حقوقهم ..

- هذا كلام طيب وكأن مجتمعاً من الملائكة سوف يقام .. هذا تصور رومانسي للحياة الاقتصادية

- لا .. والله .. إننا جميعاً فقط نحتاج إلى قليل من القيم .. وهو مجتمع بين أيدينا وواقعي ..

- إنني في حاجة إلى طعام يا سيدي ..

تتأعب سلامة وقال وهو يقهقه :

- ماذا تريد من الطعام يا شيخي العزيز ..

-خروف مشوي ..

-يا راجل يا مفتري ..

... كان الليل قد بدأ يخيم على المدينة فتلاأت شوارعها وميادينها بالمصابيح، وبدأ الناس يعودون إلى منازلهم والآخرين يذهبون إلى أعمالهم في المصانع التي تسهر حتى الصباح، وكانوا يركبون عربات ضخمة قديمة تنتظرهم في الميادين الرئيسية، إلا أن كثيراً من هؤلاء الناس كانوا يتحدثون عن جمهرة الشعب بالميدان وكانوا يتمنون أن يسفر اجتماع هذه الجمهرة عن حلول حقيقية لمشاكلهم وعذاباتهم مع أصحاب الأعمال، لكن القمر في هذه الليلة كان مدفوناً بين السحب العالية، وأشواق الناس إلى النجاة كأطواق للغرقى وسط أمواج هائجة، إن الأغنياء يتسامرون طيلة النهار في الهاتف ونسائهن من كثرة الحرير ولهوهن مع العبيد داخل قصور شاهقة بدا لهن أن لا نهاية للنعيم، وملاهي المدينة فاجرة تلتهم من كان يدفع أكثر ولا يفعل ذلك إلا اللصوص .. لكنهم في أعين من يقبض النقود أو الصكوك ملوك وتحت أقدامهم ينحنون حتى تكاد جباههم تلامس قناديرهم اللامعة، ولا يرث الحزن ولا يزرف الدمع ولا يجوع كلب يعيش في بيوتات نصابي البنوك .. ولكن الحزن العميق الموروث هم أولئك الذين ورثوا الفقر عن آبائهم وأجدادهم .. إنهم أولئك الذين يقطنون الأحياء الفقيرة منذ عقود .. لأنهم لم يستطيعوا التحايل على قاتون لنهب أرض أو تقديم أوراق تجارية مغشوشة لبنوك .. إن للأرض ملوكاً وللبنوك أفاكين .. إنني لأدهش لمن يقبض بين يديه على أموال ضخمة كيف يتركها لفئة من الناس دون ضمانات أو أصول .. أبالثقة تهدر أموال الشعب المسكين، نحن لا نحسن تنمية أوطاننا ونسحق أعمار الألوف ونجعل الأطفال الذين مازالوا فوق حجور أمهاتهم عندما يكبرون سيسIRON على شوك أعدائنا لهم في كل مكان تطأ أقدامهم الصغيرة، لا أحد يرعى ولا أحد يحب غيره ولا رجل ينكر نفسه .. إننا لن نستطيع الآن أن نفعل شيئاً .. إننا فقط نقدر أن نأوى إلى أفكارنا وقد نسارع إلى البكاء وكثيرين يكتمون الأحزان في رؤوسهم وهذه بالونة القدر الخفي .. إنها من صنعكم لا يستطيع أن ينفخ فيها

إلا الإنسان الفظ .. هل أنتم أبناء الوطن .. من أين جاءوا بهذه الفظاظه .. إنهم لا يعلمون أن الشوك يحصد الجميع وأن الليل قاس لا ينطوي، إنهم لا يدركون أن نعمة الله أمانة للجميع، وأنه من حق الكلاب التي تعوي في البراري وليس لها بيت يأويها من حقها على هؤلاء نصيب من خير الوطن ونعمة من رب لا يظلم وأنت تظلمون .. النار بين العصور تلتهب وأين الماء .. الماء سلام ومن يستطيع أن ينزل الماء على الهاوية، إنه لهب وبعده فاجعة .. إن بهجة لقله عنيفة تأكل من دم الفقراء خبزاً طرياً وتمنع عنهم قطرة مساء، أباطل الأغنياء دين للاهثين من أجل العيش، هناك من الفقراء يتوقفون عند أديانهم حتى ولو مات أبناؤهم من الجوع والعطش، أهذه الطبيعة الإنسانية رذيلة، ألم يعد للناس عالم آخر يتعدى عالم تلك الطبيعة الهزيلة، الحصار قد صنع من قضبان حديدية ينج في أحداق كل الناس قهراً .. وأنه لا غد .. والغد أسوأ من هذا النهار .. وكم بالباب غيم ينتظر وهل من الأبواب باب قد يضيء، جوع فوق جوع وحرمان متظاهر بالصمت والصبر أصحابه يجدون في سجودهم شعباً من جوع بعده جوع، إن العامة من الناس والحافية أقدامهم في القرى والكفور وحواري المدينة يتحدثون كل يوم مع بعضهم حديثاً يفوق في معرفته وإدراكه حديث رزونة الفيلسوف صاحب الملهى وسلامة الكائن الغريب الهارب من مدينة أهدرتها مبادئ الاشتراكية العظيمة .. ولما انتهيا من طعامهما نادي سلامة سكرتيره وقال له :

- خذ هذا الطعام وأطعم من يستحق ..

فأحنى الرجل وحمل قارباً من المعدن ممتلاً بالأرز واللحم المشوي، حملة إلى غرفته فأكل منه ما لذ وطاب، وأعطى للصباغي كيسابه أرز وقطعة لحم .. ولما إطمأن إلى خروج سيده وضييفة من المكتب إلى الطابق الذي يأهله سلامة. هاتف مجموعة من بنات الصنوق اللاتي يعملن لدى أصحاب المحلات وأخبر واحدة بعد الأخرى أنه يستضيفها على مائدة ثمينة .. وجاءته واحدة بعد الأخرى وأكلن حتى شبعن وكل واحدة منهن ممتنة لصاحب الطعام وقامت بعضهن بتقبيلة وانصرفن بعد أن همس في أذن كل منهن يكلمات ودود

صرخن بعدها كل بطريقتها وكان رنين ضحكاتها يصدح في جنبات السوق كله
 كأن محل الموسيقى قد أدار في كاسيته شريطاً لضحكات النساء الغانيات.
 وكانت واحدة منهن قد طلبت لقاء في شقته كما لقيته من قبل..
 .. وكان القمر المدفون بين الغيام يفلت من تحت سحابة فتتلقفه أخرى ومع
 ذلك فإن نورة ينبثق نحو الأرض وهو ينتقل بين السحب، والليل يدخل
 الملاهي في كافة أرجاء البلدة تفتح أبوابها والموسيقى تلتهم شوق الناس
 حيث تهتز الأوتار، غير أن ملهى رزونة يصدح بأغنيات نجلاء القصر..
 أغنيات تختلف عما غنته من قبل وكان الرواد جميعهم يجأرون من حلاوة
 الكلمات التي تقول :

- أنا حكيمة وحكمتي في الأثوة

وهذا الذي بيني وبينكم ذكريات

ذكريات الصباح والمساء ..

لا أحد يظن أن هناك مساءً بغير رجل

وأن يصبح صباح دون امرأة

والشهور والمواسم ونجوم السماء

سوف تهتف بصوتي .. صوتي الذي

حولي رنينه يفتersh رمال الصحراء

وينتظر فوق صخور الجبل

لا وقت للعناق فهو الشوق في الشتاء

واللهيب في الصيف وخضرة الربيع

وتجرد الأشجار في الخريف مثل امرأة تتجرد من

ملابسها ..

إنه في كل وقت .. فلا مواسم للحب

ولا حب بغير عناق .. في جسدي حياة ..

وكان الموسيقى الصاخبة وعنف الرجال وعري النساء ودخان السجائر

والشيشة والشراب الساخن وعطر النساء يلف المكان كأنه زجاجة من شراب ..

لا أحد يحمي جسدة لقد إندفعا جميعاً لبيع جزء من هذا الجسد فليرشف واحد بعد الآخر من الزجاجة، كل امرأة تغريك بطيشها بنعاسها بتيهها بتمزيق قميصها، حمراء تلك الليالي فكل أعضاء الجسد تتمايل نشوة وتبيع تاراً .. لهب يمسك بلهيب كل الأعضاء تطيش ، ولما تبلغ النساء الذروة يصرخن والرجال يضربوهن فتبلغ كل امرأة ذروة وتظل تصرخ وتنفصل الأطراف .. وينهبل الرجال .. وضعف الكثيرون ولم يخلجوا وزعق رجل فلاح :

- هذا ضعف يا رجال عيب يا رجال ليست هذه الرجولة ..

فاندesh الذين ينفصلون ولم يبالوا .. غير أن واحداً من الميكانيكية قال في شمنزاز :

- ما لك يا مخبول .. لماذا أتيت هنا في الأصل ..

فقال الفلاح :

- ولكن ليس إلى هذا الحد .. إن الأطراف تنفصل ..

فقال الميكانيكي وهو يقذف نحوه بحجر شيشة :

- قوم يا بن الكلب من هنا ...

وقام الفلاح وخرج من المرقص وكان جماعة من الاستورجية يدفعونه إلى الخارج ..

- كانت المدينة جميعاً تبحث عن الدنيا والبحث عن لذاتها لديهم .. حتى فقرهم وظلمهم وصيحات الرجاء والألم كان هدفها الحياة الدنيا ولا أحد يبحث عن الآخرة ، وكان الحديث بين سلامة ورزونة طويلاً حتى بلغ الوقت بعد العاشرة مساءً ، وقلق العجوز وتململ في جلسته واشربت رقبته لأعلى وتردد .. كيف يطرح عليه موضوع سلطنة .. وجمع شتات نفسه وسيطر على ترده وقال في دهاء :

- تقابلت منذ مدة مع واحدة في الجبل كان أبوها صديقي .. وأخبرتني شيئاً هاماً يخصك ..

فأنتبه إليه سلامة وتقدم في جلسته إلى حافة المقعد وقال متشوقاً :

- من هي .. ما اسمها ؟

كان أبوها حبيبي وكانت طفلة في ذلك الوقت ، وحدثتني عنك طويلاً ..

- وانفعل سلامة وقال وكأنه يشخط :

- قل من هي ؟ ما اسمها يا شيخ ؟

- إنها سلطنة يا سيدي .. ابنة حافظ الطراونة .. أخبرتني بأنك .. وسكت ..

- أكمل يا شيخ .. ماذا أخبرتك ؟ قل ما عندك ..

- أنك تزوجتها وقت أن كنت مهاجراً من المدينة .. ثم تركتها أياماً طويلة

في الجبل .. وسكت قليلاً ثم قال :

بعد أن شوقتها للمدينة وأهلها .. فتمردت على حياتها في الجبل من بعد

هجرانك ..

.. وأمسك سلامة رأسه بكف يده وكأنه يخشى أن تقع وقال مندهشاً :

-لقد عدت إلى الجبل فلم أجدها .. حتى أنني أستأجرت عدداً من الناس

للبحث عنها في المدينة .. الآن عرفت لماذا فشلوا جميعاً في العثور عليها

.. اعتقد أنها عندك في دارك..

.. وهز رأسه دلالة على أنها عنده وقال في تريث :

-لقد كانت تحمل أغراض بيتها على عربة وجاءتني لبيعها وكان معها

ولداها وباتت في داري ليلتين وفي أثنائها عرفت أنها ابنة صديقي فرحبت

بها وأكرمت ضيافتها .. ومرت أيام أخرى علمت فيها بأنها كانت زوجة

لك.. وكنت مندهشاً .. كيف يتزوج السادة من الغجر ..

وقال سلامة بصوت رزين :

-أنا لست من السادة، أنا من أسرة متوسطة الحال في مصر، إلا أن كل

الناس يعتبرونني هنا سيداً لأنني تزوجت من الأميرة، والأميرة تزوجت

مني لافتقار البلدة إلى الشباب في حينها .. ولأنني كنت عال الثقافة وكنت

شبيهاً بأبناء الملوك كما كانت تقول لي ... أنا في حقيقتي لست سيداً ولا

ابن ملك .. لقد كان أبي يفلح الأرض بيديه وكانت أمي تحلب الجاموس

والأبقار بيديها وتخبز لنا الفطير، غير أن أمي كانت بيضاء جميلة طويلة

طرية العود وأننى ورثتها، وكان القدر يؤهلني للزواج من بنات القصور

.. فلا يغرك المظهر يا شيخ أنا في داخلي عبد مناضل أحب الفلاحين والعمال والفقراء ولكنني لست اشتراكياً ..

- الغريب أنك شخص متناقض الأطوار ، ولأول مرة أعرف بطلاً مثلك فعل الكثير في أيام الحرب وليس له أي اتجاه، لو كنت مثلك لكان لي اتجاه وعملت انقلاباً عسكرياً ونصبت نفسي زعيماً أو ملكاً لهذه البلدة ولكنك لم تفعل ولم يكن لك اتجاه ..

-الموضحة في بلاد الشرق الأوسط أن يكون للإنسان اتجاه، وهذه الاتجاهات ابتدعها السياسيون في هذه البلاد، ولو كان هناك نضج عقلي وقليل من التدبير لما إنساق الناس إلى هذه الغيبة، إن هذه الاتجاهات السياسية هي التي أسقطت تلك الدول وجعلتها تجرب مذاهب الاشتراكية كتطبيق أو نظرية للحياة الاقتصادية وكانت النتيجة ضياع ثروات الشعوب واتجاه تلك الدول من جديد إلى تطبيق المذهب الحر وهو الطريق الطبيعي للإنسان فوق هذه الأرض .. وهل يكون للإنسان اتجاه غير الاتجاه العقلي .. وهل هناك طريق سوى في هذه الدنيا غير أن يكون الفرد متديناً دون تعصب، يحب لغيره كما يجب لنفسه من حرية وعدل وأمان .. إنهم دمرونا يا شيخ .. ونحن بعد نصف قرن نبدأ من جديد .. ضاعت حياتنا بين الخطب الرنانة التي تثير مشاعر الجماهير، والشعارات والمظاهرات والمسيرات لا تؤيد إلا الزعيم الأوحده، أين هذا الزعيم الأوحده وبطل القومية والحروب التي لا طائل لها، ما الذي جنيته نحن الشعوب .. الباقي هو الأمة .. أين الرجل الذي يعمل لصالح أمتة .. والآن هل فهمنا الدرس بعد تلك العقود من الخراب هل نقوم معاً بهدم وإعدام تلك الاتجاهات الخائبة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على الجهل .. وقام الرجل العجوز واقفاً وقال وهو يضرب كفاً بالآخر :

-أين ذهب يا سيد سلامة .. إنك أبو الخطب كلها .. وأين موضوعنا .. أنت سياسي رهيب .. ولكنك ناقم على كل السياسيين والاتجاهات السياسية،

ولكن بعد أن فشلت كل هذه التجارب والاتجاهات .. ما الذي يعتنقه أهل الشرق من السياسة ؟؟؟

- سؤال خطير جدا .. وأعتقد أن الناس جميعا قد فهمت بعد طول عناء ما الذي يعتنقه أهل الشرق ؟ أقعد يا شيخ .. أجلس حتى نكمل حديثنا .. أين سلطنة الآن ؟

- إنها في داري يا سيدي .. ولكن ..

- هاتالي .. إنها زوجتي ..

- لا .. إنني لا أرضي لك أن تكون هذه البدوية الوضيعة زوجتك ..

- هل هذا نفاق ؟ .. ألم تقل أن أباه كان صديقا لك .. لماذا لم توف بالصدقة ..

- وهل تريدني أن أخدعك ..

- أفصح يا شيخ رزونة ..

- لا أرضي لك زوجة عاشرت الرجال وهي متزوجة منك ..

- وهل أنت صادق في خبرك .. ورأيها بعينك ..

- نعم يا سيدي .. إنها زانية ..

- لم أعد الآن أعشق النساء، ولكنني أعشق الآن أعمال الخير، ولست سفيها حتى أضيع وقتي للتحقق من امرأة .. آتني بها اليوم قبل الغد حتى أطلقها ..

.. وسعد رزونة ملأ قلبه ومد يده ليصافحه في حرارة وإشراب مرة أخرى حتى يقبله وقال وهو يمسك بذراعه :

- سأتيك بها غدا في أول المساء .. ثم إنصرف ..

.. ولما عاد العجوز إلى داره وقابلته سلطنة في لهفة وطمأنها الرجل قائلا :

- كل شيء كما تريد .. إنه رجل مسالم .. لقد خدعته واختلقت له قصة وهمية حتى يكرهك ويطلقك دون ندم ..

ولمع في عينيها ضياء الشوق إليه، وبكت كأنها تندفع نحوه ولولا ولداها اللذان كانا يقفان معها لحملتة إلى الفراش، وشعر بها فدخل الدار وهو يشتم

منصور، وخلفه دخل الولدان وأمهما والحرس الخاص حتى قعد على فراشه.. وطلب من حاشيته الإصراف وانحنت على ولديها تأمرهما بالإصراف، وبعدها حكى لها كل ما حدث ولما انتهى طوته بذراعيها وقالت وهي تلتصق به :

-إنني أطلب الحرية وأنت حرיתי .. الآن ألغى حرיתי التي كنت أنشدها في المدينة، وأفضل لك الحرية التي تمنحني إياها في هذه الدار، أنا في حاجة إلى رجل جبلي مثلي أكون له كل دنياه، عندما تخلصني من سلامة تكون قد أنهيت عبوديتي مع رجل عاش في القصور ويعرف الأميرات .. إنني معه أشعر بأنني خادمة يأمرها سيدها وما عليها إلى الطاعة، سأكون سيدة هذا الملهى أشير إلى الرجال جميعاً عاملين وزبائن فلا يكون إلا الطاعة والرضا .. امرأة لك وقت ما تريد راقصة ومغنية ملهى الملك .. سوف أطلق على الملهى الجديد هذا الاسم.. والملك هو أنت .. أنت ..

.. وأخذ يمسح بأصابعه على جبينها وقال وهو يشد الغطاء عليه :

-أنني في حاجة إلى النوم العميق .. في الغد بعد المغيب سوف نذهب إلى سلامة لإنهاء تلك المهمة ..

-هل تسمح لي بالتجول في الملهى والسهر حتى آخر الليل ..

وضحك وقال هو يمسك بذقتها :

-لقد بدأت تهيئين نفسك لإدارة الملهى ..

ومسحت على وجهه بيدها وقبلته ثم قامت إلى حقيبة ملابسها لتغطي رأسها بمنديل، وأطفأت الأنوار وخرجت إلى حيث كانت نجلاء القصر تكاد تنتهي من غنائها والجماهير تطلب منها المزيد ..

وجلست في المقدمة وأشارت إلى المغنية التي انتهت بالفعل من وصلتها، وجاءتها تهوول وقبلتها في عنف واحتضنتها وجلست إلى جوارها وقالت في صوت متهدج :

-جئت في الوقت المناسب .. إنني أريدك منذ أول الليل ..

وكانت سلطنة ترنو إليها بعينين يفيض منهما الود وأمسكت بكف يدها وشدته إليها وضغطت على أصابعها بنفس قوة تقبيلها لها وقالت هامسة :

- لا تذهبي إلى المدينة إنني أريدك الليلة
- خير يا سلطنة .. أنا عجبك للدرجة دي ..
- ليس لهذا الأمر .. إنني أريدك في أمور تخص الملهى ..
- تخص الملهى ..
- سوف أهدم الملهى ..
- يا نهار إسود وأنا أروح فين
- يا عبيطة .. سوف نشيد ملهى جديداً على أحدث طراز ..
- كده معلش .. وعمي رزونة وافق ..
- لقد وكلني في هذا الأمر ..
- إن تشييد المبنى يستغرق وقتاً طويلاً .. وأفسهم من ذلك أن نشاطنا سيتوقف ..
- النشاط مستمر سوف نبني الملهى في الجانب الآخر ونحتفظ بالمبنى القديم، ولما ننتهي من تشييده سوف نقيم مكان الملهى القديم جراجاً لسيارات الزبائن ..
- أفهم أن الزبائن الجدد هم السادة الحرامية بتوع اليومين دول ..
- طبعا كل الناس المحترمين هاتيحي هنا ..
- الموضوع كبير وعايذ فلوس كثير
- أنا عامله حسابي ..
- عملت إية في رزونة ..
- دا حبيبي
- يا ريت أقول الكلمة دي مرة في حياتي ..
- الرجاله كثير بس إنت خايبة .. إطلعي من حنة السمات دي، دا الرجاله حلوين أوي
- فين هو الراجل ده كلهم حيوانات ..
- إنت عايزة واحد بني آدم ..
- مش هلاقية عمري ..

.. وظلت المراتان على هذا الحال يتحدثان في أمور شتى حتى أغلق الملهى في الرابعة والنصف صباحاً ، وبقيت نجلاء مع سلطنة في الدار .. ولما خلدتا إلى الفراش تحدثتا في شيء حتى ذهبت كل منهما في نوم عميق ..

- وفي اليوم التالي عندما حلَّ الليل ركبت سلطنة بجوار عمها في المقعد الخلفي بالعربة، واخترقت المركبة طريقها إلى برج سلامة في المدينة، وكانت ترتدي فستاناً طويلاً مشقوق الجانبين من الستان الأخضر وفوقه لفت عباءتها كعادة أهل القبائل، وتدلى شعرها الأسود الفاحم خلفها حتى كاد يلامس مؤخرتها .. وكانت قد قامت منذ الضحى العالي ومعها نجلاء، حيث تناولا حماماً معاً .. وأخذت كل منهن تتزين ، غير أن صديقتها ساعدتها في تليق شعر وجهها ورسمت لها حواجبها ورموش عينيها وكحلنها كما تكحل العروس وعطرتها بأرقى العطور ودهنت جسدها بوسائل كالزيت يجعل البشرة ناعمة لمساء، ولما برزا النهدان بين حافتي نسيج الستان قالت لها نجلاء :

-والله لو أنني سلامة لما تركتك تعودى إلى هنا أبداً .. كان عليك ألا تتزيني بهذا الشكل ..

فقالت لها سلطنة بقلب يرتجف :

-لا أستطيع أن أذهب إليه بشكل عادي ..

-إذا أنت تذهبين للقاءة .. هل تريديه ..

-إنني أريد الذهاب ..

-وتريدين الرجال ..

-يكفينى رزونة مع الذهاب ..

-ولكنك تذهبين إلى رجل المفروض أن يطلقك .. كان يجب عليك أن تذهبين

إليه في ثياب الغجر حتى يكرهك ..

-لا تتسين أنه إنكشف على ويعرف جسدي جيداً ..

-أنظري إلى المرأة .. إنك تذهبين إلى رجل هو زوجك وكان متزوجاً من
أميرة البلاد ، إنك بهذا السحر تقولين له طلق كل النساء وتزوجني..
وضحكت نجلاء بصوت عال ثم أردفت :

-أنت غبية يا صديقتي ..

-أنا امرأة وإن كانت غبية ، حتى أخبره بأنه من بين صخور الجبال تخرج
نساء مثلي أجمل من الأميرات .. إنني أشعر في قرارة نفسي أنني مازلت
بدوية وبهذا التزين أريده أن يري بعينية أنني لست كذلك ..
-آه .. تخاريف .. تخاريف .. أنا عن نفسي أتمنى أن تحققي ما تريدين
وتعودي إلى هذه الدار ويكون لك كل شيء هنا ..

* * * * *

وكان سلامة قد دبر أشياء في نفسه ، ودأبت مخيلته أفكاراً مثيرة وأخرى
تطمئن إليها سريرته، غير أن أمراً يغلي في داخله كالذي يحاول أن يتذكر
حياته الأولى منذ أن كان طفلاً يحبو في قرية شنشور.. حيث كان والده الفلاح
الأصيل البسيط، شدته تلك الطفولة العميقة عن أي شيء آخر جد على حياته،
وقرر أن يهبط من تلك الأعالي إلى واقع هو فيه زوج مفترى عليه .. جلس
في أول المساء قرب شرفة غرفته يتأمل المدينة حواليه حيث كانت تترامى
أطراف الأحياء الفقيرة أمام ناظريه، كانت بيوتاتهم وشوارعهم وحوانيتهم
ومساجدهم وكنائسهم القديمة منتشرة حول سوقه، وأيقن وهو في عمق تذكره
لطفولته الطيبة التي تربى عليها أن فقراء البلدة يحتاجون إلى كثير جداً من
الأبراج والأسواق التي يجب أن يقيمها، فكيف إلية بالطريق الذي يحقق ذلك.
وقرر أن يذهب في أقرب وقت إلى القصر القديم لاستخراج الكنز الذي وهبته
إياه تلك السيدة الكبيرة حتى يقيم عمارة وسوقاً ليخفف عن هؤلاء البشر
المحتاجين الذين يملأون المدينة .. وكانت حكايات العمال الحزينة في الشركات
والمصانع لدي أصحاب الأعمال هؤلاء تنشق لها الأنفوس وتوجع قلب كل
مؤمن، وتمنى لو يدخل كل مصنع ومعمل ليرى عن قرب كيف يتعذب هؤلاء
العاملون بنار أصحاب الأعمال، حيث نيران تلتهب الناس جميعاً فلا أمان أو

ضمان ولا تأمينات، إنهم جميعاً يعملون بأبخس الأجر من التاسعة صباحاً وحتى الحادية عشرة ليلاً أو منتصف الليل، إنها قضية مدينة بأكملها يجرونها إلى الهلاك.. وأصبحت العبارة المشهورة .. مانناش دعوة بالقطاع الخاص.. ومرت عليه صور الحب : وضمادات القطاع الخاص في أوروبا وكيف أنه يبحث عن كل ما يحقق للفرد الرفاهية والأمان .. هل المواطن في الشرق حيوان .. وإذا كان أصحاب الأعمال في كافة قطاعات الأعمال الخاصة في الشرق يعتبرون الإنسان حيواناً .. أليست هناك حكمة تقول .. الرأفة بالحيوان .. هل عادت شجرة الزمن القديم .. كان يريد أن يصرخ .. لكن إلى من .. كانت جموع الناس تلتف في الميدان منذ أيام وبعضها هتفت له لينقذها ، ولكن كيف لرجل أعزل أن ينقذ فرداً واحداً من الظلم .. المظاهرات لن تفيد والصراخ في واد سحيق والسكوت على الظلم فظيع .. فكيف الحل لحماية شعب المدينة من ذلك الهلاك..

وشعر بأن قضية التافهه مع امرأة تزوجها وانحرفت أمر يجب ألا يبالغ فيه، عليه أن يعالجه بدقة بالغة من الحكمة .. وكان منذ الصباح قد أعطى تعليمات لسكرتيه بأن يستقبل رجلاً عجوزاً وامرأة في الصالون الملحق بمكتبه سيصلون في أول المساء، ومر بعض الوقت وهو يتأمل ذلك الأفق البعيد الذي يحضن الجبال المحيطة، ثم دق جرس الهاتف ليبلغه مدير مكتبه بأن الضيفان قد وصلا، ونزل إليهما ودخل حيث ينتظران متجههم الوجه قائلاً :

- هلا بكم ..

وجرت إليه سلطانه وتركها تحتضنه وربت على ظهرها حتى تهدأ ثم أمسكها من ذراعيها وأبعدها عنه قليلاً فوقعت عبايتها فرأى جسداً عارياً يلفه فستان ضيق ألمس فقال منفعلاً وهو يفك يديه عنها :

- ارتدى العباءة .. أسترى نفسك من الرجل ..

ولفت عبايتها حول جسدها ثم اندفعت إليه ثانية تحتضنه فتركها تفعل قليلاً ثم قال في جسارة :

- إجلسي إن الرجل يرانا ..

فضحك العجوز في خبث وقال :

- أنا مثل أبيها يا سيدي .. إنت وحشتها يا بطل ..

وهز سلامة رأسه كمن لا يعجبه قول العجوز وطفق قانلاً :

- بطل إيه يا راجل كان زمان .. هو فيه راجل مراته تتوه عنه

فقال العجوز وهو يدك عصاته بالأرض :

- أنا عمها وأمين عليها ..

ونظر إليه شذراً وقال :

- ولما إنت عمها وأمين . سبتها ليه ترقص وتطلع مع الرجالة ..

وضربت سلطنة صدرها بكفها وقالت وهي تصرخ للعجوز :

- أنا رقصت .. وخرجت مع الرجالة .. والله ما حصل ..

وكاد العجوز يختفي في مقعده .. كان يريد أن يجري ويهرب .. وأشار إليه

سلامة قانلاً :

- ألم تخبرني بذلك يا رزونة ..

وقام العجوز نصف قومة على عصاه وقال محاولاً جمع كلماته :

- أنا .. أنا قلت لك كده علشان أخلصك من الغجر .. إنت مالك ومال الغجر،

سيد مثلك يا سيدي لة أميرات فكيف لة ببوية من أهلي .. كان هدفي أن

تكرهها وتطلقها بأقصى سرعة .. وفي لحظة غمز العجوز لسلطنة

ففهمت أنه يماكر وهدأت قليلاً ..

- ولماذا تريدني أن أطلقها بأقصى سرعة ؟ ..

فهز العجوز كتفيه وقال :

- إنها بدوية مثلي وطلبت مني ذلك حتى تسعى إلى مصلحة لها ..

- مصلحة لها معك .. هل تريدها ؟

- فضحك العجوز في مكر كعادته :

- ما ليش في الستات يا سيدي .. إنها مثل ابنتي .. هل يتزوج الرجل من

ابنته

- برافو .. عليك أخلاقك عالية ..

- الحمد لله عارفين ربنا ..

قامتعض سلامة من ردة وقال يكيل لة :

- إن رجلاً مثلك يتاجر في الأعراض .. ليس بعيداً عنه أن يفعل أي شيء ..
وأخذ العجوز يهذب بكلمة هنا وأخرى من هناك .. وشعر سلامة بالقرع
نحوه فقال :

- يا شيخ إذهب إلى دارك وأترك لي زوجتي ..

فصرخت سلطنة دون أن تدري قائلة : والذهب يالهوى ..

وفغراه العجوز كأن سقفاً وقع على رأسه .. وقال في ضعف :

- آه أمشي فين .. ألم تتفق على طلاقها ..

- نتفق .. هو فية أتفاق بعد اللي أنا شايقة ..

وزعق سلامة ووقف وخطا خطوتين نحو العجوز وقال :

- إذهب إلى دارك فوراً ، ولا تفكر في العودة إلى هنا ثانية ..

ونادي سلامة بأعلى صوته على سكرتيه الذي حضر في التو وكاد ينكفي على
وجهه وهو يدخل على سيده قائلاً :

- أفندم ..

- خذ هذا الرجل وأوصله إلى سيارته، ونبه عليه ألا يعود إلى هنا أبداً، وهو

يسمعي .. إذا رأيته ثانية يدخل الممر إضربه بالرصاص .. ويبدو أن

تاريخه سيؤهل لهذا المصير ..

وارتعث العجوز بين يدي السكرتير وخرج ولم ينبس بكلمة ووجهه منكس

نحو الأرض، وتألمت سلطنة لحال العجوز وكانت تريد أن تنطق قائلة .. حرام

عليك .. ثم جاء رجل آخر يحرس المكتب بسلاحه ليقل الباب على سيده قللاً

وهو ينحني :

- أنا الذي سأضربه يا سيدي .. هذا من اختصاصي وضرب على دبك

البندقية التي يحملها ..

وجلس سلامة قريباً منها يتأملها في سخرية .. كانت الدموع تملأ وجهها

والكل قد سال من عينيها .. خجلة منكسرة لا تعرف كيف تقول فأثرت ألا

ترفع إليه وجهها وتنهمك في بكانها وأخذت تتشنج منفعة ، وقام إليها وأمسكها من شعرها وشدها إليه فوقعت مذعورة، وأشار إلى باب الحمام الملحق بالغرفة قائلاً :

-- أدخلني واغتسلي .. فهرعت تهرول نحو الباب

.. ونزل درجات سلم داخلي يقضي إلى غرفة مخزن صغير وتناول سوط الفرس ثم طلع وهو يضرب الأرض بالكرباج، وأخفى الكرباج تحت المقعد، ولما خرجت إليه كان وجهها خالياً من المساحيق وترتجف فقال لها وهي تقترب نحوه :

- أجلسي مقابلتي ..

فجلست ومالت برأسها فوق مؤخرة المقعد وتهادى صوتها خفيضاً وهي تنظر إليه بعيون متوسلة :

- لا تظلمني إنني لم أقترف شيئاً مع الرجل .. وأنت هجرتني أياماً طويلة..
.. ووضع ساقاً على الأخرى محاولاً أن يهدئ من روعه وقال وهو يبلع ريقه:-

- هجرتك من الكوخ شيء ورقصك في الملهى وخروجك مع الزبائن شيء آخر

- أنني لم أفعل ..

- أخبرني رزونة .. فلماذا يكذب ؟

- ألم يقل لك أنه إدعى هذا حتى تكرهني وتطلقني

- وما مصلحته في هذا ..

- صراحة .. ثم إنعدلت في جليستها .. وسكنت قليلاً ثم طفقت قائلة :-

- إنه يريدني ..

- يريدك

- نعم يطلبني بذهب كثير جداً ..

- لا أفهم ..

- يريدني زوجة له .. ولقد منحني عربوناً من الذهب وزنة لا يقل عن عشرة كيلو جرامات
- وعض شفتية بأسنانه وانعدل في مقعدة وكان شيئاً غير ترتيباته ، وقال ظاهراً الود بصوت هامس :
- أديه كثير من الذهب
- دولاب مملوء بالذهب
- أين مكانة
- في داره .. في الغرف التي تطل على الخرابة التي يلقون فيها الزبالة
- هل كان يعرف أنك زوجتي ؟
- عندما منحني الذهب كان يعرف أنني امرأة وزوجي متوفي، ولم يكن يعرف أنني زوجة لأحد من بعد ترملي .. وأخبرته فيما بعد أنني زوجة سلامة المصري ..
- وماذا قال ..
- حزن كثيراً وكان يتمنى أن أكون زوجة لرجل من العامة حتى يخلصني منه بسهولة .. إلا أنه أخيراً قرر أن يأتي إليك ويقول لك ما في الكير حتى تكرهني وتطلقني ..
- وماذا تريد من أنت ؟
- أريد الذهب ..
- لا تريدني ..
- أنا في بيتك سأكون خادمة .. لا أقدر على الأميرات .. أنا من تحت أريد أن أركن لرجل كان أصلة من تحت مثلي .. فإذا تزوجني رجل عجوز مثل رزونة فإنني سأصبح سيدة وملكة .. سوف أكون بالنسبة له أملاً كبيراً وسوف أشيد عدة ملاء في البلدة بهذا الذهب فأصبح ملكة الملاهي ..
- إذا فأنت تتمنين الطلاق مني ..
- هذا رجائي لديك ..

- شيء حقير أن تتكلمي عن إقامة الملاهي والمدينة تكتظ بها.. وسكت قليلاً
ثم تابع قائلاً :

- إن الفساد قد عم وانتشر بشكل رهيب، فأنت تريدان أن تزيدا الفسوق
والظلام.. أكون رجلً منحطاً لو أطلقت حرية امرأة مثلك .. إن إمثالك يجب
جمعهم من ديارهم وقتلهم واحدة بعد الأخرى بالرصاص حتى ترى كل
واحدة منكم كم من الفساد جلبت حتى قتلت بهذا الشكل ..
- إذا فأنت ترفض ..

وأنحني ليلتقط السوط بيده .. فرجعت إلى الورااء تلوذ بالمقعد ووقف في لحظة
وطوح السوط فوق صدرها العاري ، وصرخت وانحنى فأنهال على رأسها
وظهرها وتقدم ليتملكها ثم نزلت ضرباته بقوة كالسيل فوق كل جزء من
جسدها حتى سالت الدماء منها على أرضية الغرفة فصارت بقعاً، ولما إشتد
صراخها دخل إليه الحرس والسكرتير فأمرهما بقف الباب والخروج ففعلاً..
وظل يضربها حتى صارت كومة بالأرض تعوي كالقطة التي مزقتها أنياب
أسد.. وتعبت ذراعاه من شدة الضرب، بعد ذلك شاطها بقدمه وذهب إلى
الحمام ليغتسل من الدماء التي لوثت يديه وقميصه ..

.. وأراحته هذه العلفة كثيراً وراح يفكر في مآل إليه حال المرأة التي كانت
شبيهة بالراقصات حين قابلته في أول الليل وما أصبحت فيه الآن، إن كلباً لا
يقبل أن ينظر إليها ..

.. كان في رأسه دوار كالذي أصابته الحمى، وجلس في مقعد بعيد عنها
تستحوذ عليه جميع صور المدينة التي جرحته منذ نزوله إليها، وكان منظرها
العاري أمامه كالبقرة المذبوحة، وتخيل أمامه أناسا متوترين خائفين تجذبهم
الحياة بكل لذاتها ويجرون إليها حتى حدود الموت ولا يقيمون للموت أي
حساب، وكانت تنتحب بين الفينة والأخرى، ولما مر الوقت سكتت وخيم
الصمت، وغرق في تأملات أخرى في حياته جعلته أقرد إلى أن يستمر في
تأديب هذه المرأة حتى يصل إلى ما بينها وبين هذا الرجل صاحب أحقر ملهى
للترفيه في هذه البلدة، وظهر له أنها راحت في غيبوبة نوم، فقام إليها ورفعها
من ذراعها كي تقوم فقامت معه ثم هوت من يديه وانحبت من جديد فأخذ

يهز وجهها بأصبعه ثم جذبها نحوه واحتضنها بذراعيه وقام بها فوقفت وأمسكها من ظهرها ومشى بها حتى أدخلها لتغتسل كربة أخرى.. وقرر أن يأخذها معه في شقته ويقدم لها ما تريده من طعام وأن يحسن معاملتها قليلاً فقد يصل إلى ما يريد دين استخدام السوط ثانية ..

ودخل المخزن وبحث عن قميص أو جلباب فوجد شرف مقعد ولما صعد إلى الغرفة وجدها جالسة تمشط شعرها وقد تورمت عيناها وشفاتها فطوح الشرف نحوها قائلاً :

- ضعيه على رأسك وارتي عباةك .. سنصعد إلى شقتي
- أتريد أن تضربني حتى أموت ولا يدري بي أحد .. أرجوك كفى .. سوف .. وسكتت ..

- سوف ماذا .. قولي ..

- عدي أولاً أنك لن تضربني مرة ثانية .. سوف أقول كل شيء .. بعدها لا تضربني بهذا السوط .. أقتلني مرة واحدة بالسيف كما يفعل الناس في الحجاز .. وأرجو .. أن تسامحني لأنني أريد أن عيش .. تقبلني خادمة لك .. أو تطلقني حرة ..

- إذا اعترفت بكل أحداثك هناك مع رزونة ورجالة فلن أضربك ثانية ..
- ولن تقتلني

- سوف أسرحك بالمعروف ولكن بشروط ..

- ما هي

- فلنصعد أولاً

وشعرت براحة كبيرة لما وجدت منة بصيصاً طيباً في المعاملة، وقالت لة وهي تطمع في مزيد من العطف :

- كان ممكن أن أختفي عنك طيلة عمري، وأتزوج من رزونة أو غيره دون أن أخبره بأنني على ذمة رجل ، ولكنني أرسلت إليك حتى أكون سالمة في ديني وأظن هذا شيء طيب لإمرأة بدوية تراعى أمور دينها ولو قليلاً ..
وسمعها برضا ثم قال :

- ارتدي ملابسك وضعي الشرف فوق رأسك وداري وجهك واتبعيني ..

.. وخرج وخرجت خلفه ومرا بحوانيت السوق حتى وصلا إلى باب البرج،
وصعدا بالمصعد حتى بيته في الطابق الثالث ولما دخلا إرتمت على أول مقعد
في الصالة وقالت له :

- أنا جائعة

وصفق سلامة لخادمته قائلاً :

- يا مطيعة ..

فهرولت إلية سيدة في الأربعين .. وأنحت أمامه قليلاً ثم قالت :

- نعم يا سيدي ..

- جهزي طعاماً ..

... فانقلبت إلى المطبخ ونظرت إلى المرأة والتي أدهشها تورم وجهها

وهمست لنفسها ..

.. يا نهار أبيض منين دي .. ومين اللي نيلها كده ..

وقالت سلطنة :

- هل أخلع العباءة

- سوف تقول عنك الخادمة أنك غازية .. دافستان مراقيع .. يا ليو ..

وسعدت ملئ قلبها بتقريعه لها ووصفها بأنها مثل زوجة الأسد .. وقالت له

في دلال :

- إنها أنثى مثلي .. هل تذكر أيام الخيمة الجميلة .. أنا بحبك يا سيدي ..

فاكر .. إنها أيام لن تعود .. آه لو تعرف يا سيدي كم أنا مشتاقة إليك

الليلة خاصة بعد أن أدبتني بكرباج الفرس ..

- أخبريني بأحداثك أولاً .. ما جرى لك يدون كذب ..

- بعد أن أشبع من طعامك .. أنت تعاملن كأنني امرأة كاملة التدين .. سوف

أذكرك دائماً بأنني امرأة بدوية عفوية لا تعرف شيئاً عن تفاصيل أصول

الدين والأخلاق، إنني أعرف أشياء عامة، وحسن دأ أنني بحثت عنك

لتطفلني حتى أكون حرة .. أفهمني يا سيدي وعاملني على قدر مستواي ..

وجاءتهما الخادمة بالطعام وأكلت سلطانة كالمفجوعة، وكان سلامة يريد أن يقهقه أثناء تناولها الطعام، ولكنه تماسك بالحزم حتى تخاف وتقول كل شيء.. ولما انتهت وغسلت يديها قال لها :

- أدخلني هذه الغرفة وارتي جلاباً نسائياً من الدولاب ..

وأخذت حقيبتها ودخلت لترتدي ثياباً من دولابة، خلعت ملابسها أمام المرأة فوجدت جسدها وقد كسّته البقع الحمراء .. كانت كل أنحاء الجسد مشوهة ويكاد الدم ينزف منها، ولما كانت تلامس جروحها تتأوه وتكاد تصرخ، وخرجت إليه عارية كي يرى ما ألم بها وما فعلته يداؤه وقالت وهي تدور حول نفسها أمامه :

- كده مبسوط حرام عليك .. المفروض أدخل مستشفى، إن لم أدهنها بالكريم

الخاص بالجروح فستظل ظاهرة في جسدي أبداً ..

وتمعن سلامة في جسدها وقام ليلامس بأصابعه التثوهات التي كست جلدها الناعم، وشعر بأنه قد أذاها كثيراً وقال مشفقاً عليها :

- أدخلني واستلقي على الفراش حتى آتيك بمرهم ..

ودخلت وفعلت كما أمرها، وتناول من الأجزخانة المعلقة في ركن بالصالة مرهماً للجروح.. وهرع إليها وكانت يداؤه ترتعشان .. وقفل الباب من الداخل بالمفتاح، كانت أصابعه ترتعش وجسده يرتجف وهو يدهن كل جرح في جسدها، وكانت تنفح كالتّي تهدأ من بكائها وأخرى تتأوه من آلام جروحها.. ونسيت أنه ضربها وإن فعل فإن أفعاله جميعها مثل العسل إن أصابعه التي دهنت ودلكت أنحاء جسدها كان مفعولها كالسحر، إنه لا يستطيع الآن أن يمسك بسوط الفرس ويضربها مرة ثانية، وشعر بأنه ليس من العدل أن يمسك رجل بسوط فرس ويضرب امرأة جميلة لها جسد مثل هذا، إنه يجب أن تقف كل ضربات السوط، وأن تقتصر فقط على ضرب الحيوان العاصي، إن كل رصاصات البنادق يجب أن تخمد .. ولا بد أن تنجو كل نساء الأرض من القتل الخطأ .. إن هذا العالم كله يجب أن يسكت في لحظة ينهار فيها جسد رجل، غير أنه بعد إتهيار الجرف قام واغتسل ثم صلى .. بعدها أيقن أنه لا بد من قتل أي امرأة تزني ..

وكانت الفاجعة عندما أخذها في حنو إلى صالة بيته وأجلسها وقبّلها من جبينها وقال ظاهراً عطفاً كثيراً نحوها :

- أخبريني وسوف أعفو عنك ..

- إنها أيام طويلة قد خلت بيننا وأنا لست رجلاً صغيراً حتى أعامل امرأة غانية معاملة الند ..

- هذا صحيح يا سيدي الكبير يظل كبيراً .. أظنك من بلاد عاشقة للحرية وأهلها مثل بقية شعوب الشرق يحلمون بالحرية .. والحرية الشخصية غالية جداً .. إمنحني إياها والمثل يقول يا بخت من قدر وعفي ..

.. وهز رأسه ليطمئنهما، وقال ممتعضاً لكنه يؤكد لها بسماحة تطل من وجهه:
-قولي الحقيقة ولك بعدها حريتك ..

- أنا لم أخرج مع أي رجل .. ولم أقترف أي فعلة مع أي زبون من زبائن الملهى .. عشت في هذا المكان منذ أن وطأته قدماي متفرجة على الزبائن.. ولكني مع صاحب الملهى العجوز .. وسكنت ..

هز رأسه وقال :

- تمام أكملني .. هات ما عندك ..

- عطفك عليّ .. وطلب مني ذات ليلة أن أدلك له جسده ففعلت ..

- ماذا فعلت ..

- دلكت له جسده ..

- ثم ماذا ..

- ثم حدث ..

- ماذا حدث ..

- حدث .. استيقظ الشباب في جسده وتركته يفعل ..

- هكذا .. وأنت زوجة على ذمة رجل ..

- عيبك يا سيدي أنك تعاملني كأنني امرأة مثالية .. متدينة.. أنا امرأة عفوية جاهلة .. ثم سكتت قليلاً وأردفت قائلة :

- ثم أغراني بالذهب .. فأغدقت عليه .. هذا كل شيء ..

.. وراح يفكر طويلاً في أمرها .. لكنها قاطعت إستغراقه مع نفسه قائلة :

- لقد وعدتني بالعفو .. ولا تنسى أبداً أنني امرأة لها طموحات

- إنني لا أستطيع وأنت كذلك أن أكون زوجاً لك .. لك ان تختاري حياتك ..

الثالث

لفصل



في سماء هذه المدينة غمامة لا تنقشع ولو طارت إليها كل حمامة البلدة
البيضاء .. إن هذه الطيور جميعها نحو السحاب حملت في تغريدها
ردائهم .. إن كل من في المدينة ظالم والمظلومين منهم ساكتون .. فهل
سيظل بركان الظلم أبداً، أين بركان الغضب لم لا يأتي ليصلح مدينتي، إن
مدينتي في حاجة إلى رؤوس من الحكمة ..



...the ... of ...
... the ... of ...
... the ... of ...
... the ... of ...
... the ... of ...

"الفصل الثالث"

ومرت أيام كانت فيها نجلاء القصر حزينة لعدم عودة صديقتها سلطانة إلى دار رزونة، ربما بلغت كثيراً من الغم على ذلك بل وعلى حياتها لزمّت البيت، وأصابها شيء من التراجع والندم على كل ما مضى من حياتها وهي تعمل في ذلك الملهى، حياتها، حياتها المملة التي تسير على رتيبة واحدة وهي العودة إلى بيتها فجر كل يوم حيث تنام النهار كله وتصحو الليل مع أو باش .. وهكذا أخذت تردد .. أنا أعيش مع أو باش مع الساقطين في هذه المدينة .. وأنا ابنة قصر ألقى بها الزمن .. أليس لي من بيت .. لم لا أكون مثل بقية النساء لي زوج وأطفال .. لم لا أنام الليل وأتعايش النهار .. لماذا لا يكون لي ولي يحكمني .. أين هذا الولي .. هل أتى به من هؤلاء الذي يملكون المصانع والمتاجر أو من بين هذا الشعب الكادح .. أم يكون واحداً من الساقطين .. لا .. إن الساقطين يزيدون النساء سقوطاً .. لم لا يكون من الشعب .. إنني أريد أن أتذوق عرق وتعّب وشقاء رجل من هؤلاء، ولكن كيف أتى بهذا الرجل وأنا لست منهم ولا أعيش معهم حياتهم، وفي تلك الأيام حدثها مدير الملهى ورزونة وسامح وغيرهم من البنات اللاتي يغنين ويرقصن في الدار ولكن رجأؤهم جميعاً ذهب أدراج الرياح .. ولم تعاود نشاطها .. وفي ليلة كلن الليل بارداً رطباً، ومن خلف النوافذ المقفلة كانت البلدة تصطخب وأصوات تنبعث وتنهّدات صدور العاشقين تهز أوراق شجر التوت والكافور الذي ينبسّق في كل أرض المدينة .. إنهم جميعاً هائمون في غيهم منغمسين في بوهيميتهم لا أحد يوقفهم .. إنهم جميعاً يدفعون بعضهم البعض في سبيل الاستمتاع بكل لحظة من العمر وكأن آخر

الأعمار غدا .. ولأول مرة تشعر بهذا الشعور وتفهم المدينة من حولها .. إنها لأول مرة ترى الناس جميعا دون أن يروها .. إن البيت متعة والقعاد فيه والتأمل فيما بعد هذه الجدران المغلقة والمصاريع المقفلة لذة ما بعدها لذة .. إنها متعة لهؤلاء الذين يجدون في حديث النفس حياة أخرى وكأن هناك أناسا آخرين يعيشون معه .. وقامت إلى دولا بها لتبحث عن دُوسيه من الجلد تركه والدها ضمن أشياء استطاعت أن تعثر عليها من القصر بعد أن تهدم .. وعثرت عليه بعد عناء وأخذت تلمعه بقماشنة مبلولة بالماء ثم اضطجعت على الكنبه بالصالة .. وقالت لنفسها وهي تقلب صفحاته محاولة العثور على شيء تبحث عنه :

- أريت يا نجلاء إن إرث تاريخي شريف وصادق .. أية كلمات صادقة نابغة من جذور نفس أبي .. وأخذت تقرأ في إحدى الصفحات كلمات كتبت بالخط العريض

.. كنت مسلما شديد التمسك بديني .. أحب العدل وأشفق على الفقراء .. قليل من الناس في هذه البلدة ينفق ماله على المحتاجين، وأغلب الناس فيها يبعثرون أموالهم عند أقدام الرافصات والمغنيات.

.. التنكيل بالإنسان شيء أصبح في متناول كل الأيدي، في تلك القرى المجاورة ينفق كثير من الأغنياء على الفقراء من الفلاحين ليس لهدف الإحسان ولكن بهدف خسيس حتى ينال من زوجته أو بناته .. إنهم إقطاعيون بوهيميون يشترون لذاتهم، والفقير يشتري قوت يومه ليعيش فتبيع امرأته جسدها .. أتكون الحياة رخيصة بهذا الوضع، إن الإقطاعيين في زمن قديم مثل الرأسماليين في هذا الزمن .. كلاهما قبيح والضحية

من لا يملك قوت يومه .. وزرقت عيناها الدموع وكادت تنتحب إلا أنها قلبت صفحات أخرى وتوقفت عند صفحة بعنوان قصة زواجي .. وكانت تريد أن تعرف أكثر عن زواج أبيها المسلم بأمرها ابنة الرجل المسيحي .. حيث أخذت تقرأ بهم شديد ما دونته أمها وأبوها معا تحت عنوان هذه القصة.

.. كنت شابا يافعا وأبي من أثرياء تلك البلدة .. وكان لنا جار ثري يدين بالمسيحية .. وتعلق قلبي بابنته الوحيدة وتعلق قلبها بي .. وفاتحت أبي بالزواج منها .. فكان دائما يقول .. كيف إبحث عن أخرى يا بنى .. وقابلتها خارج قصرها في إحدى محلات المدينة التي تباع الحلوى وكاشفتها بحبي وهي الأخرى جاهرت لي بحبها .. وكانت شجاعة صريحة عالية الثقافة .. وكان حب أبيها لها شديدا فلما فاتحته في يوم بحبها للجار المسلم .. كان المدهش أن قال لها والدها :

-إفعلي ما تريدين في سبيل الزواج منه ..

-والدين يا أبي ..

-انتقلي إلى دينه .. إنك تنتقلين من دين إلى دين

-وهل أترك أبي ..

-من قال أنك تتركيني .. إن أباك راض عنك ..

-وأشار والدها إلى صورة للسيدة العذراء معلقة بالحائط قائلا :

-إنني سأحتضنك هكذا كما تحتضن السيدة وليدها ..

-وإذا تزوجت بالمسلم .. ألن يعرف المسيحيون ذلك فيقتلوك ..

-ليس في المدينة مسيحيون متعصبون .. إن غالبيتهم قريبون مما وصلت إليه ..

-والكنيسة .. ماذا تفعل معك ؟ .. إنني لا أريد أن أسبب لك مشاكل يا أبي ..

-سوف أظل أتبرع للكنيسة والمسيحيون .. ورعاة الكنيسة لا يقدمون على إيذاء أحد ..

-وهل تتبرع إلى جهات أخرى في البلدة ..

- أنني أفدي بدمي كل من يعرف الله .. لن أقصر في مساعدة أي قوم يشيدون مكانا يذكر فيه إسم الله ..

-هل أنت مسلم تتخفى في عبادة المسيحيين ..

-.. لا يهم أن تعرفني عني كل شيء .. إنني أرغب في الاحتفاظ بأشياء تخصني وخدي .. ولك أن تعرفي حقيقة واحدة صادقة قوية .. هو أنني مؤمن بكل الأديان وأنه لا رب غير رب الأرباب .. إن ربي هو المنتهى فوق كل شيء .. هو الله الواحد الأحد ..

-أنا لا أستطيع مجاراتك يا أبي فيما تعتقد .. ولكن كل ما يهمني الآن أنك تبارك زواجي من جاري المسلم ..

-نعم .. وسكت قليلا ثم أردف يقول وهو يمسك بكف يدها ويضغط عليه في حنان :

-إن والده صديقي وهو صاحب أصل عريق في تلك الناحية وأنا سعيد جدا لأنك تذهبين إلى دار واسعة في كل شيء طيب ..

-ولم يمضي شهران حتى كان زواجي من أبنك ..

.. أمك أمانى فهمي أمجد

.. وأبوك أمين العبيدي

.. وتنهذب وطوت الغلاف بين يديها وأيقنت بعد وقت من التأمل ومراجعة أيامها الخوالي أنها مخطئه في حق أهلها جميعا وأنها لا بد أن تكون

سيدة حقيفة لها زوج وأولاد وبنات وبيت وقامت لتضع الدوسيه في دولابها فقبلته واحتضنته على صدرها ثم حفظته في رفق بين ملابسها وتذكرت شقيقها الذي هجر البلاد إلى أوربا ولم تعرف عنه أي شيء .. هل هو حي .. هل هو بخير .. أم حدث له مكروه، وارتعشت كتفاها فجلست بجوار المدفأة وتناولت قطعة من الكيك وقضمت منها مرتين .. وأحست بقلق ثم اضطربت كأن ألما أصابها، أهي بنت الأشراف التي تغنى في دار الأوباش، ولكن من أين لها بالنفود .. كان يمكن أن تكون مومسا مثل كثير من البنات لهن حالات مثلها يلهثن كل ليلة ليجدن رجلا يدفع ثمن العرق .. ولكن يالي من حمقاء .. كل هذا الزمن الذي مضى في هذه الدار .. وبدأ قلبها يرتاح وتقيم نوعا من الترابط بين الأشياء التي تتذكرها وشعرت برغبة لا تنفذ وأن شيئا يتقد في رأسها ولكن لا أحد يدري بها .. إن هذا العالم لا يهتم فيه البشر بما في رؤس الناس من أفكار، إنهم جميعا منشغلون في كيفية الحصول على المال، ونامت هذه الليلة تحت فراشها الثقيل نوما قلقا .. وكان يشغلها هاتف أنها لابد أن تدخل المدينة من قلبها لتعيش كما يعيش الناس، وفي الصباح إرتدت ملابسها بعد أن بحثت عن ملابس تتحشم فيها فلم تجد.

.. كانت ملابسها ضيقة خليعة فارتدت بنظالا من الجينز وقميصاً من الصوف ثم معطفا من الجلد وخرجت من بيتها إلى وسط المدينة راكبة أتوبيس، وكان هذا أول عمل شعبي تقوم به، وكانت في حيرة إلى أين تذهب .. أتزل قلب المدينة لترى الناس من كل درب وصوب تشاهد الجموع الهائمة في الشوارع حزاني لعدم عثورهم على عمل تتعيش منه بيوتهم، وترى المتسكعين على المقاهي من الشباب ورجال كبار ونساء من مختلف الأعمار يبيعون الصابون والهدايا والجوارب ويكون في تلك

الوسيلة من التجارة فرصة لأن تتحدث الفتيات البائعات مع زبون المقهى وتعرض نفسها عليه بأي ثمن بعد أن تحكي له حكايتها مع الحياة، وبالفعل ذهبت إلى حي النوبتجية، وهناك قعدت في إحدى المقاهي وأخذت ترى ما حولها، فهذا الحي قلب المدينة الشاكي بكل مظاهر البطالة والتسكع والصياغة حولها في كل مقهى ومطعم وحانوت، وهؤلاء يفترشون حدائقه الصغيرة بملابسهم الضيقة والعارية وغالبيتهم من شباب الجامعة، وتلك فتيات صغيرات .. كل فتاة منهن يلتف حولها شابان أو ثلاثة وهم يتسامرون في وفاق بالغ، فهي تجمعهم جميعا على أمر واحد وهم قد أصطحبوها كما يفعلون كل يوم إلى منتهى واحد .. فلا زواج ولا عمل ولا أمان .. هكذا أدركوا الحقيقة فكانت غايتهم السفلى بأن تنال الفتاة من فتاها أو تنال من ثلاثة فقط .. إنها فتاة طيبة تحل مشكلة لعدد من الشباب ولذلك فإنك تجد أن الفتاة التي تصطحب مجموعة من الشباب ترتدي بنطالا ضيقا من الجينز وبلوزة قصيرة تفصح عن جزء من بطنها وظهرها هذا ناهيك عن ناهدين يبرزان من صدرها الفاضح، وأن هذه المجموعات هي خلايا جنس وليس علاقة رومانسية، هكذا كانت نجلاء تفكر وتحكم على الناس وهي تراهم، لقد كان لها سابق عهد بهذا الحي .. إنها تراهم لمائة مرة وهي اليوم تتأكد من صورة الحياة المنكسرة بأم عينيها .. وهؤلاء المتسولون وبائعو المناديل والكراملة، وأصحاب العاهات فهم واحد بعد الآخر يسأل بطريقته من الضائعين .. وجاءها الجرسون بالشاي وشيشة تفاح وأخذت تسحب نفسها وراء نفس والدخان يخرج من فيها وأنفها بغزارة وبي ما زالت مستغرقة في رؤية الناس من حواليتها وتذكرت أيامها التي كانت في هذا الحي عندما كانت تعمل إحدى سكرتيرات شركة الهريدي للأدوات الكهربائية،

وكيف أنها خرجت من هذه الشركة بعد أن طاردها صاحبها طويلا ..
وكيف أنها أنهت حياتها العادية في هذه الشركة لتعمل مستقلة كمغنية في
ملهى رزونة .. كان صاحب هذه الشركة مثل بقية أصحاب الأعمال
يدفعون السكرتيرات بأن يقمن بمهام أخرى ..

.. كيف تبدأ من جديد وأين ولماذا ترفض أن تعمل سكرتيرة مرة أخرى
لأن هذا العمل في هذه المدينة يتطلب من كل فتاة أن تتنازل عن كثير
حتى تستمر، وأنا لا أريد هذا التنازل .. كانت تفهم معنى أصرارهم وأن
رغبتها في حياة جديدة تختلف بل هي أهم شيء من كل هذه الأشياء
حولها، أيها الليل من هنا ستأتيك بناتك، قليلا من الوقت ويحدث الانفجار
فيزدحم شارع الملاهي بالكثيرات من رواد حي النوبتجية، إنها تريد أن
تدخل إلى الشعب ولكن ليس من طريق هذا الحي ولا عن طريق سكرتيرة
في شركة الهريدي، في حي النوبتجية مظاهرة فوضوية للشباب الضائع
وهم أبناء الفقراء والمحتاجين .. في هذا الحي تتخرج الفتيات كبنات ليل
في شوارع الملاهي الرسمية في المدينة، ألم يكن على هؤلاء الشباب أن
يعملوا في المعامل والمصانع ويكافحوا .. أين هذه المصانع .. إنها
تبصق الذين تأهلوا لها فكيف تقبل بشاب صغير .. إن بلادا أخرى كثيرة
تفتح أبوابها لكل من له دافع لأي عمل، إن أصحاب المصانع هناك
يعرفون أن كل ساعد ولو كان صغيرا هو جزء من أمة .. والأمة تصان
بسواعد صغارها قبل كبارها، إنه لا يوجد رجل أعمال حقيقي في هذه
البلدة .. إنهم لا يقيمون صناعة وإن أقاموا صناعة فهي تركيبية تعتمد
على استيراد أجزائها، يا حسرة على الضائعين هؤلاء وعلى الذين سوف
يضيعون .. وتنهدت وهي ما تزال تشد أنفاس الدخان الغزير من الشيشة
وسيطر عليها حديث النفس مرة ثانية .. لماذا لا يذهب هؤلاء إلى

الصحراء ليقوموا هناك مجتمعا جديدا بعيدا عن مشاكل المدينة، هل الصحراء ممنوعة على الفقراء .. هل هي تحت أيدي السلطة التي تأذن بالدخول إليها.

.. حتى الصحراء .. أي شيء هو لأبنائهم وذويهم ومن يدفع، إن آلات ومعدات الدولة هي التي تستصلح وتسوى وتهئ لكل مالك جديد .. إن هؤلاء أبنا الأمة ، وكل فقير ومحتاج بل وكل مبدع ليس إبنا من أبناء الأمة، ولكن ابن رجل أعمال يستورد ويتهرب ممين الضرائب ويخفي مستندات ويقوم بتزوير الفواتير هو القادر على أن يدفع فليملك المدينة والصحراء بل يملك ما في البحار والأنهار .. إن لديه المال الوفير الذي سرقه والده لأن والده لديه مواهب النصب والسرقة واللف، وسيظل الفقراء فقراء وسوف تتسع دائرة الفقر ما دام لاخلق لكل صاحب سلطة أو صاحب عمل .. إن الذين نهبوا الصحراء منذ ربع قرن هم القادرون على تملك كل الصحراء ...

.. إن كل حياة كريمة هي لكل من يعرف كيف يسرق .. السارقون الكبار بالقانون يسرقون، وكأن القانون وضع لكي يسرق به المحترفون وغيرهم من أصحاب النفوذ .. آه يا سادة إحذروا الرأسمالية الجديدة .. إن أصحابها وأبنائها هم الذين سيفتكون بالأمة .. ليس بعد الفقر شيء ولكن بعده ينهار كل شيء .. إحذروا الفقراء والمحتاجين .. إنكم أنتم الذين تدفعونهم للقيام بأعمال سفلى .. كونوا نبلاء وهذا رجاؤهم .. كيف تكونوا نبلاء .. إنكم لن تكونوا نبلاء أبدا .. وشعرت بأنها إستغرقت كثيرا في التشاؤم، فلم يشترك لها أحد من الفقراء، وإنه من تعيش الدنيا وليسوا في حاجة إلى تعديل والتغيير لا يأتي من مغنية .. إن هذا هو حال مجتمعات الدنيا، وقد يكون حال هذه المدينة أفضل بكثير من غيرها وكان

عليها أن تقوم من المقهى وتخرج من كل شوارع هذه البويرة .. ومشيت في شوارع أخرى وتعرضت كثيرا لمعاكسات الشباب وتوقف لها عدد من الرجال بمركباتهم، وكان رداؤها خليعا وجسدها يبرز منه بضاً طرياً .. وكان لها كبرياء شديد وعزة .. فأبت أن تقابل تلك الملاحظات حتى ولو بقليل من الرضا .. إنها الآن لا تملك إلا صيانة هذا الجسد وهذه النفس ولكن ليس بهذا الرداء .. هكذا قالت لنفسها .. فهي بنت العز القديم وتأبى أن يذلها أحد بلقمة عيش أو بمال .. فكيف لكبرياء امرأة أن يصاب في مجتمع ذل الجميع .. مجتمع أرغم كل فتاة جميلة أو جذابة أن تتفق عرق هذا الجمال من أجل الرجال الذين يدفعون .. وهامت على وجهها من حي إلى آخر حتى أنها نسيت نفسها .. ولماذا نزلت المدينة .. بنفس الرداء الخليع والجسد الطري طافت الشوارع وهرع الناس من خلفها وحولها .. شيء كالزلزال هز أرضية كل شارع من تحت أقدام الرجال اللاهثين خلف كل فجور .. ولم يكن أحد يصدق من هؤلاء الرجال اللاهثين أن تلك المرأة في قرارة نفسها تريد رجلاً ملاً هذه المدينة خلقاً .. لا تريد رجلاً يدفع أو صاحب عمل أو مالكا لمهلي .. إنها في حاجة إلى رجل وسط الحال يعرف ربه ليزيدها إيماناً ويعدل ما إعوج فيها .. وتساءلت .. ألا يوجد في البلدة مكتب للزواج ؟ وأخذت تنظراً إلى أعلى البنايات وتقرأ اللافتات هل هو ممنوع .. الأعمال الطبية ممنوعة وغير مصرح بها .. يا لها من مدينة خائبة والمسئولون فيها يريدونها ظلماء .. إلى أين تذهب بحالها .. إنها ضعيفة وفي حاجة إلى أن تسكن، وعليها أن تنزع نفسها من تلك الشوارع التي يتسابق فيها الرجال فقراء وأغنياء ويقدمون كل ما يملكون تحت أقدام امرأة في جمالي، يا إلهي .. الفقير وهذا حاله لا يستحق أن يناضل أحد من أجله والغنى سوف يأتيه الفقير،

هل أعيش في كولومبيا ؟ إن دوارا يمزق رأسي وبطني تتلوى، وانهمرت
في بكاء شديد ولم يسترها إلا الدخول في عربة أجرة قاصدة أبراج سلامة
.. وأخبرت السائق قائلة :

- أتعرف أسواق سلامة ..

- آه سبحان الله ..

- أقول لك أبراج وأسواق سلامة .. قالتها بعصبية ..

- أعرفها .. على مهلك .. هو الرجل الذي جاء إلى المدينة لا يملك
شيئا وأصبح غنيا ونحن فقراء ..

- أتعرفه عن قرب ..

- أنا سائق أجرة معي كل حكايات المدينة .. ذا راجل على كل لون ...
ما حدش عارف هو إيه بالضبط ..

- لكن بيعمل خير ..

- لو عمل ألف برج .. الناس أد الرتش .. وسكت برهة ثم أردف :
- بيعملوا لأولادهم والباقي بمئات الآلاف للي قادر .. مش عارف
بيجيئوا الفلوس دي منين .. أنا طول النهار بادح وفي آخر الليل أدى
لمراتي يدوب تطبخ عدس .. حتى العدس قربنا ما نقدرش نشتره ..
... وتنهد السائق وسكت وبعد قليل وقفت المركبة وقال هو يشير بيده
ناحية اليسار :

- هذه أبراجه وأسواقه .. ربنا يدينى زيه .. ويخرب بيته ذا إتجوز
ستات البلد كلها ..

- ربنا يدك زيه ..

.. ونقدته أجرته ونزلت وهي تحمل أثقالا ليوم شديد البأس في أول
رحلتها لتغيير حياتها .. ووصلت الحديقة ومنها عبرت شارعاً إلى الدرج

المؤدي إلى الأسواق في الطابق الأرضي وسألت صاحب إحدى حوانيت السوق .. كيف تصل إلى سلامة ؟ ودلها الرجل فواصلت السير حتى إهتدت إلى باب مكتوب عليه كلمة .. الإدارة .. ولما طرقته خرج إليها رجل جلف يلبس دبابا ولفافة فوق رأسه ويحمل بندقية على كتفه وقال في حمورية ..

-عايزه إيه ؟

-سيدك ..

-سيدي مين .. السكرتير ولا سيدي الكبير ..

-سيدك الكبير ..

-حاضر يا ستي .. إتفضلتي .. وأفسح لها ثم أردف ..

الأستاذ مدير المكتب جوه ..

ودخلت فوجدت فتاة جميلة تنحني على مكتب كبير وتحدث مع رجل ويكاد فمها يلاصق أذنه .. واندeshت كيف تهمس في أذنه وهما وحدهما بالغرفة .. إنه نوع من التودد لحديث بين فتاة ورجل .. وقالت وهي تمسك بيدها بطنها التي تتلوى من حين لآخر .. هو خارب البلد إثنين .. البنات المايعة والرجال الدنيئة .. وجلست بعد أن ، إنتبه إليها الرجل الذي يحضن مكتبه مشيرا بيده إلى أحد المقاعد قائلا :

-إتفضلتي يا ستي ..

.. والتفتت الفتاة التي تصاحب المدير إليها قائلة :

-أي خدمة يا فندم ..

-عايزة السيد سلامة ..

-سلامة بيه .. أقوله مين حضرتك ..

-نجلاء .. نجلاء القصر

... وقام إليها الرجل وأخذ يتأملها ثم إنقلب إلى الهاتف ليخبر سيده قائلاً:

- واحدة إسمها نجلاء القصر عايزاك يا سيدي ..

-نجلاء القصر .. لم تعد هناك قصور .. كم عمرها ..

-هكذا تقول .. إنها في زهرة الشباب ..

-لن أستطيع النزول .. أرسلها إلى هنا ..

-حاضر يا سيدي ..

.... ونادى السكرتير الحارس ليصحب نجلاء إلى سيده، وإجتازت مدخل

البنائية والحارس يتقدمها .. وتوقفت قليلاً لتسوى ملابسها، وأجالت فيما

حولها منبهرة بضخامة العمارة، وطلعت مع الحارس في المصعد حتى

الطابق الثالث .. ولما دخلت الشقة التي يقطنها سلامة كانت مطيعة

الشغالة في إستقبالها بعدها إنصرف الحارس قائلاً للخادمة :

- يا بت قولي لسيدك الضيفة وصلت ..

-جنتك بتة يا منيل ..

.. .. وجلست على مقعد كبير غاصت بجسدها البض فيه، ولما انصرفت

الخادمة كانت نجلاء مندهشة حيث إنتقلت من كل أحياء البلدة الصاخبة

والتي سارت فيها جميعاً شارعاً بعد شارع وميدان إلى ميدان باحثة عن

شيء ما .. ما الذي جاءت من أجله .. وغاصت بأفكارها في داخلها وهي

لا تدري ماذا تريد ؟ .. وجدت نفسها في مكان بهذا الهدوء وهذا الجمال

شقة فاخرة تنتشر فيها أصعى الزرع الأخضر ونافورة مياه في كل ركن،

وهناك في الوسط نافورة كبيرة تتوسط حديقة صغيرة جدلوها من الفلين

والبلاستيك ودهنوها بلون الزرع وصبغوا الفروع الممتدة بألوان الورد

المختلفة .. كأنك ترى حديقة حقيقية وسط ميدان صغير في مدينة فينا ..

وزينت الحوائط بلوحات تحمل مناظر طبيعية لجبال وأنهار وشلاشات ولوحات أخرى كتب عليها آيات من القرآن، وأخرى أسماء الله الحسنى.. وامتألت الصالة بمجموعات من المقاعد والمناضد في كل ركن وعند كل نافورة وضعت فاز، ضخمة وقد فتحت فاهها لتتلقى المياه التي تنحدر من تلك الشلالات .. وغلبها النوم وشعرت براحة لا حدود لها وتمنت لو بقيت هنا أبدا .. وجاءتها الخادمة يعود بخور تثبته في المنضدة أمامها ثم أشعلته فعبقت رائحته الطيبة الأنف الذي إختلق من دخان وتراب المدينة طيلة اليوم .. وكأنها استنشقت عطرا باريسيا بل وأحلى فتعطر أنفها وتهدجت أنفاسها برائحة طيبة .. وخفق القلب ينبض فعلا صدرها ثم إنخفض وفتحت زرار قميصها فبرز النهدان كأن سعداء أنفاسها قد التقت أو إرتقت أو أمنت لشيء حل بها مثل أمان قد حدث .. إن هواء عريلا ملأ البيت فقامت وفتحت النافذة قليلا لينفذ منها بعض أصوات البلدة المترامية الأطراف من المصانع والمعامل والأسواق .. وعادت إلى نفس المقعد وجلست .. وقالت بصوت خفيض كمن تتحدى أحدا .. أي مدينة أنت ؟ .. أنا لن أنزل إليك أبدا .. ولما كان قد ألفها جو البيت الهادئ وغاب الرجل الذي تنتظره راحت في غفوة غير أن صاحب البيت قطع عليها غفوتها الآمنة وقال بصوت هادئ عندما رآها هكذا :

-سلام عليك يا سيدتي

.. فأفاقت وانعدلت في جلستها وقالت وهي تحاول أن تقف :

-أهلا يا سيدي .. ومدت يدها إليه لتصافح اليد التي إمتدت نحوها وقال

وهو يجلس محاولا أن يتذكرها :

-أنا لم أرك من قبل .. قالوا أنك نجلاء الـ .. الـ...

-القصر .. نجلاء القصر يا سيدي ..

-من هذه البلدة ..

-من أضلها القديم .. ومن قصورها ..

-نعم ..

-إذا أنت امرأة من الاقطاع القديم ..

-نعم .. ولكن كل شيء ذهب .. ولم يبق غير بيت صغير أقطنه ..

-هذا يكفي .. وماذا تعملين ..

-في أحد الملاهي

-راقصة

-مغنية مع قليل من الرقص ..

-في أي ملهى ..

-وهل تعرف الملاهي يا سيدي

-نعم أعرف كل مكان في المدينة

-ملهى رزونة الاشتراكي ..

-هل تعرفين سلطنة ..

-لقد أتيتك من أجلها ..

-وماذا تريد مني منها ..

-أن تغفوا عنها ..

-العفو صفة من صفات الله ..

-أقصد أتركها وسبيلها ..

-لقد كانت تخرج مع الرجال في الملهى وهي على ذمة رجل .. أظنك

تعلمين أنها زوجتي ..

-ليست من مقامك يا سيدي .. وهي لم تخرج مع الرجال ..

-وماذا تعرفين عنها ..

-ربما يكون لها علاقة ود .. شيء من هذا القبيل مع العجوز ..

-وتريديني أن أعفو عنها ..

-وما الفائدة من أن تسجن امرأة مثلها في بيتك وتحسب عليك زوجة

..

-أعرف أنني سأكون خاسرا ..

-أنت يا سيدي من سادة هذه البلدة ..

-والله لم أكن في حياتي من السادة الكبار .. ولكنني من برجوازية

ريف كان .. إن أبي فلاح كان يمتلك إثني عشر فدانا وأمي من عائلة

متدينة من قرية مجاورة وأهلها من أشهر قضاة ومستشاري هذه

الدولة، نشأت من هذه البيئة التحتية الطيبة المتدينة، ولما جئت إلى

هذه البلاد .. أتيت إليها طالبا للرزق الحلال لا أكثر، وسأقتي حظي

للزواج من الأميرة وأن أكون بطلا من أبطال تلك الحرب .. إنه في

كل الأحوال الحظ الذي كان يأتيني صدفة ولم أذهب إليه أبدا .. ولقد

كنت وأنا طفل صغير أشعر بحنين عميق نحو كل من يمتلك أراض

زراعية وحنين أشد إلى هؤلاء العمال الزراعيين الذين يكدحون حتى

يحصلوا على الفتات .. وسكت .. فبادرته بعد قليل قائلة :

-ولكن هذا شعور متناقض ..

لا ليس فيه أي تناقض ولكنها مشاعر طبيعية .. لأن جدى من والدتي

كان يمتلك سبعة أفدنة من الأراضي الزراعية وأكمل الله عليهم

حياتهم بميلهم الكبير إلى التدين وعشقهم للتعليم والعلم .. وكانت

عائلة أبي قليل منهم مثله يمتلك أراضا زراعية وباقي العائلة كانوا

يشغلون عند هؤلاء الذين يملكون الأرض وكانوا شديدي العصبية

لعائلتهم وكفاحهم .. ولهذا كانت تلك النشئة تكون هذا الشعور، ولهذا

فإنني عندما كبرت عشقت القطاع العام لأن كثيرا من هؤلاء العمال الزراعيين في أواخر الخمسينات التحقوا بمصانع وشركات هذا القطاع فأنقذهم من فقرهم ولما كبرت أيضا وعملت في هذا القطاع محاسبا أيقنت أن القطاع العام جاء ليحمي الفقراء ويحقق العدل ولكن للأسف كانت إدارة هذا القطاع سيئة وكان إنتهياره "ولذلك فإنك تجدين هؤلاء العمال بل وكل الطبقة الكادحة في الخمسينات إبتعدوا فسي الستينات والسبعينات عن فقرهم وحصلوا على كثير من المزايا لهم ولأولادهم، ثم بعد ذلك إنهارت تلك الأسر مرة ثانية والشيء الوحيد الذي تبذل في حياتهم .. أنهم كانوا يسكنون القرى وأصبحوا يسكنون المدن الكبيرة .. وهؤلاء الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة زادوا تلك المدن عشوائية فأصبحت المدن الكبرى معظمها أحياء متهاكلة ومقابر مسكونة .. وأمتلأت المدن بالباعة الجائلين الذين أيضا لا ذنب لهم، إنهم الذين فقدوا أعمالهم في القطاع العام والشباب الجديد الذي لم يستطع الإلتحاق بعمل .. والحال كما تصلني الأخبار من بلادي .. ثم سكنت ثانية .. وتركتة يهدأ قليلا ثم قالت :

-ما هي الأخبار

-أن هناك قطاعا خاصا لا يؤدي أي وظيفة إجتماعية وهذه الوظيفة التي لا تؤدي ناتجة من عدم وطنية هؤلاء أصحاب الأعمال، وإلى نقص كبير في أخلاقهم نتيجة التربية البيئية السيئة .. وهو قطاع خاص يبحث عن الربحية فقط وبأي شكل، وهو قطاع لا يتجه نحو إنشاء صناعة حقيقية .. فهل ذاهبوان جميعا إلى الهاوية .. أليست هناك إستراتيجية أهداف وخطط يتبعها الجميع من أجل الأمة ..

.. ونظرت إليه بعمق شديد وكان وطأة ثقلت فوقها وقالت وكأنها تقول
وما ذنبي من هذا الذي يقوله :

- ولكن يا سيدي لا أعرف شيئاً مما تقول ولا أعي وربما أسمع عنه
لأول مرة ..

- كل هذه المجتمعات واحدة تعاني من شيء واحد ..

- أنا لا أفهم هذا الشيء ولا أريد .. وسكتت ..

- لا تريد أن تفهمي شيئاً .. هذا صحيح .. لقد أخطأت في هذا السود
إنه يخصني وحدي ..

- أرجوك يا سيدي لا تسيء فهمي .. أنني أحترم حياتك وأفكارك
ونشأتك .. ولكن .. وسكتت وكأنها صمتت عن الكلام ..

... وبادرها بعد قليل قائلاً :

- هذا عيبي أنني أشرك الآخرين في خصوصياتي وكأنهم يعيشون مثل
حياتي، ولم أفصل بين الناس وأن كثيراً من الناس لا يعيشون أية
قضية ويقضون حياتهم اليومية فقط رغم أن هؤلاء الناس يشكلون كل
القضايا ..

.. وتتهددت إعجاباً بما يحمله صدر وقلب هذا الرجل من مشاعر نحو

الناس وقالت محاولة التأثير عليه للاستجابة لمطلبها :

- رجل بمثل هذا النبيل والكرم لا يعفو عن غجربة ..

... وأخذ يفرك جبينه بأصابعه :

- ما هي مصلحتك في العفو عنها :

- إنك بهذا العمل تزيد حجم الحرية الشخصية، وأنت رجل عام ومهم في

هذا المجتمع وهي غجربة .. من أجل خاطري إنها زميلة عمل

والملهى يزدهر بها ..

-وأنت سلبية الإقطاع القديم تختارين هذه المهنة ..

-لم أجد عملاً شريفاً حراً .. كل صاحب عمل يريد أن تكون السكرتيرة خلية .. بالتفاهة هؤلاء الرجال .. أنا بهذا العمل كاللاعب يؤدي أمرته ثم يذهب، وكل الناس في الملهى يتمنون رضائي عنهم ولو بابتسامة صغيرة، وهذا شعور يجعلني سيدة، ولا أعطي لأحد منهم أكثر من تلك الابتسامة ..

-لك ما تشائين ولكن لي مطلب عندك ..

.. أطلب ..

-أريد أن يتم اللقاء دائماً بيننا لأبحث معك أموراً كثيرة .. إن المدينة أصبحت خاوية من الناس وأنا في حاجة إلى أناس مثلك لأتكلّم معهم ..
-يشرفني أن ألبى مطلبك .. ولكن أين مطلبى ؟

-سوف أطلقها حرة ولكن ذهب العجوز ما قيمته مخزوننا في ملهه ..
وما مصيره ..

-هل تعلق إطلاق سراحها مقابل الذهب ؟

-لا بد من التفاهم ..

-ما هو إقتراحك وسأعرضه عليها .. وهل تأخذ الذهب لك .. أعرف أنك رجل تتصف بالأعمال النبيلة ..

-خلاصة القول .. الذهب الذي سأحصل عليه مقابل حريتها ماله تحويله إلى نقود وإيداعه بالبنك لأنفق منه على الفقراء والمحتاجين ..
-هذا يعني أنك تريد تحرير هذا الذهب ..

-بالضبط كما يطلب الناس تحرير أنفسهم فلا بد من تحرير الثروات ..
-ولكن ليس كل الذهب تحت سيطرة سلطنة ..

-أنا أتكلم بخصوص الذهب الذي نالته من صاحب الملهى .. الذي فسى
حوزتها ..

-هل تريد شيئاً آخر ..

-باقى الذهب سوف أتولى تحريره بنفسى ..

-يرجى ألا تستخدم أى وسيلة من وسائل القوة ..

-لن ألجأ إلى هذا .. الذهب من أجل الفقراء وليس لى ..

-أعلم أنك كل هذا ولكن رجائى أن لا تستعمل أى وسيلة أخرى

للحصول على الذهب الذى فى حوزة فوزى رزونة ..

-من أجل أن تقيما ملهى على طراز حديث ..

-أخبرتكم سلطنة بكل شىء ..

-لماذا لا تقيمان شيئاً آخر يفيد الناس ..

-من قال لك أن الملهى لا ينفع الناس .. إنه يفيد الناس جميعا ويحقق

لنا نحن النساء سيادة وعزة وجاها وإستقلالاً بعيداً عن حكم أصحاب

الأعمال ..

-الملاهى تزيد المجتمع فسقا وظلاما

-هل ترى أن المجتمع فى داخل المدينة لا يقوم بهذه الأعمال، إن كل

راقصة أو مغنية فى ملهى طردتها كل أعمال العنف فى داخل المدينة

فوجدت ملاذها، ولذلك تجد أن كل الملاهى خرجت من كل المدن ..

فملهى رزونة مثلاً هناك على تبة عالية خارج البلدة .. إن كل الذين

يبحثون عن الحرية فى هذا العالم يذهبون إلى الملاهى ..

-وهل يجدون ضالتهم يا سليلة الأصل الفريد ..

-هل تسخر منى ؟ ..

-أنا لا أسخر من أحد .. ولكن هل يعني هذا أن كل الذين يبحثون عن الحرية يذهبون إلى الملاهي .. أي حرية هذه .. ولماذا لا تقولين أن هؤلاء يهربون من المجتمع فيذهبون إلى تلك المواخير ليزدادوا ضلالة وخيبة على خيبتهم ..

-إن كل الأحرار في هذا العالم .. يجدون شيئا يحقق لهم السيادة في تلك الملاهي ..

-أي أحرار تقصدين ..

-أنهم يقولون إن الملاهي تقيم توازنا في المجتمعات .. فالمجتمع تلقائيا يتوازن بوجود الملاهي .. أن كل الناس تهرب من أعباء ومشاكل حياتهم بالذهاب إلى تلك الأماكن .. وعندما يصبح يوم جديد يجدون أنهم قادرون على القيام بأعمالهم وهكذا تسير الحياة ..

-هذا بالنسبة لكل الضعفاء، ولكن لو تدين الناس قليلا لما ذهب أحد إلى ذلك العبث ..

-إننا نعيش حياة يا سيدي والتدين يحتاج إلى صبر وروية ويقظة، ولكن الناس الآن لم تعد لديهم هذه الصفات .. إنهم تركوا تلك الحلقات منذ زمن بعيد وكل إنسان يبحث عن ملاذ سريع يحقق له نذة أو متعة حياتية ..

-هلى معنى هذا أن شهوة الناس قد غلبت كل شيء ..

-أصلح المجتمع المدني أولا ..

-كيف أصلح ولم ينفع فيه أي نظام سياسي أو اقتصادي .. فمنذ نعومة أظفاري وأنا أجد وأرى كل مجتمعات الدنيا تتخبط بين الأنظمة الرأسمالية والاشتراكية، ولم ينفع أن نظام منهما ذلك الإنسان التائه في هذا الأرض ..

-إن النظام الرأسمالي قد نجح في أوربا وحقق كثيرا من العدل والحرية.. وأقامت تلك المجتمعات صناعة وتجارة حقيقية جعلت كل دولة منها صرحا إقتصاديا هائلا ..

-إنني أتكلّم من المجتمع الشرقي .. لم ينجح فيه أي شيء .. فكان ماضي بلادي الإقطاع .. ثم قضت الاشتراكية عليه .. بعد ذلك عشت مع تلك الإشتراكية أو عاشت بلادي قرابة نصف قرن مع الاشتراكية وكانت النتيجة صفرا .. ودخلت بلادي الآن إلى النظام الخاص .. والنشاط الخاص في بلادي غير مخطط ولا مدروس ويتصف بالعشوائية.. فلا صناعة ولا تجارة لكنها جميعا حالة من الفوضى الاقتصادية .. إنها جميعا محصلة خاسرة، وبعد هذا كله يقولون تحديث الصناعة .. أين تلك الصناعة .. لقد تم بيع كل الشركات الصناعية .. والعمالة الفنية والتي هي كوادرات الصناعة تم تسريحها .. وتم تصفية كل شيء .. وخرج إلينا أناس جدد يقولون القطاع الخاص وكل واحد منهم له هدف شخصي، إنهم جميعاً حيّتان جديدة والأمة ضائعة بين كل هؤلاء .. وسيمضي نصف قرن آخر .. وسوف تجدين نفس المحصلة السابقة .. صفر .. صفر ..

-لقد أجبنا يا سيدي على كل شيء .. إعتبر أن الملاهي هي إفراز طبيعي لتلك الفوضى .. ألم أقل لك لا بد من إصلاح المجتمع المدني .. -المجتمع المدني لن يصلحه إلا إدارة مدنية .. كيف نحقق هذا المطلوب ..

-إنه لن يتحقق أبدا .. لقد سمعت أن هناك رجلا في الجنوب أفرزه الجيش يرفع شعار الثورة .. وهو الآن يزحف نحو الشمال ..

-لقد علمنا بذلك .. إنه في طريقه إلينا بعد أن يستحوذ تماما على العاصمة ..

-ولكنه لن يستطيع أن يدخل المحافظات الشمالية ..

-هذا من حلاوة الروح يا سيدي .. إنه سوف يستولى عليها .. ما دام لديه القوة .. وسترى كم سيكون للملهي شأن .. إن كل الذين يعملون في الملاهي سيساعدون هذا القادم لأنه سيساعدهم على ضرب المجتمع الذي لفظهم .. على الأقل سينهي تلك الفوضى التي في المدينة ..

-نفترض أن هذا الرجل سيدخل الشمال وينجح في إحتلال مدينتنا وهي عاصمة ذلك الشمال، ترى أي نظام اقتصادي وسياسي سيقم ..
-ربما يكون رجلا عال الثقافة وصاحب خلق .. وحتى لو كان كذلك فإنه لن يستطيع أن يقلل الملاهي ..

-وكيف يكون خلوقا ولا يقللها ..

-قلت انه لن يستطيع .. وربما يأخذ وقتا طويلا جداً حتى يستطيع ذلك، وسيجد في طريقه صراعات لا يستطيع الزمن والوقت إسعافه .. حتى الذي يأتي من بعده لن يستطيع إقفال تلك الملاهي .. فسوف تستمر ما بقيت الحياة ..

-إنه هذا منطق مرفوض ..

-هذا واقع يفرض نفسه ..

-لو استطاع أي رجل إصلاح المجتمع المدني وإنهاء حالة الفوضى التي يعيشها الناس، فسوف تقفل كل دور اللهو تلقائيا وينزل الناس جميعا إلى المدينة .. لأن المجتمع المدني القوي والعاقل سيحتوي الناس جميعا ..

- هذا خيال يا سيدي .. إن البشرية لن تقوم أبداً بشكل مثالي .. وسوف تبقى حالة الفوضى تعم العالم وسيظل الناس هكذا حتى تنتهي هذه الدنيا ..

- هذه حالة من اليأس ..

- أنت بعيد عن الناس .. إنك لن تعرف قلوب الناس وما في صدورهم .. إن الجميع يشعرون بحزن شديد لأنهم مسجونون في سجن بلا أسوار .. إنهم جميعاً مقيدون بالسلاسل ..

... ويبدو أن سلامة قد تعب منها حيث حاورته على مدى ساعات طويلة .. ولما أيقن أن الكلام لا يفيد وأن حديثه معها هو حديث كل الناس في تلك البلاد، سكت عن الكلام ولأدت هي الأخرى بالصمت وبعد دقائق قالت في صوت خفيض وكأنها ترجوه :

- هل لي أن أرى سلطنة لأعرض عليها الأمر ..

- وقام سلامة إلى باب وفتحه وقال لها :

- أتمنى لك النجاح .. إنها هنا .. سوف تجدان باباً آخر هي خلفه ..

... وإحتضنت كل منها الأخرى بحرارة .. وقالت لها نجلاء :

- إنتهى الآن كل شيء

- كيف ؟

- معك ثمن الحرية ..

- حرיתי أنا .. أقال لك .. وافق على طلاقي ..

- على كل شيء .. ولكن كل شيء مقابلته ثمن ..

- فهمت .. وما هو الثمن ..

- الذهب ..

- ذهب رزونة .. أنا لا أملكه ..

-الذهب الذي معك أنت ..

-يقولون أنه رجل نبيل فكيف يبتز امرأة مثلي ؟

-لست في حاجة لتلقي دروسا أخرى في إصلاح المجتمع والإقتصاد

والأخلاق .. كفاني أينها الغجرية ..

.. وراحت تبكي على حظها .. أليست هي مثل كل الناس ومن حقها أن

تملك شيئا .. ولما انتهت من تألمها على نفسها قالت في حسرة :

-الثرثرة سمة من سمات الغجر .. فكيف لا أتكلم ؟

..-تكلمي ما شئت ولكن ليس الآن .. الليل يقبل ويجب أن أذهب لآتي له

بطلبه وننتهي .. وراحت تفتش في حقيبتها حتى وجدت مفتاح

الصندوق وقالت :

-هكذا يكون الناس .. لا بد أن أدفع .. إنه ثمن غال ..

-هذا قليل من ثروة طائلة تحت يديك حتى تحسلي على الطلاق مقابل

الحرية والزواج من رزونة والإستيلاء على الذهب .. أقصد كل ثروة

فوزي رزونة تصبح ملكا لك .. بعدها سوف نقيم ملهى هائلا يرتاده

السادة قبل العامة .. يرتاده أصحاب الأعمال في هذه المدينة .. هناك

سوف أنتقم منهم جميعا وأكون أنا وأنت سيدتا هذا المجتمع كله من

يعرف ربما نستطيع إصلاح هذا المجتمع بالسيطرة على الرجال فيه ..

-يا لك من مجنونة .. إنها آمال جوفاء .. يكفيننا أن نقيم ملهى لنغني

ونرقص فيه ولما يموت رزونة أتزوج من أريد من الرجال .. وإذا لم

يحدث فيكفيني أن أكون صاحبة هذا الصرح الكبير .. وسكنت .. ولم

يكن لديها كلام آخر تنفوه به، ومدت قبضة يدها إلى صديقته بسلسلة

المفاتيح ..

.. وأنتزعت نجلاء كتلة المفاتيح وقفرت إلى الصالة وقالت لسلامة مهيلة:-

-يا سيدي أحضر مأذون الناحية .. سوف آتيك بالذهب .. قليل من الوقت إنتظرنى .. لا رجعة في إتفاقنا ..

-لا .. لا رجعة .. عندما تعودين بالذهب ستأخذين العجربة .. بالصرمة القديمة ..

-مطلقة حرة .. قالتها وهي تخرج من باب الشقة متجهه نحو الدرج .. كانت تقفز السلم وكأنها تطير إلى تحت .. وهولت تجري نحو الشارع حيث إستقلت عربة أجرة إلى ملهى رزونة ..

.. واستوقفها عسكر الدورية في مدخل الطريق الصاعد نحو التبة، وسألوها عن مقصدها فأخبرتهم به غير أنها قالت لصاحب المركبة مندهشة:

- لم يحدث هذا من قبل .. منذ متى ومدينتي فيها عسكر يسألون الناس عن غاياتهم ..

-منذ أسبوع وصل أول دفعة منهم وكل يوم يأتي جديد .. من أين ولماذا

-يقولون أن هناك ثائرا في جيش الجنوب يدخل مدينة بعد أخرى ليحررها وهو الآن في طريقه إلى الشمال

-يحررها من ماذا

-من الظلم .. والعبودية ..

-وكيف يستطيع واحد من العسكر المناداة بالحرية أو العدل ..

... وتنهذ السائق وقال :

-يخلق ما يشاء ..

-ما دخل العسكر مدينه وبقيت عمارا ..

-يا سيدتي إن هذا الرجل ومن معه عساكر من الوطن ..

-وقالت مازحه وهي تنزل من المركبة :

-أتمنى ألا يقفل الملاهي وهو في طريقه لتحقيق العدل ..

-وقهقه السائق وهو يقبض النقود من يدها وطفق قائلا :

-معقول .. الملاهي عين العدل يا ستي ..

... ولما دخلت الملهى قابلها الجميع بالسرور والترحيب .. حتى خفير

الباب الخارجى الذى يسمع عن غنائها الجميل ولم يكن فى يوم جليس
غنائها قال :

-فينك يا ست الكل .. وحشتينا .. وشجعها ذلك أن تسأل وهي مازالت

تمشي بعجلة كأن ريحا تدفعها :

-أين سيدك ..

-جوه يا ستي فى حجرته .. تعبان شويه ..

-سلامته ..

... وهوت عليه وهو يرقد فى فراشه وقبلته من يده ووجنته حتى تقتلع

منه جذور الرفض أو معارضتها فى شيء وأبلغته بصوت دافء ودود

وهي تهمس فى أذنيه بالحكاية كلها .. فقفز الرجل من مرقده وأخذ منها

المفتاح وهول إلى الصندوق فى غمضة عين وأمسك بالصرة بين يديه

وقال :

-هذا كل شيء .. عندي منه الكثير .. أحمد الله أنه لم يطمع فى أكثر

..

... وقبل أن تتلقف منه الصرة قالت وكأنها تحسد سلطنة :

-إلى هذا الحد تحبها ..

.. وقال بصوت عال وهو يرفع يده إلى أعلى :

-تحيا العدل .. تحيا العدل ..

-والحرية .. والحرية .. جايين في الطريق ..

.. ونادي خادمه ليحمل البقجة وقال له بنبرة قوية :

-في السيارة : ضعها في المقعد الخلفي .. وأخبر السائق ابن الداخنة

.. أن يظل تحت أمر ست الكل طول الليل ..

-حاضر يا سيدي ..

.....

.. وكانت المفاجأة أنها عندما دخلت بيت سلامة سمعت رقصة على

موسيقى صاخبة .. وطريقة صاجات بين أصابع راقصة وكلمات تصدح

كأنها سلاسل من ذهب :

لو أني أملك شيئاً من هذا الكوكب

لغسلت قلوب الناس بالماء الصافي

من الغدر .. وحررت الأهل من القهر

لو أني قطعت طريقاً وحدي في الليل

لزرعت الشجر على الجنبيين ..

ومن يدري وصنعت الظل وجعلت ..

الأوراق مثل رحيق الزهر

ولم الغدر ولم القهر ..

لك منى كل الحب والإطمئنان

يامليك البر يا أمير العدل

لقد أنصفت وعدلت وحررت

أنصفت رغبتي

وعدلت شوق الفقراء إلى العيش

وحررت توقي إلى رجل كهل ..

يا ملك الإنسان لو أني أملك

إنسانا مثلك لفعلت ..

ولكني لا أملك شيئا مثلك ..

لأنني لو أملك لن أفعل شيء ..

إنني امرأة أغسل حرماني في كهف الشيخ

فهل هذا عدل ..

الزمن الصعب يفاجئنا بالحرية

وما الحرية إلا عبد .. عبد يلتهم كل الأجساد العريانة

حريتي عبد يعشق الليل المظلم

لن يرى القمر في ليلة بدر ..

ولا الشمس في صباح يوم ..

إنني امرأة اخترت الحرية التي يلفها الليل ..

لو أني أملك شيئا لن أفعل شيء ..

.. ثم توقفت فجأة عن غنائها وارتمت على المقعد كالتى شعرت بدوار في

رأسها، وتهدجت أنفاسها وراحت تنظر حواليتها كالتائهة .. وأما هو فلم

يلق بالا إلى المرأة التي دخلت عليه وتحمل بين يديها في صنعوبة تلك

الصرة الثقيلة، حيث ألقت بنفسها هي الأخرى على أحد المقاعد وتسمرت

عيناها على وجهه فوجدته شاردا فاسترعت إنتباهه قائلة :

-هذا ثمن الحرية .. وأشارت إلى الصرة ..

... فابتسم وهز رأسه وقال وهو يحدق نحو الشرفة :

-لقد انتهيت إلى قراري .. دعيني قليلا وسأفك الوديعة ..

... وأخذ يتطلع إلى بعد هذه الليلة، يدقق بناظريه من خلال فتحة الشوفاة المواربة حيث الطريق المنحدر الذي يعبر الأحياء الفقيرة .. هذا الطابور الممتد من عربات الكارو والحناطير القديمة والرجال والنساء والأطفال من العامة والذين يعودون من أعمالهم في قلب المدينة إلى بيوتهم .. وكأن الغبار والدخان الذي كون سحابة ممتدة فوق رؤوسهم أصبح علامة مميزة ترافقهم كل ليلة حتى يأوي كل منهم إلى بيته، ولم يكن أحد يستطيع أن يوقف حرك عجلات المركبات في الشوارع المتربة أو سير الأغنام والإبل على الشريط الرملي الموازي للطريق، ودخان مصانع الطوب والحدادين في أكواخهم الصفيح وأفران الخبز التي تستخدم الحطب والقطن والسولار وورش السيارات، وعمال الزراعة والبناء على الأجناب من إشعال النار لتقشير الخبز وعمل الشاي وشي السمك والذرة وغيرها، يتابع كل هؤلاء عن كثب ويشعر بالحنين نحوهم ويتعجب كيف كان واحدا منهم في بلاده وأصبح الآن يملك تلك الأبراج مظهر الثراء في تلك البلدة الشمالية الواسعة والذي يقلبها الزمان من فوق ومن تحت، وهو مازال يرتع فيها بسعة الرزق وأهلها في غالبيتهم يزدادون فقرا وحاجة .. وتوجه بالحديث إلى نجلاء محاولا أن يصل إلى شيء :

-هيه .. نحن نعيش في أبراج عالية وهناك .. وأشار بيده عبر الشرفة .. هل ترين ؟ .. وقامت إليه تربت على كتفه وتقول :

-كيف تكون طالبا للمال والذهب وتساوم على النساء، وتشعر في نفس الوقت بحنين شديد نحو هؤلاء .. من أنت بالضبط .. الذي أعرفه أن يكون الإنسان شيئا واحدا ..

-يا سلام على الدنيا ألم يقولوا لا أمان لها .. ان أمل كل إنسان أن يتخطى فقره وأن يعمل دائما ألا يعود لتلك الدائرة، ولكن ليس معنى أنني أصبحت غنيا أن يذهب شعوري بهذه القاعدة التحتية العظيمة لكل مجتمع ..

-ألم آت لك بالذهب .. إمنحه لهؤلاء وخلص نفسك ..

-أنت امرأة عصبية مثل معظم نساء هذا العالم .. تتعاملين مع الأشياء من وجهة واحدة ..

-لقد خرجت من هذه المشاعر وتخلصت منها بالعمل في الملاهسي .. ولم أعد أرى غير هؤلاء زبائني .. وعلى فكرة معظمهم من الفقراء .. ولكنهم وهم فرادى ليسوا فقراء .. إنهم ينفقون ما في جيوبهم .. وفي آخر الليل يعودون إلى بيوتهم وجيوبهم خاوية، فلا تجد في بيوتهم شيئا. إنهم في حاجة لأن يعملوا طيلة النهار ليحرقوه في الليل، إنهم فريق يورث الفقر لبيوتهم ..

-تريدين أن أقول أن الإنسان بسلوكه يفتقر وبه يغتني ..

-الفقر الحقيقي هو فقر التصرف .. ما يسمونه فقر العقل .. ولذلك فأنتني أقول إن الفقراء هم الذين صنعوا ذلك في أنفسهم ..

-ولماذا لا تقولين أن الأغنياء لم يتركوا لهم شيئا لنتحرك فيه حياتهم وأنهم صنعوا دوائر الفقر، فمثلا الملاهي صنعها القادرون لتجعل الفقير يرث الفقر وتجعل الغنى يذهب إلى الفقر ..

-الفقراء واليد العاملة أيا كان نوعها والتي تذهب إلى الملاهي على سبيل المثال هم وقود الفكر المادي، أو بمعنى آخر إنهم يذهبون إلى تلك الأماكن ليدفعوا مادة مقابل الحصول على مادة فالمادة التي في جيوبهم ينفقونها من أجل امرأة تذهب معهم آخر الليل ولذلك كانت امرأة الليل دائرة من دوائر الفقر للغنى وللفقير على السواء، وبهذا المعنى فإن الغنى والفقير في هذه الحالة قد إشتروا مادة وهي المرأة بدلا من المادة التي في جيوبهم وفي الصباح فإنك تجد المحصلة أن

كل شيء قد ذهب، وأنتك لابد أن تعمل كل صباح لتجد المادة حتى تحصل في المساء على المرأة.. وهذا دائرة موجودة في كل مجتمع غير أنها دائرة خارج المجتمع الأصولي، ومنفصلة عن المجتمع الديني..

- لكن من الذي كَوّن المرأة في الملاهي ونساء الليل في أي مجتمع - صدقني أن معظم هؤلاء النساء من أحياء الفقراء، والأزمة الاقتصادية هي التي تولد مشاكل الحاجة إلى المال، وعندما لا تجد المرأة عملاً شريفاً فإنها تتجه للمقامرة بجسدها من أجل حل مشكلتها الاقتصادية ..

- ولكن هناك نساء لسن في حاجة إلى المادة وانخرطن في العبث والهوى..

- هؤلاء هن الغاويات والعاهرات الحقيقيات، وهن من كل الطبقات.. وتضرّج وجهه نجلاء بحمرة من الخجل وشعرت بأنه إستدرجها حتى أفضت بكل ما لديها فقالت له :

- سأقترح عليك إقتراحاً .. لماذا لا تقيم صالوناً للفلاسفة والمفكرين في هذه البلدة .. إذا كان فيها أناس مثلك .. وحتى تستطيع أن تقيم توازناً في هذا المجتمع ..

- إنني أعرف كثيراً من صالونات مقامة بالفعل، ولكنهم للأسف يتناقشون في نظريات فلسفية في الكتب، وهؤلاء الناس أكاديميون لا يستطيعون أن يجدوا لمشكلات أوطانهم حلولاً، لأنهم في الحقيقة بعيدون عن تحية أوطانهم ..

- أقسم لك بكل الأيمان أن الذي يستطيع أن يتكلم عن مشكلة ما هو الإنسان الذي يعيشها أو يتعاش معها وهو وحده أيضاً يستطيع

الوصول إلى حلول لها .. وأجدى بالصالونات أن تجالس الفقراء ونساء الليل حتى تستطيع أن تضع يدها على أمراض المجتمع الحقيقية وتعالجها ..

- الحقيقة ليس هناك ترابط في المجتمع وكل فرد يعمل لمصلحته فقط، ولم يعد هناك رجال مجتمع حقيقيون ولذلك فأنا أنصح أن رجل المجتمع الحقيقي في هذا الزمان هو الناس اللي تحت .. تحت أوى .. منهم تأخذ كل شيء .. وتأخذ الداء والدواء .. لكننا جميعا أصابتنا الكبرياء والأنانية التي ستجرنا في يوم إلى الهاوية .. فنحن جميعا مهمومون أصابتنا أهواء شخصية تافهة ..

- الفقراء اليوم ما أكثرهم .. وهذه ظاهرة ملحوظة في كل المجتمعات التي كانت تطبق الشيوعية والإشتراكية، فالنساء في الدولة الشيوعية يهاجرن إلى أوربا والشرق ليقدمن كل شيء مقابل المادة والرجال يعملون كسماسرة ونصابين وجواسيس أو مرتزقة حرب .. والذي لا تعرفه أن ملاهي المدينة تمتلئ بالنساء الروسيات على وجه الخصوص ..

- يكفيننا هذا الحد من الهموم ونحن على موعد دائما ..

- في أي وقت تطلبنى يسعدني أن آتيك ..

- هل لي بعض الوقت مع سلطنة ..

- أنا سعيدة بلقائك هذا وأمسكته من ذراعه مهزرة :

- على أن يكون اللقاء الأخير وخرجت ..

... كان الليل ينتصف وأحكم إغلاق الباب وأطفأ الأتوار وصارا في ظلمة غير أن أنوار الشارع قد بعثت ضياء ينور قليلا ظلام المكان .. ورجع إليها ودون أن ينبس كلاهما بكلمة راحا يتبادلان القبلات الطويلة وكانت

تقطعها كعادتها بأن تهمس في أذنه بكلمات تجعله يشتعل نارا نحوها ..
ومر وقت قليل بعده تحرقت شوقا إليه وما لبثت أن راحت من نفسها
تخلع ثيابها قطعة بعد أخرى وانطرحت على الأرض .. إنها تحب الأرض
كما كانت تفعل في خيمة الجبل .. وجذبته نحوها ليطفئ شوقها ..
وتقطعت خلوتهما من وقت لآخر فكانا يتبادلان الحديث وكانت جملته :

-أمنحك العجوز حبا أفضل من حبي ..

-لا ليس بهذا المقياس .. إن حبك يجعلني جارية عندك .. ولكنه يحبني
ويريدني زوجة كامنية أخيرة في حياته وعندما أحقق له ذلك أكون أنا
مليكته ..

-إنني نصير الحرية الشخصية .. ومع كل محتاج ..

-أنا في حاجة إلى الذهب .. وحاجتي للزواج من هذا العجوز من أجل
الذهب .. هذا كل شيء ..

-لكن هذا الذهب قليل .. وأشار بيده نحو الصرة ..

-عيوني .. وماذا تريد ؟

-ذهب آخر ..

-إذا أنت لست نصيرا للحرية ..

-أريد الذهب لفقراء هذه البلدة .. لأشيد لهم برجاً آخر يقيم فيه
محدودي الدخل من الشباب .. الذين يقطنون هناك في تلك الأحياء
التي تقبع شوارعها في مياه المجاري .. ولذلك فأنا نصير الفقراء،
وفي حالتك هذه أتقاضى منك ثمناً لحريتك لأنك في موقع تملكين فيه
كثيراً من الذهب .. أفهمت ..

-بهذا تكون رجلاً فاضلاً .. ولكنني الآن لا أستحوذ على باقي الثروة ..
إنني في حاجة لبعض الوقت كي أتمكن من كل ثروته ..

- لك ما تشائين من الوقت .. ولكن تصلني كمية مثل هذه قبل أن تشيدي ملهاك ..
- كم تزن هذه ؟
- .. وقام سلامة وحملها بين يديه .. وقال وهو يدخلها تحت المقعد :
- لا تزيد على خمسة عشر كيلو
- لك مثلاً .. وسكنت قليلاً ثم طففت قائلة :
- أنت صاحب فضل على .. لولاك ما كانت رحلتي إلى المدينة وتعرفت على العجوز، لولاك ما عثرت على الحظ ..
- ومن يضمن وقتها الوفاء بهذا الإتفاق
- لن أقول لك وعد عاشقة .. هات نجلاء القصر واجعلها شاهدة على هذا الوعد .. وهي المرأة الصديقة التي ستكون معي هناك ..
- نعم سآتي بها ..
- ... وأمسكته من ذراعه قائلة : ليس الآن إنني مازلت أريدك .. ولكن لي حاجة عندك ..
- ما هي
- أريد إخبار نجلاء بأن تنام الليلة هنا لأنني ما زلت أريدك ..
- هذا يسعدني .. وأنا عند إتفاقي سوف أحضر المأذون في الصباح ليعمل اللازم ..
- ... وتحدث سلامة في الهاتف وأخبر مطيعة بأن تأتي له بنجلاء ، ولما أنهت على التليفون الداخلي قالت نجلاء :
- آلو .. هالو .. سلامة ..
- صاحبك تخبرك بأنها لن تذهب معك الآن .. فهل تذهبين وتأتين في الصباح ..

- لا .. لا أستطيع أن أذهب بدونها .. ولكن أرجوك أن تنتهي في الصباح الباكر من كل شيء ..

-أعدك .. إعطني مطبعة حتى تجهز فراشك .. والطعام في المطبخ تناولني ما تريد ..

-شكرا يا سيدي .. تصبح على خير ..

... وهاتف مطبعة وأمرها بأن تعد كل شيء لسيدتها .. ودخل الحمام يغتسل ولما رجع إليها فوجئ بأنها تنام وقد نثرت الذهب حوالها كأنها فراشة تسبح في بحر من الذهب .. فقال وهو يكنس الذهب من حولها ليجد له مكانا بجوارها :

- أنت مجنونة حمقاء حتى تفعلني هذا ..

-ولكنني فعلت .. خذني كسيدة غنية فلست الآن بدوية .. إنها حالة نفسية ليكون لقائنا الأخير غنيا في كل شيء .. أليست هذه مشاعر إنسانية ..

-آه منك .. إنها مشاعر مادية ..

... أسندت رأسها على صدره والتصقت به ثم أخذت تغني مرتجلة أية كلمات .. وكانت الأصوات في الشوارع قد انقطعت حيث سكن الليل. غير أن أصواتا للعصافير والمركبات تتهادى إلى سمعها كأنها تأتي من مكان سحيق .. وهمس في أذنها :

- أليست في حاجة إلى الراحة ..

-أتمنعي من حبك .. أليس هذا لقاءنا الأخير .. هل أنت مثل رزونة ..

ألا تستطيع أن تواصل ..

... كانت تتجرد من ملابسها أمامه بشكل مثير .. لكن هذه المرة تجردت من ثيابها وأخذت تتزين بالذهب حول جيدها وأذنها ومعصمها وفوق

صدرها.. وذهبت إلى المرأة تتفحص جسدها ومفاتنها أمامه .. وكان يتأملها وهو لا يصدق كيف وافق أن يطلقها حرة وتذهب إلى هذا العجوز.. هل ملكيته للذهب أقوى من أي شيء .. صحيح أنه يجعله في خدمة الطبقات الكادحة .. أم كانت الملكية ونهمه للسيطرة الإقتصادية هو أقوى ما يدفعه إلى الحياة .. وتركت المرأة وانقلبت إليه ونامت بجواره قائلة وهي تحتضنه بذراعيها:

-آه لو لم أكن فقيرة لما كان جشعي إلى الثروة يتفوق على عشقي لك

..

-ومن قال لك أن عشق المرأة للرجل ليس إلا جشعا

-لكنك زوجي ..

-لو كنت ذلك حقا ما تركتك تذهبين ..

-تقصد أنك تقامر بي

-يبدو أن هذا صحيح .. وأنني لو لم أكن فقيرا في بلادي لما قامرت

بزوجتي ..

-تقصد أن حب الفقراء للمال هو أقوى شيء يحركهم..

-بالتأكيد ..

-ولكنك لا تقامر بي .. إنك لن تتركني زانية للعجوز .. أنت تطلقني

لأتزوجه، لا توجد أي مقامرة ..

-إنه إتفاق من أجل صفقة .. ويبدو أن الثروة تفرض نفسها على

المجتمع بقوة والناس يتمرغون فيها كل بدرجة ..

-وماذا نفعل .. إن لم نتحرك نحو تلك الكنوز التي هي في مثل حالتنا

فإن غيرنا سينالها، إن لم نفعل فإننا بذلك نخالف طبيعة البشر ..

-إذا مات العجوز بعد ليلة من زواجك به .. هل تعودين إلى ..

-لا أستطيع أن أسيطر على نفسي في مصير مثل هذا ..

-كيف ألا تتأكدي من مشاعرك نحوي ..

-الآن أنا معك ليلة تلك الليلة .. وفي الغد في إمكانك أن تأتي بغيري

لتقوم بنفس دوري ..

-وهل يشتري الرجل الخليفة ..

-أي امرأة تشعر نحو أي رجل بأي خضوع .. تحت أي سيطرة ما

تكون له خليفة ..

-أفهم أنك لن تعودني إلى بعد موت العجوز ..

-قد يدخل رجل آخر .. لا أستطيع السيطرة على نفسي .. إن رغبات

الناس بلا حدود وكل يوم تولد أرزاق جديدة ..

-اظنك تعرفين أن زوجتي الأميرة تعيش الآن في العاصمة ويقولون

أنها تعيش مع حاكمدار كبير أنساها كل ماضيها .. والأغرب من هذا

أن إبني محمد يعيش معها بعد أن باعت باقي أملاكها في هذه البلدة

.. فجأة وجدت نفسي بلا زوجة وبلا ولد ويبدو أن ولدي يعيش دنياه

ونسى أن له أبا ..

-ألم أقل أن العالم المادي يغلب العالم الإجتماعي ..

-ليس دائما ..

-وهل طلقت تلك الأميرة ..

-منذ فترة ليست ببعيدة .. جاعني مجموعة من المسلحين وأجبروني

على طلاقها .. وفعلت ..

-كانوا يتبعون هذا الحاكمدار ..

-نعم .. إن الحاكمدارية يفعلون أي شيء في هذه البلاد .. إنهم يملكون
قوة السلطة .. وأن هذه القوة تعلق قوة الثروة الآن .. إنها حالة من
الفوضى ..

-أنت في حاجة إلى زوجة ..

-أين أجد زوجة حقيقية في هذه المدينة ..

-إنني أعرف امرأة واحدة تصلح لك ..

-أين هي ..

-نجلاء القصر ..

-أنها مغنية وراقصة .. لن تتوب عن ذلك أبدا ..

-مغنية أو راقصة لنفسها .. انها لم تعش مع رجل أبدا ..

-كيف امرأة بهذا الجمال لا تعرف رجلا ..

-انها سحائية ..

-من الذي جعلها كذلك ..

-الزمن .. حادثة وهي صغيرة جعلتها تكره الرجال وتتجه إلى النساء،

إنها تقترب من الأربعين ..

-انني لا أستطيع أن أحولها إلى الرجال ولماذا هذه المرأة المريضة ؟

-لقد التقيت معها كثيرا وخرجت بنتيجة أنها في حاجة فقط إلى رجل

يستدرجها ..

-كيف

-انها في حاجة فقط لأن تشعر بالحنان والدفع .. إلى رجل يحبها

برقة متناهية ، لأن الحادثة التي جعلتها تكره الرجال أن رجلا عاملها

بوحشية فظة ومن ساعتها تعتقد أن كل الرجال مثل هذا الرجل ..

-هل أنت سحائية ..

-إنها صديقتي ويجب أن أتحملها بكل ما فيها من عيوب فهناك فترات طويلة في حياة أي امرأة لا تجد فيه غير المرأة صديقة لها ..

-وكيف اتزوج امرأة مثل هذه .. إن هذا مرض شديد ومن يضمن شفاءها منه خاصة أنها تكره الرجال ..

-معظم الزوجات الناجحات معقدات ومريضات .. إن إستقرار كثير من النساء كزوجات في بيوتهن لأنهن معقدات ومريضات ويخضعن لتأثير معين يسيطر عليهن طيلة حياتهن ...

-الحياة علمتني كثيرا لكن ما تقولينه لم أقابله طيلة عمري ..

-إني لن تعرف كل شيء عن النساء إني مثل الرياح والأمواج الهائجة ..

-دعيني أفكر في أن تكون هذه النجلاء زوجة ..

-من جانبي سأفاتها في هذا الموضوع وأحكي لها عنك وأنت تختلف عن كل الرجال ..

-أحزن منذ وقت طويل رفيقي .. أقول لك سر .. إني في حاجة إلى زوجة حقيقية تلد لي إنا يتربى في حضني .. إني في حاجة إلى زوجة مثل ما كانت أمي زوجة لأبي ..
-وكيف كانت أمك ..

- تزوجها أبي على زوجته حتى تنجب له لأنه عاش مع زوجته الأولى سنين طويلة ولم يرزق منها بمولود ..

-طبعا أنجبت له أمك ..

-انجبت له إثنى عشر مولودا.

-وهل كانت له زوجة ولكم أما ..

- لا .. كانت أمي أمًا فقط .. ولم تكن له زوجة كما ينبغي .. كانت لا تهتم إلا بأبنائها .. ولما أدرك أبي أنها لن تكون إلا أمًا .. كان يضربها كل يوم حتى تغادر البيت ..

-تغادر إلى أين ..

-إلى بيت أبيها ..

-بعد أن انجبت له إثني عشر طفلاً ..

-لا .. كان الضرب المبرح بعد طفلين وكان هدفه أن تترك له الطفلين وتذهب بلا رجعة لكن أمي كانت كالقطة ولم تترك الطفلين وأخذت بعد ذلك تلد له كل عامين طفلاً واستطاعت أن تهزمه بأطفالها وتبقى في البيت ..

-إذا كان يأتيها ويعاشرها ..

-كل سنة مرتين على الأكثر ..

-وهل كانت تريحه ..

-أبداً إنه كان يقضي معها تقضية واجب .. وبعد كل لقاء لو استطاعت أن ترفسه لفعلت .. ولما كبر أبنائها كانت تقول له عندما يقترب منها .. عيب .. خلي عندك دم ولادك كبرت وكان الرجل يذهب إلى امرأته الأولى حيث كانت تعيش معنا في غرفة بمدخل البيت، وفي غرفتها تعطيه هذه الزوجة كل شيء .. وكان أبي يدعو لها لأنها تسعده، أما أمي فلقد أسعدته فقط بالعيال .. والمدهش .. وسكت ..

-ما هو المدهش ..

-أنه كان بعد معاشره أمي يذهب إلى زوجته الأولى كي يغتسل عندها . لأن أمي ترفض أن تصب عليه الماء أو تدعك جسده بالليفة .. كانت امرأة خائبة .. أنا أسفة ..

-لا تأسفي على شيء كانت أُمي فاشلة أن تكون زوجة، وهناك كثير من النساء ترفس ..

-كانت مريضة أو معقدة ..

-وتريدون أن تأتي لي بمثل أُمي ..

-ليت كل النساء مثل أمك .. إن النساء الآن لا يستطيعن أن يكن أمهات حقيقيات .. يكفي أن أمك نجحت كأم وكانت عفيفة الجسد وأن الله عوّض والدك بزوجة أخرى يقضي عندها حاجته ..
-أهناك نساء في هذه البلدة مثل أُمي ..

-في الأحياء الفقير والنجوع والقرى .. هناك تجد الأمهات الحقيقيات أما هنا فاعتقد أن المرأة قد انقسمت إلى أجزاء عدة ..
-كيف ؟

-إن كثيراً من النساء في المدينة لا يستطيعن أن يكن أمهات، وهن زوجات بعض الوقت لأزواجهن والبعض الآخر يقامرن فيه .. إنك لن تستطيع أن تعرف من تكون المرأة بالضبط في هذه البلدة، لقد اختلطت الأشياء .. وكل امرأة تعرف نفسها فقط ..
-على أن أذهب إلى الأحياء الفقيرة لأختار زوجة وأما .. أذهب إلى أي قديم ..

-إن نجلاء من الإقطاع القديم ..

-إنها امرأة متحررة تعمل في الملاهي ولا أضمنها ..

-عقدة نجلاء واحدة ومرضها مرض واحد من السهل معالجته ..

-ومن يضمن ذلك .. ولماذا لا أذهب إلى الفقراء لأجد ضالتي ..

-إن كثيراً من بنات الليل من تلك الأحياء ..

-أي واحدة تعيش في بيت ..

-لا توجد امرأة واحدة فقيرة مكنونة في بيت .. لقد خرجن جميعا للعمل، ليدفعن الفقر عن بيوتهن، الخادمة والخبازة وبائعات الخبز والبطاطا والفول والعسلية والجبن والفطير والجرائد وجامعات القمامة وبائعات اليانصيب والعرجيات وسائقات الحناطير والفلاحات اللاتي يعملن في الزراعة والمرضات .. فكيف لك من هؤلاء بزوجة ..
أوساط .. تعبانه .. وأنت سيد ..
-أنت تحاصريني من أجل نجلاء ..
-اعتبرها تجربة أخيرة ..

... وساد الصمت .. وسكت كلاهما عن الكلام .. فلم يعد هناك قدرة على المزيد .. غير أنها راحت تحضنه وتهمس في أذنه بكلمات متقطعة .. ليست كلمات جوفاء أو فلسفة أو البحث عن امرأة تكون أما .. كل هذا الحديث ممل إلا همس صوتها في أذنه .. لقد كانت تحفظ كثيرا من الكلمات التي قرأتها في كتب الأرجال القديمة .. من يملك قلبه والجسد قرين الشيطان .. من يملك قلبا وشعور واحد طول اليوم .. الحب طفل يتحسس نهدين على صدر أي امرأة .. والليل يطول وفي الصباح تمتلئ الأرض بأقدام الناس .. تدهس العجلات الأرض والصمت رفيق الناس والقطار يمر بسرعة ولا أحد يمسك بالأيام .. والنهر مياه تركيبها القوارب حتى تصل الشيطان .. أين الدفاء وأمنيات القلب أين الورد في البستان .. أين المعنى والرمز أين الهمس بأقل الكلمات .. هل تخبئ الأشياء خلف جدار من أحجار مصبوبة وأبواب مقفولة .. من يملك مفتاح الصمت .. هاك المفتاح .. خذ وافتح .. إن الأقفال الضخمة قد صدئت .. علقتها الأفعى وانحسرت .. إن الحسرة قد حصرتها من فوق ومن تحت ..

والأسوار العالية صعب أن يتسلقها إلا الحق أو يهدمها إلا الحق .. أين الحق ؟ إنه في لحظة آت ليمحق كل القهر ..
.. وقام سلامة من بين أحضانها وفرك عينيه واندھش وقال كأنه يحدث نفسه :

- وهل تعرف واحدة مثلك الحق، أتتكلمين وأنت في وعيك، هل تعني الحق كما يعيه الذين يعرفونه ؟ .. أنت مجنونة أم عاقلة .. من أين أتيت بكل هذه المعاني ؟ حقا أنت لست جاهلة .. الجاهل هو أنا الذي يتصور أنه الوحيد الذي يعلم بكل الأشياء ..

... ولأول مرة تمتعض سلطنة وتقول وكأنها تسخر من العالم حولها :
- لقد تربيت في الجبل . علمتني الطبيعة التأمل والخيال .. وأنا طفلة رأيت كل الناس الأفاضل الذين كانوا يأتون إلى أبي ليعلمهم بطالعهم .. نساء ورجال وعلماء من مختلف طبقات هذه المدينة .. إنني أعني المجتمع كما يعيه أي عالم أو فيلسوف ولكن ينقصني التعبير .. ثم سكنت بعد أن لفت جسدھا بالشرشف .. وكفت عن أي كلام غير أنها كانت تنظر إلى وجهه الذي أصابته الدهشة .. ودخل إلى جوارھا تحت الغطاء وقال محدثا نفسه :

- أريد أن أبكي .. أريد ..

... كانت الشمس قد بدأت تطلع من وراء الجبل وحركة المدينة من تحتهم بدأت تتولد .. وراحا في نوم عميق حتى الظهيرة لما طرقت عليهما الباب منادية في رفق :

- سيدي .. سيدي هل أجهز الإفطار ..

... ولم يرد عليها أحد فانصرفت إلى أعمالها في المطبخ .. وابتسمت نجلاء ونهضت من فراشها ولما قضت حاجتها خرجت من دور المياه

ووصلت الغرفة التي قضت فيها ليلتها وأخذت ترتدي ثيابها .. وشعرت
بالعاطفة نحو هذا الجو الأسري .. بالحنين الشديد لحياة إجتماعية لم
تشعر بها أبدا .. إنها لن تستطيع ذلك إلا بالرجل .. كيف وهي تكره
الرجال جميعا؟ ولكن هذا الرجل الغريب الذي تربع .. فوق عرش هذه
المدينة بأعماله تلك .. كيف يعيش وحيدا دون امرأة، ونساء المدينة
جميعا يتمنون رضاه.. بأي فكر يعيش هذا الرجل .. ماذا يريد من
الملاهي والفقراء والنساء.. إن الناس جميعا يعيشون في داخله .. أعتقد
بعد كل هذا الحشد الكبير الذي يتفاعل في نفسه لا يستطيع أن يعيش مع
امرأة .. انه رجل مثل الريح العاصف في ليل مظلم .. إنني أخاف هذا
الرجل .. آه ولكنني في نفس الوقت أنجذب نحوه ..

... هكذا كان حديثها مع نفسها حتى انتهت من زينتها .. وأدخلتها
الخادمة إحدى الغرف لتجد المائدة قد إمتلأت بكل أنواع الطعام .. وراحت
تمعن النظر في الأطباق التي تفوح برائحة شهية، وإندفعت المرأة تطرق
باب سيدها ثانية كي يستيقظ :

-سيدي .. الإفطار جاهز .. السيدة نجلاء تنتظر كما .. ومرَّ بعض
الوقت حتى جلسوا جميعاً يتناولون الطعام الشهى ..

وكانت سلطنة تتأعب .. جائعة إلى النوم وبذلت جهداً لكل تفيق من
تثاؤبها، وبادرت بالحديث مع سلامة وفضل أن يسمعها دون أن ينبس
بكلمة واحدة، وراحت تقول بين فينة وأخرى وهو يهز رأسه كلما قالت
شيئا :

-نجلاء ستكون سفيرتي إليك ..

-إن كل يوم له حديث ..

-إنه يتكلم عن الفقراء كأنهم أهله ..

- شديد الحديث عن المرأة وليس لديه أية امرأة ..
- كان رجل مجتمع قبل الحرب وأثناءها .. لكنه بعد الحرب إستكان لكل شيء حوله وقبع في برجه ..
- ماذا يريد من المرأة بعد ان كان زوجا لأميرة البلاد ..
- سوف تأتيك نجلاء بكل الأخبار .. وأنا دائما على موعد معك ..
- هدفنا واحد وهو نبيل .. وأنا أحب الفقراء لأنني منهم ..
- لن أنسى أبدا أنك الرجل الذي حررتني من عبوديتي ..
- دعني أجرب مرة في حياتي ..
- إنني أريد هذه الحرية التي باتت تخلق في أفقي ..
- أشعر بأنني سأفك في نهاية تجربتي .. عليك فقط أن تتركني حرة..
- ساعدني دائما ولا تقف في طريق حريتي وامنحني المزيد ..
- شكرا على عتقك لي ..
- دعني أقبل يدك ..
- ... ولما انتهت راحت الدموع تنسال على خديها وكان يرقبها منتشيا، بعدها أوما برأسه إلى نجلاء كي تتكلم ..
- ... وتهادي حديث نجلاء معهما ولأول مرة، كان شيء من الخيال يجعل فرحة ما تركض بين ضلوعها وكانت تحاول أن تمسك بها أمامهما وحاولت أن تداريها بحديثها كما تحدثت صديقتها من وقت إلى آخر :
- أنا ممتنة لوفائك معنا يا سيدي ..
- هل أرسلت في طلب المأذون ..
- انني أدعوك أن تزور ملهانا .. سوف تراني على حقيقتي ..
- تستمع وترى كل المجتمع هناك .. سأحييك بأرق الكلمات، وتصفق معهم من أجلي ..

-كلماتي لشاعر عبقرى .. يهتم بشئون المجتمع والبيئة وهو مفتون
بالفقراء .. وكلماته هذه يهديها لكل الكادحين والمقهورين فى هذه
الدنيا.. وهو يبكى على بنات الليل من هذه الأحياء الفقيرة ويحاول
إرشادهن ..

-إنه عبقرى من تحت .. من الجذور .. من الناس اللى تحت كما
يقولون ..

-صحيح سنشيد ملهى جديداً ولكن الملهى القديم له نكهة لا تقاوم ..

-فى القريب سأتى لآخذك إلى هناك ..

-أعرف كثير من الفقراء فى حاجة إلى عونك ..

-هلى تمناع اذا ترددت عل زيارتك ..

-أشعر أننى فى حاجة دائمة للقياك ..

-حديثك مفيد لمشاعر النفس الإنسانية ..

-لماذا لم تكن شاعرا حتى أتغنى بكلماتك

... وبعد انتهائهم من تناول فطورهم راحوا ينتظرون المأذون حتى جاء

وانتهت إجراءات طلاق سلطنة من سلامة بعدها بدا أن سلامة يريد أن

يقول لهما كلمات متناثرة كالتى القياها عليه فقال :

-لقد فعلت لك كل شيء يا سلطنة .. ولا يبقى إلا بقية من الذهب ..

-إننى أنتظر بصفة دائمة السفيرة نجلاء لتأتى بأخبار كما ..

-سوف أبيع الذهب وأودع قيمته وديعة يوزع عائدها على الفقراء ..

-منذ وقت طويل لم أذهب الى ملهى .. كنت أعشق وأنا شاب صغير

الذهاب إلى الحانات فى الأحياء الشعبية لأ تأمل وجوه الناس فيها ..

-إحذري رزونة حتى لا يخدعك .. لقد كان حلاقا ماكرا ..

-لابد أن تمر ثلاثة شهور كي يكون زواجك منه صحيحا ..

-أوصيكما ان تتجولا في السوق الذي أقمته تحت .. لتريا كيف أنني جمعت كل حرف البلدة في مكان واحد ..

-أمنية حياتي أن أقيم أبراجا وأسواقا أخرى ..

... وابتسمت نجلاء إبتسامة عذبة وهي تودعه وتركت يدها في يده وهي تصافحه في حرارة، لكن سلطانة نزعت يدها من يده قائلة وهي تكاد تنفجر من الضحك :

-سببي الراجل يا ولية .. يا خرابي منك ..

... وضربتها نجلاء بكف يدها الرقيق على كتفها وقالت :

-مش إطلقتي عايزه منه ايه تاني ..

... وألقت سلطانة برأسها فوق صدره وانهمرت في نوبة بكاء، وأحتضنها بذراعيه وراح يهدئ من روعها وقال :

-ليس الوداع الأخير .. أننا سنلتقي دائما .. ألم نتفق أن السفارة نجلاء ستكون حلقة وصل بيننا .. لا .. كوني قوية .. وراح يمسخ دموعها الغزيرة التي غطت وجهها .. وأمسكها من كتفيها وهزها قليلا ثم أمسك بذراع كل منهما في حنان حتى أوصلهما إلى الباب مودعا ..

.. وكانت مطيعة والجارس والسكرتير في وداعهما حتى إنتهيا من التجول في سوق سلامة .. كانتاتسيران بخطي واثقة تنتشيان من الهواء البارد .. وقلب نجلاء يتأرجح بين ضلوعها غبطة وفرحا .. سعيدة فرحة تشعر بالقوة التي لم تشعر بها أبدا .. ترى كل شيء حولها بهجة وسرورا.. ولم تتوقف عن تلك المشاعر .. إنها لا تقدر أن تمنع أحاسيس تنساب في داخلها بطبيعية .. وكانت تضغط بأصابعها على ذراع سلطانة كما كانت تفعل مع زميلاتها في المدرسة الثانوية .. وكان السكرتير

يتقدمهما بخطوتين شارحا نشاط كل محل تجاري أو صناعي أو حرفي في هذا السوق .. حتى انتهيا من التجول في جميع أرجائه .. وعند العربة كان الحارس يزق قائلا .. كتفان سلاح .. واحد إثنين ثلاثة .. تحية لهما .. لكن السكرتير أشار إليه قائلا :

- .. أسكت يا خايب انت في سوق مش في ميدان .. الدنيا مليانة بهائم .. وضحك الجميع بصوت عال خاصة لما أردفت مطيعة قائلة تكمل حديث السكرتير :

- .. علشان كده عمري ما هتجوزك يامنيل ..

- ولما إنطلقت المركبة تعبر الطريق الموصل إلى التبة .. أخذت نجلاء تغني بصوتها العذب .. كمن تجرب أغنية جديدة ستغنيها في الملهى .. كلمات عن الحب والزهور والأوراق الظليلة .. وأيقظت كلماتها في سلطنة شعورا بالإطمئنان للغد. وتأكدت أن سلامة رغم حديثه الصعب مع النساء في أحوال البلاد وكأنه يجبر النساء إلى تعلم السياسة والاقتصاد وأنه لا يجب أن يتحدث معهن في مثل هذا المسائل إلا أن حديثه يدق قلوبهن ويوقظ مشاعرهن، إنه يحشد كل الكادحين لأن يقوموا بأعمال شريفة ومنظمة حتى يعيشوا حياة كريمة .. لوزار سلامة الملهى لأيقن تماما أن كثيرا من هؤلاء الفقراء لا يستحقون كلمة واحدة من أجلهم وأن هذا هو خيارهم المفضل في حياتهم .. إنهم يسهرون الليل ولا ينامون في النهار ولا نعرف متى ينامون .. هل ينامون وهم يقومون بأعمالهم .. وتوقفت المركبة عند البوابة الخارجية للملهى، وجرى الخفير ليفتح سنافور الباب ثم أخذ يهرول ليالحق بسيدته سلطنة ليخبرها :

- .. سيدي تعبان .. والطبيب عنده ..

.. فطفقت سلطنة :

-يالهوي .. يا حبيب قلبي ..

... وانقلب الخفير إلى الخلف وداري وجهه بكفي يديه وقهقهه وهو يكلم نفسه :

... ياما نشوف بقه ده حبيبك .. حكم ..

... كان العجوز يرقد في فراشه لا يدري بما يدور حوله والطبيب ينحني فوقه .. وأفسح الرجال المقربين له والملتفون حوله للمراتين مبدئين مظاهر الشفقة والإحترام ..

... إرتمت سلطنة بوجهها وصدرها فوقه باكية والطبيب يحاول رفعها عنه لأن الرجل لا يستطيع حملها فوق عظام جسده الواهن .. فاندلت تجلس بجانبه واكتفت تمسك كف يده تدلكه ونجلاء تنحني عليها تمسح دموعها المنسكبة بمنديل ورقي .. وإنصرف بعض الرجال إلى أعمالهم وبعد قليل إنصرف الطبيب بعد أن القى بالروشتة في يد سلطنة وبعض التعليمات الشفهية لمداواة مريضها ..

... وأمرت سلطنة من بقى من الرجال بالإنصراف إلى أعمالهم .. كان رزونة مغمض العينين تلفه غيبوبة لا يدري بشيء حواليه .. وعدلت من ذراعيه وشدت الغطاء فوقه، وقامت إلى الهاتف لتطلب مستشفى الرحماني وأخبرت إدارتها بحالة مريضها وأنها في حاجة إلى ممرضة بكل أدواتها .. وأرسلت السائق إلى المستشفى ليأتي بالممرضة والدواء من المدينة .. وتركت نجلاء مع مريضها وخرجت إلى الملهى وملحقاته لتطمئن على حسن سير العمل وأن كل شيء سيكون على ما يرام لاستقبال الزبائن خاصة وأن الليل قد أظف .. ولما عادت وجدت نجلاء تسألها عن ولديها فاخبرتها أنهما هناك في أعمالهما بالمطعم ..

فقلت لها :

-أمتأكدة أن أحدا لن يأتي الآن ..

-.. لا أعرف ..

-وأمسكتها نجلاء من ذراعها وإقادتھا آخر الغرفة الكبيرة وقالت لها :

-حتى لا يسمعا أحد ..

-خير ..

-يجب أن نتصرف بسرعة .. وسكتت قليلا ثم أردفت :

-قد يموت اليوم أو غدا .. إن حوله وحوش .. لا أعرف كيف

تنتظرين حتى ثلاثة شهور .. وإننا أيضا لا يجب أن نتعدى حدود

الشرع ..

-أشعر أنني غير قادرة على التفكير ..

-لا بد أن نشرك رجلا معنا ..

-أخبريه

-من هو ؟

-لا يوجد غيره .. سلامة ..

-سوف أبلغه الآن بكل الأخبار .. وعليك أن تقومي فورا بجمع كل

أوراقه ومستنداته ومفتاح السرداب .. وكافة المفاتيح الهامة ..

ومفتاح الخزينة الحديدية .. والإحتفاظ بها في مكان واحد .. قومي

أرجوك ..

... وقامت نجلاء إلى الهاتف وطلبتة وأخبرته بكل شيء بصوت

منخفض .. وما كان منه إلا أن قال بعد أن تدبر الأمر :

- هل تثقين في السائق الذي جاء بكما ..

-نعم نثق فيه إن سلطنة تأمنه لأنه لا يتكلم ولا يسمع ولا ..

- إرسليه الآن .. سوف آتى إليكما شبه ملثم حتى لا يعرفني أحد من العاملين عندكم ..
- تعالى في أي شكل تراه .. المهم أن تأتي لتتفق ..
- ... وأبلغت نجلاء سلطنة بالمحادثة وسعدت الأخيرة بقدومه غير أنها أخبرتها أن السائق تجديه الآن في نوم عميق من تعب الأمس ..
- .. هلى أذهب أنا .. إننى أجيد السوافة ..
- لا .. لا تتركيني وحدي .. إن أوصالي ترتعد ..
- .. إذا أيقظى السائق ..
- ... وهرولت سلطنة نحو الباب لتفتحه وتبلغ الحارس بإحضار ذلك السائق
- .. وتركت الباب مواربا حتى آتى السائق ينادي بصوت خفيض .. يا سيدتي .. يا سيدتي ..
- ...وراحت إليه سلطنة مدت إليه يدها بورقة مالية فشكرها وانحنى قائلا:
- أمرك يا ستي ..
- إذهب حيث كنا اليوم .. هل تعرف سكرتير صاحب الأبراج ..
- نعم .. وانحنى ..
- عليك أن تبلغ هذا السكرتير بأنك وصلت وفي انتظار سيده ..
- وماذا بعد يا سيدتي
- سوف تأتي بالسيد سلامة إلى هنا ..
- يا نهار إسود سلامة كله يا سيدتي ..
- يا حمار علشان يزور سيدك رزونة .. لقد علم بمرضه .. إنهما أصدقاء منذ زمن ..

-يا خبر يا ستي أصدقاء ودس الورقة النقدية في جيبه وهرع إلى
العربة ..

... وكان فوق باب البرج الذي يقطنه سلامة مصباح كهربائي كبير يلقي
ضوءه القوي على ممر طويل تزدان جانبيه بأشجار الزينة .. والحوائيت
على جانبيه مرصوفة تحت الدرج فأمسك بعصا خشبية ملقاه بالأرض
وأخذ يدق على أحدها كي يسمعه أحد .. إنه لا يعرف في أي طابق يسكن
سيد سلامة .. وإنزعج من كان يقظا من سكان البناية وهرع الخفير إلى
تحت زاعقا .. مين هناك .. إنت مين يا بني آدم .. أسكت ..

- وحقق في وجه السائق وفرعه قائلا :

-يخرب بيتك بتعمل إيه .. مين إنت ..

-أنا قادم من هناك .. مرسل .. أريد سيدك .. وألقى بالخشبة على
الأرض ..

-وعاجله الخفير :

-عارف : سيدي نازل .. مش إنت بتاع رزونة ..

-نعم ..

-طيب خلاص .. هو نازل يا جلاب القلق .. إنتظره بره .. بره ..
وشده من ذراعه قائلا :

-تعال ورايا ..

... وتبعه السائق حتى الميدان وتوقفا عند العربة وربت الخفير على
ظهره قائلا :

... سيدي خلاص زمانه لبس .. هاروح أبلغه .. وانقلب حيث جاء ..

... وقعد السائق على رف العجلة الأمامية يحضن صدره بذراعيه ..

... غير أنه سرعان ما أخذ يتسلى بفتيات الليل اللاتي يذهبن شبه عاريات الى زبائنهن وكان يقارن كلا منهن بمثيلاتها اللاتي يألّفهن في الملهى كل ليلة ..

.. وكانت مجموعات من الفتيان والفتيات يعودون من سهراتهم وقد تأبط كل منهم ذراع الآخر .. واسترعى ناظريه فتى وفتاة يقبعان داخل باب أحد الحوانيت المقفلة .. حيث إلتصقا كل منها بالآخر وراحا في قبلة طويلة وأثاره يد الفتى تعبت بأزرار قميصها .. والفتاة تحاول أن تنثنيّه عن عريضة يده داخل سترتها لكنها سرعان ما استسلمت لقبلاته المحمومة وأنامله التي إنتقلت إلى صدرها..

... وأتاه من الخلف رجل طويل القامة جميل الطلعة يمشي بخطوات ثابتة يرتدي بدلة سوداء من الصوف الثقيل وحذاء لامعا ويغطي رأسه ووجهه بطاقيّة من الفرو كالتّي يرتديها سكان سيبريا .. حتّى عيناه غمغمها بنظارة سميكة بنية اللون ..

... كان حريصا على ألا ينفذ إلى جسده صقيع الطقس وألا يميزه أحد يعرفه ..

... وقف خلف الرجل الذي ينتظره ليأخذه إلى الجبل .. وكان الأخير لا يدري بشيء .. إنه لا يرى ولا يسمع حوالية إلا هذين اللذان في مدخل باب الحانوت .. ولا مس سلامة أذنه بأصبعه .. ولما التفت خلفه وجده سيد هذه الناحية فكاد يخر واقعا على الأرض فبادره سلامة قائلا :

-ألا يكفيك ما تراه في الملهى

... وتلعثم السائق ..

- لا يا سيدي .. آسف ..

... وهرع إلى الباب الخلفي للمركبة وفتحها وهو ينحني قائلا :

- تفضل يا سيدي ..

... ولما تفضل سيده بالدخول وقبل أن يضع نفسه أمام عجلة القيادة لمح

الخفير وهو ينفجر من الضحك فابتسم من الموقف ولما إنطلقت المركبة

نحو التبة العالية .. قاله السائق لسيده مرة أخرى :

-أعتذر يا سيدي ..

-لم تقترف شيئا لتعتذر من أجله ..

-إنها الحرية يا سيدي .. منذ أن أصبح الإقتصاد حرا وكل الأعمال قد

تفتحت ..

-هل أنت متعلم ..

-ليسانس آداب ..

-كويس .. كم تتقاضى راتبا ..

-سبعمئة درهم ..

-أفضل لك من العمل كمدرس ..

-نعم .. إنه دخل يحقق لي حياة كريمة .. دا غير البهيش ..

-الحرية جميلة. ولكن كيف نمارسها .. مثل العدالة نحن نائهون لأننا

لا نعرف السبيل لتحقيقها ..

-لابد من وجود بعض الاشتراكية لتحقيق التوازن في المجتمع .. يجب

ألا ندع النظام الرأسمالي يجر الناس جميعا إلى اللادالة .. أقصد

الحرية الاقتصادية ..

-في بلادنا لم تنجح تلك الاشتراكية ..

-لأنكم كنتم تصرون على أن تكون هي النظام الأوحـد

- أفهم إنه لابد أن يكون في كل مجتمع عدة أنظمة إقتصادية ..

- بعض الأنشطة تسيطر عليها الدولة لضمان قدر من العدالة .. العدالة التي لا يستطيع القطاع الخاص تحقيقها .. والقطاع الخاص لأنشطة أخرى .. بل ونظام ثالث يجمع بين الإثنين ..

- نصف قرن مع الإشتراكية والنتيجة تصفية هذا القطاع .. والقطاع الخاص في بلادنا هزيل يحقق مصالح خاصة .. وقد ألقى كل القطاعين بالعاملين فيه .. ألقى بهم في البيوت ليطلقوا زوجاتهم، وفي الشوارع وعلى المقاهي .. يهيمون بأنفسهم في كل الطرقات وكثير منهم إختار أن يكون بائعا متجولا ..

- تقصد أن التجربة وضعت بلادكم في حالة من الفوضى .

- كان لابد من تحول تدريجي وأن أبقى على نظام أصبحت قاعدته تسرى في كل بيت .. إن الطبقة العاملة التي كونتها الإشتراكية في المصانع والشركات كان لابد من إحترامها والحفاظ على مكاسبها وإستثمار كوادرها .. بأن أضع حدودا لهذا القطاع حتى لا يطغى .. لكنني للأسف صفيت هذا القطاع وقضيت على مصالح ناس تشعبت واتحدت وانتجت على مدى نصف قرن ..

- تقصد أن النظام الإشتراكي يسعى إلى تحرير الإنسان من الظلم الإقتصادي ..

- إن القطاع الخاص في بلادنا لن يرقى أبدا لأن يحرر حيوانا، بأن يفتح له قفص الحرية .. وسوف يأتي يوم قريب يجعل كل الناس عبيدا .. القطاع الخاص في بلادنا ليس نظاما رأسماليا كالنظم الرأسمالية الغربية العظيمة التي كونتها الحرية الإقتصادية هناك إنه مجموعة

أفاقين لهم مصالح وليس لديهم أية أهداف نبيلة أو حتى بعض
المشاعر الإنسانية حتى يكون لهم أدنى هدف يحقق لغيرهم قليلا من
العدل ...

-تقصد يا سيدي أنه ليس بنظام ..

-ليس بنظام .. هو نوبة جديدة من الفوضى تصنع حلقات ليس لها
آخر من ظلم الناس وتبديد طاقات المجتمع .. وأن هناك مجموعات
من المستفيدين في أوساط الإدارة التنفيذية تشجع هذا النظام وتتكلم
باسمه لأنها تحقق في ظل هذا الجو منافع شخصية رخيصة ..

-إنهم يصنعون الظلم ..

-وبالتالي سيأتي أناس يستخدمون العنف لدفع الظلم عنهم ..
-إن من يصنع الظلم يصنع العنف .. تريد أن تقول إنها حلقات تؤدي ..
-هذه جميعها حالات من الفوضى وليست نظاما وعليه فإننا جميعا
سنجد بعد عقد من الزمان كثيرا من الظلم ومن العنف لن نستطيع
معالجته .. ولن نستطيع أحد أن يقف أمامه ..

-إذا هذه البلاد لا توجد فيها أية إستراتيجية وستظل تتخبط إلى يوم
القيامة ..

-إنهم يأخذون أنظمة غيرهم .. حتى الأنظمة يستوردونها ..
-.. لابد من نظام يأخذ من كل الأنظمة ما يتناسب مع ظروف وقيم
مجتمعاتنا .. إن الآخرين يصنعون أدواتهم الخاصة بهم .. ويلقون بها
بعد تقادمها وفشلها .. إننا نأخذ نفاياتهم ..

- لا عيب أن تجعل بعض القطاعات اشتراكية وقطاعات نظام رأسمالي..
 وقطاعات مختلطة .. وقطاعات متنوعة .. وبينهم جميعا يد عادلة
 تحدث التوازن بين هذه القطاعات للحفاظ على الأمة وصيانتها ..

- تقصد أن لكل قطاع هدف عام ..

- كل القطاعات لها نفس الهدف .. وهكذا تكون أيادي الأمة جميعها
 تعمل من أجل هدف واحد في ظل خطة شاملة .. وهذا ما أعنيه
 بالإستراتيجية

.. وكان السائق يهدئ من سرعة السيارة حتى يستمتع بحديث يعيش في
 داخله ولا يجد له حلا .. إنه الحديث الذي يعيش فيه كل شعب هذه البلدة
 وإن اختلف أسلوب المناقشة .. غير أنه مالبث أن دخلت المركبة بوابة
 الملهى .. وكان سلامة ينظر إلى الرجل بإمتنان فبادره وهو ينحني بعجلة
 القيادة إلى اليمين :

-إننا جميعا نتكلم .. وهذه صفة كل الشرق .. لماذا لا نفعل ؟

-الشعب ليس لديه أية قوة كي يفعل ..

-صفوة الناس يا سيدي عليهم أن يبادروا بالحكمة وليس بالقوة .. إننا
 نحب بلادنا ولا نريد الشعب يدخل في موجات من العنف والتشنج
 فيحرق ما تبقى من الثروة .. المبادرة تأتي من الصفوة الذين يملكون
 الحلول الواقعية لكل مشاكلنا ..

-إن هؤلاء الصفوة يتصفون بالفردية ويعيشون من أجل حياتهم
 اليومية..

-ولكن الشعب يئن ويصرخ ولا أحد يسمعه .. لقد دخل الفقر كل بيت،
 وكل امرأة تردح لزوجها صباح مساء وتعايره بالبطالة .. والرجال لا

يجدون أي شيء يعملون فيه .. إنني أخاف أن تجذب الدوائر
الرخيصة كل الرجال ..

-ما معنى الدوائر الرخيصة .. أهى النصب والسرقة والجنس والتجارة
فى أى شىء من أجل المال .. أعمال غير مشروعة .. إلى هذا
يقترّب الناس من الجرف ..

-لا مؤاخذه يا سيدى .. إنك تعيش بعيدا عن الناس

-إننى عملت كثيرا من أجل الناس .. وسوف أعمل الكثير ..

-إبرة فى بحر .. هل كل الذين يملكون عملوا ؟ أبدا .. لو استطاعوا
أن يتاجروا فى رقاب الناس لفعّلوا

-أليست هذه نظرة تشاؤمية ..

-أقدم لك أدلة يا سيدى ..

-يبدو أننا وصلنا ..

.. والتفت السائق إلى سيده وقال فى جراءة :

-وصلنا ولم نصل إلى شىء ..

-ألم تقل أن لديك أدلة .. لماذا لا تأتيني .. لقد عرفت بيتي .. تعالى
فى أى وقت ..

-ألا يضايقك مجيئى يا سيدى ..

-سوف أكون سعيدا جدا لزيارتك .. يكفينى أننى سوف أعرف ما لا
أعرفه .. وكست وجه سلامة إبتسامة عريضة .. ودس يده فى جيبه
ليلتقط ورقة مالية فئة مائة درهم ومدّها بإصابعه نحوه قائلا فى
حياء:

- لا تكسفيني .. هذه لإبنك أرجوك ..

.. فهز رأسه وأخذها من يده على إستحياء قائلاً :

- هذا كثير يا سيدي .. إنها تعادل نصف راتبي لو عملت مدرسا ..
قالها وهو ينزل مسرعا ليفتح باب العربة مشيرا بذراعه نحو المدخل
وبنفس السرعة قفل الباب وهول أمام سيده حتى وصلا إلى الحارس
الداخلي الذي يقف أمام الغرف التي يقيم فيها صاحب الدار .. والذي
قام بدوره بإدخال الضيف إلى حيث تقعد نجلاء وسلطانة قرب فراش
الرجل وهما يتبادلان حديثا هامسا، وخلق غطاء رأسه وهو يتقدم
نحوهما فنهضتا وقابلتاه عند مؤخرة فراش المريض وتصافحا جميعا
ورحبتا به وبأدبرهما قائلاً :

- كأنكما كنتما تبكيان ..

... وفركت كل عينيها بأناملها .. وأمسكت نجلاء بذراعه مهززة :

- كيف نبكي ووراءنا رجل مثلك ؟

- ألا يوجد أحد سواكما ؟

- فقالت سلطانة :

- لا أحد

- فقال

- يجب أن لا نضيع وقتا .. علينا أن نتشاور في الأمر بعيدا عن مسامع
أحد .

... وأشارت سلطانة إلى ركن الغرفة البعيد قائلة : هناك ..

... وساد السكوت لحظات وهم ينظرون إلى المدى المشار إليه .. وفجأة طرق الباب فأذنا للطارق بالدخول فإذا به السائق الذي ذهب لى المستشفى ليأتي بمرمضة إذ قال :

- أن الادارة بالمستشفى ستمدنا في الصباح بالمرمضة وكافة الادوات اللازمة لمأموريته ..

.. فأظهرت سلطنة بعض الضيق وقالت مستاءة :

-تابع في الصباح .. وإذا لم تفلح مع هذه المستشفى إذهب إلى غيرها.

-حاضر يا ستي .. وضرب قدميه في الأرض ثم إنصرف ..

... وضحكت نجلاء وهي تغمز بعينيها إلى سلامة وقالت :

-رزق الهبل على المجانين ..

... وضحكوا جميعا بصوت عال ثم ساد الصمت قليلا بعدها تقدمته المرأتان وتبعهما حتى جلسوا على ثلاثة مقاعد حول منضدة صغيرة أعدت لتناول الشاي، وأوقدت سلطنة الموقد الكهربائي ووضعت فوقه القوري مملوءاً بالماء، وإتكأ سلامة بذراعيه على الطاولة وركن ذقنه فوق قبضته وقال هامسا :

-يجب أن تمر ثلاثة أشهر ليكون الزواج شرعيا .. ولكن ماذا لو مات قبلها .. أظن أنك لن تتمكني من شيء ..

... وعلا وجه سلطنة الدهشة وبعد قليل قالت :

- وماذا نحن بفاعلين ؟ لقد فاجأنا بمرضه ..

... وقالت نجلاء :

-إن الناس حوله وحوش وربما يتمردون علينا ويطردوننا .. حتى العمل بعد ذلك لا نجده .. إن كثيرا من هؤلاء حولنا يقرشون الملح لأننا قريبون من هذا الرجل ..

... وشعر سلامة بالقلق فقام وتمشي حتى الباب الداخلي المؤدي إلى
السرداب ثم إنقلب إليهما قائلاً وهو يمعن ناظره حواليه :
- يجب أن نقوم بمغامرة .. وسكت ..

... وتفرست نجلاء في وجهه في محاولة لاكتشاف ما هي المغامرة ..
لكن سلطنة أبدت من داخلها الموافقة على أية مغامرات من أجل الخروج
من هذا المأزق وقالت :

- أنني أوافقك على أي شيء ..

- أن ننقل الذهب من هنا

... سلطنة :

- إلى أين ؟

- أولاً .. هل هو تحت يدك ؟

- معي المفتاح وأعرف الطريق إليه في آخر السرداب .. إنه في

الطريق الضيق المظلم خلف هذا الباب الصغير .. وأشارت ناحيته ..

... وزفر نفساً طويلاً وتبرمت شفتاه وشبك ذراعيه فوق صدره وما لبث

أن قال :

- أليست هناك أية مشاكل .. ألن يتعرض لنا أحد ..

- ونهضت سلطنة إليه وأمسكت بأناملها كتفه وقالت في تدبر :

- عندما ينتهي المغني والمرقص .. يفضل ألا يشعر بنا أحد ونحن ننقل

ولو حقيبة صغيرة من هنا إلى أي مكان ..

... ووافقتها نجلاء وتقدمت نحوهما وقالت في صوت خفيض :

- الخامسة صباحاً عندما يذهب كل الزبائن .. ويخلد العاملون في

المهوى إلى نومهم، وهز كل منهم رأسه ثم قالت سلطنة :

- ولكن إلى أين ننقل هذا كله ؟

... وردت عليها نجلاء في ثبات :

-إلى بيت سلامة

... وظهر على سلطنة بعض التردد والإرتباك وتلعثمت قليلا .. فبادرتها

نجلاء قائلة :

-إن الناس جميعا يأمنون سلامة .. لقد كان زوجك البارحة هو أقرب

أهل المدينة إليك .. أليدك أدنى شك ؟

... وحدقت سلطنة في وجه سلامة لحظات كأنها تسترجع الأيام الخوالي

التي عاشتها معه .. فلم تجد فيها شائبة وتذكرت في لحظات بعدها أنها

سرقته منه كثيرا من الذهب وأنه وقتها لم يدر بشيء .. إنه رجل غني

حقا.. وتقدمت نحوه ولفت ذراعها حول وسطه وقالت وهي تشده إليها :

-لن يبقى لي غيرك في هذه الدنيا .. كيف لا آمن من تأمنه المدينة

كلها منذ وقت بعيد ..

... وأمعن سلامة النظر إلى وجهها فلاحظ أنها تستسلم له مرة ثانية

بأعلى ما لديها .. وغمر وجهه بكفيه كأنه يحمي الله على الثقة، ثم

احتضنها إلى صدره بقوة فطوقته بذراعيها وراحت تنتحب .. وانهما معا

حتى أنه قبلها كما لم يقبلها من قبل .. ولم يشعرا بطرق الباب كرة ثانية

وراحت نجلاء تفتح للطارق، فإذا به مجيد الإبن الأكبر لسلطنة، جاء

يخبرها بأن الشاعر سامح يسألها هل ستغني الليلة، فأخبرته بأنها لن

تغني أبدا وعليه أن يبيع كلماته لمغنية أخرى، وإنصرف مجيد وصفعت

الباب ثم انقلبت اليهما واخبرتهما بكلام الشاعر، وقعدت نجلاء تصب

الشاي والتفا حولها يحتسيان الشراب الساخن وتبادلوا اطراف الحديث في

مواضيع شتى :

- هل أحكمت قفل الباب الكبير - السائق الذي أتى بك من أفضل السائقين .. خريج جامعة .. تستنيع أن تأمنه ونحن ننقل الذهب .. إنه لن يتكلم مع شيء .. هو بطبيعته لا يتحدث مع أحد .. أليس في داخل السرداب حشرات ؟ النوافذ محكمة مغلقة بالحديد والسلك، أمن الضروري أن نمسك بعضا .. أعلم أن الثعابين تلتف حول الكنوز .. يكفي مدية وعصا غليظة .. جهازا فانوسا وثلاثة أجولة سمكية بعد ساعتين يغلق الملهى أبوابه .. في الخامسة يذهب الجميع ومن في الملهى يخلد للنوم .. السادسة أنسب الأوقات للخروج من هنا .. من سنبقى هنا مع الرجل؟ أنا زوجته التي يجب أن تظل بجواره .. إذا نجلاء هي التي ستذهب معي .. والذهب يا سلامة .. آمنتك أمانة رب الكون، نحن ثلاثتنا لنا فيه حق .. كفى وصايا يا غجرية .. تأكدي أنني سأعمل من أجل الفقراء وليس من أجلي - نحن ثلاثتنا نحب الفقراء - وما حال الفقراء - إنهم ينغمسون في فقرهم ؟ إنهم لا يستطيعون لأنهم لا يملكون شيئا ولا أحد يهتم بأمورهم .. إن أكثر النشاطات ذيوعا في بلادي هي المقاهي والكافيتريات والملاهي وكل ما هو مضيعة للوقت ولهو ومضر بالصحة - هناك في كل أرجاء المدينة بطالة تحرك الناس إلى تحت فلا يجدون أعمالا صالحة أو مشروعة لإكتساب عيشهم .. إن الاعمال المتدنية تفرض نفسها وتتزايد من يوم لآخر والسلوكيات المنحطة أصبحت ظاهرة مألوفة .. لماذا لا نعيش واقعنا نحن ؟ وما فائدة هذه الثروة ؟ إننا لن نغير شيئا وهذا هو حال الدنيا .. إننا لسنا سياسيين يا سيد سلامة .. إن بلادنا تختلف كثيرا عن بلادكم .. أنت تصعد كل شيء إلى مضمون غير مفهوم .. إننا لا نعرف عن كل هذا غير الكلمات التي نسمعها

هنا وهناك .. دعنا نرقص ونغن .. إن للنساء مثلنا قضايا صغيرة .. نحن مثل كل النساء قضايانا أقل من هذا بكثير .. قم يا سيدي لقد شربنا قوري شاي يكفي لزبائن مقهى صغير في حي فقير .. دعنا ندخل إلى الذهب الذي عنده تقترف النساء أشياء وحيل عديدة من أجله ..

... ودخلوا من الباب الصغير وتقدمتهم سلطنة بجسارة تحمل فانوسا بيدها اليمنى وتقبض باليسرى كتلة المفاتيح، وإبتلعهم ظلام الممر واختفت الأنوار الكهربائية، وجدت نجلاء نفسها تحتضن ظهر سلامة بذراعها ظاهرة خوفها من الظلام وكانوا ينحدرون إلى تحت، يغوص السرداب بهم كأنه بئر في أعماق الأرض .. وصوت نجلاء يشوبه بحلة كلما وجدت حفرة صغيرة أو حجرا أو كومة قش .. فتقول .. آه .. يالهوي .. خيفة .. فيرفعها بيديه حتى تجتاز ما يعوقها وكانت تشبعه بصوتها المبحوح .. مرسي .. مرسي .. تعبتك .. موديانا فين يا عجربة .. كفاية رايعين فين .. وبدأ الصبح يتهدد من خلال زجاج النوافذ القديمة المهشمة بفعل شدة الرياح .. والنسيم البارد ينفذ منها بقوة يجعل إبنة القصر ترتعش بشدة وتصطك أسنانها .. ويحتضن الرجل العصا الغليظة وجوالين من الخيش السميك تحت إبطه .. وكانت رائحة الطوب القديم وطين الأرض مبلولة من الرطوبة النافذة .. وصوت أقدامهم أعلى من صوت المدينة هناك حيث بدأ أهلها يخلدون للنوم إلا من صوت مركبة وصفارة قطار بين حين وحين .. يحدقون ثلاثتهم أمامهم فليس إلا الظلام يخترقه ضياء الفانوس الخافت .. ولم تنبس سلطنة ببنت شفة وهذأت الخطوات ثم توقفت أمام جدار عريض ولبثا خلفها .. وبرزت أمامهم طاقة نحتت في الجدار وقفلت بضلفتين طويلتين من الحديد الصدي ..

مثل تلك التي كان يقيمها الفلاحون القدامى في حوائط بيوتهم يخزنون فيها أدوات الزراعة كالسلب والمناجل والفنوس وسروج الخيل .. وقفت سلطنة مشدودة القامة أمام الدولاب الحائطي العتيق .. ثم رفعت كفى يديها إلى أعلا وأغمضت عينيها وهممت قائلة بصوت عال كما قال رزونة من قبل :

-يا هفتا يا سيدي آه بنهت .. فلا يستطيعون ردها ولا هم ينطقون ..
... وكررتها كثيرا مع كلمات أخرى ومرت فترة من الصمت فوق شيء على الأرض .. وانطلق صوت طفل عند قدمي سلطنة وراحت ترد عليه .. وكادت نجلاء تصرخ أو تجري فزعة فأمسك بها وضمها إليه فلاذت بصدره وفجأة إختفى صوت الصغير فالتفت سلطنة نحوهما برضا وسرور فتشبتت به أكثر، وجرت الدموع على خديها فمسحها بإصبعه وقال وهو يربت ظهرها :

-لا تخافي يا نجلاء ..

-إنني في حاجة .. أريد أن أذهب من هنا ..

-وتدخلت سلطنة قائلة مظهرة بعض الضجر من صاحبته :

-كفى لا لا يا نجلاء .. كفى ..

... وأدخلت المفتاح في صدأ الحديد فشرعته وألقت برأسها داخل الطاقة وحركت الفانوس يمنة ويسرة وأشارت بيدها نحوهما ليتقدما بجانبها .. وقالت والإبتسامة تشرق وجهها :

-هذا هو .. وأشارت إلى الزلعات ..

... وتكلموا جميعا بسرعة دونما توقف غير مصدقين أنهم أمام كنز حقيقي، وكانت قبضتا يديه قويتين تنمان عن ذراعين كذلك، وتمكن من أسفل زلعة واحتضن أعلاها بذراعه الآخر ونزعها لأعلى وهو يعتل ثم

إنكفأ بها على الأرض وفعل بالثانية والثالثة، وغرقت كل منهما من كل زلعة وشهقتا من جمال المشغولات .. وأمسكت نجلاء بفوهة جوال وبصعوبة رفع سلامة وسلطانة سويا زلعة وأفرغا ذهبها فانتصف الجوال .. ولما إنتهوا من عملية التعبئة أدهشهم عثورهم على خمسة عشر كرة ذهبية في حجم الكرة الشراب التي يلعب بها الاطفال في الشوارع .. وأجمعوا أن رزونة قد سرقها من أحد القصور .. لأن محلات الذهب لا تبيع ذهباً خالصاً أو كرات من الذهب ..

... والتقطوا أنفاسهم وكانوا حريصين على مغادرة المكان بسرعة .. وجربوا كيف يحملون الجوالين دفعة واحدة .. وقامت سلطنة بتغطية الزلعات بأغطيتها، وأعادها سلامة إلى مكانها كما كانت، ثم قفل الضلفتين وترك المفتاح في الكالون .. ووقف سلامة بين الجوالين ليحمل بكتلى يديه وكل امرأة من جانب وبصعوبة إنقلبوا حيث كانوا يرفعون أثقالهم بسواعدهم .. يمشون تارة ويستريحون أخرى وفي كل حال تتهدج أنفاسهم ثم يواصلون وهم فرحون يعرجون بأحمالهم .. كان الممر ضيقاً .. لكنهم كلما إقتربوا من الباب الصغير إتسع الطريق ووضح ضوء النهار من رجاج تلك النوافذ القديمة والتي كانت ترسل الصقيع وهم ذاهبون حتى وصلوا إلى باب السرداب والوقت يقترب من السابعة ..

... وتحفظوا على الجوالين خلف دولاب قديم في ركن بعيد .. وعنده فرشت سلطنة حصيرة مبطنة بالقش .. وحملت نجلاء بطانية بين ذراعيها وقعدت ملاصقة لسلامة ورفعت الغطاء فوقهما .. وإندesh سلامة لأنها تفعل كما يفعل بسطاء الناس في القرى .. وإحتواها بذراعه وربت عليها فشعرت بدفع نحوه .. لكنها ابتعدت عنه لحظات ورائت

بناظرها في الغرفة حوالها باحثة عن سلطنة فرأتها تنكفى على رزونة
فبادرتها قائلة بصوت مبجوح :

-شوفي عمك .. ما متلومة

.. فراحت سلطنة تضحك وهي تحبك الغطاء حول الرجل الذي بات يغط
في نوم عميق ثم مشت خطوات نحو الباب الكبير ومن قفة الفحم ملأت
طباقاً منه وعادت إليهما وهي مبتسمة ابتسامة تملأ وجهها وقالت بصوت
عال :

-أنا فرحانة علشان بنت القصور بقت واحدة زينا .. دا الكلمة دي ما
يقولهاش غير النسوان الداخلة في الحارة .. يانهار اسود دا انت
عارفة كل حاجة وساكطة وانحت عليها وقرصتها من صدرها وأكملت
قائلة :

-أنا شايفة من ساعة ما عرفتي سلامة وانت حبيتي الرجالة كلهم ..
الحمد لله إن العقدہ إتفكت .. كنت مستنية لما يطلقني .. يا خرابي
منك دا انت بلوة سوخة ..

... وضحك سلامة كما ضحكت التي ألقت برأسها في حجره وكأنها تعرفه
من زمن .. وأوقدت سلطنة الفحم في الموقد ولما صفيت النار حملت
الموقد إليهما .. كما حملت الطعام وعدة الشاي .. والتفوا ثلاثتهم حول
النار يأكلون الخبز المقر بالجبن القديم .. وقوري الشاي يغلي ..
ونجلاء كعادتها تصب الشراب في أكواب صغيرة .. وتذكر سلامة وهو
صغير كيف كان والده يشعل النار في قوالح الذرة الجافة وهو يجلس معه
في الليل عند الساقية التي تروي الأرض .. وكيف كان يشوي له الذرة
والسمك ويأتي له بالغن وكما غطته نجلاء بالبطانية كان أبوه يلفه
بعباءته الصوف، ما أشبه هذا الصباح بذلك الماضي العزيز في ليل

انصق حيث يجعل الآباء والأمهات ليالي الشتاء الباردة دافئة بالحب والحنو الظليل .. ليت هذه الأيام بقيت وبقي معها هذا الدفء .. وتذكورت سلطنة لما كانت تشعل النار في قطع الخشب الغليظة لولديها في قصعة الصفيح عند خيمة الجبل .. وكانت نجلاء لا تتذكر شيئا من هذا .. هي ابنة القصر .. لكنها كانت أسعدهم وأكثرهم حركة في صب الشراب ومناولة الطعام لهما .. كان سلامة وسلطنة يجترا ذكرياتهما القديمة، وظلوا جميعا يتعايشون سعادتهم حتى إنتشرت الشمس فوق الجبل وطلع الضحى ..

... وخارت قواه لما أخذ يمسك برأسها المستسلم في حجره، لكنه رفع يديه عنها .. كان شديد الحرص أن تقف علاقتها معه عند هذا الحد .. عليه أن ينتهي من مهمته ويعود بالذهب إلى بيته إنه حق الفقراء، وأغمضت نجلاء عينيها وهي تتوقع أن يتابع حنينه، لكنه ربت كتفها برفق وقال في رقة متناهية :

-أريد قضاء حاجة .. ونزع نفسه منها ..

... فتناعبت قائلة وهي تقوم نصف قومة :

-النوم في حجرك .. مثل النوم في حجر أبي ..

-يجب ألا ننشد عواطفنا الآن .. الوقت يمضي والدفء جعلنا كسالى ..

... إستدعى السائق يا سلطنة .. واختفى خلف باب الحمام ..

... وقالت سلطنة لنجلاء وهي تقوم إلى الهاتف :

-إلى أين تقودينا يا عزيزتي .. ما هذه العواطف التي نزلت بك مرة

واحدة فقامت نجلاء تعدل من ملابسها وردت عليها ببقية من حياتها

القديم :

-لا حاجة لكلامك .. إنه لا يخلني أن أندفع نحوه وما الذي يضريك بعد طلاقك منه .. وسكنت قليلا ثم أردفت في صرامة : أمازلت تغارين عليه ؟

... لكن سلطنة لم نعبأ بالرد عليها وطلبت السائق أسامة ثم راحت خلف الدولار وفي رأسها شئ تخبئه وانحنت فوق الذهب وفكت الأربطة واضطربت لحظة ثم تماسكت وأفرغت سبتا من البوص مملوء بملايس رثة تخص صاحب البيت أهملت منذ سنين .. بعدها إندفعت تغرف بكفى يديها وتضع المشغولات في الوعاء القديم حتى إنتصف .. وأعدت ترتيب الخرق القديمة فوقه حتى عاد كما كان وعاء قديم مملوء بخرق عفنة .. بعدها أحكمت رباط الجوالين وجالت بناظريها أرجاء الغرفة الكبيرة لتتأكد من أن أحدا لا يراها .. فوجدت نجلاء تترين أمام المرأة وسلامة مازال مختفيا في الدورة فتقدمت خطوتين لتصبح واقفة أمام الدولار وليس خلفه ثم أخذت تعبت في أدراجه كأنها تبحث عن شيء .. إستمرت دقلىق تداري فعلتها ثم إنقلبت وهي تحاول السيطرة على اضطرابها إلى فراش رزونة فتحسست نبضه وجست رأسه بأناملها .. إنه مازال حيا ولكنه في نوم دائم .. وتهادي إلى سمعها صوتهما فإنهمكت ترتب فراش المريض .. وأصبح الصوت همسا فلم تبال إنها تتمنى أن ينغمسا في تلك العواطف التي تجعل كل منهما لا يدري بشئ .. وأخذ اضطرابها يهدأ وهزت رأسها وأفضت لنفسها بالسر وهو أن الطبال "طبال يموت وصوابعه بتلعب .. فالعجربة عجربة الى أن تقوم القيامة ..

... وطرق السائق الباب وهرولت نحوه فأبلغها أنه في الانتظار وانحنى كعادته ورجعت إليهما تخبرهما بوصول السائق وتوجهوا جميعا نحو الدولار يتقدمهما سلامة وحملوا الذهب كما فعلوا من قبل حتى فوهة

الباب.. وطلع سلامة إلى السائق وطلب منه أن يفرغ شنطة المركبة من أية أدوات .. ولما فرغ نادى على سيده بالداخل :

-أنا تحت أمرك يا سيدي .. كله تمام
-تعالى .. أدخل ..

... وأشار سلامة إلى الجوالين وقال :

-إحمل واحدا بعد الآخر إلى حقيبة السيارة .. هل تستطيع ..
-نعم يا سيدي .. إنها بضع خطوات ..

... وانتهى السائق من حمولته ووضعها حيث أمره سيده .. وفتح باب المقعد الخلفي للعربة وقال وهي ينحني كعادته :
-تفضل يا سيدي ..

... وصافحا سلطنة واتفقوا جميعا بمتابعة الأخبار بالهاتف ..
... ولما إنطلقت المركبة في الطريق الجبلي من التبه حتى مدخل المدينة كانت نجلاء تسند برأسها على كتفه والشمس الحانية تلقي بأشعتها الدافئة على زجاج العربة .. كانت السماء صافية لكن السيارات القليلة المارة بالطريق الرملي تثير الغبار فاعتذر السائق قائلاً :
-دقائق ونخرج من هذا الجو ..

... وامتن سلامة لأدبه وراح يفتش في جيبه عن مائة درهم ..
... وتوقفت العربة عند الرصيف المواجه للبرج وهرول نحوها السكرتير والحارس ومطبعة حيث كانوا يتأهبون لإستقبال سيدهم في أي وقت .. وحرص السائق على أن يحمل معهم الجوالين حتى بادئ البناية وانحنى كعادته وصافح سيده ثم إنصرف .. وتعاونوا ثلاثتهم حتى أدخلوا العبوتين إلى بيت سيدهم .. بعدها إنصرف السكرتير والحارس وقفلت مطبعة الباب ثم إنقلبت إلى سيدها لتساعده في سحب الجوالين إلى غرفة الصالون ..

ولما انتهيا دخلت المطبخ لتعد شراب الكاكاو وكما أمرها سيدها الذي
 إرتمى كالنائم بجسده المهدود على كنبه بالصالة الفسيحة ..
 ... كان المطر في الخارج يهطل مدرارا ومع ذلك يكتظ الناس في
 الأسواق والشوارع المحيطة بالأبراج .. ونجلاء تغتسل في دورة المياه
 ثم تعود إلى نفس الغرفة التي نامت فيها من قبل لتبدل ثيابها وترتدي
 جلبابا وروبا نسائيا من الدولاب الذي يمتلئ بالملابس الحريمية ..
 وذهبت إليه وقعدت بالأرض عند رأسه وأسندت ذراعها على حافة مرقده
 كأنها تعرفه منذ سنين .. وكان يضع ذراعه على وجهه فغطى عينيه
 وراح يفكر والنوم يغالبه .. وأطلقت زفرتين وهي تحاول إحتضان الكنبه
 قرب صدره، وراحت عيناها تدمع كأن شيئا يعتصرها .. وكفكت وجنتيها
 بأناملها لما أقبلت نحوها مطيعة تحمل الشراب الذي وضعت أمامها
 بالأرض ثم إنصرفت .. كانت تريد أن تسبغ عليه ودًا دام سنين في
 داخلها ولم تكن تعرف الى من تمنحه إن هذا الشئ ينفجر اليوم وينساب
 في طبيعية شديدة.. لا تستطيع أن تتكتمه أو تسيطر عليه .. إن كل ما
 في نفسها يريد أن يخرج إليه .. فهل تبرهن أنها امرأة ؟ وهل ينهار
 جسدها لأول مرة لرجل؟ أينفجر مكنون هذا الجبل الأنثوي في ؟ أعيب أن
 يحدث هذا .. وأعود إلى خصلتي مع النساء .. كيف أنهار اليوم لهذا
 الرجل ويسقط لحمي كله .. أستطيع أن أغمض عيني وأوقف الطوفان ..
 لن تخفيني الجدران عن ضوء النهار .. وسوف يراني خالق كل شيء في
 ظلمة الليل .. فمن أخاف ؟ ما دمت أترك لنفسي العنان فكيف أخاف ؟
 إنها نفسي والشيطان يغويها .. فكيف أكون لتلك النفس حاميتها .. لست
 خرساء ولا عمياء ولا بلهاء حتى يخرس ذلك الجسد صوته أو يختبئ
 خلف سحابة دخان .. وهذه عيوني الواسعة يغمسها الكحل الأسود

تفضحني الآن .. تبحث عن ما غوى وإختمر وتنطق بالهوى العطشان ..
 في سماء هذه المدينة غمامة لا تنقشع ولو طارت اليها كل حمامة البلدة
 البيضاء .. إن هذه الطيور جميعها نحو السحاب حملت في تغريدها
 رزائلهم .. إن كل من في المدينة ظالم والمظلومين منهم ساكتون .. فهل
 سيظل بركان الظلم أبدا ؟ أين بركان الغضب لما لا يأتي ليصلح مدينتي ؟
 .. حتى البركان لا يصلح شيئا إن مدينتي في حاجة إلى رؤوس من
 الحكمة ..

... ودخلت إلى الغرفة تهيئ فراش سريره ثم راحت إليه تسقيه الشراب
 الدافء .. بعد ذلك أخذته كالطفل الوديع إلى مرقدها .. كان اللقاء وجود
 مثل الحلم الذي فيه تتكحل العيون كل صباح بعيدة عن كل مواقيت
 الزمن .. إن الزمن لا يدري بشئ مادام الناس هناك لا يتلصصون .. لا
 عتاب ولا يأس ولا جدال ولا عسكر يعتقلون في ظلمة الليل الأطفال
 الأبرياء .. إن الحلم حقيقة في مرقدي بمزق الحزن وينسى الناس
 عوزهم والقهر المنصب فوق رؤوسهم فينزل قليلا على أكتافهم حتى
 تطلق تلك النفوس صرخة تهز أرجاء القصور ويحطم كل النوافذ الصدئة
 .. فهل يولد من الضعف قوة تشق خيوط العنكبوت وتقطع جبهات التسلط
 .. يا قوة ولدت من ضعف حرري الناس من الفقر والظلم والظلام
 وإمحي كل الناس نصيبا عادلا من رغيف الخبز كل صباح ومساء،
 فالأرزاق لا تنام والأطفال الجياع لهم صرخة مثل الكبار ..

... هذا غنينا في البرج يلتحف الحرير .. وهناك في كس المدينة حي فقير
 وامرأة حزني تبكي طفلها الأسير ورجل عليل لا يجد من يداويه وطفل
 جائع يرقد في فراش من صفيح .. وجميعنا يجرُّنا شيء رخيص .. فهل

هذا الهوى من صنعنا .. من أعمال غنانا وفقرنا وأن الهوى الحقيقي شيء بعيد .. إننا لا نستطيع ..

... الصحراء القاذرة في حاجة إلى ماء لترتوي كالطفل في المهد يلقف ثدى أمه من أجل الحليب .. الصحراء لا تنبت والطفل يجوع لأننا نسقيهما من ماء مهين .. دعوا الصحراء ترتوي من ماء المطر والأطفال يشقون بأناملهم الرقيقة الجبال بحثا عن أم لهم تاهت من زمن قديم .. زمن كانت فيه أمي تبحث عن لبن الحمير والفرس حتى أشبع وأعيش .. أين أمي وكل الأمهات اللاتي كن مثلها كن يرضعن أطفال البلدة جميعا حليبيا وحنانا وكلمات فضلي .. هاتوها أما لكل الناس كي يأكلوا .. كي يأمنوا .. حتى يناموا .. الجوعى والعطاشى لا يرتون من غنى هذا الزمان الحقير ولا من فقير ذليل .. إننا نزرع ما جعلنا حيارى تائهين نبحث عن عدل لن يأتي .. نبحث عن حرية عادت على كل لسان كالبصقة على قارعة طريق .. لا تبحثوا عن عدل في اشتراكية جديدة ولا عن خير في نظام حر معيب وفاسد .. إننا منذ نعومة أظافرنا وحتى عدنا كهولا نردد الشعارات الجوفاء ونقيم الظلام للأبرياء ونبحث عن الحياة التي يمنحها الآخرون .. هل تبحثون عن شيء آخر جديد .. هل تصبحون أحرارا .. إن هذا الجديد لن يأتي أبدا .. لن يأتي أبدا .. ما دمتم تزرعون الأرض من ذلك الماء الراكد والأطفال يرضعون من أمهات تبحث عن الهوى خارج البيوت ..

.....

وفي الصباح كان شيء قد بلغ منتهاه .. فلاذت في صدره تطلب منه أن يبقيا معها أبدا وعقست شعرها ودفنت وجهها في وجهه وقبلته في

عنف وصرخت وراحت تبكي، وأخبرها أنه لن يستطيع أن يفلت من تلك الحياة معها وهي حياة مزدوجة يعيشها منذ زمن بعيد ملوًا ذهب ونساء وعشق حرام وأبراج للفقراء وأسواق وتوبة وغفران إنه يعيش كل شيء .. الليل والنهار يخلع كل فصول العام ثم يرتديها، يمارس فيها كل الآثام ويغسلها في أي وقت بالتصدق للفقراء .. تعثرت أقدامي في كل حاريت مدينتي بحثًا عن أي عمل، فرفضتني كل الأبواب في بلادي كانت كل الأبواب لا تتسع لأحد .. كانت الشمس تطلع كل نهار وليس فيه رزق لي والقمر الذي يطلع في الليل لم يستطع أن يكسح ظلاما قفل كل الحوانيت في وجهي .. فأخبرتني أمي بأنني نحس وفقر .. كان علي أن أفقر ولكن إلى أين ؟ .. ولما دخلت المدينة في بلادكم كنت أريد أن العق كل صحن المطاعم حتى أشبع جوعي لأنه لم يكن في جيبوي نقودا .. أخبرني أبو الفندق أن إيجار اليوم درهم .. فذهبت إلى حائط مسجد الكاظم الكبير في حي الكاظم بضواحي العاصمة حيث يرقد مئات البدو الذين جاؤوا من القرى يلتمسون العفو لأنهم قتلوا على وإبن الحسين والحسين يلطمون خدودهم يضربون أجسادهم بالمدى .. رحبت بينهم أسال درهما أو ملعقة أرز في أوعيتهم الوسخة .. أعطوني لما قلت لهم بسامحكم الحسين يحكم علي في عرضك يا ست درهم .. فلس .. باجة اغرفي لي مرق .. يغفر لك كل الصالحين .. والله أنا أولى من كل الصالحين أطعمي المسكين .. حتى تمتلئ حقيبة في يدي .. ذهب في ركن بعيد في أي شارع وأقعد على أي طوب تناول طعام من الذي إكتسبته منهم فيغفر الله لهم .. إنه الشيء الطيب الوحيد الذي صنعوه لما جاءوا عند حائط من يغفر لهم .. في أزقة كل العشار وقفت وتسولت وتقولين أنني نبيل وعند أول امرأة في باص إحتमित .. كانت جائعة إلى شيء واحد لم أعرف له سوقا من

قبل .. كان الفقر يقول لي لا أجد مطرحة إلا أنت، ومن يومها وأنا أبيع هذا الشيء لأملأ جيوبي التي من فراغها كنت أتسول عند البدو، كي أشبع من بلغات أوعينهم الصدئة .. كان طعامهم مغموسا بدموعهم وبرابيرهم وكنت أغمض عيني فليس غيرها شيء ..

... وفي غمرة سياق حديثه العجيب لها قالت له وهي مازالت تطوقه بذراعيها :

-كنت أظن أنك من النبلاء

... أشار بيده نحو الشرفة قائلا :

-من هؤلاء

-لكن شكلك وطولك و .. جمالك

-هذه أرزاق .. فقد كنت أذهب إلى أي امرأة لتشبع جوعي من أرز

ولحم .. ولم أكن أعرف أن المرأة تحتاج إلى شيء مني .. وهذه

المرأة التي قابلتها في الباص كانت الطريق لأعرف كل النساء

الأميرات وتمتلئ جيوبي بالذهب .. كانت فاتحة حظ، كان السماء بعد

ذلك تنزل على النساء والذهب بلا حساب ..

-إنك تملك قوة خارقة تستسلم لها أي امرأة ..

-إكتشفت نفسي من خلال تلك المرأة والتي كانت المرأة الوحيدة

والأولى في حياتي .. وهي التي أخرجتني من فقري ..

-وماذا كنت تعمل وقتها ..

-أغسل الصحون في مطعم

-ومن أوصلك إلى أول امرأة .. أقصد أول امرأة لها قصر ..

-هي نفس المرأة التي قابلتها في الباص ..

-وكيف تركتك لإمرأة القصر ..

- كانت تحاول أن تنقذني من عوزي .. فأخذتني من قلب المدينة إلى قصرها كي أستأجر منها محلا .. بعد ذلك عرفت طريقي ..
- أين هذه المرأة الآن ؟
- سقطت في أيدي المخابرات ..
- كيف ..
- هي في الأصل كانت تعمل في المخابرات .. ثم تمردت عليهم وأنصلح أمرها وتديننت .. فقصوا عليها بعد ذلك بالتعذيب والتكيد حتى ماتت كما علمت .. رحمة الله عليها ..
- وكيف تركتك المخابرات حيا ترزق وأنت عشيقها ..
- هربت مع أول امرأة صاحبة قصر ولها نفوذ .. هربت معها إلى الشمال بعد موت زوجها .. حيث كان أهلها يقطنون في شمال البلاد .. وأنت تعرفين أن يد الدولة مغولة خاصة في عاصمة الشمال .. هيه .. العناية الإلهية أنقذتني ..
- يجب أن تخاف على نفسك .. إنني أسمع أن رجلا من العسكر يزحف إلى الشمال ..
- إنه رجل جديد ليس من هؤلاء القدامى .. وهو متعثر عند الحدود ويلاقي مقاومة شديدة من القوميات ..
- أسمع أنه رجل يطبق الاشتراكية وسوف يقضي على الرأسمالية الجديدة في البلاد ..
- العسكر لا يعرفون غير الاشتراكية .. إن هناك من القيم الدينية ما يقيم مجتمعا قويا جدا .. ولكن الناس تذهب إلى الطرق السهلة .. ولو كان عنده أي وعي لاستفاد من تجارب الدول المجاورة .. لكن

العسكريين يعشقون التجارب في شعوبهم .. إن الناس عندهم بلا قيمة .. إنهم يحكمون من أجل طبقة واحدة ..
- أنت رجل سافت له الأقدار الذهب والنساء الثريات .. وأقمت أبراجا وأسواقا وأنقذت كثيرا من الفقراء والباعة الجائلين .. وجعلت ما لديك من مال في خدمة المجتمع كله بماذا تسمى هذا المجتمع الذي أقمته ؟

-مجتمع القيم .. لو كان كل غنى يجعل للناس نصيبا في الثروة التي لديه لأقمنا مجتمعا إقتصاديا حرا عادلا دون قوانين ولا إجراءات .. بمعنى أن رأس المال في حاجة لأن يتدين .. هنا سوف يتوازن المجتمع بشكل تلقائي فلا غنى ولا فقير .. فالمشكلة في توظيف المال في هذا الزمان أن صاحب المال لا يقيم أي حق للناس في مؤسسته .. فلا تأمينات ولا نظام صحي ولا مراعاة لقوانين العمل الإنسانية .. إن رأسمالية الشرق في حالة من الفوضى والعشوائية وتصنع حالات من البطالة المزمنة وتزيد الناس فقرا ..

-إنك تتخيل مجتمعا مثاليا .. إن أصحاب الأعمال ليسوا في الأصل مثاليين أو أصحاب قيم .. والكثير منهم جمع ماله من إحتكار أو تجارة حرام .. ولذلك فإنك تجد أن حالة الفوضى الموجودة تولد عند الكثيرين عنفاً وتجعل بعض الناس الذين يواجهون البطالة في وضع يقبلون فيه أعمالا سيئة السمعة حتى يأكلوا وينقذوا حياة أطفالهم .. لأن أخلاق أصحاب الأعمال ليس فيها مكان لأحد ..

-إذا لابد من السيطرة على أصحاب الأعمال .. ليس بالقوانين لأنهم أصبحوا أساتذة في التهرب من تلك القوانين ..
-وكيف تكون تلك السيطرة ..

-إن الدولة لا تستطيع أن تتحكم في أخلاق الناس .. وليس هناك من سلطان عليهم غير ضمانهم وأخلاقهم .. فلو إستيقظت هذه الضمانر لصالح كل المجتمع ..

-ألم تقل أن هؤلاء الفئة من الناس لا ضمير لهم ..

-إذا حالة الفوضى ستبقى .. وقانون الغابة هو السيد .. أقسم لك بالله إنني في حالة تفكير دائم من أجل الوصول إلى حل لهذه المشكلة الإنسانية الرهيبة ..

-صدقني إن هذه الحالة موجودة في الشرق فقط .. إذهب إلى أوروبا لترى .. إن هناك مجتمعا رأسماليا يتحقق فيه كثير من العدل .. وهو نظام قائم وثابت منذ قرن مضى ..

-إذا هناك سر ..

-من يكتشفه ؟ ..

-رجال حقيقيون أصحاب فكر في كافة جوانب الحياة لوضع إستراتيجية تسير فيها دوائر المجتمع بحيث لا تتجاوز دائرة على الأخرى من أجل مصلحة أمة بأسرها ..

-وكيف هذا ..

-تعال نقم بأعمالنا .. نبيع الذهب أولا ..

... وقام من بين ذراعيها وراح إلى الهاتف يحدث رجلا يمتلك مصنعا للمشغولات الذهبية ليرسل إليه مثنيا لتقييم بعض الذهب عنده .. وارتدى ملابسه ونزل إلى مكتبه وتركها تنام في فراشها حتى بلغت الظهيرة فقامت تحدث سلطنة في الهاتف لتعرف أخبارها .. وعلمت بوصول الممرضة وأن حالة رزونة سيئة .. وحثتها سلطنة على نصيبتها من الذهب فأخبرتها بأن رجلا سيأتي لتثمينه .. وقالت لها سلطنة في نهاية

حديثها وكأنها تسديها نصيحة بأن تكون بعيدة عنه لأنه رجل لا يهوى
مغنيات الملاهي.. وضحكت نجلاء ملء فيها قائلة .. وأنا امرأة رومانسية
.. فقط أموت في كلامه الحلو ليس إلا ..

... وفي الرابعة مساء جاء سلامة رجل هندي يدعى ما هندرلال لتقييم
الذهب فصعد به إلى بيته وعرض عليه واحدة من الكرات الذهبية ..
وأخذها الهندي بين يديه منبهرا وفحصها بمجهر بحفظ به في جيبه
وأخذ يقبلها ويدق عليها بأصابعه ثم قربها من فمه وقبلها .. فقال له
سلامة..

-ذهب خالص

-نعم يا سيدي

-في مصنعكم تخلطون الذهب بمواد أخرى

-هذه صناعة الذهب في العالم كله ولكن تختلف الناحية الفنية من دولة

لأخرى .. وكذلك نوع النحاس المضاف ..

-كم ثمن الكيلو من المشغولات

-عيار واحد وعشرين بخمسة وثلاثين ألف درهم ..

-وسعر الكيلو من الذهب الخالص ..

-هذا يعرفه صاحب المصنع يا سيدي .. ثم أردف بعد قليل ..

-أعتقد أنه نفس قيمة الحصة المنصرفة للمصنع من الدولة ..

-عندي من هذه الكرة خمس عشر ..

-سوف أذهب إلى عمي وأطرح عليه الموضوع

-يفضل أن يأتيني عمك ..

-أهناك كميات أخرى ..

-ما يقرب من مائة كيلو ذهب مشغولات ..

-ربنا يزيدك من نعيمه ..

... وفرك ماهر لال كفى يديه وهم واقفا وهو يقول :

-أنا المدير الفني لمصنعه يا سيدي .. خدامك تحت أمرك .. سنكون
عندك في المساء وسنتفق إن شاء الله .. لا تنسني بالحلاوة
يا سيدي..

... وانحنى برأسه حتى خرج من الباب .. وإصطكت أسنانه ببعضها
وشهقت أنفاسه وكاد يقع منكبا على وجهه وهو ينزل الدرج ..

... وكانت نار المدفأة تتألق وتلقى ظلالات على الحائط ونجلاء تصغى إلى
حديثهما من أوله حتى خرج الهندي الذي كان يتكلم بلهجة عربية تثير
الضحك .. ولما دخل عليها قال وهو يراها كسولة تلتحف الغطاء الثقيل :

- لا تبالغي إن الجو طيب ولسنا في حاجة إلى المدفأة .. حتى لا
تصابي بالبرد .. وأطفأها .. وجلس قبالتها فوق مقعد ..

.. وكان صوت نجلاء الدافء تشوبه بحة كأنها مزكومة، لكنه صوت
عذب مثل سلاسل الذهب، كأنه آت من الزمن البعيد قبل الحرب، حيث
كانت نساء الإقطاع يعيشن في أمان ودعة، ورنن إليه مبتسمة في ثقة
وقالت :

... أنا جائعة .. ليس إلى الطعام .. ولكنني جائعة إلى كل هذه الدنيا ولن
يشبعني من جوعي إلا أنت .. أنت الدنيا التي أريدها..

... ووضع ساقا على الأخرى وقال بصوت خافت بلهجة لوم :

-إننا نتكلم عن غيرنا كثيرا أو عن أشياء لا تخصنا وننسى أنفسنا،
ولقد تكلمت كثيرا عن النظام الإشتراكي وثرثرت فيه فجعل حياتي كلها
معيبة وما كان لي أن أتحدث عن الإشتراكية بهذه السفسطة ..
... فانتعدلت على جنبها وأمسكت بذارعه قائلة :

-لقد فرشت النعيم كي أنام عليه .. عشت طيلة عمري محرومة من الحب ودفعته إلى فجأة وكأنه نهر يندلع إلى الأرض العطشانة .. إكتشفت أن عقدتي من الرجال كانت وهما، إننا لن نسي أنفسنا كما نقول .. ولا تندم بحديثك عن الإشتراكية .. ثم سكتت .. وحدق في وجهها ثم أطلق زفرة وقال :

-إننا لسنا زوجين .. ونحن بذلك إقترفنا إثما كبيرا .. وفي إمكاننا إصلاحه حتى .. حتى لا يغضب الله علينا ..

... دفنت رأسها في المخدة وقالت وهي ترنوا إليه في دلال :

-كل شيء بيننا على ما يرام فلماذا هذه الأثقال التي تضعها كي تمنع تلك العلاقة الطبيعية اللذيذة ..

-ألا يوجد شيء في داخلك يشدك إلى العلاقة الطيبة بالله .. ألم تشعرني أبدا في يوم أنك في حاجة إلى التدين ..

... زحفت نحوه برأسها حتى ألقتها في حجرة كما فعلت من قبل وقالت له راجية :

-لا تخلط بين الحب والسياسة .. الحب علاقة طبيعية بدأت قبل السياسة .. الحب جذور وأرض أما السياسة يا عزيزي فهي الجو الذي يعيش فوق الأرض .. الحب عميق .. هو الكنوز التي تختفي في أعماق الأرض .. فكيف ونحن نحاول العثور على كنزنا نضيعه بحديثك الذي لا طائل منه .. حتى الحديث في المسائل السياسية لا يوصل الناس إلى شيء .. منذ أن عرفتك وانت تتكلم عن السياسة وأنا أيضا تعلمت منك هذا الجدل .. يا حبيبي لا جدال في الحب وطوقته بذراعيها ..

-دعينا نلق بكل سياسات الأرض جانباً .. ليس هناك أحداً يرغمنا على الخطأ ..

-إذا كنت تعتبر ذلك خطأ فكيف نصحه ..

-هي كلمة واحدة .. شيء من التدين .. علينا أن نتزوج فوراً ..

... وكان شيئاً هزها فقامت من حجره وقالت كأنها لم تسمع جيداً :

-أتريد الزواج بي .. حقاً .. تريدني زوجة لك ..

... فامتعض منها وقال بصوت واثق :

-ولم لا .. إنه شرف لي أن أتزوج من بنت القصور

... فوقعت برأسها في حجره وأخذت تحتضنه بقوة وهي تدفن رأسها في

بطنه ...

... وسكتا عن أي كلام .. وراحت تقلب الأمور على جميع الوجوه ..

وقررت أن تكون واقعية في حياتها .. إنها الآن مقبلة على الأربعين ..

إنها الفرصة الوحيدة للتعلق بالعربة الأخيرة لتلد طفلاً يملأ حياتها .. لما لا

أجاري ذلك الواقع، رجل يمنحني اللذة والأمان معا .. إن الذهب حولي

من كل جهات الدنيا الأربع .. لكنها أدركت بسرعة أنها لا تملك شيئاً منه

.. لا إنها تملك بيتاً قديماً وحوله قطعة أرض كبيرة .. لماذا لا تقيم هي

الأخرى عمارة على نظام أبراج سلامة ويكون لها بيت فيه .. وتجلب

عدداً من فقراء الأحياء الفقيرة ليقيموا في تلك الشقق الجديدة بدلاً من

أقواخهم وبيوتهم التي تمر فيها مياه المجاري .. أليس في ذلك عمل

اقتصادي واجتماعي عظيم يغنينا عن أي اشتراكية ويضرب مثلاً

لرأسمالية جديدة تغنينا عن أفعال أصحاب الأعمال هؤلاء .. إنني سأنقذ

بهذا العمل العشرات من الباعة الجائلين الغلبة الذين تطاردتهم البلدية كل

يوم على الأرصفة .. لكن من أين آتى بالمال لبناء هذه الأرض ..

... ونزع نفسه من بين يديها حيث إعتبر سكوتها رضا عن العلاقة فقط،
وأنها غير متحمسة للزواج ومشى إلى الباب مناديا الخادمة ليسألها هل
إنتهت من إعداد الغداء ؟ فأخبرته بأنه سيكون جاهزا بعد نصف ساعة ..
ورجع إلى نجلأ يسألها بصوت لا بهجة فيه :

-لماذا ترضي النساء في هذه المدينة بالعلاقة بين الرجل والمرأة دون
زواج ..

... وأجابت نجلأ بعد قليل وهي تنهض من فراشها وتسوى شعرها :
- إن المرأة تسعد أحيانا بأشياء في داخلها ولا تتكلم عنها ..
-أفهم أنك ترغبين في الزواج ..

-إذا كان ذلك يسعدك وإنه بلا شك يسعدني ولكن هل هذا كل الدين ؟
إنني لم أشعر بشيء من التدين طيلة حياتي حتى وجدتك، لأنني لم
أكن أصلي كما يصلي المسلمون ويبدو أن عدم الصلاة تبعد الإنسان
عن دينه وحتى عن أي يشعر بأي تدين ..
-حمدا لله أنك أجبت عن نفسك .. إذا إتفقنا ..

... ووقفت أمام المرأة تمشط شعرها ولم تنبس بكلمة حتى إنتهت من
زينتها وعادت إليه تقعد قبالة ورنت إليه في تودده وقالت :

-لماذا تبدأ العلاقة بين الناس باقتراف الأخطاء ثم بعد ذلك يصححونها
بالتدين ؟ لما لا تكون البداية متدينة ؟

... فأدهشه سؤالها خاصة أنها قالت معاتبه فقال لها مبررا :

-لأن هناك كثيرا من الفساد قد إنتشر في أنحاء الأرض ..
-هل الناس في الحي الفقير تتقدمهم أخطاؤهم ثم يصححونها بعد ذلك
.. هل يستوى الفقير مع الغنى في هذا الأمر ..

-إذا تجولت في الحي الفقير ستجدين أن فسادہ من أجل الحصول على المال لكي يعيشوا .. كافة ملاهي المدينة يغذيها بنات الليل من الأحياء الفقيرة .. إنهم لم يستطيعوا الحصول على العمل الشريف الذي يكفل لهم الحياة، أو أن هذه الأعمال الشريفة لا تكفيهم ..
... فهزت كتفها قائلة :

- والغنى .. كيف يأتيه الفساد .. ؟

-سوف أرد على سؤالك بالظاهرة في هذه المدينة .. إن أصحاب الملاهي والخمرات يقيمون بأموالهم ملاهي وخمرات جديدة .. والأغنياء أصحاب المصانع والمعامل أقاموا مشاريعهم من أموال البنوك .. أقاموا مصانعهم بنصف تلك الأموال والنصف الآخر تم تهريبه ..

-أرجوك لا تكلمني عن البنوك التي نشلها هؤلاء في مدينتي .. هذه مواضيع سياسية . لا تجرني إلى السياسة .. خلينا نبحت في الملاهي وهي الدائرة القريبة منا ..

-كل ما في الأمر أن هناك ناسا تضحك على ناس .. بمعنى أن الجميع يعجبون عجبنا نحصل منه على رغيف خبز ملوث ..
-ولماذا لا تقول أن الناس جميعا يقدمون الفساد الذي صنعوه لأنفسهم..

-لا .. إن الغنى هو الذي صنع كل الفساد .. الأغنياء هم الذين قدموا الجوع والحرمان للفقراء فصنعوا فسادهم .. إن دفع الفقير ليأكل ويشرب ويلبس ويسكن فكان كل شيء يقوم به عشوائيا .. فانتشرت العشوائيات وسكن الناس القبور وخرجت الفتيات الصغيرات والمتزوجات إلى الملاهي والشوارع ليلتقطن أزواقا فاسدة .. لأن

الفقرء وهم في سبيل إنقاذ حياتهم يأتون بأفعال نابعة من ضعف
مادي ونفسي .. هم دائما في أزمة صنعتها المهانة التي قدمها
الأغنياء لهم في أول الأمر وآخره ..

-والحل ..

-قليل من العدل وقليل من الحرية وقليل من التدين ..

-من أين نأتي بهذه الفضائل .. ؟

-في كل واحد فينا يسكن هذا الشيء الذي نسميه فضيلة ..

-إذا في مقدور كل منا أن يكون فاضلا ..

-ألم أقل لك أن كل منا يصنع الضعف لغيره كي يعيش هو ..

-ومدينتي ليس فيها أناس فضلاء .. كل الناس تحت .. معقول ..

-ليت فيها رجلا واحدا فاضلا ..

-كنت أسمع عنك أثناء الحرب ولما إنتهت الحرب ظهرت أسماء

أخرى، أسماء يقولون عنها أنها إغتنت وأثرت بسبب تلك الحرب

والذين كانوا يدافعون عن المدينة إنزوت حياتهم

-لولا المال الذي ساقته إلى الأقدار لا نزويت مثل هؤلاء الناس .. إن

أفضل شيء عملته في حياتي هي تلك الأبراج التي وجد فيها الفقراء

قضاء .. لحاجاتهم ..

-إذا كنت تتكلم عن العدل والحرية فلماذا لا تقيم عدلا على الأرض التي

أمتلكها .. خاصة وأنني لا أملك أوقية من الذهب ..

... وفوجئ سلامة بعرضها فرماها بعينيه الصريحتين كأنه يحاول أن

يرى العدالة التي تقصدها ثم قال لها : أين تقع أرضك ..

-هي الأرض التي عليها بيتي ..

-تريدين أن تقدميها كمشروع أبراج ..

-من أجل الفقراء .. لقد فهمت من خلال حديثنا الطويل .. أن الشيء الوحيد الفاضل أن يقدم القادر أي شيء من أجل غير القادر .. ليكون للفقراء مكان يعيشون فيه وعمل شريف يقتاتون منه .

-هذا شيء عظيم .. إذا فلنذهب لنرى هذه الأرض .. ما قدمتيه من عرض أفضل من كل الحديث الذي دار بيننا ..

-صدّقني إن هذا الحديث ومثله ليس غريباً على .. فلقد حدثني شاعري سامح عن هذا كثيرا .. وكل كلماته التي غنيتها تحكي عن الفقر والحرمان .. هذا حديث المدينة كلها والذي لا يتحدث يشعر به في كل دقيقة من ليله ونهاره .. والصامتون عن هذا الكلام أكثر من الذين يجاهرون به ..

... وجاءت مطيعة لتعلن أن مأدبة الغداء جاهزة ثم إنصرفت، وقام إليها سلامة ليأخذها بين أحضانه إلى الطعام .. كان يشعر بالرضا نحوها ولم يتناولا أي حديث أثناء التهام المأكولات الشهية .. يطعمها بيده ويضع أمامها قطع البط والديك الرومي والمحشيات وكانت تغمص عينيها وتبتسم لفيض حنانه .. ولما إنتهيا جلسا متجاورين يحتسيان الشاي ويكضمان الفاكهة .. وأقبل المساء واختفت الشمس وراء أبراجه وبدأت أنوار المدينة تسطع والطيور تفر إلى أعشاشها .. كان كل منهما يوغل في أفكاره فهي تريد أن تسأله عن كيفية بناء أبراجها ومتى ؟ وأنها لا تريد غير شقة واحدة تقيم فيها، لقد نالت قسطا من الحياة وهي تعيش في وحدة قاتلة .. فهل هذا الزواج سينهي تلك الفترة من حياتي ؟ وهي سيمنعني الزواج منه من الغناء وإرتياد الملهى ؟ هل أكون له زوجة كما كانت أُمي في الزمن الماضي؟ أسيكون البيت والطفل والزوج بديلا عن تلك الحياة الماضية التي تعودت عليها.. أوجب ان أكون تلك الغنية الوفور

أم تلك المغنية السافرة.. كفى يا نجلاء إنها فرصتك لتكون امرأة حقيقية
يكون لها بيت يعصمها، خاصة بعد أن ذقت طعم لذة الرجال من هذا
الكاني .. لو تحقق حلم الأبراج فوق أرضي واحتويت كثيرا من مشاكل
الحي الفقير فهل أكون غانية بعد ذلك أم زوجة لهذا الرجل .. أليس في
ذلك عمل صالح .. لم لا أصلي حتى تكون أعمالي الصالحة مكتملة ..
لكنني لا أعرف كيف أصلي؟ وأشعر أن الطريق صعب إلى تحقيقه ..
أهناك شبح من الظلام يتبعني ويمنعني من تلك الحياة النقية التي يعيشها
القليلون في هذه البلدة .. لم لا تبدأ صلاتي قبل أعمالي إنني في حيرة
شديدة تجعلني لا أقدر على إنجاز أي قرار .. لم لا أعطى أمري لهذا
الرجل وانتهي من حارات خربة في داخلي .. وتوقفت قليلا عن أفكارها
وأنعشها هواء بارد يأتيها من شيش الشرفة الموارب، وتكون شيء في
رأسها يسيطر على حيرتها يتنامى ببطء وكأنه يمك بأطراف أناملها ثم
تملك من كفي يديها، شيء مثل السر والأمان من الخوف أو يبعث على
النفس راحة، وانشق جدار النفس اللوامة ثم انفجر .. فانفجرت بالبكاء
بصوت عال وأمسكت وجهها بكفيها في محاولة للسيطرة على إنفعالها
الشديد، وانكفأ عليها سلامة يحتضنها ويمسح دموعها ويربت ظهرها
حتى هدأت بين ساعديه، وراحت تظل عينيها بكف يدها وتتفحصه وهي
سعيدة من أعماقها بتلفه عليها وهمست قائلة :

-أتخاف على إلى هذا الحد

-وأكثر

-خذني إلى الأبد

-هكذا .. وضمتها إليه ..

-ليس هذا .. ما اقصده ..

-ماذا تقصدين ..

-خذني واكفلني وكنت أمر نفسي إليك فافعل بي مانويت ..

-معقولة .. لو أحضرت المأذون الآن أتزوجك

-إفعل ما تراه صالحا لكلينا كما يفعل المتدينون ..

-مش ممكن .. مش معقول .. الله يرضي عليك ويهديك .. وزرقت

عيناه الدمع وضمها إليه وأمسك برأسها ليغرس وجهه في وجهها ..

... ويبدو أن حنانه قد فجر فيها ضياءً فندت عنها زفرات الراحة

والسعادة .. بعدها غمر الغرفة نور .. كأن ظلاماً ذهب .. كان كل شيء

حولهما مثل نور الصباح الصافي ومر قليل من الوقت حتى نقر طارق

باب الشقة في غلظة .. كانت خطى ثقيلة تدخل ومطبعة تقول .. هلا ..

هلا .. تفضلا إجلسا .. ثوان سوف أبلغ سيدي .. من سيدي :

-عوض القحطاني والهندي ..

... وجاءت مطبعة وأخبرته بالضيفين فارتدى ملابس أخرى وخرج إليهما

مرحبا، ولما جلس كان الرجلان يبجلانه ويثنيان عليه بطيب الكلام، ولما

كان صاحب المصنع يسهب في الإطراء بسلامة ففضل أن يسمع إليه حتى

يفضى بما في جعبته :

-إنك يا سيدي بطل حرب ولولاك ما كنا ننعم الآن بهذا الرخاء، كنت

أتمنى لقاءك من زمن بعيد ليكون لي شرف القرب منك ولكن للأسف

ظروف الحياة تلهينا وتجعل كل منا ينزوي في ركنه .. ولما إنتهى

شكره سلامة قائلا :

-هذا كثيرا على .. جزاك الله خيرا ، أعرف أن لك مصنعا كبيرا ..

... إنعدل الرجل في جلسته وقال في ثقة :

- أكبر مصنع للمشغولات في الشمال كله ..

-عندنا كمية كبيرة .. هل أخبرك بكل شيء .. وأشار إلى الهندي ..
-كل شيء أنا جاهز .. ومعى موازيني .. مستعد للوزن والحساب
الآن ..

-لهذه الدرجة أنت قوي ..

-لنا تاريخ في تجارة وصناعة الذهب منذ مائة عام ..

-أريد أن أسألك سؤالاً وأرجو أن تجيبني بصراحة ..

-قل يا سيدي .. سوف أجيبك بمنتهى الصراحة ..

-عندما إنقضت الحرب ونهب الناس القصور .. هل وصلتكم كميات
كبيرة منها ؟

-وصلني ذهب كثير .. مشغولات وذهب خالص .. من أغنياء هذه
البلدة ومن فقرائها ومن لصوصها ..

-أشكرك على صراحتك .. كنت أريد أن أضع النقاط فوق الحروف، وأن
البلدة تُهبت بالفعل بعد الحرب، وأن القصور كانت الضحية .. وكان
ذلك نقطة التحول الحقيقية من الإقطاع القديم إلى تلك الموجة الجديدة
من الرأسمالية ..

-هل رأيت يا سيدي أنني صادق أمين معك ؟ لقد إنقلبت البلدة بعد
الحرب وأصبح اللص غنياً .. ولكن رغم أن بعض الفقراء وصل إليهم
الذهب .. فإن المدينة ازدادت فقراً عما كانت من قبل .. إن الأحياء
الفقيرة تلف البلدة من كل جانب ..

... وسادت فترة صمت فيها نصب الهندي ميزانين، وقام سلامة إلى
غرفة الذهب ليأتي بإحدى الكرات ولما دخل عليهما كان عوض القحطاني

يقف ويحدق بناظريه كالجائع إلى كرة الذهب الخالص، وألقاها سلامة إلى كفيه فتلقاها بلهفة وقبض عليها بأصابعه وانحنى يقبلها بشفتيه الغليظتين وقال وهو يقعد على الكرسي :

-الله أكبر .. إيه الحلاوة دي .. ربنا يزيدك يا ملك وأخذ يقبلها ويمسح عليها بأصابعه ثم إلتفت إلى ماهندرلال قائلا :
-خذ .. سَمِّى ..

-وأخذها الهندي بين يديه وشهق قائلا :
-بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم الله .. وكما فعل سيده قبلها في شوق كالذي يريد أن يأخذها في أحضانه .. ثم وضعها في الميزان ..
... فتقل الميزان بها وأطلق عوض زفرة واحدة من أعماق صدره كأنه يصفر وزعق من أعماقه ورفع يديه إلى سقف الصالة قائلا :
-ثلاثة كيلو .. ثلاثة وخمسون جراما .. رائعة حلوة .. عندك كام منها يا سيدي

-خمسة عشر كرة مثلها ..
... وصفن الرجل للحظات وتمتم بكلمات بين شفتيه ...
ثم قال لسلامة :

-كيف يتم الدفع ..

- إنه ذهب يا شيخ عوض ..

-سوف أدفع القيمة .. نصفها نقدا والآخر بشيكات آجلة ..

-لست صاحب مصنع أو تاجر في السوق .. خذ منها على قدر ما تستطيع أن تدفعه نقدا .. إنني لا أبيع بضاعة حتى تسدد بشيكات ..
أنا عايز فلوسي درهم ينطح درهم .. البلد مليانة مصانع .. خذ على أدك يا عوض .. ثم إننا لم نتفق على سعر الكيلو بعد ..

-الكيلو يا سيدي زي ما باشتري من الدولة ..
-كام ..

-أربعون ألف درهم للكيلو ..

-أنت لا تريد أن تشتري .. يفتح الله ..

-الشراء والبيع أخذ وعطاء يا سيدي ..

... وانحنى سلامة حتى إلتقط الكرة من كفة الميزان ووضعها خلفه على المقعد وقال ممتعضا :

-الكيلو مشغولات بخمسة وثلاثون وتضيفون إليه بلاوي من الناس وغيره ..

... وحقق عوض القحطاني في كل شيء حوله محاولا مراجعة نفسه في السعر وأن الرجل الذي أمامه له معرفة بالصناعة وقال وهو يركن ظهره على مؤخرة المقعد :

-إنني أتجمل تكاليف باهظة من أجور وكهرباء وبدلات ومواد حتى يتم تصنيعها سيب لي سبوبة يا سيدي .. وقام يمسك رأس سلامة بين كفيه ليقبلها .. وتركه سلامة حتى إنتهى من قبلاته ثم قال له :

-سيبك من حركات التجار .. هذا ذهب خالص .. إشتري حتى أبيع لك .. على فكرة .. الكيلو بيععمل معاك مكسب خمسة وثلاثون ألفا

-لا .. والله مش للدرجة مش ممكن يا ريت ..

-آخر كلامي خمسون ألف للكيلو .. كويس ليّ وليك .. شاوور نفسك

ورد على في خلال أربعة وعشرون ساعة .. غيرك يشتري ..

-يعني المبلغ كله كام يا سيدي .. خلاص أنا راضي بكلامك .. راضي خلاص ها نخلص

-إحسب إنت يا عوض

... وأخرج الحاسبة من جيبه وأخذ يحسبها وتركها سلامة .. ودخل إلى غرفته ثانية ووضع الأربعة عشرة كرة في حقيبة وحملها إليهما حتى يتم

وزن الكمية جميعها .. وأخذ الهندي يزن الكرات واحدة بعد الأخرى
ويجمع الأوزان على حاسبته حتى إنتهى وقال :

-إجمالي الوزن خمسة وأربعون كيلوا وسبعمائة وخمسون جراما ..
... وأخذ سلامة الحاسبة من الهندي وراجع حسابه وقال لصاحب
المصنع وهو يناوله الحاسبة :

-إستخرج إجمال القيمة ..

... دقائق وإستخرج عوض القحطاني القيمة الإجمالية وقال وهو يضع
الحاسبة على المنضدة :

-إجمالي المطلوب مليونان ومائتان وسبعة وثمانون ألف وخمسمائة
درهم ..

... ورد عليه سلامة :

-مضبوط .. متى الدفع ؟

-قبل ظهر الغد سأكون هنا بالقيمة .. ولكن يا سيدي لي مطلب
واعتبره إكراميه للعاملين من ملك لصاحب مصنع فقير ..
-وضحك سلامة ملء فيه وقال :

-أنت فقير .. وكيف حال ماهندرلال إذا .. ماذا تريد يا عوض خلص..
فقام ماهندرلال وانحنى للملك .. وقال صاحب المصنع :

-سيب لي يا سيدي الملك .. سيب الفكة .. إلی فوق الربع ..

- تقصد سبعة وثلاثون ألف وخمسمائة ..

-نعم يا سيدي ..

-على شرط .. أن تكون سبعة آلاف وخمسمائة درهم إكرامية
لماهندرلال ..

-موافق يا سيدي ..

- وأمامي تنفذ في الغد وتمنحه هذه الإكرامية ..
- ... ونهض ماهر لال وراح للملك يقبل وجنتيه وجبينه ويحتضنه .. ثم
- انصرفا على موعدهما قبل ظهر الغد ..
- ... ورفع سلامة رأسه لأعلى وهو فاغر الفم ومد يده نحو السماء شاكرا
- ممتنا .. وأتت إليه ورنّت إلى وجهه في ود وقالت :
- وماذا أنت فاعل بكل هذا ؟
- ألم أخبرك .. سوف أقيم مدينة كاملة للفقراء ..
- إني لا أصدق حتى الآن أن المال شديد الإغراء وفي هذا الزمان
- بالذات كيف يكون لرجل مثل هذا المال ويمنحه للفقراء أو غيرهم ؟
- هذه الثروة أمانة لم أكسبها من تجارة أو صناعة .. هي مال سرقة
- رزونة من القصور وابتزّه من هؤلاء الفقراء في ملهه، اليوم تعود
- هذه الثروة لأهلها ..
- ... إنكبت عليه وهو يقف مستندا بظهره على شراع النافذة وتمتمت قائلة:
- هل تعتقد أن ذهب أبي ضمن هذا الذهب ..
- أكيد .. ألم أقل لك أنه نهب القصور مثل غيره الذين كانوا رعاة عند
- أهلها
- إذا نحن لم نسرّق ذهب رزونة ..
- لا .. إننا إسترددنا حق الناس جميعا ..
- ليس ذلك بغريب عليك لقد منحك الله قوة من أجل هؤلاء الناس ..
- ... وأخذها بين ساعديه القويتين وأجلسها على أحد المقاعد قائلا وهو
- يقعد في مواجهتها :

-على مهلك .. أرجو أن تفهميني، في رأسي أفكار لا حدود لها وسوف
ننفذ واحدة بعد الأخرى .. وأرجو أن تثقى في أعمالي .. هذه الأعمال
ليست من أجلي ..

-ماذا تريد أن تفعل بعد ..

... قام إلى الباب ونادي مطبعة حيث أمرها بإحضار الفاكهة والحلوى ...
وإنقلب يجلس في مواجهتها ثانية وإبتسم قائلا :
-الآن جاء دورك ..

... فقالت في دلال وهي تضع ساقا على الأخرى :

-ماذا تريد أيها الأمير ؟

-سيأتي المأذون الليلة ليعقد قراننا ..

-لقد تزوجتني قبل أن يصل المأذون .. طبعاً موافقة .. هذا هو الرباط
الحقيقي، ألم أقل لك أنت وكيلي .. أنت الآن .. تزن كل هذا العالم
تقديراً واحتراماً .. هذا ما تريده أي امرأة من الرجل الذي منحه
نفسها .. وتنهدت ثم تابعت تقول وهي تشعر بالسعادة تغمرها :

-وماذا بعد أيها الرجل المدهش ؟

-تعالى إلى غرفة الذهب

... وقام إليها وأخذها من يدها في حنان حتى دخل إلى الذهب، وتمتمت
وهي تشرئب محاولة أن تضع وجهها في وجهه :

-وماذا بعد ؟

-خذي من الذهب ما تريدين

-ألم تقل أن الذهب حق الفقراء ؟

- كل النساء مثل الفقراء في حاجة إلى الذهب ..

... ومد يده ونزع مفرشا من القماش فوق منضدة صغيرة وفرشه على أرضية الغرفة وقال وهو يجر أحد الجوالين بصعوبة ويضع فوهته عند يدها :

- إغرفي بيدك وضعي فوق المفرش ..

... وارتعش جسدها كله ولم تتمالك نفسها وراحت تبكي وتقول :

- هذا كثيرا على .. إنني أعيش في حلم .. أنت حلم الحقيقة وهذا يفوق الوصف ويتعدى حدود الخيال ..

... وأمسكها من كتفها وتأملها وهزها بقوة وقال ثانية :

- هذا الذهب إغرفي منه .. خذي ما تريدين ..

- لا أستطيع ..

- أستطيع أنا ..

... وانكفا قليلا فوق فاتحة الجوال وراح يغرف بكفيه حتى قالت نجلاء :

- كومة من الذهب .. مثل كومة العنب التي كانت تقطفها البنات من

شجر العنب في حديقة أبي .. أتذكر هذا الآن عندما كنت طفلة صغيرة

.. كان أبي أيامها يضع كل كومة من العنب في بقعة من القماش

ويوزعها على الناس الذين كانوا لا يملكون شجرة عنب واحدة ..

وجاء اليوم الذي تأخذ فيه إبنته من هذا الرجل الخارق كومة ذهب ..

كومة من ذهب القصور أو من عرق الفقراء الكادحين .. هل أستحق

كل هذا الذهب ؟

... وكان يسمعها ويبسم لأن حدثا مثل هذا أعاد إليها ذكريات طفولتها

السعيدة .. ثم قال بعد أن إنتهت من حكايتها :

- هل تستطيعين حمل هذه البقعة ..

-هكذا تحبني

-هذا مهرك .. حقك رقم واحد ..

-وهل هناك حقوق أخرى ؟

-هناك الكثير ..

-وجمع أطراف المفروش وربط بقجة الذهب وحملها فوق صدره
يحتضنها بذراعيه وتبعته وهو يحفظها تحت أحد المقاعد بغرفة
نومها .. وكان الفرح يسيطر عليه فاستسلمت للبهجة التي تغمرها
وعادا يجلسان حيث كانا .. كانت لا تستطيع أن تقاوم الأنثى التي
تستسلم له الآن من كل أعماقها، فنزلت من بين ذراعيه وأفترشت
الأرض وقالت وهي تفتح أزرار قميصها :

-وماذا بعد .. ليتني أستطيع إسعادك .. أنا كلي لك ..

.. وحاول أن يتماسك وألا ينزل إليها فقال :

-من وكيلك ؟

-ليس لي وكيل إلا أنت .. وسكنت برهة ثم أردفت .. وكيلك الله ليس
لي أحد غيره ..

-لابد أن يكون لك وكيل .. صحيح الشرع يقول هذا .. المأذون في
الطريق إلينا ..

-لا أعرف أحدا .. تصرف أنت ..

... قام سلامة وحادث أحد رجال الدين الذين يعرفهم ليأتي ويكون لها
وكيلا . وكان عليه أن يوقظها من أحلامها .. وعليها أن ترتدي ملابس
أخرى، وعلى الخادمة ترتيب غرفة الصالون ولا بد من تدبير شاهدين
على العقد .. وكانت عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل .. وأخذ كل
من في البيت يستعد لهذا الزواج، وزغردت مطيعة زغرودة واحدة فرحة

بزواج سيدها .. لكنه أسكتها وطلب منها أن تهتم فقط بتجهيز الشراب والفاكهة للسادة القادمين .. ودخلت نجلاء لتغتسل ثم راحت إلى الغرفة التي بها الذهب لترتدي ملابس أخرى، وشعرت بأنها يجب أن تحتشم، بعد قليل تصبح زوجته . وما الذي تقدمه بعد أن قدمت كل شيء ؟

... كانت مغنية .. وإمرأة ليل في ملهى ولم تقدم نفسها لرجل طيلة حياتها الماضية .. لقد كان يجب عليها ألا تفعل، فهل كانت تعرف أن الرجل هو زوجها فلتقدم له نفسها؟ أما كان من الأفضل أن تكون غالية نفيسة حتى تكون بعد ذلك زوجة مصونة .. إنها تشعر بالخجل والخزي لأنه ضاجعها، لم تكن تستطيع مقاومته .. لقد كسبت مضاجعا فنانا وزوجا، إن كثيرا من النساء تكسب زوجا ولكن قليل منهن يكسبن مضاجعا، لقد قالت ما لم تقله مومس لأنه أحبها أولا ثم فعل، هل تستطيع بعد ذلك أن تكون زوجة مرفوعة الرأس ؟ أكان هذا هو الطريق الوحيد ليقبلني زوجة .. إنه ليس سفيها مثل كثير من الرجال الذين يعتبرون ذلك أداة للسخرية والقهر لهؤلاء النساء لما يصبحن زوجات، وأمست بكتاب الله من فوق المنضدة وتصفحته بعد أن جلست على حافة السرير، ولما قرأت فيه قليلا شعرت بأنه لو يعرف معنى هذا الكلام العظيم لما اعتبرني إمرأة آثمة .. واحتضنت الكتاب على صدرها بذراعيها وألقت بوجهها عليه وقالت والدموع السخينة تنسكب من عينيها :

ربي اغفر وارحم فأنت خير الراحمين .. إنه أول رجل أحبه وكان ضعفي شديدا .. بعدها نهضت ودنت من الشرفة فشرعتها وكانت المدينة كلها تحت ناظريها كأنها شيء كبير، فكل الناس فيها مظلومون وأن عظمة تلك المدينة في صبر أهلها على الظلم، وأنهم جميعا ينتظرون مخرجا .. لكن من أين يأتي ؟ إن الله لن ينصر أحدا

غافلا وقابعا، إن الله لن ينصر المنغمسين في حيوانيتهم .. حتى الذين لا ينامون من الخوف والجوع لن ينصرهم الله ما داموا يقتربون الرذائل ولا يتقدمون خطوة واحدة لإرتداء ثوب الطهارة ..

... كان ضجيج المدينة يعلو والهواء البارد يصفع وجهها، واعترتها رعدة وأخذت تبكي كرة ثانية ..

... وفي منتصف الليل هل المدعوون واحدا بعد الآخر وأجلستهم مطيعة في غرفة الصالون وكانت تجري إلى سيدتها لتخبرها بأوصاف الضيوف رجلاً بعد رجل حتى صاروا ستة، ودخل عليهم سلامة ورحب بهم ترحيباً بالغا، وكانت ساعة واحدة فيها إنقضى كل شيء، وأصبح سلامة زوجاً لابنة من أبناء القصور مرة ثانية .. وانهك الزوجان في حب متبادل حتى كادت الليلة تنتهي ومازالت نجلاء تكرر حديثها الذي لا ينتهي وهو حريص على محاورتها:

- كنت لطيفا معي .. من أنت حتى تغير حياتي وتبدد خوفي ؟
- أحبك كثيرا لأنني وجدت المرأة التي ستساعدني في عمل شيء يجعل هؤلاء الناس ينامون ..
- وانا أريد أن أنام ..
- لست في حاجة إلى النوم لأنك آمنة .. إن الآمنين ينامون في أي وقت ..
- ألا ينامون حقا ..
- إنهم لم يعرفوا الأمان ساعة واحدة حتى يناموا ..
- أقسم لك إنهم ينامون عندما تطلع الشمس ..
- ينامون وهم يحتضنون الفقير
- ليس لديهم أعمال ليذهبوا إليها ..

-يجب علينا أن ننام الآن .. لكن ليس كما ينام الفقراء ..

-لقد علمتني الجدل، ويبدو أنه وسيلة في الحياة عند الأغنياء الذين لديهم كثير من الذهب

-في الغد لن نجاء .. سيكون لدينا كثيرا من الأعمال المهمة ولن نكون من أهل الجدل، وإنني أعذر لكل الذين جادلت معهم عن الأنظمة الاقتصادية لأن مهنتي كمحاسب سيطرت على تفكيري .. واحتضنها بذراعيه ونامت بوجهها على صدره كما لم تنم من قبل ..

... وقضت نجلاء صباح اليوم التالي وقتا طويلا في ترتيب البيت خاصة أنه يوم الصفة، وكان سلامة يثنىها عن ذلك وعليها ألا تتعب نفسها في شيء وأن هذا من إختصاص مطيعة، لكنها أصرت على إتمام تنظيمه مؤقتا، ولما إنتهت كان شكل المقاعد والفازات والمناضد في مكانها الجديد أجمل بكثير وظهرت ملامح لمساتها على كل قطعة أثاث .. سقت الزرع في الأصيص ونظفت الزهور في الفازات وعدلت تعليق اللوحات فوق الحائط وعطرت فراش الأسيرة برحيق الورد وفرشت المناضد بمفارش أخرى وعلمت مطيعة كيف تنظف الحمام والمطبخ حتى أصبح كل حوض ووعاء وكوب ينجلي ويلمع، ولما علت شمس الظهيرة سبحت أشعتها في كل مكان بالبيت، وكانت نجلاء قد أخذت حماما وراحت في غرفتها تصلي ولما إنتهت إرتدت مريلة المطبخ لتطهو بنفسها مالد وطاب من كل نوع يرغب سلامة في تناوله .. وكان زوجها قد أخبرها وهما يتناولان طعام الفطور عند الضحى العالي بأنه سوف ينتهي من إعداد الشقة المقابلة وشراء أثاث جديد يليق بها، وشكرته على جزيل عطائه وأنه يكفيها أن تبقى في هذه الشقة الجميلة .. بعدها نزل سلامة إلى مكتبة أسفل البرج وظل يزاول عمله بين أوراقه ودفاتره وتليفوناته حتى بلغ الوقت الثانية ظهرا، وقال كالذي يحدث نفسه .. إن عوض لم يأت في

موعده ربما يكون متعثرا في تدبير المبلغ .. أيا كانت الظروف فهناك غيره من الصاغة يستطيع أن يشتري، ومر وقت آخر وهو ينشغل في أفكاره .. كيف يستثمر هذه الأموال .. هل يبنى أبراجه في الحي الفقير .. السوق التجاري لا يفيد هناك .. ممكن أن يقام هناك سوق للحرف والصناعات الصغيرة. أية سلعة تحتاجها المدينة .. أي نشاط يشتغل فيه أكبر عدد من الناس ويدر عائدا يغطي الأجور ويحقق أرباحا تعود مرة أخرى في حركة دوران لإقامة معامل ومصانع أخرى لتشغيل مجموعات جديدة من الناس، سوف أقفل المقاهي والحانات وأوفر لكل صنايعي وحرفي عملا .. لابد من إنتاج سلعة حقيقية يحتاجها هذا المجتمع الذي ظل حياته محروما من صناعات حقيقية .. الموضوع كبير .. لن أقيم أبراجا سكنية .. يجب أن أدخل إلى العمق وأقيم جذورا حقيقية .. مدينة للحرف للصناعات الصغيرة يكون مكانها الحي الفقير وفي الأحياء الغنية تكون المعارض والمحلات لبيع هذا المنتج .. الصحيح أن الفقير ينتج والغني يستهلك، للأسف كل الأشياء في مدينتي مقلوبة .. الفقير يستهلك .. فأين الجانب المنتج في هذه البلدة .. إن الأغنياء يتحكمون في قطاعات كبيرة من العاملين حتى أصبح قطاع كبير من العبيد قد أقاموه من إحتكاراتهم، فلماذا لا يكون في المقابل مجتمع منتج فيه هؤلاء الفقراء .. إن الفقراء وحدهم هم القادرون على تحقيق هذا التوازن ولن يكون إلا بتوفير العدد والادوات والمكان الذي يزاوئ فيه كل واحد منهم حرفته .. هؤلاء الناس يحتاجون إلى دعم مادي فقط .. كانت فكرتي الأولى حيث أقمت أبراجا سكنية للفقراء فكرة خائبة .. إن هذه فكرة صائبة لأن هؤلاء الفقراء يستطيعون بأعمالهم أن يكونوا قوة تستطيع بعد ذلك أن تبني لنفسها بيوتا .. كل واحد يقيم مأواه .. وليس كل واحد يقيم حرفته أو مهنته في الشارع .. عيب على الرجال أن يتركوا ذويهم

وأهلهم الفقراء هكذا .. لقد أصبح كل الناس باعة جائلين وجميعهم صاحب حرفة فماذا كان مصيرهم .. البلدية تجري وتطارد مجتمعا ضخما من الباعة الجائلين وأصبحنا مثلة يتفرج علينا الأجانب ويقولون أننا أقمنا مجتمعا جديدا للعبيد .. كان في الزمن القديم العبيد داخل البيوت والقصور .. لكن عبيد هذا الزمن في كل مكان .. عند كل ناصية وشارع وميدان .. الرصيف هو ملتقى كل العبيد .. لماذا تقيمون مجتمعا غريبا للعبيد وفي أيديكم وليس في يد غيركم أن تقيموا مجتمعا عزيزا .. يجب الإستعانة بالمتخصصين .. لن أذهب إلى مهندسي المكاتب الإستشارية .. الموضوع كبير يجب معالجته من تحت .. من تحت .. أجلس مع كل صاحب حرفة ومهنة مع الباعة مع المتسولين .. مع كل المطرودين من أعمالهم مع الشخاذين .. وفيهم ومعهم أقيم مجتمع الحديد .. ومن الحديد كل شيء وكفى حياة من صفيح .. أيمن أن أقيم شيئا حقيقيا أم أنا رجل خيالي من أهل الشعارات؟ وفقر فاه وراح ينفذ بناظره من بين شيش النافذة الموارد ..

... كان عشرات من الناس يتجمعون حول لص سرق رغيفا من بائعة الخبز، وكانوا جميعا يكيلون له الضرب المبرح ولم يكن يبالي بضرباتهم .. كان حريصا أن يمسك الرغيف بقبضته حتى لا ينزعه أحد منه وفي لحظات تكور مثل الكرة وإنفلت من بين أقدامهم والدماء تسيل من جبهته .. كان يمسحها بأصابع يديه مرة وأخرى بردن جلابه .. وكانت لقيمات يلطخها الدم تقضمها أسنانه لما إختبأ في عربة خربة عند محطة السكة الحديد القديمة .. وكان الصبي يقول وهو يلتهم رغيفه .. الحمد لله رزقني .. الحمد لله .. هع عليكم ..

.. ورن جرس الهاتف فقطع عليه أفكاره وشطحاته وكان المتحدث عوض القحطاني الذي أخبره أنه في الطريق إليه وأن الذي أخره عن موعد

موظفي خزينة البنك حيث أنفقوا وقتاً طويلاً في عد النقدية، واطمأن على سطانة في الهاتف غير أنه شعر بأنها مرتبكة من عيون تتربص بها وكلام يصل لأسماعها من عاملين في مطعم الملهى والكافيتريا استطاعت أن تجندهم حتى تكون على علم بما يجري حواليتها، وأيقن أنه يجب أن يقوم بأعمال لضمان ولاء الناس لها .. وأنه في حالة موت العجوز في أي وقت تكون هي مسيطرة تماماً على الأمور ..

... وأخبرته أنها توليه أن يقوم بأي أعمال تحقق ذلك ووعدتها بأنه سيجري تغييرات كاملة في إدارة الملهى عندما يحين المساء وعليها أن تمهله ساعات قليلة لتدبير ذلك، ودخل على نجلاء في المطبخ ليخبرها بأحوال سطانة وما ينوي القيام به.. وفوجئ بها تقول وهي منهمكة في غسل الصحون :

-لم يعد يهمني ذلك كثيراً .. إنني أفكر في أشياء أخرى لقد تغيرت حياتي ..

-فيما تفكرين إذا ..

-أن نذهب معا إلى بيتي لإحضار بعض الحاجيات وترى على الطبيعة مساحة الأرض وموقعها وما يمكن عمله بخصوصها ..

-كما أنا سعيد يا نجلاء أن أسمع منك هذا الإقتراح الهائل ..

-لقد إهتديت إلى كثير من الأفكار في رأسي لن أخبرك بها الآن ..

... فقال وابتسامة عريضة تكسو وجهه :

-لقد أصبحت المغنية مفكرة من ليلة واحدة ..

.. وضحكت بصوت عال ثم قالت :

-إنك يا زوجي العزيز جعلتني أفكر في أمور كثيرة .. على سبيل المثال ..

... إنني أقدم لك أرضي هدية لمشروع جديد يخدم هؤلاء الناس ..

- إن رجلا يملك كل هذا الذهب لا يقبل إلا أن يشتري أرضك .. إنها

فرصة لاستعادة مكانتك الطبيعية في هذه المدينة ..

... وسرى داخلها شعور بالزهو من مروءة الرجل، ودق جرس الباب

وهللت مطيعة كعادتها بالضيوف وأدخلتهم بالصالة الداخلية للشقة وهم

يجرون بسواعدهم ثلاث حقائب ممتلئة بالنقود حتى جلسا على مقعدين

متجاورين، ودخل سلامة عليها يحمل في يده اليسرى حقيبة الكرات

الذهبية وصافح بيده الأخرى الرجلين ورحب بهما وقال :

-هل تجهز الغداء ..

... وقال الشيخ عوض هو يشير بيده إلى الحقائب

-لا نتناول غداً الآن .. كله تمام يا ملك .. مليونان ومائتان وسبعة

وثمانون ألفاً وخمسمائة درهم

-إنقص منها الفكة التي إتفقنا عليها ..

... وأشار الشيخ عوض إلى ماهندرلال لكي يفعل .. وقام الهندي وسحب

الحقائب أمام الملك وفتحها وأمسك بأكو منها وقال :

-ألباكو يا سيدي خمسة آلاف درهم .. هل تعد الآن ؟

-وقال الملك وهو يتفحص إحداها ويتأكد من ختم البنك بالورقة

الملفوفة على كل باكو :

-في ساعة واحدة يا ماهندرلال عد أنت .. وأمسك بالحاسبة وقسم

المبلغ على خمسة وقال ثانية :

-أفرغ حقيبة بعد أخرى .. أريد أن أرى أمامي ربعمائة وسبعة

وخمسين باكو فئة الواحد منها خمسة آلاف ثم خمسمائة درهم ..

... وفي خفة قام الهندي يرص النقدي .. كل مائة باكو في ناحية ..
وقدمت الخادمة الفاكة والشاي وأخذ الرجلان يتناولان حديثا من هنا
وهناك، وأبدي الشيخ عوض إستعداده لأن يشتري أي كميات أخرى حتى
ولو كانت جبلا من الذهب .. ونوه له سلامة بأنه توجد كميات أخرى
ولكن ليس الآن، وإتفقا على سرية الصفقات التي بينهما، وإنصرف
الرجلان يحملان حقيبته الكرات الذهبية والفكة للشيخ عوض وحمل
الهندي إكراميته بعد أن قبلها وقبل يد الملك ويد سيده صاحب المصنع ..
... ووجد نفسه مع الثروة .. إنه ليس وحيدا كما كان يشعر من قبل، لقد
أنعم الله عليه بالزوجة والمال والأرض فماذا يريد بعد ذلك .. لقد أحسن
صنيعا حتى الآن ويجب عليه أن يتم أعماله، وراح إلى نجلاء في مطبخها
ثانية ليبلغها بانتهاء العلمية، فوجدتها مازالت تطهو وتجهز ولم تنتهي بعد
من أعمالها فقال بصوت مبهتج من فرط سعادته :

-سأنزل إلى المكتب بعض الوقت ..

... فقالت وهي منهمكة في تحمير طبق من اللحم ..

-نصف ساعة سيكون كل شيء فوق المائدة ..

-ليس أكثر من ذلك سأكون هنا ..

... وانصرف إلى حيث تعود أن يزاوّل عمله الذي يقضي معظمه في

التحدث في الهاتف وطلب سلطنة على عجل قائلا :

-الآن أنا بصدد الإجراءات الخاصة بحمايتك .. إسمعيني جيدا ..

-أخبرني موظف الخزينة بإبلاغ كافة العاملين في الملهى بأنه سوف يتم

صرف شهر مرتب مكافأة لجميع العاملين .. وهذه مكافأة من يد

السيدة سلطنة من أجل أن يدعوا العاملون بالشفاء لسيد الملهى، وأن

هذه المكافأة سوف يستمر صرفها كل ثلاثة شهور ما دام كل عامل

يقوم بعمله بإخلاص ويسمع أوامر سيدة الملهى الأولى سلطانة ..
وبنفس النص يقوم موظف الخزينة بكتابة هذا القرار بالخط العريض
ويتم تعليقه في كل مكان بالدار وهذه هي الخطوة الأولى لضمان
الولاء .. وسكـ قليلا ثم أردف يقول .. أما الخطوة الثانية فهي
لضمان الأمان .. كم بودي جارد عندك ..

- ستة غير الغفر ..

- سيبك من الغفر دول طرابيش الثلاثة بقرش ..

- الخطر في البودي جارد .. عددهم ستة ..

- أقصد هؤلاء .. تغيير المؤثرين في الأمن ضروري وفوري ..

- وبيوتهم ..

- مش هانفصلهم ..

- هاخذ القادة أشغلهم عندي في البناء

- وبنفس المرتبات ..

- أعلى من مرتباتهم لأنهم سيقومون بعمل حقيقي ..

- أفكار خطيرة .. وهل سنترك الملهى بلا قوة تحميه ..

- سوف أعين لك رجالا خيرا منهم .. ناس تابعين لنا ..

- هل يتم إرسالهم إلى عملهم الجديد اليوم

- أخبرهم الآن بأنهم سيعملون عندي من الغد في أعمال أفضل

وبمرتبات مجزية ..

- والبديل متى سيأتيني ..

- قبل مغرب الغد .. كيف حال مريضكم ؟

- أحيانا يفيق لكنه سرعان ما يعود إلى غيبوبته ..

-يا مسهل .. باي ..

... وراح يفكر في أي شيء آخر يؤديه نحو العجربة، وأيقن أن هذا يكفي الآن، لقد مضى أكثر من نصف ساعة وعليه أن يطلع لتناول غداءه، وتمهلت نجلاء كثيرا في إعداد مأكولات لم يتناولها من قبل ووضعت الأطباق بشكل منسق وجميل، ولما جلس بجوارها كان يلتهم طعاما لذيذا وراحت تطعمه بيدها حتى شبع، ومر وقت حتى أقبل الليل فهبط على المدينة بريح شديدة البرودة، وأعدت نفسها للخروج إلى منزلها معه كما إتفقا، وبادرها سلامة وهي ترتدي ملابسها :

-الجو لافح والرياح تحمل ترابا يؤلم العين ..

... وقالت مصممة وهي تقترب منه وتمسك رأسه بكفيها :

-إن سقف المرسيدس يحمينا .. هذا لو كنا نذهب في عربة كارو ..
إنني أريد حاجيات ضرورية ولترى بيتي ومساحته حتى نبدأ البناء على الفور ..

-هل تعرفين كيف يغسل المطر المروج الخضراء ..

-لم أر ذلك أبدا ولكنني أتأمل سقوط المطر ..

-هل تعرفين كيف تكون صلة الناس بالله ..

-بالحب ..

-حب البشر ..

-مثل حبنا نحن ..

-وهل في ذلك الحب الأرضي الذي نعيشه غير الكلام عن الله .. كلام

بلا أفعال ..

-علمني كيف يكون الحب ؟

-- كل الناس تحب مثل حبنا .. وأشار إلى الشرفة حيث الطرق السحيقة المؤدية إلى الأحياء الفقيرة .. ثم تابع يقول .. إنهم هناك والفقير فوق رؤوسهم وحاجاتهم إلى العمل الشريف أنزلتهم إلى الشوارع ليكونوا باعة جائلين يحبون مثلنا .. ومنهم من يستطيع أن يقيم أكثر وأفضل من الحب الذي تتكلمين عنه .. إنني أعني من خلاصة هذه الثثرة أن كل الناس يحبون ويعشقون بعضهم بعضا ولكن ليس كل هؤلاء قادرين على أن يقيموا علاقة حقيقية مع الله ..

-إنني لا أفهم شيئا .. قل لي ماذا أفعل ؟

-إننا أغنياء دون كل الناس في هذه المدينة .. وهذا الذهب من فوقنا وتحتنا ونتردى .. فكيف نلوم تيه الفقراء .. إن حبنا أوله مقدمات وآخره نزاعات وهؤلاء لا يتكلمون حين يقبلون على الحب لا مقدمات ولا مؤخرات .. إن الشيء الوحيد الذي يملكونه هو الحب ولذلك فهم يتناولونه فوق سطح خرب وعشش من صفيح ومضاجع قلقة وأسيرة تغطيها شراريف متهرئة، وفي عربات المترو المزدحمة والأنفاق المظلمة، وفي زراعات القمح والذرة وحظائر البهائم .. لأنه يشبع جوعهم الذي طال .. وإن كل الأنظمة السياسية والإقتصادية في هذا العالم الصغير لم تقدم حلا للفقراء بل زادتهم فقرا .. إنك تراهم يقبعون في أحيائهم الفقيرة ولا يخرجون منها كل صباح ويعودون إليها كل مساء إلا من أجل بلغة خبز لأطفالهم ولولا نساء جميلات منهن أو حتى قبيحات خرجن في الليل والنهار بائعات للهوى لما أوقدت نار في بيوتهن تطهو قطعة لحم .. لما أكل أزواجهن التي احتضنتهم البطالة سنين وأقعدتهم من أعمالهم الشريفة، فلما فشل الرجال في الحصول على أعمال خرجت النساء بأعمالهن للحصول

على طعام يشترونه بأجسادهن .. ألمرق وقطعة دجاج ورغيف خبز
نظيف وكوب شاي ولبن من أجل طفل رضيع ودواء لمريض في كل
حي فقير تتولد جميعها من نساء يتاجرن في أجسادهن والأغنياء لا
يقدمون حتى الأعمال المشروعة في مصانعهم للرجال، إنهم يقولون
لهم هاتوا نساءكم ويخجل الرجال وتنحني الرؤوس وتنثني الأكتاف
وتتقدم نساء تلك الأحياء حتى لا يطول الإستحياء فيتداري الرجال
خلف الجدران .. وتخرج كل بنات الهوى يدافعن عن أقدارهن بأجساد
تصرخ .. خد وهات إذا كان ذلك حلا يا أغنياء نعانق تلك الحياة من
أجل البقاء ..

... فاندeshت نجلاء لكل الذي قاله وقالت :

-وما علاقة الحب بكل هذا .. إنك تصف مدينة بأكملها وما ذنبي أنا ؟
ألم نتفق ألا نعود إلى الجدل ..

-سردت لك هذه الحكايات لتدركي أحداث مدينتي والتي منها تتولد كل
الأحداث ولن يستطيع الحب أن يكون بمنأى عن هذه الأحوال ..

-هل تريد أن تقول أن الحب الذي يخرج من تلك البلدة هو علاقات
جسدية فقط تباع وتشترى ..

-وعلى ذلك فهو ليس بحب على الإطلاق ..

-وما هو الحب الذي بيننا نحن ؟

-لن يكون حبا بالكلام عنه .. والحب الحقيقي هو أن نعمل من أجله ..

-نرجع للبداية والخلاصة التي توصلنا إليها وهي أن نعمل من أجل
الفقراء حتى يجدوا عملا شريفا

-إن الأغنياء لم يقدموا شيئا من أجل الفقراء .. لكن الفقراء يعطونهم
كل الأشياء ..

-يا عزيزي كفى .. ولماذا لا نقدم نحن شيئاً .. دعنا نذهب الآن إلى

بيتي ..

-من أجل حاجياتك

-لنهدم بيتي القديم ..

.....

... إنطوت سلطنة على نفسها أياما ولم تكن تقوم بأي عمل إلا واجبات التمريض مع الممرضة لمريضها العجوز، وكان الشاعر سامح يأتي إليها بحجة السؤال عن صاحب الدار ويقضي معها ساعات طوال في الحديث عن كل ما يدور في الملهي، حتى تفهمت من خلال أحاديثه المستفيضه ما يجري في المسرح والغرف والمغنيات والعمال والموظفين، وباتت كأنها ترى الناس جميعا من خلال الشاعر سامح، ومرت الأيام حتى جاءت ليلة من الليالي إنصرف الجميع فيها إلى بيوتهم وبدلا من أن يذهب سامح إلى بيته ذهب إلى سلطنة فوجدها تجلس بجوار مريضها والدموع تسيل على خديها. ولم وجت الممرضة قد إنصرفت إلى غرفتها لتنام، ولم يكن لهما ثالث إقتراب منها وراح يمسح زفراتها المندلعة بأنامله وتفنن في رقبته معها: حرام أن تبكي .. خسارة عينيك الجميلة تتعب من الدموع .. أنت مكانك ننزلي المسرح كفاية عليك كده .. حرام تضيعي وقتك مع راجل إنتهى .. كفاية عليه الممرضة علشان خاطري .. هاكتب ليك أحلى كلام ومش هايقوله غيرك .. أحلى نغم هايقوله شفايفك .. وظل يرمي بكلامه حولها حتى أجهشت في نوبة شديدة من البكاء وانتحبت فالتقطها بين ذراعيه وأخذها إلى صدره وتلقفتها أحضانه العريضة الحارة، وسكنت إليه .. لقد رغبها فيه وها هي تستسلم له شيئا بعد شيء وتوقفت عن البكاء. وراح يداعب شعرها بأنامله الغليظة واندمج في ملاطفتها حتى

أصبحت مرتمية في حجره كطفلة رضيعة نامت في حجر أمها آمنة، وكان يريد أن يعرف شيئاً فقال لها وهو يضع كف يده على مؤخرتها في حرارة:

-لما لا تأتي معي اليوم .. لتري بيتي وتعرفي كيف أعيش ؟

-لا مانع عندي .. ولكن أنت تعرف أنني امرأة معلقة بين رجل طلقني

وهذا الرجل .. رجل شديد البأس ورجل يشرف على الموت .. لا

أستطيع أن آتي معك الآن .. دعني أراك هنا ..

-لن يراتنا أحد والمدينة نائمة .. حتى الفقراء الذين لا ينامون قد ناموا

هذه الساعة ..

-أنت تريدني ..

-نعم

-ماذا تريد مني ؟

-كل شيء ..

-كيف وأنا لست زوجة لك ..

-هذا الرجل سيموت وأتزوجك ..

-لا أريد الزواج من أحد وما يهمني أن تكون صادقاً في رغبتك، إنني

لا أستطيع أن أرجع لسلامة .. لأنه تزوج نجلاء وهو رجل صاحب،

بأس وأنا أريد حريتي .. لن أعود إليه أبداً لأنه يتغنى بالمبادئ وأنا

إمرأة فطرية عفوية بعيدة عن أي قوانين تحكم المدينة .. وفي هذا

الملهى وجدت حريتي أفعل أي شيء ولا تسألني لماذا فعلت وأين

وكيف وماذا .. إنني لا أعرف أن أكون إلا امرأة غجرية .. معك اليوم

وغدا مع آخر .. أنا حرة ..

-أنا رجل جائع إلى حبك .. رجل ماجن يهوى الإغتراب في عشق
غجرية مثلك .. حتى ولو كانت ليلة واحدة

-إن حريتي الآن ترغب فيك ولكن حذاري أن تذهب إلى أخرى مادمت
أريدك ..

-لك ما تشائين وأنا شاعر أعشق الحرية لنفسى وللآخرين
-لن تخدعني وتأتيني في الوقت الذي أريده .. إن الحرية تاجي فوق
هذه التبة العالية ..

-كما تريدن أنا عبدك ..

-لا يجب أن يكون الرجل عبدا ..

-أنا عاشق لك ..

-إذا لماذا تصر على أن أذهب معك ؟ .. وأشارت إلى فراش بالأرض
خلف الستارة :

-هنا في هذا الركن .. وتابعت قائلة وهي تمسك بكفيها كنفه :

-هل تستطيع أن تحملني ؟

... وحملها إلى الأرض كما أشارت إليه خلف الستارة .. وكانت الجدران
وحدها دون أي شيء آخر تري العاشقين وهما يتجردان من أية ملابس..
... وبعدها ذهب إلى بيته لينام نهاره كما تعود .. لكنه لم ينام وأمسك
بقلمه ليكتب كلمات جديدة ستغنيها الغجرية هذا المساء على مسرح
الملهى الكبير.. وخبرها في الهاتف عن كلماته وقرأها لها عدة مرات
حتى كتبتها وراحت تقرأها إلى أن حل موعد العمل في الملهى .. وكما
أسدل الليل خيوطه إمتلأ المسرح بالزبائن وبدأت أنوار خافته تضيئ
وأنوار أخرى متلألئة فوق رأس المغنية .. وتنغمت مغنية شابة بأغنيات
قصيرة كلماتها عذبة رقيقة، ثم قامت راقصة شابة عارية ترقص رقصا

صاخبا، فعلت الصيحات وجأر الشباب .. بعدها هدا الملهى قليلا وانتظروا جميعا المغنية الكبيرة وأخذوا يتلفتون إلى الباب الذي تطلع منه ويتلهفون شوقا لأول ليلة تأتيتهم تلك المرأة الضليعة في هذا الفن .. وقدمها رجل قانلا زاعقا بأعلا صوته .. إليكم مغنية الناحية ومطربة الشمال الكبيرة والتي لا يوجد مثيل لها حتى في أكبر ملاهى العاصمة .. إليكم سلطنة .. وطلعت إليهم من الباب الصغير يتقدمها شاعرها سامح .. ووقفوا جميعا وصفقوا تصفيقا عاليا وطويلا .. وأخذت تلوح لهم وتثني بجسدها الطري يمنة ويسرة ثم تنحني إلى الأمام فينسكب شعرها الأسود الفاحم الطويل فوق صدرها ثم تقف وتعدل قليلا لتجفف وجنتها من حبات عرق تشبعت عطرا .. أشعلت في الزبائن شوقا لا ينطفئ فهم لا يقعدون ولا ينتهون من تصفيقهم حتى رجاهم الشاعر مرارا، وأشعل تشجيع الناس لها شيئا مثل الحمي بلا حدود في داخلها وقالت لنفسها كل هؤلاء .. رغباتهم لا يخدمها إلا اللهب .. كيف نجعل هؤلاء الناس نبيع ماء يرويه من ظمأ نفوسهم المتردية .. لن يكفيهم نهر دجلة والفرات، أنا التي تطفئ اللهب .. سأخمد نارهم جميعا .. رغم أن الأحياء الفقيرة ملأى ببنات الهوى .. وراحت تغني وتتمايل وتدق الأرض بقدميها، وكانوا جميعا يهتزون معها ويحدقون في كل موضع في جسدها العاري ..

... والتصق الليل البارد بالدفع .. وإختلط الريح الشديد النافذ من زجاج المصاريع بدخان كثيف وفرقعات أغطية القناني وارتشاف الشفاه للشباب بشراهة عند أصحاب الحرف .. من يطلب امرأة تقعد بجواره تفتح زجاجة تضع سكرًا في كوب .. تلاطفه .. تسامرته تعاتبه تتمم بكلمات حلوة بهمسات عذبة .. كل الأنفاس تتهدج تشهق ودموع أخرى تنسكب على الوجنات، وغاية من سيقان تتعري تنبسط كأغصان البان البضة ..

تتعانق الأحاديث والشهيق وآهات لرغبات مجنونة جامحة لا حياء لها،
وصدور لا تخجل تبرز نهودها كالبرقة من حرير ..
... وسطع صوت المغناة فسكتوا جميعا يستمعون :
.. ليست الليلة آخر الليالي
.. هل تصنعون حياة جديدة ..
.. أبعد شقائقكم بالنهار تقيمون إنسانية في الليل ..
.. إن أمنياتكم لن تطيل عمر أحد
.. لكنها تدق أجراس الرغبات
.. أحيوان جامح يسكن تلك الأجساد
.. إنكم لم تقيموا صلاة ..
.. لو فعلتم لكانت حياتكم كصفاء ..
.. إنكم لن تستطيعون مثلي ..
- هل نستطيع أن نجعل يومنا يومين وليلنا نصف ليل ..
.. إننا نريد ليلا يطول ونهارا لا يطلع ..
.. إننا نحب اللهو والرقص والغناء ..
.. لا أحد يمنعنا من الثرثرة ..
.. هل يأتي يوم يكون حديثنا قليلا وأعمالنا تقيم بيت ..
.. هل نستطيع أن نمد في طرق المدينة شرايين من دم جديد ..
.. وأسفلتنا من حديد لا يفل من العجلات أو الأقدام ..
.. لا ينحدر إلى تحت كالطريق إلى الحي الفقير
.. هل نستطيع أن نضع تحت بشرتنا عروقا تنبض بالقوة لا بالحلم
.. أيمن أن يكون في رؤوسنا إلتحام ..
.. ليتوقف صراع الأمواج وليسكت الصراخ

.. ليس صراخ الأطفال .. إنهم فقط يستغيثون

.. لن يسكت صراخ الكبار ولن ينتهي ..

-إننا ننسلخ من نهارنا وننام ..

-قالت لي أُمي في يوم ..

-كيف تشرق الشمس والناس نيام ..

.. إن ذلك يجفف الحليب في ضروع البقر ..

.. إن الله لا يصافح النيام بالأرزاق ..

.. نقوم من نومنا عندما يكسوا الظلام المدينة ..

.. ونبحث عن الأرزاق في أجسادنا ..

... واخذت تعيد وتكرر حتى شبع الجمهور .. وكانت أول ليلة بديعة ..

أحلى من أي ليلة سبقتها، وتوالت بعدها ليال أبدع منها، وسلطانة تتغنى

بكلمات شاعرها العاشق ولو كان هناك زبون واحد يفكر فيما تغنت به

وأنها تنتقدهم وتزدرى أعمالهم لما جاء إلى ملهاها ليلة أخرى .. لكنها

بهذه الكلمات جلبت المئات الجديدة من الناس وكان عليها أن تقيم

توسعات أخرى لتحتوي كل هذا البشر ..

... ومرت أيام أخرى والمهوى يزدهر ويتسع لمزيد من الزبائن وسلطانة

تبدع بكلمات جديدة كل يوم يكتبها شاعرها العاشق الذي تفتحت له

خواطر القلم، وكتب في الحب والجمال والجسد خواطر لرغبات مكبوتة

مدفونة من زمن .. لقد كان جسدها قمرا وهو كل ليلة يشعل القمر وينام

معها في حضن النجوم ويزداد لهيبه إليها عندما ينزل المطر، كانت امرأة

فوق رموشها تسكن كلمات النغم وكلمات عيناها يصحو لها الجسد

وتتكسر الرياح وتهدأ الضوضاء ويذهب الضجر، وكانت لرحلة مع امرأة

عجربة لا تنتهي إلا بالسفر أو الرحيل، نيس إلى مدينة أو قرية ولكن

الإنتقال إلى امرأة أخرى عندما تتعري كأنه يرى القمر، وكان الملهى يزدهر بكل أصناف النساء، وسامح هو الوحيد بين الرجال الذي يستطيع أن ينام في أحضان الرغبات بكلماته الحلوة وبركان جسده الهادر .. وانخرطت سلطنة بأعمالها في الملهى وأزالت غرfa قديمة وشيدتها بالمسلح لتوسع ساحة المسرح، وزعت المكافآت ووعدت بالكثير، وجاءها حرس جدد ينفذون أوامرها ويلهثون خلفها في كل مكان تذهب إليه، كانت كلماتها لهم يسمعونها وهم ينحنون ويطيعونها، ملكت كل ما في الملهى من عمال وموظفين وحرس وخفر وجدران ومقاعد ومسرح وبلغت منتهى السعادة بزواج نجلاء من سلامة سعت بهذا الزواج حتى يلتهي هذا الرجل مع نجلاء ويتركها حرة تفعل ما تريد، وأدركت بعد مشاورها مع سامح أن الملهى في حاجة إلى راقصات ومغنيات وفتيات زبائن وإستجلبت مغنية مشهورة من أحد الملاهي وراقصة محترفة ترقص رقصا شرقيا، وعشر فتيات للفتح وأخريات بنات هوى يذهبن في آخر الليل مع الزبائن أو رجال يأتون من المدينة لهذا الغرض.

... وفي الجانب الآخر إستطاع سلامة أن يجند أحد الحرس الذي عينهم ليخبره كل يوم بما يحدث في الملهى وما يجري حول سلطنة خاصة أحداثها مع الشاعر، وبإيعاز من سلامة تقرب هذا الحارس من أمين الخزينة بهدف معرفة الإيراد اليومي والمصاريف الثابتة والمتغيرة حتى إستطاع أن يصل إلى الربح الصافي الشهري في المتوسط، وكان لذلك معنى يعتمل في نفسه وهو هل تستحق هذه الغجرية المساعدة ويعطيها نصيبا من الذهب ؟ أم أن دخلها من هذا النشاط يكفي لأن تقوم في أي وقت بإقامة ملهى جديد ؟ وأن فقراء البلد أولى ويكون في ذلك لم يظلم أحدا، وكان دائما يقول لنفسه "صحيح أنني حصلت على هذا الكنز بالحيلة

وبالقوة وكان معي إمرأتان كل لها دورها" ولكن هذا الذهب ليس ملكا لأي منهما، ولكنه ملك رجل ليس له وريث وأن جزءا منه سرقه من القصور والجزء الآخر إكتسبه من الفقراء والأغنياء في ملهاه .. إنه في كل الأحوال أموال تعود لأصحابها الحقيقيين ولا بد من القيام بكل أعمال الخير لكل محتاج ..

.....

ومرت أيام كثيرة فيها كان البودي جارد الذين كانوا يعملون في الملهى يقومون بالإشراف الكامل على بناء قطعة الأرض التي تملكها نجلاء، وبعد أن إشتراكوا جميعا في هدم بيتها القديم، وكان سلامة حريصا على تشغيل أكبر عدد ممكن من الناس الذين لا عمل لهم، ففي كل صباح عمل لكل فقير وبائس من رجال ونساء .. واقترحوا جميعا عليه أن يطلق على هذا المشروع الكبير (مجمع سلامة للتدريب المهني والصناعة) غير أنه كان يدور في رأسه إسم آخر وهو "مجمع سلامة للعلاج والتأهيل الحرفي" إلا أنه أرجأ موضوع الإسم حتى ينتهي من أعمال البناء وتوفير الآلات والعدد والأدوات اللازمة لتشغيل المجمع".

... ومرت أيام أخرى وشهور فيها إستخرج الكنز الذي وهبته له السيد حميدة فودة سيدة هذه المدينة في الزمن الماضي، إستخرج منه ذهباً خالصا إستطاع بيعه على دفعات وأنفق قيمته على إستكمال مشروعه وتبقى لديه مبلغ كبير من السيولة، وكان مبلغ سعادته أن آلفا من الناس قد شاركوا وعملوا بعرقهم في تلك البنايات حتى الأطفال والنساء توفرت

لهم أعمال، وإستطاع كثير من هؤلاء الناس تشييد بيوتهم لكثير من الشباب تزوج وكثيرات من الفتيات والنساء لم يذهبن إلى أعمال الليل لأنهن وجدن أعمالا شريفة في متناولهن.

... كان يجوب المدينة هنا وهناك ودهشته كبيرة لما رأى الناس يشيدون بيوتهم والشباب يتزوجون، وكلما وجد ضالا أو لصا صغيرا أخذه إلى داره وكان مئات من الناس يساعدونه في تنظيف المدينة من كل متسكع ويذهبون به إلى المجمع، وأدرك أنه ليس في حاجة لأن يقيم أبراجا يسكن فيها الفقراء، ولكن عليه فقط أن يوفر الأعمال المناسبة وأن تكون هناك أعمال متوفرة للكافة .. إن الناس جميعا قادرون على إقامة بيوتهم من أعمالهم

... وكما إشتغل آلاف من الناس في أعمال البناء والتشييد، إشتغل مثلهم بشكل دائم داخل المجمع في مختلف الحرف، وكان هناك مئات من البؤساء يعالجون من أمراضهم وآلاف أخرى تتدرب على المهن، وبدأ شكل الاحياء الفقيرة يتغير .. البيوت القديمة تهدم ويحل محلها بيوت جديدة، وأقيمت مشاريع للصرف الصحي والمياه النظيفة، وتم سفلتة الشوارع وأقيمت الحدائق، ولم يعد هناك شباب يقفون عند ناصية أو رجال يقعدون في النهار على المقاهي أو يرجع رجل إلى بيته خائبا بدون عمل، وتم إصلاح مئات من البيوت التي كان يقف أهلها على الطرق لأن رجل البيت غير قادر على الإنفاق وخرست كثير من الزوجات عن توبيخ أزواجهن ومعايرتهن بالبطالة، وخلت الشوارع من الفتيات المتسكعات إلا قليلا، وتركت كثير من النساء أعمال الملاهي والحانات إلى أعمال أخرى منتجة..

-وبدأ كثير من الناس يتحركون من تلقاء ذاتهم لأعمال الخير وكان سلامة قد أشعل شيئا جعلهم جميعا يتحفزون للوصول إلى نتائج تضيف إلى حياتهم شيئا، وقل الجدل والعراك وقصص السرقة والتسول والنصب وانكشئت أعمال القوادين، وإنخرط الغالبية من الناس في أعمال المصانع والمعامل والورش وأصبح الباعة الجائلون يتعاملون مع سلعا محلية لجودتها ورخص سعرها وبدأت منافذ التهريب تقفل أبوابها "وحدث أن أصحاب المصانع الكبيرة الذين كانوا يستغلون العمالة في الوقت والأجر بدأوا في التمسك بالموجود من تلك العمالة، وزادت الأجور وقلت ساعات العمل ومنحت الأجازات وأجريت تأمينات إجتماعية وصحية لم يسمع العاملون بها من قبل، ورغم ذلك فلقد هرب كثير من العاملين إلى أعمال أفضل في مجمع سلامة، وما إنشق من هذا المجمع من أعمال وحرف، كان مجتمعا تحتكره يد واحدة مستغلة وهي الغنية المالكة والمتسلطة وطبقة عريضة حافية تعاني من فقر مدقع تزداد كل يوم فقرا بعده فقر .. ولا يخرج من دائرة الفقر هذه إلا أن تذهب النساء إلى الملاهي والشوارع ليعرضن أجسادهن، ودوائر أخرى يتسول فيها أناس من مختلف الأعمال، وأخرى للنصب والإحتيال" لم تكن هناك طبقة وسطى تحدث أي توازن، كانت البلدة في حاجة إلى قوم آخرين يملكون بعض المال ولهم مبادئ .. وإلى أعمال قد سقطت من مجتمع وسرقه الجميع، أعمال الصناعة الصغيرة التي تستغل كل موارد المجتمع وإمكانات طبقة الشعب العريضة من حرفيين وصناع وأصحاب حرف، وتقدم لسلامة عدد كبير من الناس يطلبون منه قروضا حسنة لإقامة مشاريع صغيرة فقام بتمويلها وتشجيعهم بعد أن درس معهم تلك

الأعمال، وكان الجميع يعمل على أن تنتشر تلك الأعمال في الأحياء
المعدمة حتى تعمر ويخرج في كل أرجاء البلدة أعمال تلتقط كافة
الناس العاطلين ليدبحوا منتجين ..

... ووسط كل هذه الأعمال العظيمة وبعد أن كانت البطالة تنتشر ظلاما
بين الناس وتعم الأعمال المنحطة .. في خلال هذا الجو الهائل الذي تولد
ويزداد نموا صباح كل يوم "صحي رزونة من مرضه بعض الوقت وطلب
من سلطانة أن تأتيه سلامة بأقصى سرعة، ولما أبلغت صاحبها جاءها
متلفها ترى ماذا يريد منه العجوز في وقت يشرف فيه على الموت ..

... وإنكفا عليه سلامة يقبله في وجه وأخذ ذراعه بين يديه وحاول
المريض أن يعدل فساعدته سلطانة وطوت المخدة تحت رأسه وشدت
كتفية قليلا حتى أصبح كأنه يضطجع، وتشنج وجهه قليلا وتدلّت رأسه
الواهنة على صدره وأمسك بذراع سلامة وهو يرتجف .. وكان ينبعث
من عينيه بريق كضوء لمبة صفيح فتيلها حريقا يخمد، وقال بصوت
خفيض كأنه الهمس وسلامة يضع رأسه عند فمه وسلطانة تنكفي
بصدرها فوق رأس سلامة حتى تسمع :

-من أجل ألا يرثني سفيه إستدعيك .. إن لدي مالا كثيرا من ذهب
وهذا الملهى، أرجوك إستدع محام حتى يقوم بإجراءات الوصية .. إنني
سأموت اليوم أو غدا .. إلحقتي بالمحامي ..

... وجرى سلامة إلى الهاتف ليستدعي أشهر محامي في المدينة وهو
أحمد حداد وشهرته أبو شيماء من أكبر المحامين علما حيث أنه حصل
على ماجستير في القانون العام الماضي - ليس ذلك فقط فإن سلامة لا
يعرف غيره" وعاد إلى مريضه ليبلغه :

-المحامي قادم " ما هي الوصية يا سيدي ..

-خذ الذهب "هناك في السرداب" سلطنة تعرف مكانه" خذه الآن ليس في حاجة إلى وصية "أما الوصية فهي لهذه الدار وإجراءاتها لسلطنة إنها لسلطنة المرأة التي جعلتني أحيًا قبل الموت وهي ابنة صديقي القديم أضف إلى ذلك فهي مغنية وممكن أن تكون راقصة هي خير من يملك هذه الدار، سوف تجد لي قليلا من الرجال هنا لهم صلات قرابة بعيدة.. إعط كل واحد منهم خمسين ألف درهم من إيراد الذهب وراح في غيبوبة بعض الوقت .. كان فيه سلامة وسلطنة يضربان كفا بالأخرى لما يحدث، واتحنت فوقه الممرضة ووخذته حقنة في ذراعه حتى يستيقظ ليكون قادرا على الكلام مع المحامي كما طلبت منها سلطنة .. ووصل المحامي وإستمع إلى الرجل وأخذ يكتب في ورقة الأرض وما عليها من مبان والأراضي المحيطة بالملهي وحدودها والتي إشتراها بعقد ابتدائي وجمعت سلطنة كل الأوراق القديمة المتعلقة بالمبنى والأرض من صندوق رزونة وناولتها للمحامي الذي قرأها ثم وضعها في حقيبته ..

... وكان لابد من إحضار أحد موظفي الشهر العقاري ليأخذ توقيع العجوز على توكيل المحامي وتوقيعات أخرى ضمها المحامي بالأوراق اللازمة لعمل الوصية، وذهب المحامي بعد أن عرف تماما ما يريد العجوز منه ونقده سلامة مقدم أتعابه، بعد ذلك مرت ثلاثة أيام فيها إنتهى المحامي من أعماله .. وأخذت سلطنة الأوراق الجديد لتحفظها هذه المرة في دولاب ملابسها ...

-ومرت أيام أخرى فيها إطمأنت سلطنة سلطان على مستقبلها وتفانت في خدمة رزونة حتى جاء يوم آخر فيه إستدعت سلطنة سلامة مرة أخرى حسب طلب العجوز، ولما جاءه قال له :

- هل أخذت الذهب ؟

- نعم

- هذه الثروة من أجل الفقراء ونجلاء ..

- أفهم من أجل الفقراء "ولكن لماذا نجلاء ؟

- لأن الكرات الذهبية "كم واحدة"

- خمس عشرة

- هذه الكرات سرقته من قصر أبو نجلاء ...

- يانهار إسود "متى وكيف ؟

- أقل الكلمات يا سيدي "إنني لا أستطيع أن أسهب في حديثي متى

وكيف ولماذا" إنني "وسكت"

... وراحت تضربه بأناملها على صدغه كأنها تلاطف طفلا حتى يفيق

ويكمل "ولما أفاق قال :

- إعط سلطانة حريتها إذا كانت حريتها في طلاقها .. كن لها عوناً ..

ضع نجلاء في عيونك أقم لها أبراجاً إنه ذهبها أوصيك بالفقراء أقم

لهم أعمالاً تغنيهم "لو استطعت إقضي على إستغلال الرأسمالية

للإنسان في هذا البلد أنت تعرف أنني رجل إشتراكي وفي الحقيقة هذه

أموال الفقراء ..

- ولكن الإشتراكية لم تعد صالحة الآن ... هناك قيم أخرى صالحة ..

- أعرف "العيب على الذين يطبقونها.

- يبدو أنها نظرية وتطبيق لا تصلح إنها كالغفريت الأزرق الذي يهين

لك أن الخائنة ممكن أن تصبح ملاكاً .. كل هذه النظريات وهم ..

- يا بني أقم العدل بأي طريقة تراها العدل الذي يحمي الناس جميعاً من

الفقر العدل الذي يجعل الفقراء يأمنون على غدهم العدل بين الناس

حتى لا تنفذ قيمة هذا الذهب إلا وفي فم كل محتاج لقمة"

... وساد الصمت وأخذوا يتدبران ما قاله .. وفجأة أنته قوة وتمتم بكلمات مفترقة لا تعني شيئا كمن يذكر أحداثا ماضية، كأن تيبها أصابه وراح يحرك رأسه وارتعشت ذقنه وعيناه الواهنتان حائرة كأنه لا يرى شيئا ثم جال بهما في سقف الغرفة ورفع كفه لأعلا كمن يصافح أحدا وقطب حاجبيه بعدها ضاعت نظراته حواليه وانحنت سلطنة بوجهها فوق وجهه وقالت في شفقة :

-أريد. أن تقول شيئا ؟

... وتبرمت شفتاه تمتنع عن أي كلام وكست وجهه صفرة ثم إنطفأ بقية ضياء في عينيه "بعدها شفق مرة وتحشرج شئ في حنجرته وفتح فمه كأن زفرة تتبعث منه ونزلت رأسه على كتفه فصرخت سلطنة وارتامت على صدره تبكي ..

... وتم دفن فوزي رزونه في مدافن والده .. وتوالت الأيام بعدها وسلطنة تحاول السيطرة على أحزانها إنه الرجل الذي منحها الدار والعمل والإيراد والزبائن وأخذت تلك الأشجان بمرور الأيام تذهب ويحل محلها تحديثها وتطويرها للمبنى وللأسلوب الذي تجرى به أعمال الفن المختلفة، يساعدها في ذلك الشاعر والحرس وكافة العاملين كل بقدر طبيعة عمله، وأغرقت على كل مخلص الحوافز والمكافآت فتسابق الجميع لنيل تقديرها ..

... وكانت المفاجأة مذهلة لما أخبر زوجته نجلاء بحقيقة ملكية الكرات الذهبية .. متى سرقها وكيف ؟ ولماذا لم تخبرها أمها بهذه السرقة ؟ وهل ماتت تلك الأم وهي لا تدري شيئا بإختفاء هذه الثروة، أحاديث وعلامات إستفهام وحكايات عن تلك الكرات وكيف آلت إليها في النهاية وكأن العناية الإلهية حرسها حتى وصلت للرجل الذي تزوجها وهكذا

كانت كل الظروف حولها تتحرك لصالحها فشيدت أبراجها على أرضها من مال أبيها وزيادة، ومرت أيام أخرى أنعم الله عليها بالكثير، وكانت أيام حملها الأولى قاسية ولازمته طيبة بصفة دائمة حتى ثبت حملها وأصبحت قادرة على تحمل تبعاته، ومرت أيام أخرى وشهور حتى وضعت طفلا ذكر أسموه إسلام .. فزغردت كل امرأة في البلدة ورقص الشباب وتعالّت صيحات الرجال بالدعاء، وقام سلامة بتوزيع عشرات الآلاف من الدراهم في كل ناحية من المدينة وذبحت الذبائح تقربا إلى الله وتضرعا وشكرا..

... وكان سلامة قد فتح مكتبا في أبراج نجلاء أطلق عليه مكتب القضاء على البطالة ومنه قام بتشغيل آلاف العاطلين، إلى أن جاءت أيام تلتها أخرى لم يطرق باب مكتبه أحد، وراح يفكر في طرق أخرى تجعله يعثر على من يريد عملا .. لم لا ينزل إلى الشوارع والمقاهي مشيا على الأقدام أو سيرا بعربته بحثا عن هؤلاء، وأخذ يجوب المدينة وضواحيها يتلقف واحدا هنا وآخر هناك، .. كان يمشط طرقات البلدة كالمشط يبحث في شعر امرأة عن برغوث أو قمل ليحرقه فوق نار مشتعلة .. لكنه في كل الشوارع وعند كل ناصية رأي فتيات ونساءً كثيرات يقفن عند كل منحني ويتسكن في الطرقات .. وتساعل ألم تجذبهن الأعمال الشريفة؟ .. وتشاور مع زوجته في هذا الموضوع وتوصلا إلى أنه يتم تعيين امرأة متخصصة في علم الاجتماع لتقديم بحثا عن هؤلاء النسوة .. إلى أين يذهبن؟ ولماذا؟

... وبدلا من تعيين امرأة واحد تم تعيين عدد من المتخصصات في علم الاجتماع .. فمن يعمل مقابلات ميدانية لنساء الشوارع وقدمن أبحاثا

لنماذج عديدة منهن وساعدته زوجته نجلاء كثيرا في الرأي وتقديم العلاج ..

... وكان هناك نوعان من نساء الهوى . امرأة تختار هذا الطريق بمحض إرادتها .. وهذه هويتها حتى عادت حرفة لها .. وهذه العينة من كافة طبقات المجتمع .. الفقيرة والمتوسطة الحال والغنية .. وعينة أخرى من بنات الهوى ذهبن إلى هذا النوع من الأعمال لأنهن لم يجدن عملا شريفا وكن جميعا من الطبقة الفقيرة والمتوسطة ..

... ومضت الأيام والشهور فيها يبحث سلامة ومعه نجلاء عن إجابة السؤال ليس من السهولة الإجابة عليه

-أي فريق من هؤلاء النسوة يمكن مساعدته ؟

-وكيف يمكن توفير كل الأعمال الصالحة للصالحات منهن

... وكانت نجلاء دائما تفكر معه .. ولكنها أخيرا قالت له :

-ليس بالبساطة تحديد الإجابة على هذا السؤال، إنه مجتمع كبير لا نستطيع أن نسيطر عليه السيطرة الكاملة، علينا فقط توفير الأعمال الشريفة، وأن مهمتنا كأغنياء في هذه المدينة توظيف أموالنا من أجل تحقيق هدف إنساني .. إذا كنا حقا نريد المحافظة على أمتنا ..

.. وهز سلامة رأسه دلالة على رأيها الصائب، وراح كل يوم يفكر معها ويتدبر .. ما هو الطريق لتحقيق ذلك ..

انتهت بحمد الله وعونه ،

روائي / خيرى حداد أبو عافية

رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٢/٧٦٢٥

I.S.B.N: الترقيم الدولي

977-17-0458-3

مطبعة العشري ت: ٢٩٨٢٠٢٩

